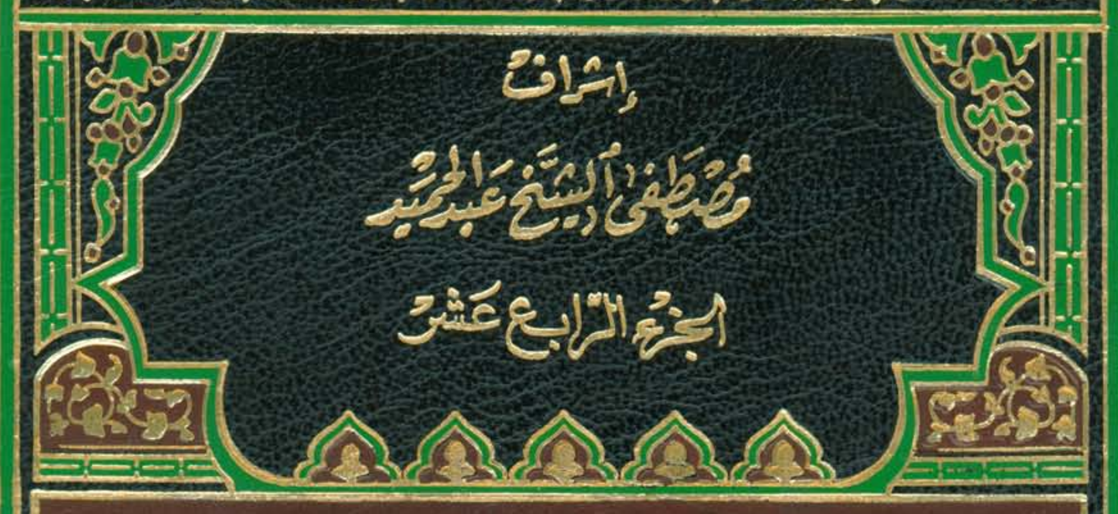
محاضرات الوائلي



إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء الرابع عشر

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

محاضرات الوائلي

رحمه الله

إشراف

مصطفى الشيخ عبد الحميد

الجزء الرابع عشر

منشورات
شركة دار المصطفى لإحياء التراث

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م

يطلب من:
لبنان ـ بيروت ـ جادة السيد هادي ـ مفرق الرويس ـ بناية اللؤلؤة ط١ ـ هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢
سوريا ـ ص.ب: ٧٣٣ ـ السيدة زينب محمول: ٠٠٩٦٣٩٤٤٣٥٦٥٨٤ و٠٩٩٤٠٧٣٥٥٤
مؤسسة المصطفى: إيران ـ قم ـ خ سمية ـ ١٦ مترى عباس آباد بلاك ٢٤
تلفاكس: ٧٧٣٨٨٥٥ ـ ٠٠٩٨٢٥١
البريد الإلكتروني: E-mail: mnmnmn3@hotmail.com



﴿٢٢٨﴾

مفاهيم إسلاميّة عامّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

(الأهداف السامية للآية الكريمة)

إن هذه الآية الكريمة هي إحدى الآيات المتعلّقة بالتعبئة للحرب والجهاد، كما أنها تشتمل على مفاهيم هامّة وعلى أهداف سامية ومضامين عالية سوف نذكر منها ما يتيسّر لنا كلاً في مبحث مستقلّ إن شاء الله تعالى:

المبحث الأول: الانتقال بالمجتمع الإسلامي من الحَرْفية إلى المضمونية

فالمجتمع الإسلامي آنذاك كان أفراده يتميّزون بأنهم ذوو تفكير حرفي في المسائل التي تعرض لهم، وهذا التفكير الحرفي يوقع أصحابه في مطبّات هم في غنىً عنها، وربّما يوقعهم في مشاكل كبيرة؛ ولذا فإن القرآن الكريم أراد أن ينتقل

---

(١) آل عمران: ١٤٥.

بهم من هذا النمط من التفكير إلى نمط آخر أكثر موضوعية واعتدالاً هو التفكير المضموني. وكمثال على هذا نذكر ما وقع في معركة أُحد، فحينما نادى منادٍ: إن محمداً قد قُتل، وسمع بعض المسلمين ذلك الصوت تخاذلوا عن المعركة، وأحسّوا بالانهيار والفشل.

ولذا فإن الآية الكريمة قد نزلت لتعيد لهم عنفوانهم، ولتعيد تعبئتهم ليستأنفوا الحرب مرة أُخرى تحت ظل الإسلام سواء كان رسول الله ﷺ حيّاً أو ميتاً.

وما دمنا في هذا الصدد فلنلقِ نظرة ولنسلط الأضواء على هذه النقطة التي لا زالت حية حتى الآن. فالكتّاب الغربيون مثلاً ينعتون الإسلام بأنه هجمة همجية بربرية مهمتها سفك الدماء. والواقع أن هذا تعدٍّ ومغالطة ومجانبة للحقّ والحقيقة؛ لأن الأهداف التي عادة تكون أهدافاً للحرب، ويضعها من يخطّط للحرب ومن يريد أن يستعمل الحرب لأغراضه الخاصّة أو لمنافعه الشخصيّة لم تكن منظورةً عند رسول الله ﷺ ولا في قوانين الإسلام أبداً.

أهداف الحرب

ولنا هنا أن نتساءل ونقول: ما هي أهداف الحرب؟

إن بعض الباحثين الغربيين كـ«ليبولد كوهر» مثلاً يذهب إلى أن الشعوب والأُمم حينما تشن حروباً فإنها تشنها لأحد أسباب تسعة، أي أنه يرى أن الأهداف الكامنة وراء شن الهجمات والحروب لها تسعة أسباب، وكلّ شعب إنما يشن حرباً على غيره لواحد من هذه الأسباب التسعة أو لأكثر من واحد. وهو يدرج هذه الأسباب تحت قسمين رئيسين، هما:

القسم الأول: الأسباب الوهمية

وهي مجموعة من الأسباب يريد بها «كوهر»: الاعتقادات الموجودة عند

بعض أبناء الشعوب، والتي تدفعهم إلى إقامة الحرب وشنّها بدعوى أنها من تدبير وتخطيط قوة هي فوق قوة البشر وفوق اختيارهم وإراداتهم. وهذا يعني أن الله تبارك وتعالى هو الذي يلقي في نفوس أبناء هذا الشعب أن يحاربوا ذلك الشعب. ومن هذا القسم الأسباب التي يطرحها «ليبولد» والذي يعتبره القسم المختصّ بالأسباب الوهمية التي ذكرها وصنّفها تحته نذكر:

السبب الأول: الانتقام

السبب الثاني: السبب الكوني

وهذا السبب الذي يذكره «كوهر» يعتبره وهميّاً، فهذا الباحث يرجعه إلى اعتقادات بعض الشعوب التي تعتبر أن الحروب التي تقع بين الناس هي من تأثير الكواكب والنجوم والأفلاك. فهذا الاعتقاد كان سائداً قديماً، وهو أن النجوم في حركاتها لها تأثير على الحياة البشرية بأشكالها كافة.

السبب الثالث: الأرواح الشريرة

ذلك أن بعض المجتمعات البدائية تذهب إلى أن سبب قيام الحروب هو وجود أرواح شريرة خبيثة في الكون، وهذه الأرواح الشريرة هي التي تنسج فكرة الحرب، ثم توحيها إلى أذهان الناس؛ ذلك أنها تسيطر على عقولهم وأذهانهم وتفكيرهم.

القسم الثاني: الأسباب الواقعية

وهذه الأسباب ستة، يمثّل كلّ منها نظريّة مستقلّة، نذكر منها:

النظرية الأولى: تنامي قوة رأس المال

وهذه النظرية ـ وهي نظرية ماركسية ـ تعتبر أن الحرب ما هي إلّا عبارة عن ذلك التنامي في قوة رأس المال الذي يحتاج إلى أسواق كبيرة لتصريف البضاعة،

وللحصول على موادّ خام. وهذا الأمر يدعو إلى إقامة الحروب بغية احتلال بعض الدول الضعيفة لجعلها إما سوقاً لتصريف بضائع تلك الدول المحارِبة، أو كمنجم للموادّ الخام التي تحتاجها في عملية التصنيع. ومعلوم أن الشعوب تتمسك بحقوقها في موادّها الأولية، لكن رأس المال إنما يعمد إلى أن يقاتل تلك الشعوب من أجل الحصول على تلك الخامات الأولية؛ كي يديم بها عملياته التجارية، فيدير عبرها عجلته الصناعية والتنموية والتطورية، وآلته الحربية، وهو ـ كما ذكرنا ـ من أجل الحصول على الأسواق المناسبة لتصريف تلك البضائع أيضاً؛ الأمر الذي يؤدّي إلى نشوب الحروب بينها.

النظرية الثانية: نظرية عدم الإشباع

وتذهب هذه النظرية إلى أن من أسباب قيام الحروب هو أن الفرد الإنساني قد لا يُشبع رغباته النفسية والجسدية؛ ولذا فإنه يعمد في بعض الأحيان إلى القتال من أجل إشباع رغباته تلك.

النظرية الثالثة: النظرية التراثية

وهي نظرية تستند إلى اعتقاد يسود بعض الأُمم والشعوب كالإسبرطيين(١)

---

(١) هم سكان أسبرطة «Sparta»، وهي مدينة يونانية تأسّست حوالي عام (٩٠٠) قبل الميلاد عبر تجمع أربع قرى هي: لمناي، ميسوا، كينوسورا، وبيتاني. اشتهرت أسبارطة بشعبها العسكري الذي ينشأ فتيانه على القتال ولا شيء غيره، بعد أن اضطرّت إلى خوض حروب طويلة مع جيرانها، وعلى رأسهم أثينا، التي خاضت معها حرباً طاحنة استمرت ربع قرن عرفت بالحروب البيلوبونية. و ارتأت أسبرطة بعد انتصارها أن تتحول إلى دولة عسكرية، أي أن يحكمها العسكر، وأن تكون ذات أهداف توسّعية دائمة، وأن تكون الحرب هي وسيلة الكسب والردع، فضلاً عن تعظيم العمل العسكري في المجتمع الأسبرطي، حتى أصبح الجندي في أعلى درجات السلم الاجتماعي. وكان المجتمع الأسبارطي يتكون من ثلاث قبائل، وهو مجتمع ذكوري، يهمّش المرأة، ويُربي الذكور بين سن (١٤ ـ ٢٠) من أعمارهم

مثلاً الذين يرون بأنهم لابدّ لهم أن يتغلّبوا على الشعوب وأن يسودوها. ومن أراد أن يطلع على هذه الأسباب كاملة مستوفى شرحها، فعليه بالرجوع إلى كتاب ليبولد الذي أسماه (انهيار الأمم)، وإني أرى أن هذا الكتاب جدير بالمطالعة، لكن مع ذلك أقول: إن كلّ هذه الأسباب التي يذكرها هي أسباب متداخلة، أي أنها في مجموعها تلاحظ الأسباب الأُخرى التي ذكرها كأهداف لقيام الحروب بين الشعوب والأُمم.

النظرية الرابعة: نظرية التشارك

وسوف أذكر هنا نظريّة لأحد علماء الاجتماع يسميها «نظرية التشارك»، أو «قانون التشارك»، وهو يذهب وفق هذه النظرية إلى أن الشعوب الأُخرى من غير الشعوب الأوربيّة يشركون بين الإنسان وظلّه، أي أنهم يعتقدون أنه يمكن التأثير على الإنسان من خلال ظلّه كما كان يفعل السحرة قديماً. وبهذا فهو يخلص إلى القول وإلى نتيجة هي أن مثل هذه الشعوب التي لا تمتلك عقلاً ولا تفكيراً يسمو بها لابدّ من أن تستعمر؛ لأنها ـ وهي بهذا النمط المتخلّف من التفكير ـ ينبغي ألّا تحترم، وألّا تعامل معاملة الندّ، بل معاملة الأدنى.

مدلول النظرية

إن الغربيين وفق هذه النظرية يرون بأنهم أفضل الشعوب، وأنهم أسياد هذا العالم، وأن هذه الشعوب يجب أن تكون في خدمتهم؛ حيث إنهم سوف يضعون لهم قوانينهم، ويعمدون إلى تعليمهم أُمور حياتهم الاقتصادية والصناعية وما إلى ذلك.

على التعليم العسكري المكثّف، أما من كانت أعمارهم بين (٢٠ ـ ٣٠) فيلتحقون بالجيش جميعاً. موسوعة ويكيبيديا الحرّة.

نقد هذا المذهب

وباعتبار أن «كوهر» باحث علماني فإنه يذهب إلى هذه الأسباب التي تكون عادة بعيدة عمّا تقتضيه المصلحة الإلهية والفائدة التي يمكن أن تعم على المجتمع من وراء هذه الحرب في درء الخطر عنه أو المحدق بالرسالة السماوية مثلاً؛ ولهذا فإننا نقول: إن هذه الأسباب الوهميّة لا يمكن أن نقبلها.

رأي الإسلام في المسألة

ونحن إنما يعنينا من كلّ هذا هو هل إن الإسلام ينطلق للحرب بناء على أحد هذه الأسباب أو النظريات التسعة التي يذكرها ليبولد؟ والجواب بطبيعة الحال هو النفي؛ ذلك أن الفقهاء المسلمين يقولون: إن الجهاد هو القتال في سبيل إعلاء كلمة الحقّ، وهي كلمة الله تبارك وتعالى. وهذا يعني نشر قانون السماء الذي يحقق العدل في الأرض. وقانون السماء يستهدف من ضمن ما يستهدف إشباع حاجات الإنسان بالطرق المشروعة، وهو في الوقت نفسه لا يسمح أن يُذَلّ أحد أو أن يستغل أحد ما غيره في سبيل نظرية باطلة؛ ذلك أن معظم الحروب أحياناً تنشأ من نظرية عنصرية.

فالإسلام إذن ينظر إلى الناس على أنهم سواسية[1] قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[2]. فليس هناك من فرق بين شخص وآخر، وليس هناك من منطلق عنصري عند الإسلام في تعامله مع الآخرين. فمفهوم الاعتداء على الآخرين، ومنطلق شن الحروب عليهم وسلب قوتهم وثرواتهم بعيد كلّ البعد عن

(١) قال ﷺ رسولنا الأكرم ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط». تحف العقول: ٢٦٨.
(٢) الحجرات: ١٣.

النظرية الإسلامية والقانون الإسلامي.

خلفاء المسلمين والقانون الإسلامي

وهنا لابدّ أن نلفت النظر إلى أنه ينبغي ألّا نحاسب الإسلام على أفعال يرتكبها بعض من يدّعي الانتساب إليه كالحجّاج أو هارون الرشيد مثلاً، فالإنسان المنصف لا يفعل هذا؛ لأنه يعرف أنه لا يستطيع أن يحاكم الإسلام على ضوء هذه التصرفات؛ وعليه فإن الواجب هو ألّا نخلط بين الإسلام وبين المسلمين، فالإسلام هو عبارة عن نمط أو دستور حياتي شامل، ذو نظريات واضحة ومعروفة، وبالتالي فهو غير مسؤول عن تصرفات بعض من لا يمتّ إليه بصلة كالحجاج وغيره.

سلوكيّاتنا بين النظرية والتطبيق

وعليه فيجب ألّا نُغفل نقطة هامة جداً هي أن هناك فرقاً كبيراً بين النظرية والتطبيق على مستوى العالم كافة فيما لو تصدى لتطبيق تلك النظرية من هو ليس أهلاً لها، أو من لا يؤمن بها.

من مظاهر الروح السمحة للإسلام

وإذا عرفنا هذا فإننا يجب أن نذعن إلى أن الإسلام ليس عنده روح عدائية تجاه أحد أبداً بدليل أن الإسلام لم يتابع ألد أعدائه حتى بعد أن ظفر بهم، بل العكس من ذلك هو الصحيح، وهو الذي حصل؛ فقد عفا عنهم وتركهم. وكشاهد على هذا نذكر موقف رسولنا الأكرم ﷺ من عكرمة بن أبي جهل، وقبل أن نأتي على ذكر هذا الموقف ننبّه إلى أن الرسول الأكرم ﷺ ـ بل حتى المسلمين ـ لم يؤذَ من أحد، أو من بيت من بيوتات العرب كما حصل له من أذى من بيت أبي جهل، أبي عكرمة هذا الذي نحن بصدد سرد الموقف النبيل للرسول

الأكرمﷺ منه. لكننا مع كلّ ذلك نشاهد الروح السمحة للإسلام ولنبي الإسلام (عليه وعلى آله الصلاة والسلام)؛ فقد قابلﷺ كلّ ذلك بمنتهى الرقّة وغاية الرحمة والرأفة والعفو والسماح. وهوﷺ إنما يضع بهذا قانون العفو والسماحة لأتباعه؛ كي يسيروا عليه.

وفي الحقيقة فإن هذا القانون هو قانون رائع وسام، وينبئ عن روح سامية متسامحة، وكأن الإسلام ونبيّه الكريمﷺ يريدان ألّا يعتاد أتباع دستور هذا الدين الحنيف على السباب والشتم، وألّا يجعلوا ألسنتهم مظنّة لذلك؛ لأن الشتم لا يوصل الإنسان إلى شيء من مراده، أو يحصّل له ولو يسيراً من حقوقه. فضلاً عن أنه ليس من شيم الرجال الذين يحصلون على حقوقهم بوسائل أُخرى خاضعة لقانون الرجولة والشهامة، يقول الشاعر العربي:

رحنا بهم شتماً وراحوا بالإبلْ

ويقول غيره:

لا تشتمن الرزء أو تبكِ له ... فالرزء ليس بمثل ذلك يدفعُ

لكن تصدَّ له فإن أخضعته ... تحيَ وإن خفت الممات ستخضعُ

وهكذا فإننا نعرف أن الانسان لا يمكن أن يصل إلى نتيجة عن طريق الشتم، ولهذا فإن الرسول الأكرمﷺ قال للمسلمين حينما جاءه عكرمة بعد أن أخذت له زوجته أُم حكيم أماناً من رسول الله: «لا تسبّوا أباه»، لأن أباه قد آذى المسلمين. ذلك أن امرأته أُم حكيم جاءت رسول الله وقالت له: يا رسول الله، إن عكرمة هرب منك إلى اليمن؛ فقد خاف أن تقتله، فآمنه. فقالﷺ: «هو آمن».

فخرجت أُم حكيم في طلبه، وأدركته وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة، فركب البحر، فهاج بهم، فجعل نوتي السفينة يقول له: أخلص. قال: أي شيء أقول؟ قال: قل: «لا إله إلّا الله». قال عكرمة: ما هربت إلّا من هذا. فجاءته أُم حكيم، فجعلت تلحّ عليه وتقول: يابن عم، جئتك من عند خير الناس، وأوصل

الناس، وأبرّ الناس، لا تهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته، فقالت: إني قد استأمنت لك رسول الله ﷺ فآمنك. قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فآمنك. فرجع معها، فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً، فلا تسبوا أباه؛ فإن سبّ الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت**».

فلما وصل عكرمة ودخل على رسول الله ﷺ وثب إليه ﷺ وليس عليه رداء فرحاً به، فقال: يا محمد، إن هذه أخبرتني أنك آمنتني. فقال: «**صدقت، أنت آمن**». فقال عكرمة: فإلام تدعو؟ فقال ﷺ: «**إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة**». وعد خصال الإسلام، فقال عكرمة: ما دعوت إلّا إلى حقّ، وإلى حسن جميل، ولقد كنت فينا من قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه، وأنت أصدقنا حديثاً، وأعظمنا برّاً؛ فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وإنك لرسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تسألني اليوم شيئاً أُعطيه أحداً إلّا أعطيتكه**».

قال: فإني أسألك أن تغفر لي كلّ عداوة عاديتكها، أو مسير أوضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك، أو أنت غائب عنه. فقال ﷺ: «**اللهم اغفر له كلّ عداوة عادانيها، وكلّ مسير سار فيه إلي يريد بذلك إطفاء نورك، واغفر له ما نال مني ومن عرضي؛ في وجهي، أو أنا غائب عنه**». فقال عكرمة: رضيت بذلك يا رسول الله، أما والله لا أدع نفقة كنت أُنفقها في صدّ عن سبيل الله إلّا أنفقت ضعفها في سبيل الإسلام وفى سبيل الله، ولأجتهدن في القتال بين يديك حتى أُقتل شهيداً[1].

---

(١) بحار الأنوار ٢١: ١٤٣ ـ ١٤٤، شرح نهج البلاغة ١٨: ٩ ـ ١٠، الاستيعاب ٣: ١٠٨٢، المستدرك على الصحيحين ٣: ٢٤١.

وهكذا نجد من خلال هذا الأُنموذج الرائع ـ وهو من جملة نماذج كثيرة ـ أن النبي ﷺ لم يكن يلاحق ألد أعدائه، وكمثال آخر على هذا سهيل بن عمرو الذي كان من رؤوس المشركين، لكن نبينا الكريم ﷺ قد آمنه، وبقي مع المسلمين مدة من الزمن على شركه وهو يمارس أعماله، إلى أن أسلم طواعية من تلقاء نفسه بعد فترة من الزمن.

إذن فالمهم هنا أن نذكره هو أن الإسلام ليس عنده هذا النمط من الروح العدائية للآخرين أو تجاهم، بل إن الشيء المهم عنده هو نشر كلمة «لا إله إلّا الله»، وهو يعني بتعبير آخر نشر العدل الاجتماعي والرفاهية بين الناس، بل على الأصعدة الأُخرى كافّة، وليس على الصعيد الاجتماعي فقط.

المبحث الثاني: في حقيقة الموت وكونه أمراً واقعاً

تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ﴾، وفي هذا المقطع الشريف وحوله تثار التفاتات عالية المضامين، سامية المعارف، سوف نذكر اثنتين منها هنا إن شاء الله تعالى:

الأولى: أن موت الإنسان لا يعني موت فكره

وبناء على هذا فإن كلّ إنسان عرضة لهذا الفارق الذي لا ينفذ منه أحد حتى الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، وعليه فلو أن النبي الأكرم ﷺ التحق بالرفيق الأعلى، فهل يعني هذا أن رسالته سوف تموت؟ إن القول بهذا يعني أن المسلمين حينما قاتلوا معه ﷺ إنما قاتلوا دفاعاً عن لحم ودم، وليس دفاعاً عن عقيدة ومبدأ ورسالة ونظام خالد وباقٍ. وهكذا فإنه يجب على الإنسان الملتزم بمبادئه وعقيدته ألّا يولج نفسه هذا المطب، بحيث إنه بمجرد أن يموت حامل الرسالة أو صاحب ذلك الفكر والمبدأ ينكّص على عقبيه ويولّي دبره كلّ ما دافع عنه حال

حياة صاحب ذلك المبدأ؛ لأن في هذا خسراناً بيّناً له، وضياعاً ـ بل تضييعاً ـ لكل ما دافع عنه، ولكل ما بذله وقدّمه في سبيل ذلك الدفاع.

إذن ينبغي على كلّ من يعتنق شيئاً يؤمن به صادقاً مخلصاً أن يبتعد عن هذا النمط من التصرف وهذا المستوى من التفكير اللذين يضعانه في مصاف من هم دون ذلك الإنسان العقيدي المدافع عن حقّ يراه ويعتقده. مر يوماً أحد المهاجرين بأحد الأنصار في معركة من معارك الرسولﷺ، وكان الأنصاري في نزعه الأخير، فقال المهاجر له: هل علمت أن النبيﷺ قد مات؟ فالتفت إليه الأنصاري وهو يعالج سكرات الموت وقال له: إذا كانﷺ قد مات، فقد بلّغ، اذهبوا ودافعوا عن دينكم:

ويموت الرسول جسماً ولكن ... في الرسالات لن يموت الرسولُ[1]

وهكذا نجد أن هذا المقطع الشريف يريد أن ينبه الناس إلى أن كلّ إنسان يذوق الموت، فالنبي سوف يموت، لكن هذا لا يعني أن رسالته وأفكاره ونظمه سوف تموت أيضاً، فالدين سيبقى وسيخلّد.

الثانية: أن الأجل حالّ بصاحبه أينما كان

ثم إن في هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة ردّاً على أُولئك الذين يقولون: ﴿**لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا**﴾[2]، وهو الكلام الذي كان يردّده القاعدون عن الجهاد والمتخلفون عنه على أولئك الذين ذهبوا إلى ساحات الحرب والكرامة. وهذا اللون من التفكير والادّعاء إنما يصور بشفافية وعمق منطق الشعوب المتخاذلة التي لا تودّ أن تتحرّك أو أن تبذل قطرة دم واحدة وإن كان الثمن سلبها

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٠. (٢) آل عمران: ١٥٦.

كرامتها، بل وإن كلفها ذلك أن تعيش ذليلة محتقرة مهانة [١].

إن الأُمّة التي لا تعطي لا تأخذ بحال أبداً، وهؤلاء قد نسوا هذا أو تناسوه، ولو رجعنا إلى تاريخ الشعوب والأُمم فإننا نجد أن الشعوب التي أثبتت وجودها على سطح هذا الكوكب، والتي خلقت لها كياناً أثبتت عبره وجودها، وخلّفت تاريخاً ضخماً وذكراً حسناً تسير به الركبان هي الأمم التي ناضلت وبذلت وأعطت، فكان أن أخذت الوجود والخلود والذكر الحسن [٢]، أما أن يحاول الآخرون أن يأخذوا دون مقابل يعطونه، فهذا ما لا يمكن أن يكون، بل هو أمانيّ جوفاء باطلة.

إذن فالآية الكريمة إذ تقول: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ**﴾، فهي إنما ترد على أُولئك القائلين: ﴿**لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا**﴾، وتنبّههم إلى أن كلّ إنسان سوف يموت، وأن ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾[٣]، وكلّ ذلك حين حلول أجله، وانقضاء أيامه من هذه الدنيا.

إشكال حول إمكان إعفاء القاتل من تبعة جريمته

وبناء على هذا التقرير الذي قدّمناه ـ وهو أن كلّ نفس تموت بأجلها، فلا تتقدم

---

(١) قال المتنبّي:

عش عزيزا أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنودِ
لا كما قد حييت غير حميد ... وإذا مت مت غير فقيدِ
فاطلب العز في لظى ودع الذ ... لّ ولو كان في جنان الخلودِ

أعيان الشيعة ٢: ٥١٧، شرح ديوان المتنبّي ١: ١٨، الصحيح المنبي عن حيثيّة المتنبّي ١: ٧٦، يتيمة الدهر ١: ٤٥، الحماسة المغربية ١: ٦٨، معجز أحمد ١: ١٧.

(٢) قال ابن دريد في مقصورته:

إنما المرء حديث بعده ... كن حديثا حسناً لمن روى

أعيان الشيعة ٩: ٣١٨، الجامع لأحكام القرآن ١٢: ١٢٥، فتح القدير ٣: ٤٨٥.

(٣) آل عمران: ١٨٤، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧.

ولا تتأخر ـ يطرح سؤال أو إشكال نفسه في البين، وهو: هل يعني هذا أننا يمكن أن نعفي القاتل من جريمته؛ لأنه لم يفعل شيئاً سوى أنه حقق الأجل المحتوم للمقتول وأوقعه عليه؛ ذلك أن القاتل ليس سوى أداة تنفيذية شأنه في هذا شأن السكين التي تعد أداة تنفيذية أيضاً؛ لأنها تنفّذ بها الجريمة، ولا يمكن أن نوقع العقوبة عليها؟ وهكذا فإنه كما لا يمكن معاقبة السكين، فكذلك لا يمكن معاقبة القاتل؛ لاشتراكهما في صفة واحدة هي أنهما كليهما أداتان لتنفيذ الجريمة.

والجواب هو أن نقول: بطبيعة الأمر لا يمكن أن يكون هذا، ولا يمكن بالتالي إعفاء القاتل من تبعة جريمته؛ لسبب بسيط هو أن القاتل تدخّل في تنفيذ أمر لا يعنيه، وليس هو من اختصاصه بل هو من اختصاص الله تعالى وحده، فهو قد تعدى على صلاحيات الله جل وعلا وشاركه فيها، ولم يترك ذلك الإنسان الذي حلّ أجله أن يموت موتاً طبيعيّاً.

وعليه فهذا قد أقدم على ما حرّم الله تعالى، وحينما فعل هذا فإنه يكون قد سحب نفسه إلى دائرة المسؤولية الجنائية؛ وبالتالي تحمّله إياها أمام القانون أيّاً ما كان. وهذا يعني أننا يجب أن نؤاخذه بجريرته تلك؛ لأن القوانين يجب حفظها ورعايتها، وبخلافه فإن القوانين لها الحق أن تطبّق بحق كلّ مخالف فتعاقبه. وكذلك الحال مع الشريعة، بل هو من «باب أولى» بالنسبة لها؛ لأنها نظام الله وقوانينه في أرضه. وهذا يندرج تحته حتى قاتل الحيوان، فيؤخذ منه جزاء مدني (دية)، وهو أمر يدل على أن الجاني هنا قد تلبس بالجرم فأُخذ به، ولو لم يكن كذلك لما حمّله المجتمع والقانون أي تبعة.

إذن فمن يقل: إن القاتل يجب أن يعفى من التبعة والمسؤولية الجنائية بحجة أنه أداة تنفيذية للجريمة ليس إلّا، والمقتول قد مات في أجله الذي رسمه الله سبحانه له لهو كلام مخطوء ومردود، فالمسؤولية الجنائية تعصب برأسه. وبناء على هذا

فإن الآية الكريمة تذكرهم بأن هؤلاء حينما خرجوا للقتال فإنهم قد دفعوا دماءهم من أجل دفع عدوهم، فحموا بلادهم، وأثبتوا للآخرين بأن البلد فيه من يدافع عنه وعن الدين والمعتقد. وبعبارة أُخرى فإن جميع القيم والإنجازات التي تحققت وحصلت يجب ألّا تغيب عن أذهانكم، ولا تعزب عن تفكيركم.

المبحث الثالث: في معنى إذنه تعالى

والآية الكريمة إذ تقول: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**﴾، فإنها تحدد أن هذا اللون من حلول الآجال هو بإذن منه تعالى، لكن ما المقصود بإذنه تعالى هنا؟ للمفسرين فيه رأيان، هما:

الأول: أنه بعلم الله، مع ملاحظة أن علم الله تعالى لا يغيّر من الواقع شيئاً.

الثاني: أنه التخلية بين القاتل والمقتول، بمعنى لولا أن الله تبارك وتعالى يحول بين القاتل والمقتول لقتله، لكنه تعالى إذ لم يحل دون ذلك وقع القتل. وهذا لا يعني أن الله تعالى لا يترك الأُمور على وضعها الطبيعي، بل إنه جلّ شأنه يتركها كذلك؛ لأنه بخلاف ذلك يصبح الأمر جبراً، وهو خلاف حكمة الله جل شأنه التي تقضي بألا يُجبر أحد من العباد على فعل شيء ما. وقد ورد في الآية الشريفة: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ**﴾[1]، ومعنى ﴿**يَحْفَظُونَهُ**﴾: أنهم يجعلون من أنفسهم سدّاً بينه وبين أسباب الموت.

إذن فمعنى التخلية هنا أن الله عزّ وجلّ لا يضع مانعاً بين القاتل والمقتول أبداً، وليس هناك من مانع سوى المانع الشرعي الذي تتناوله الآيات والأحاديث المختصة بالأحكام، والتي تحرّم على الإنسان الإقدام على ارتكاب هذه الجريمة، وتضع إزاءها عقوبات دنيوية وأُخروية. وهكذا فإن التشريع يخاطب

---

(١) الرعد: ١١.

الإنسان ويقول له: إن هذا الفعل الذي هو القتل حرام يؤاخذ عليه صاحبه ويحاسب، وإن ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسَاً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعَاً﴾[1]، ثم ترك له حرية الاختيار والتصرف. وعدم تخلية الله بين القاتل والمقتول يعني عدم وقوع جريمة القتل أبداً، وهذا هو معنى هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾.

المبحث الرابع: في المراد من الكتاب المؤجّل

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿كِتَابَاً مُؤَجَّلاً﴾، وهنا ربما يقول قائل: هل إن الله تبارك وتعالى لا يعلم أن هناك عدة محدودة لعمر الإنسان حتى يكتبها؟ وهل إن من الممكن أن ينسى ذلك؟ حاشَ لله أن يكون ذلك؛ فالله تعالى لا يضلّ ولا ينسى، لكنه يريد أن يعلّمنا أهمية الكتابة، فكأن القرآن الكريم يريد أن يقول لنا: مع أن الله تبارك تعالى لا يضلّ ولا ينسى، لكنه يكتب ذلك، فنحن الذين ننسى ونضلّ علينا أن نفعل هذا من باب أولى.

أهميّة الكتابة في الإسلام ودورها في حفظ الحقوق أو اغتصابها

وفي هذا إشعار لنا بأهمية الكتابة؛ لأن الإنسان يذهب ويموت، أما الكتابة فتبقى. وهذه النقطة من الأهمية بمكان لا يمكن أن تُتجاهل معها.

ونحن نرى في تاريخنا وحضارتنا، كما في تاريخ العالم وحضاراته أن الكتّاب والعلماء قد تركوا آثاراً علمية مع أنهم ذهبوا تحت التراب، وهناك بعض الكتب التي تركها أصحابها قد جعلت من الدنيا نعيماً؛ لأنها كتب تدعو للرحمة والأُلفة والمودّة والأخلاق، ونبذ الخلاف، وتحثّ على التعقّل. وهذا الأمر ثمرة من الثمرات الرائعة، بل جنة من الجنان. ولكننا في المقابل لا ننكر أن بعض الكتب

---

(١) المائدة: ٣٢.

قد جعلت من الدنيا فرناً يغلي بالحقد والعصبية والبغض والكراهية، وهؤلاء سيكون لهم موقف مخزٍ يوم القيامة أمام الله جل شأنه، وهو موقف شديد على أصحابه الذين أفرغوا حقدهم وعقدهم في كتبهم عبر نظريات جهنمية أودعوها تلك الكتب.

وحينما يمر بها أحد يعرف كم أن هؤلاء جنوا جناية مروعة على الحقيقة والتاريخ والأُمّة وفي حقها؛ لأن هذه الكتابة ستبقى وإن تحوّلت الأصابع التي كتبتها، والمخ المفكّر والمنظّر إلى تراب، لكن نظرياته تلك وأفكاره سوف تبقى تلعب دورها سلباً أو إيجاباً، وتعمل أدواتها ومعاولها هدماً وبناءً. وهذا دور خطر ينبغي عدم إغفاله، بل توجيهه الوجهة الصحيحة.

حادثة الإفك

ومن هذا فإننا حينما نقرأ حول حادثة الإفك في كتب المسلمين التفسيرية والحديثية، وهي الحادثة التي يروى فيها اتّهام السيدة عائشة، نلاحظ فيها أن بعض المفسّرين يتّهمون الشيعة بالقول: إن الرافضة يتّهمون زوجة النبي ﷺ بالزنا والخطيئة[1].

وهنا أود أن أقول: إن المسلمين اليوم حينما يقرؤون في كتب علمائهم مثل هذا الكلام وهذه التهم والافتراءات على الشيعة ألا يحدوهم ذلك إلى تكفيرهم، ويدفعهم إلى قتالهم؟ أو لا أقل من أن يدعوهم إلى الحقد عليهم؟

ومن جانب آخر فإننا نلقي باللوم على هذا القارئ ولا نرفعه عنه لا لأنه وجده في كتاب لأحد علمائهم، وإنما نلقي عليه باللائمة لأنه لم يكلّف نفسه عناء البحث

---

(١) مع أن الواقع خلاف ذلك، انظر: مجمع البيان ٤: ١٥١، التبيان ٧: ٤٠٨، فقه القرآن ٢: ٣٨٨، الكاشف ٥: ٤٠٩، الميزان ١٥: ٩٦.

في كتب خصمه ليتحقق من صدق ما نُقل عنهم، ويتأكد من مصداقية تلك الدعوى. وهذه كتبنا في شتى المجالات، ونحن نتحدى بملء أفواهنا أن يوجد عندنا مثل هذا ولو كان شاذاً، معاذ الله من ذلك. فهل يوجد فينا من ينسب السوء إلى عرض النبي الأكرمﷺ ويصمه بالانحراف؟ فإنا لله وإنا إليه راجعون، وإلّا فإن من يكتب مثل هذا الكلام عنّا في كتبه ومؤلفاته دون ورع وتقوى ووازع من ضمير أو رادع من شرع ودين إنما يوقد ناراً مؤصدة عليه في كتبه.

ومثل هذه المواقف سوف تكون شديدة الوطء، ثقيلته غداً أمام الله تبارك وتعالى، وصاحبه لا يستحقّ في الدنيا قتلة واحدة فقط، بل قتلات وقتلات. وهكذا فإننا ببالغ الأسف حينما نرجع إلى كتب المسلمين وتاريخهم نجدها ملغومة بأمثال هذه الأُمور. إننا نأمل ممّن يكتب موسوعات ضخمة أن يذكروا فيها كلّ نظريات المسلمين في علومهم ومعارفهم كافّة بشكل نزيه وأكاديمي، ومع نسبتها إلى مصادرها المستقاة منها بشكل دقيق؛ ليتعرف عليها أبناء الطوائف الأُخرى مقرونة بأسماء مؤلفات أصحابها؛ دفعاً للشبهة، ودرءاً لموارد الظن والتهمة.

ثم إن وراء هذا النهج الأكاديمي هدفاً سامياً هو تبادل الآراء والنظريات، وتعيين موارد الاتفاق والاختلاف. إن المسلمين في واقع الأمر لا يملكون وعياً كافياً في مواجهة هذه المشكلة، وبالرجوع إلى مؤلفاتهم نجد أنهم لا يملكون تاريخاً وإنما يملكون حروفاً ملغومة محمّلة بالشحناء والبغضاء، وبأنواع قاتلة من الأفكار المسمومة. وهنا ينبغي أن نذكر بأن الكتابة مسؤولية ضخمة وأمانة كبيرة، وعلى عنق صاحبها تقع مسؤولية كبيرة خصوصاً فيما يتعلق بالعقائد والأحكام؛ فالإنسان قبل أن يحكم بحكم شرعي أو يفتي بفتوى في خصوص الآخرين عليه أن يلتفت إلى أُمور منها:

١ـ مراعاة الله سبحانه وتعالى قبل أن ينطق بأي حرف؛ لأن عليه أن يعلم أن عليه رقيباً، وعلى لسانه رقيباً، وعلى قلمه رقيباً.

٢ـ التحقق من صحة ما يريد أن يفتي بحق الآخرين من أجله، وهل هو موجود عندهم، كي يكون مستند الحكم أو مدرك الفتوى علمياً وواقعياً، أم لا فيكون حكماً ظالماً مبتنياً على أساس من اللامسؤولية تجاه أحكام الله تعالى وتجاه عباده؟ فكم من فتوى غير ناهضة الدليل، كما هو الحال مع ابن القيّم الجوزية الذي أودع كتابه (بدائع الفوائد) من هذا القبيل ما لا يستهان به، ومنها قوله: «احتج من قال بطهارة الكلب بقوله تعالى: **﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾**[1]، وإطلاق الماء يقتضي الطهارة[2].

فما هو تصوّر من يقرأ فقهاً من هذا النوع عند فقهاء من هذه الشاكلة؟ ومع هذا فإننا نقول: إن هذا قد استدلّ بدليل قرآني وإن كان تعوزه متانة الاستدلال، وناهضية المدرك، والرؤية العلمية الواضحة، والحياطة الكاملة بمبادئ الاستنباط وحيثياته، لكن غيره ممّن حظّه من العلم دون أن يؤهله لمرحلة الإفتاء، ولم يحفظ من السنة إلّا بضعة أحاديث، ثم يتجرّأ على إن يتصدّى للإفتاء فيمطر الآخرين بفتاوى تتّقد حقداً وناراً، فيحرق بها جسد الأُمّة، ويوزّع الكفر والإيمان على الآخرين وفق مقاساته وقياساته دون وازع أو رادع من ضمير أو شرع، ودون تقوىً وتورّع عن أن يطال لسانه وقلمه الآخرين ممن ليسوا مصداقاً أبداً لفتاواه.

وهو بهذا يخرق قوانين العمل العلمي، كما يخرق جسد الأُمّة ويمزّق وحدتها، ويأتي على البقية الباقية من خيوط الوحدة المهترئة التي تمسك أبناءها. إن هذه

---

(١) النور: ٤٥.   (٢) بدائع الفوائد ٤: ٧٩٨.

المسألة ليست سهلة أبداً، والقرآن الكريم يشعرنا بهذا، وينبهنا إليه وهو يقول: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[1]، وليؤكد لنا على أهمية الكتابة ودورها في إثبات الحقائق.

ونحن نعرف كم كان أسلافنا يتحمّلون العناء من أجل الحصول على ورقة يكتبون عليها، أو قلم يكتبون به، وأن بعضهم لم يكن يملك حتى ثمن الزيت الذي يستصبح به، فيأتي إلى سراج في الشارع ليستضيء بنوره، وهو يراجع مسائله المتعلقة باختصاصه، في حين أننا الآن نجد أن أبناءنا يمتلكون أحدث وسائل الخدمة، وهم يتابعون دراستهم دون أن يصلوا إلى المرتبة التي وصل إليها أُولئك، مع أنهم يمتلكون الوسائل العلمية المتطورة، ويوضع تحت تصرفهم الأجهزة التكنولوجية الحديثة؛ فالكتاب متيسر مع سهولة الوصول إلى المعلومة فيه، ووسائل الإضاءة متوفرة وسهلة الاستعمال إلى درجة أنها قد وفرت لهم حتّىٰ في أسرّة نومهم، فضلاً عن وسائل استقصاء المعلومات السريعة مثل الكومبيوتر وغيره.

إننا نأسف لما آل إليه حال الأُمّة اليوم، وهو حال ينبئ عن أن هذه الأُمّة ستتحول إلى أُمّة تابعة، ويرهص بأنها ستتحول إلى أُمّةٍ أُميّةٍ أُميّةً حضارية؛ لأننا لا نجد مع هذا الكم اللامتناهي من وسائل الترفيه العلمي قلماً واحداً ينتج ويبدع بشكل متميز وملموس وبشكل جدّي ليضارع الأُمم المتطورة الأُخرى إلّا الإبداع في مجال كيل التهم والتكفير.

وهذه المشكلة: (الأُميّة الحضارية) نجد أبعادها واضحة على سلوكيات الكثير من حملة الشهادات وتصرفاتهم وأخلاقياتهم، فكم من طالب علم يدرس في الجامعات، لكنه عندما يسأل عن خصائصه الحضارية، وعن ميزات تأريخه، وعن حضارته نجده لا يعرف عنها ومنها شيئاً. كما أننا نجد أن البعض ممّن يمتلك

---

(١) الرعد: ٣٨.

ثقافة ضئيلة لا تتجاوز تراقيه يسأل عن أشياء لا تهمّه، ولا تـهم المـجتمع الذي يعيش فيه.

ومثل هذين إذا ما سُئلا عن شيء من نظرية الإسلام فـي الحـياة أو حـول موضوع العلاقات العامة في القانون الدولي، ووجهة نـظر الإسـلام فـيها وعـن علاقات حسن الجوار وحقوق الدول في الموارد المشتركة من وجهة نظره فإننا نجده لا يعرف شيئاً عنها، وإن سأل عن شيء فإنما يسأل عمّا لا علاقة له بالمعرفة وتنوير الفكر وتطوير الطاقات العقلية وتدبيرها وتسييرها وتسخيرها من أجـل خدمة الإنسان وخدمة المجتمع. دخل أحدهم على الشعبي وقـال له: أُريـد أن أسألك عن مسألة تؤرّقني. قال: سل. قال: ما كان نثار زواج أبناء آدم ﷺ؟ قال: الحمد لله، ذلك عرس لم أحضره.

فتأمل مثل هذا النمط من التفكير المنحلّ، والعقليّات غير النـاضجة، وكـيف يمكن أن يكون مصير الشعوب حينما تقع تحت رحمة سلطانها. وهذا اللون من التفكير موجود حتى الآن، فنجد البعض من الناس يسألون عن قـضايا عـجيبة غريبة، والحال أنهم يجب أن يلتفتوا إلى ما هو أهم من هذا، فيسألوا عما يـربّي الروح ويغذي النفس، ويشدّها إلى حضرة الإيمان وعـمّا يـمكن أن يـغذّوا بـه إيمانهم.

إن المفترض بنا كأُمّة واحدة وكيان واحد، وقد وطّأ الإسلام لنا كلّ أسـباب المعرفة والحضارة والتطوّر والتقدّم، وهيأ لنا سـبل الإفـادة مـنها واسـتثمارها واستغلالها، وأمرنا باستغلالها في سبل الخير أقصى استغلال أن نكون بـمستوى هذه الحضارة وهذه المسؤولية. لكننا ببالغ الأسف نرى أبـناءنا اليـوم يـتجهون باتجاه آخر دون أن يكون عند كلّ واحد منهم ما يربطه بجذوره، ويثبته في تربته وحضارته، ويشدّه إلى فكره وثوابت أخلاقياته، مع أننا أُمّة قامت على أسـاس

العلم، لكننا سنصبح أُمّة أُميّة من جهة الفكر الحضاري.

إذن فقوله تعالى (كتاباً مؤجلاً) يعني أن هذا الأجل مكتوب في كتاب، أي أنه تبارك وتعالى يريد أن يشعرنا بأهمية الكتابة وبدورها في تسيير موارد الحياة دون حصول نزاعات بين المتكاتبين.

المبحث الخامس: حظّ الإنسان من الدنيا

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، وهذا المقطع يعالج مسألتين جوهريّتين، هما:

الأولى: أن المقاتلين صنفان؛ طلّاب دنيا وطلّاب آخرة

فهذا المقطع من آية المقام الكريمة كأنما ينظر إلى الناس الذين خرجوا إلى القتال، والذين كانوا صنفين:

الأول: المنتفعون، وهم المقاتلون الذين خرجوا لأجل الربح والغنيمة، فهم لم يكونوا ذوي هدف كبير كامن وراء خروجهم هذا؛ لأن أنفسهم صغيرة، وحينما يكون الإنسان صغير النفس، يصبح صغير الهمة. وهذا هو الذي يؤدي به إلى أن يكون هدفه من الخروج العرض الدنيوي الصغير الزائل، أما ذوو الأهداف الكبيرة فهم من يحمل نفساً كبيرة ذات أهداف كبيرة مهمتها الدفاع عن العقيدة.

الثاني: أصحاب المبدأ، وهؤلاء هم الذين يخرجون إلى القتال لا لأجل أن يحصلوا على نوع من الغنائم، بل إن خروجهم من أجل الدفاع عن الدين، فهم لا يريدون ثواب الدنيا وإنما يريدون ثواب الآخرة، ولهذا فإنهم يبذلون أعز ما عندهم من أجل هذا الدين والمعتقد، وهو أرواحهم التي هي قوام حياتهم.

إذن لا تزهق الروح الغالية إلّا من أجل شيء غالٍ مثلها أو أغلى منها. وهنا يجب أن يكون الثمن الذي ينتظره المقاتل أكبر من الروح، وهو رضوان الله تبارك

وتعالى، ونشر كلمته في الأرض من أجل إسعاد البشرية، وهو ما يتعلق بتحقيق أهداف الجهاد. وهنا فإن الآية الكريمة تكون ناظرة إلى هذين الصنفين من الناس، كما أن الصنف الذي ينشد الدفاع عن المقدسات والعقيدة هو صاحب النفس الكبيرة التي تستطيل على الوجود كما فعل عبد الله بن جبير وجماعته (رضوان الله عليهم) الذين كانوا ينشدون العدل وتحقيقه بين الناس ونشر كلمة الله تبارك وتعالى.

طالب الدنيا بعمل الآخرة وطالب الآخرة بعمل الدنيا

ثم إن الآية الكريمة تقرر بأن كلّ واحد من هؤلاء سوف يأخذ ما يستحق وفق قابليته واستعداده؛ فمن أراد ثواب الدنيا أعطاه الله من الدنيا، ومن أراد ثواب الآخرة أعطاه الله منها وزيادة. فمن طلب الدنيا بعمل الآخرة فإنه لا يكافأ على فعله، أما من طلب الآخرة فإنه يكافأ على فعله ولو كان بعمل الدنيا. إن البعض من الناس يطلب الدنيا بعمل الآخرة، فيقوم بأعمال صالحة لا يريد بها وجه الله تعالى، بل يريد بها نفعه هو وفائدته؛ لأن غرضه غير نظيف، وهو دليل على أن همّته غير عالية ومحدودة، أما من يرد وجه الله تعالى والآخرة فإنه يهدف إلى نشر العدل يسعى إليه حتى لو كان ذلك بعمل الدنيا كما أسلفنا؛ فإن الله تبارك وتعالى سوف يكافئه على هذا.

الثانية: أن رزقه تعالى بقدر

كما أن في قوله تعالى: ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ إشارة إلى أنه تعالى يريد أن يلفت أنظارنا إلى حقيقة هامة ويشعرنا بها، وهي أن لنا حصة معينة من الرزق الدنيوي، وكذلك من الآخرة، وليس الآخرة أو الدنيا كليهما.

وهذا واضح؛ فالإنسان لا يستطيع أن يلبس أكثر من ثوب واحد في وقت واحد، وكذا الرغيف، وهكذا فإن أيام الإنسان محدودة في الحياة ثم يخرج من

هذه الدنيا دون أن يأخذ معه شيئاً من متاعها، ولا يرافقه في رحلته تلك إلّا العمل الذي عمله في الدنيا.

وهكذا فإن ﴿مِنْ﴾ هنا للتبعيض، وهذا يعني أن الإنسان سوف يأخذ نصيبه من الدنيا حظاً يسيراً قليلاً دون أن يأخذ زيادة فوقه، فلا يهلك نفسه في طلب الدنيا ولا يذهب نفسه حسرات عليها. والإنسان إذ يعلم هذا وأن رزقه مهما كان فهو يسير محدود، فعليه أن يتّعظ وأن يعتبر، دون أن ينسى الآخرة وهو يطلب الدنيا ومتاعها الزائل.

المبحث السادس: الإمام الحسين عليه السلام ونعمة الشكر على النعمة

توطئة: شكر النعم يكون من جنسها

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾، وفي هذا الجزء الشريف من آية المقام الكريمة حث على الشكر العملي، فكل نعمة أنعم الله سبحانه بها على الإنسان تحمل شكرها فيها؛ ولذا ينبغي على الإنسان أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة بشكل عملي وليس بشكل لساني فقط. ومعنى هذا أن الإنسان مثلاً حينما يريد أن يشكر الله تعالى على نعمة الطعام، فليس معنى هذا أن يقول: الشكر للّه، أو الحمد لله بلسانه فقط، بل إن عليه أن يتذكّر أنه حينما يريد أن يشكر الله جل شأنه على هذه النعمة أن يوفّر مقدّمات الشكر، فيخرج حق الطعام الذي عليه لعباد الله الفقراء؛ لأن الله جل شأنه حينما رزقه بهذا أمره أن يوسّع علىٰ عباده.

فعلى الإنسان أن يخرج الحقوق الشرعية المتعلّقة بأمواله حتى يصح أن يقال فيه: إنه شاكر، وإلّا فلا. فالنفقة الواجبة مصداق للشكر العملي، ومثلها النفقة المستحبة.

الشكر على نعمة النفس والحياة

إذن فكل نعمة شكرها منها، وما دام الأمر كذلك فلنتوجه إلى نعمة النفوس التي أودعها الله فينا، ومنحنا اياها، ولنرَ كيف يمكن أن يكون شكرها من عين جنسها. إن شكر نعمة النفوس هو الإنفاق منها، وهذا لا يكون إلّا عن طريق الجهاد؛ فالمجاهد إنما يبذل نفسه دفاعاً بها عن الدين والوطن والمقدسات والعرض، فإذا ما بذلت الدماء في هذا المجال فإن هذا يعد شكراً لله على النفس التي وهبنا إياها. وحتماً إن النفس غالية عند الله؛ ولهذا فإنه لا يجوز بذلها بشكل اعتباطي، بل إن ذلك لابدّ أن يكون بشكل مدروس، أي حينما يدعو الداعي إلى ذلك، أما متى يدعو الداعي إلى ذلك، فهو حينما يستوجب الأمر الوقوف بوجه الباطل أو الكفر أو الطغيان، أو الظلم، أو للدفاع عن الدين والمعتقد والمقدسات، وعن حقوق البشر.

وكلّ هذه الجوانب مقدسة تستدعي الشكر عليها عبر الجهاد والتضحية بالدم والنفس من أجلها في ساحات الشرف والقتال، فلابد أن يكون هناك عطاء على مستوى الدم كتعبير حرّ وشريف عن شكر الله تعالى؛ لأن هؤلاء إنما يدافعون عما أمر الله تعالى أن يدافع عنه.

دوافع الإمام الحسين عليه السلام في نهضته

وبعد هذه التوطئة القصيرة لهذا المبحث نود أن نخوض الآن في معرفة دوافع أبي الشهداء وأبيّ الضيم سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين عليه السلام لقيامه بنهضته المباركة تلك، والتي سعى معها لانقاذ حياة الإنسان من الظلم والعبودية. إن المسلّم به هو أن الإمام الحسين عليه السلام هو ابن القرآن، وابن حامل القرآن وحامل رسالة الإسلام أعني النبي محمداً صلى الله عليه وآله. وعليه فإن الإمام الحسين عليه السلام هو ابنه وحامل رسالته وامتداده وامتداد خطه، فما هو الدافع الذي يدفع بالإمام

الحسينعليه السلام لأن يخرج ويبذل نفسه ونفوس أصحابه وأهل بيته، فيشكر الله جل شأنه عن طريق البذل والتعبئة النفسية وغير ذلك؟

التعبئة للقتال

فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا عبّأ الإمام الحسينعليه السلام للحرب؟ إن الإنسان لابدّ له من أن يموت؛ سواء كان على فراشه أو في ساحة القتال، فإذا كان الله تعالى قد كتب له أنه سيموت فإنه سيموت، وحينئذٍ لابدّ له منه، يقول الله تعالى في كتابه الشريف: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[1]. وهذه الآية تنطوي على تعبئة للإنسان نفسياً؛ لأنها تريد أن تهيئه لتقبل الموت في أي لحظة من لحظاته، وطالما أنه كذلك فلتكن ميتته ميتة شريفة أو عزيزة وكريمة؛ إذ أن النتيجة هي أن الإنسان سينتهي إلى هذا المصير، وما دام كذلك فليكن كما قرّرنا. يقول أبو الطيب المتنبي:

ولوَ ان الحياة تبقى لحيّ لعددنا أضلّنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموتِ بدٌّ فمن العارِ أن تموتَ جبانا[2]

وهكذا فإن الحسينعليه السلام إنما نهض على أساس أنه يعبّئ نفسه وأصحابه على خط جده رسول اللهصلى الله عليه وآله نفسِه، ولهذا فإنهعليه السلام لم يكن عنده هدف من الأهداف الصغيرة المنبئة عن صغر الهمة ينهض من أجله، بل إنهعليه السلام وضع نصب عينيه هدفاً كبيراً وضخماً يتّسع للعالم كله، ولهموم المستضعفين وآلامهم وأحلامهم جميعاً؛ لأنهعليه السلام كبير في كلّ شيء، ومن كان كبيراً يستحيل أن يصرف همّه وتحركاته إلى الأهداف الصغيرة.

وقد عبّرعليه السلام عن هدفه الكبير في كتاب دفعه لأخيه محمد بن الحنفية حينما

---

(١) النساء: ٧٨.

(٢) ديوان المتنبّي: ٤٧٤.

أراد الخروج من المدينة المنوّرة، فقد كتب له: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي ﷺ، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ؛ فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بقبول الحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين»[1].

وهكذا فإن هدف الإمام الحسين عليه السلام كان واضحاً منذ البداية، وهو عليه السلام بعد أن بيّن هدفه من التحرك ودوافعه إليه راح يعد العدة لمرحلة التعبئة، فعمد إلى تعبئة أصحابه، ووضع خطته التي خطها بمكة المكرمة عندما كانت الجماهير محتشدة عنده تحت المنبر، حيث وقف عليه السلام ووضع أيديهم على الواقع فقال عليه السلام: «خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني عن أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف! وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي هذه تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً. لا محيص عن يوم خطّ بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه فيوفينا أُجور الصابرين. ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته موطّناً علىٰ لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»[2].

وهكذا خرج عليه السلام وكلّ همه وهدفه أن يخرج قبل أن يباغته الأُمويون وهو في قلب الكعبة؛ إذ أنهم لا مانع عندهم من أن يفعلوا ذلك في بيت الله وينهروا الدماء فيه، فلا مقدسات عندهم ولا حرمات ولا مناطق يحظر الاقتراب منها بسوء، فكل حرام لهم مباح وعندهم حلال، والتاريخ خير شاهد على ما نقول من حرق الكعبة، وهدمها، وقتل عبد الله بن الزبير داخلها[3].

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ٣٨، كشف الغمّة ٢: ٢٣٩.

(٣) انظر في كلّ هذه الخروقات والتجاوزات على بيت الله الحرام: سبل الهدىٰ والرشاد

وكان من سمو روح الحسين عليه السلام وخلقه أن أبى أن يكون المسبب لخرق حرمة الكعبة وانتهاك قدسيتها وإن لم يكن في ذلك مخطئاً؛ فهو عليه السلام مع ذلك أراد للكعبة المشرفة أن تبقى على طهرها ونقائها، ولكرامتها أن تظل محفوظة لا يمسها شيء من دنس ولو بسببه هو فقط. ولهذا فإن الله تعالى أراد لهذا العظيم الذي صان حرمة بيته وحفظ له كرامته أن يصبح مرقده قبلة تطوف بها أرواح الملائكة والمؤمنين، وكأنه جل شأنه يخاطبه بقوله: بما حفظت من بيتي لأجعلن قبرك قبلة للوفاد والزائرين من المؤمنين.

وفعلاً فقد أصبح هذا الضريح كعبة للملائكة، وملاذاً للمؤمنين، ومركز شفاء للأرواح التائهة، يطوف به الملائك وغيرهم، وتهفو إليه نفوس المؤمنين؛ وتكبّ عليه أرواحهم لتمتلئ من ألقه ونوره وقدسيته، وأصبح الملجأ والموئل الذي تسكب فيه المشاعر والعواطف والحب والهوى له ولأهل بيت جده صلى الله عليه وآله وسلم.. المكان الذي تحتضنه الأيدي وهي تمتدّ إليه كلّ لحظة متوسلة ضارعة مستشفعة ترجو نوال الله وعطاءه الدنيوي والأُخروي.

نحر العواطف عند ضريح الإمام الحسين عليه السلام

ومن المعروف أن العرب كانوا إذا مروا بقبر كريم عقروا عنده ناقة، وهذا ما فعله محبّو صاحب هذا الضريح المقدس، غير أنهم لم ينحروا عنده ناقة بل إنهم

(الشامي) ٦: ٢١٤، التاريخ الكبير ٣: ٤ / ١٢، وقد ضعّف السند، سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ ـ ٢٥٢، ٢٦١، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤، / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.

ينحرون عنده عواطفهم ومشاعرهم وقلوبهم، يقول أحد شعراء الطف:

هلمّا معي نعقر هناك قلوبنا ... إذا الحزن أبقاها ولم تتصدّعِ

هلمّا نقم بالغاضرية مأتماً ... لخير كريم بالسيوف موزّعِ

وأوّل قلب نحر عند قبر أبي عبد الله ﵇ هو قلب أُخته الحوراء زينب ﵍، ثم قلوب السبايا من حرم رسول الله عندما مرّوا بهن على الغاضرية وهن في طريقهن.. طريق السباء إلى الشام، فسقطن على قبره صارخات نادبات:

واعيونك يبو السجّاد ... لون يمّك يخلّوني

أحطّ راسي على گبرك ... وارشّه بدمعة عيوني

واگضّي العمر كلّه اهناك ... واگلهم للـيلوموني

شلّي بالعمر بعدك ... شنهو عيشتي بليّاك

* * *

يا نائماً والموت ملء جفونه ... أعلمت من خلّفت كيف ينامُ؟

﴿٢٢٩﴾

مفهوم المواطنة في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

مقدمة: الاستعمار وهوية المواطنة

إن كلّ مجتمع من المجتمعات تنتظمه ظاهرة اجتماعية نسميها ظاهرة المواطنة، وبتعبير آخر إن كلّ فرد يعيش ضمن مجموعة، وفي إطار وطن معين فإنه يعدّ مواطناً. لكن ينبغي هنا التنبّه إلى أن المواطنة مفهوم يصح أن يطلق عليه بأنه من المفاهيم المشكّكة؛ حيث إنها تختلف شدةً وضعفاً عند المواطنين أو أبناء الوطن الواحد؛ فهناك مواطن صادق أو مخلص أو مشدود إلى تربة بلده ووطنه شدّاً وثيقاً لا يكاد ينفصم، ممّا يؤدّي به إلى التضحية في سبيل وطنه أو إلى خدمته بصدق وإخلاص.

كما أن هناك مواطناً يمتاز ظاهراً بصفة المواطنة أما واقع المواطنة فهو غير

---

(١) محمد: ٣٠.

موجود عنده. وهذا الأمر موجود في جميع المجتمعات، فكل مجتمع فيه الإنسان المواطن الصحيح الشريف وفيه من هو غير ذلك، فإن هناك شريحةً يمكن أن نطلق عليها أنها شريحة متسترة بغلاف المواطنة والواقع الذي تعيشه تلك الشريحة غير ذلك جملة وتفصيلاً.

الاستعمار وذوي النفوس الضعيفة من أبناء الوطن

إن مثل هذه الشريحة الوضيعة التي مر الكلام عنها آنفاً هي جزء من مخطط استعماري يسعى المستعمرون دائماً إلى زرعها بين الشعوب، ويحرصون على ذلك كلّ الحرص؛ لأن الاستعمار يستفيد منها فائدةً كبيرة، فهو يهدف إلى السيطرة على تلك الشعوب من خلال هذا المكوّن المنحرف. والأكثر من هذا أنه يطلق عليها قواعد فكرية له حيث ينطلق منها إلى استعمار تلك الشعوب استعماراً ثقافياً قبل أن يستعمرها عسكرياً أو اقتصادياً. كما أنها تمثل كذلك بالنسبة له قواعد مادية تتلخص في كونها أرضاً وسلاحاً في خدمته، يستطيع أن ينطلق منها متى ما أراد لتحقيق أهدافه ومصالحه في ذلك الوطن أو في غيره من الشعوب أو البلدان المجاورة.

فهو إذن يعتبرها قواعد عسكرية أو مادية؛ لأنه يستغلها وينطلق منها في حملاته وجيوشه، وكذلك يعدها قواعد فكرية له؛ لأنه يغرس فيها أفكاره التي يريدها، ومن ثم يقوم هؤلاء بتصدير هذه الأفكار إلى نفوس الآخرين الضعفاء من أمثالهم؛ كي يوجدوا قاعدة أساسية لهؤلاء المستعمرين، يقول أحد أدبائنا:

ما كان أهون شأنه مستعمراً   لو لم يُقم وسط العقول قواعدا

فالواقع أننا نجد أحياناً أن بعض الناس يتّصف بأن لديه قشر مواطنة، وليس لديه مواطنة صالحة وإخلاص للبلد الذي يعيش فيه، ويأكل من خيرات ترابه

وأرضه، ويشرب من مائه، ويتنفس من هوائه.

المبحث الأول: الأساليب الحكيمة في المعالجة

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾، وهي واضحة في بيان أن هؤلاء كانوا يشكّلون خطراً على المجتمع الإسلامي، وعلى هذا الدين الجديد.

لماذا يسكت النبي ﷺ عن معاقبة المنافقين؟

فهذا المقطع الشريف كأنما يخاطب النبي الأكرم ﷺ ويقول له: إن هؤلاء المنافقين الذين اتبعوك واتبعوا المسلمين ظاهراً كانوا مدعاة إثارة للكثير من التساؤلات عند المسلمين، وهي: لماذا يسكت النبي ﷺ عن هؤلاء؟ ولماذا لا يضرب أعناقهم؟ ولماذا لا يوكل أمر ضرب أعناقهم إلينا؛ كي نخلص الأمّة والمجتمع الإسلاميين منهم؟ ولو رجعنا إلى السيرة المعطرة للنبي الأكرم ﷺ لوجدنا أن هؤلاء المسلمين كانوا كثيراً ما يقوم أحدهم إلى النبي ﷺ في بعض الحوادث التي تحدث مع المنافقين فيقول له ﷺ: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه[1].

---

(١) بل حتى مع غير المنافقين، كما حصل مع حاطب بن أبي بلتعة حينما أرسل إلى قريش يخبرهم بموعد توجّه الرسول ﷺ إليهم، حيث قال عمر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، دعني اضربْ عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «إنه قد شهد بدراً». السنن الكبرى (البيهقي) ١٠: ٢٠٨، تفسير السمرقندي ٣: ٤١٣، وفي مسند أبي يعلى ١: ٣٢١ ـ ٣٢٢ / ٣٩٨ قوله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعلّ الله قد اطّلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم؟ وفي تاريخ الإسلام ٢: ١٢٣ قوله ﷺ: «أليس هو من أهل بدر؟ وما يدريك لعل الله قد اطّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد وجبت لكم الجنة؟». أو «قد غفرت لكم؟».

غير أن الرسول الأكرمﷺ يلتفت إليه ويمنعه من هذا الفعل، وكأنه صلوات الله عليه يقول له: إن المسألة ليست مسألة ضرب أعناق، وإنما هي عبارة عن منظومة أو سلسلة من المعالجات الحكيمة الواعية التي ينبغي أن تتخذ ضد هؤلاء أو معهم؛ كي يمكن السيطرة عليهم أو التغلب عليهم، أي أن الامتناع عن ضربهم يرجع إلى عدة أُمور، منها:

الأمر الأول: أن قتلهم يثير حفائظ قبائلهم

فهؤلاء لم يأتوا من الصحراء أو لم تنبتهم الصحراء حتى يمكن أن يقال: إن ضرب عنق أحدهم أمر سهل، بل إنهم مرتبطون بقبائل وهناك خلفهم الكثير من الرجال الذين يسندون ظهورهم والذين يقفون معهم. فهم تربطهم وشائج مع قبائلهم، وهم وإن كانوا مشركين يجوز قتلهم لشركهم ونفاقهم لكن هذا الأمر سوف يترك أثراً سيئاً وسلبياً في نفوس أبناء قبائلهم أو أبناء عمومتهم وأبنائهم وأولادهم، وهذا ما لا يريده الإسلام.

إذن فالمسألة أن علاج هذه المشكلة لا يمكن أن يتصور على أنه بهذه السهولة المتقومة بضرب عنقه وتنتهي المشكلة، بل إنه يجب على المسلمين أو الصحابة أن يلتفتوا إلى أن علاج هذه المشاكل ليس سهلاً كما يظنونه أو كما يتصورونه، بل إنه بحاجة إلى معالجة واعية يستطيع النبي الأكرمﷺ من خلالها القضاء عليهم تدريجياً دون أن تكون هناك إثارة للمسألة التي أشرنا إليها، وهي ذلك الأثر السيّئ الذي يتركه قتلهم في نفوس ذويهم وأبنائهم، مما ربما يؤدي بهؤلاء إلى طلب ثأرهم.

الأمر الثاني: إشاعة أن النبيﷺ يسلب حريات الآخرين

فحينما يقدم الرسولﷺ على قتل هؤلاء فإن المنافقين سوف يرجفون أن

الرسول إنما قتل هؤلاء؛ لأنهم عبروا عن آرائهم وعن مذاقاتهم في الحياة الدينية أو السياسية، وهذا يعني أن الرسول الأكرمﷺ يعمد إلى سلب الآخرين حرياتهم، وإلى الضغط عليها دون إعطائهم حقّ التعبير عن الرأي وعن المعتقد، وحق حرية التعبير عما يريده كلّ إنسان.

الأمر الثالث: إشاعة أن النبيﷺ يقتل أصحابه

إن هؤلاء بما أنهم مسلمون ظاهراً وإن كانوا منافقين باطناً، لكنهم محسوبون على الإسلام؛ لأنهم قد نطقوا بالشهادتين أمام الناس، وحينما يقدم الرسول الأكرمﷺ على قتلهم فإن هذا سوف يكون مدعاة لغيرهم من المنافقين إلى الإرجاف في المدينة أو غيرها من البلاد بأن الرسول الأكرمﷺ يقتل أصحابه.

قتل امرئ جريمة وقتل شعب فيه نظر[1]

إننا نجد في واقعنا الذي نعيشه قضايا تلفت النظر؛ لغرابتها، ولازدواجية التعامل معها والمعايير التي يتم بها التعامل مع تلك القضايا.

إن الكثير من الناس حينما يقتلون شعباً كاملاً دون أي ذنب أو دون أي مبرّر فإنهم لا يتألّم ضميرهم، ويمر الأمر وكأنهم قد قتلوا مجموعة من الحشرات الضارة، في حين أن هذه الأُمم المستضعفة التي تتعرّض لإباداتهم ومحاربتهم ومحاولاتهم للقضاء عليهم حينما تحاول أن تعاقب بعض المشعوذين أو بعض الشاذّين عن قواعد الأخلاق أو عن القانون فإن هؤلاء يستيقظ ضميرهم لأجل هذه الثلة الشاذّة أو الضارة فيثيرونها ضجة تقوم ولا تقعد، ويروحون يدّعون ما

---

(١) إشارة إلى قول الشاعر:

قتل امرئ في غابة   جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن   مسألة فيها نظر

ليس حقاً، ويصمون هذه الأمم بأنها تعتدي على حقوق الإنسان، وأن الإنسان في تلك الدولة محارب ومعتدىً عليه ومنتهكة حقوقه.

والواقع أن المسألة مع الرسول الأكرم ﷺ كانت من هذا النمط والآية الكريمة حينما تقول للرسول الأكرم ﷺ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ فإنها كأنما تريد أن تقول له: إننا لا نريد هذا لأسباب معينة ربما تخفى على كثير من المؤمنين أو من الصحابة؛ ذلك أن هذا الأمر لو حصل لحصلت كنتائج مترتبة عليه مشاكل كثيرة وكبيرة، وفساد أكبر.

قاعدة التزاحم بين المهم والأهم

إن هناك قاعدة عقلية لها تطبيقات كثيرة في الموارد الشرعية هي قاعدة التزاحم بين المهم والأهم؛ فكل مورد يتزاحم فيه أمران أحدهما مهم وضروري لصالح الناس أو لصالح الدولة، والآخر أهم منه ويصب في المصب نفسه فإن العقل والشرع حينئذٍ يحكمان بأن على المتصدّي للأمر أن يقدم الأهم على المهم درءاً للمشاكل التي ربما سوف تحدث مما قد لا يمكن أن ينتبه إليه عامة الناس أو ممن هم ليسوا على ثقافة كبيرة أو مقدرة عالية من التفكير بعواقب الأُمور، وما ستؤول إليه في المستقبل.

ولو أردنا أن نطبق هذا الأمر على موردنا موضوع آية المقام فإننا نقول: إن هناك أمرين في البين: أحدهما مهم، هو كشف المنافقين لكي يحذرهم الناس، ولكي يجتنبوهم حتى لا يقعوا تحت طائلة تأثيرهم أو تصرّفاتهم، والثاني أهم منه، وهو أن هذا الكشف يترتب عليه فساد كبير ينبغي دفعه [1].

---

(١) ومعلوم عند الأُصوليين أن درء المفسدة أولى من جلب المنفعة. فإذا كان هناك منفعة ببيان أسماء المنافقين وهوياتهم، فإن هناك مفسدة تترتب على هذا وهي ما أشار إليه

ولهذا شواهد تاريخية كثيرة منها مثلاً مسألة عبد الله بن أبي الذي كان رأس المنافقين، لكن مع هذا اضطر النبيﷺ إلى أن يهادنه، وحينما مات جاء ابنه للنبيﷺ وقال له: أعطني قميصك حتى أكفنه فيه، وصلِّ عليه، واستغفر له. فأعطاه قميصه، ثم قال: «إذا فرغتم فآذنوني». فلما أراد أن يصلي عليه جاءه عمر وقال: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين؟ فقالﷺ «أنا بين خيرتين؛ قال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ﴾[1]». قال: فصلى عليه[2].

يقول البعض: إن موقف النبيﷺ من جنازة عبد الله هذا وتجهيزه قد أسلم بسببه ألف من أصحابه، وهذا يعني أن النبيﷺ كأنما أراد أن يقول لأصحابه: إنني أعرف أن هذا منافق، لكني أردت بهذا الفعل أن أفتح الطريق أمام مجموعة كبيرة من أصحابه إلى الإسلام، وأن أُضيف إلى الأُمّة الإسلامية عناصر جديدة تقف معه وتسانده.

ثم إن الله تبارك وتعالى كما هو معلوم في مسألة الزكاة قد فرض لمن أسلموا بالقلب دون اللسان فرضاً منها، وهم المؤلّفة قلوبهم، فلمّا جاء الخليفة الثاني قال: إنما فرض الإسلام سهماً لهؤلاء لأنه كان ضعيفاً، أما وقد قوي الآن فلا حاجة له بهم، ولا بإعطائهم، فمنع هذا السهم عنهم[3].

ولهذا فإن بعض الفقهاء قد اعترضوا عليه وأشكلوا وقالوا: لو أن العلة كانت

المحاضر من ضرورة قتلهم حينئذٍ، ووقوف قبائلهم خلفهم مطالبين بدمائهم؛ ممّا يؤدّي إلى إضعاف الإسلام.

(١) التوبة: ٨٠.

(٢) التبيان ٥: ٢٧١، بحار الأنوار ٢١: ١٩٩ ـ ٢٠٠، مسند أحمد ٢: ١٨، صحيح البخاري ٧: ٣٦، السنن الكبرى (البيهقي) ٨: ١٩٩، سنن النسائي ٤: ٣٦ ـ ٣٧.

(٣) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧،البداية والنهاية ٣: ٦٣.

مجرد التأييد لكان هذا الإشكال وارداً، غير أن القصد ليس مجرد ذلك، أو أن النبي ﷺ أراد أن يتألفهم أو يؤلفهم، إذ ربما يكون هناك سبب غير هذا لم نلحظه نحن ولحظته الحكمة الإلهية ولحظه الرسول ﷺ. فهذا ليس ممّا يعبّر عنه الفقهاء بأنه علّة يدور مدارها وجوداً وعدماً بل ربما تكون هناك مصلحة أُخرى خفيت علينا غير مسألة تأليف قلوب هؤلاء، كأن يقوم بدور دعائي للإسلام لإدخال كثير من الناس إليه كما هو دأب رسول الله ﷺ وتوصياته.

ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر فقد رأيت لبعض المعترضين على الحوزة العلمية رأياً يعترض فيه على نمط الدراسة، فيقول: لماذا نجد أن الحوزة العلمية لا تزال تدرس بعض الأبواب الميتة كباب الرق، وتصرف عليه وقتاً طويلاً مع أن هذه المسألة قد ماتت وانتهت منذ زمان طويل؟ إذن فهذا المعترض يعترض بأن الرق قد انتهى، وحينئذٍ لا داعي لهدر الوقت على دراسة التشريعات المختصة به، فبانتهائه انتفت الحاجة إلى دراسة قوانينه ونظمه وتشريعاته، وأصبح من باب القضية السالبة بانتفاء موضوعها.

والحقيقة إن هذا التصور غير صحيح مطلقاً؛ ذلك أن بعض الكتّاب المغرضين لا زالوا إلى الآن يشنون حملة شعواء قذرة مفادها أن الإسلام أقر العبودية، مع أن الإسلام في حقيقة الأمر لم يقرها وإنما جاء ليعالجها، فقد جاء وكانت أمراً واقعاً لا مفرّ منه، ومعمولاً به، فهو إذن كان حالة قائمة معمولاً بها في كلّ المجتمعات آنذاك.

والأمر لا يقف عند هذا الحدّ بل إنه يتجاوزه إلى ماهو أهم منه، وهو أن نظام الرق كان المحور الذي تقوم عليه الأُمم والمجتمعات حينذاك، من حيث إدارة شؤون الدولة أو إدارة شؤون المجتمعات على أصعدتها كافة. فالرقيق كانوا

يديرون المجتمع كله، ويمكن تشبيههم الآن بالتيار الكهربائي الذي يعتبر المحرك لكل الأجهزة الميكانيكية والكهربائية والإلكترونية التي تعمل هذا اليوم، فإذا ما قطعنا هذا التيار أو ألغيناه، فإن جميع هذه الأجهزة سوف تتوقف وبالنتيجة فإن الحياة ستتوقف.

وكذلك مسألة الرق آنذاك؛ فالعبيد كانوا يشغّلون كلّ موارد الحياة في تلك الأزمنة، فكان هؤلاء يقومون بالزراعة، وأكثر موارد الصناعة، والرعي والسقي، وفي النشاطات الحياتية الأُخرى كافّة. ولذا كان إيقاف هذا الجانب أو القضاء عليه يعني شلّ حركة المجتمع وموته، وهذا ما لا يريده الإسلام، فضلاً عن الإنسان بشكل عام.

ولهذا فإننا نجد أن الإسلام لم يحرمه دفعة واحدة، بل إنه حرمه عبر المحاولات التدريجية لعلاجه والقضاء عليه. ومسألتنا التي نحن بصددها من هذا النوع، ذلك أن الآية الكريمة تقول: إننا لو أردنا أن نكشف لك عن هؤلاء المنافقين ونواياهم وما هم عازمون على فعله لفعلنا، لكننا لا نريد لهذا أن يحدث، ولا نريد أن تجسّد هذا المعنى؛ لأنه معنى يترتب عليه فساد أكبر من تلك المصلحة المترتبة على كشف هؤلاء وفضحهم؛ ذلك أن الأفسد يدفع بالفاسد لو اضطر العاقل إلى ذلك.

ونحن عندنا؛ سواء في التشريعات المختصّة بحياتنا العملية، أو في تشريعاتنا الأُخرى تطبيقات كثيرة على هذا المجال، لكنني لا أُريد أن أخوض فيها ونحن في هذه العجالة.

إذن فالآية الكريمة تقول: لو أننا أردنا أن نسلط الأضواء على هؤلاء، لسلطناها عليهم ولفضحناهم، لكن المجتمع سوف يتخلخل بهذا، وحينئذٍ فإن الإسلام سوف

يتعرض إلى الخطر، ووحدة المجتمع الإسلامي سوف تتزلزل، وسوف تمتدّ إليها يد التفكّك والتحلّل، وهذا ما لا يريده الله تبارك وتعالى لدينه الحنيف ولمجتمعه الذي يحاول بناء هذا الدين.

إن كلّ واحد منّا يعلم أن المجتمعات إذا حدثت فيها نزاعات داخلية واشتغل أهل ذلك المجتمع بتلك النزاعات عن ملاحظة أنفسهم وملاحظة غيرهم وملاحظة تطوّرهم، وتدخّل أهل النفاق في تأجيج ذلك الشقاق وترسيخه، وإشعال إواره، فإن ذلك المجتمع حينئذٍ سوف يكون أشبه شيء بجسم مصاب بداء عضال داخلي ينخره وتعمل معاول الهدم فيه حتى يقضى العليه دون أن يستطيع أن يتكيف مع المحيط الخارجي الذي يعيش فيه، أو أن يتابع التطورات الحاصلة فيه. فهو إما أن يموت أو يتأخرّ عنهم تأخراً كبيراً.

وهذه الحكمة التي تنادي بها هذه الآية الكريمة، والتي من أجلها لم ترد أن تفضح هؤلاء يمكن تشبيهها بالمناعة التي تعمل داخل جسم الإنسان، فكما أن المناعة التي وضعها الله داخل جسم الكائنات الحية تعمل على دفع الأخطار ودرء الأمراض عن جسم الإنسان، وتتوجه للدفاع عنه كلما ما دهمه مرض، فإن هذه الآية بهذه الحكمة وبهذا التصرف تتوجه إلى الدفاع عن المجتمع الإسلامي وإلى درء الخطر عنه ودفعه بعيداً؛ كيلا يصاب بهذا المرض الاجتماعي الذي أشرنا إليه، وهو المرض الذي يؤدي به إلى التخلخل والتحلل والضياع، وربما الموت بالنتيجة. وإن لم يحصل الموت فإنه سوف يعيش حالة من الاضطراب دون أن يلحق بركب العوالم الأُخرى.

وهكذا فإننا نعرف أن الجسم حينما يصاب بمرض، ثم تتوجه جرثومة ما إليه فإن المناعة سوف تكون ضعيفة العمل ضدّ هذه الجرثومة، وكذلك الجسم المسلم

وأعني به المجتمع الإسلامي ككل، الذي يشبه بجسم واحد[1]، فإنه حينما يتعرض إلى مثل هذه الحالة المرضية وإلى حالة من النزاعات الداخلية فإنه سوف تضعف مقاومته فيما إذا تعرض إلى خطر خارجي، أو داهمه الأعداء؛ لأنه حينئذٍ يكون منشغلاً بمشاكله الداخلية عن ملاحظة ما يتعرض له في الخارج.

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن حدوث مثل هذه النزاعات داخل المجتمع تؤدي إلى إضعاف أواصر الأُخوّة والروابط بين المسلمين، وبالتالي تؤدي إلى إضعاف وحدتهم، وإلى تفكيك اتّحادهم، وهو ما يؤول إلى ضعف مقاومتهم للعدو الخارجي، وبالنتيجة فإنهم سوف ينهزمون أمام أي خطر خارجي يتهددهم أو يغزوهم.

المجتمع والأسرة كيان واحد وهدف واحد

وهكذا فإننا نجد أن الآية الكريمة تقرّر أن وحدة المسلمين وتكاتفهم وتآزرهم أهم بكثير من تسليط الأضواء على المنافقين وكشف أسمائهم ونواياهم. ومثل المسلمين في مجتمعهم مثل الأُسرة الصغيرة التي تعد اللبنة الأُولى في المجتمع، فهذه الأُسرة المتكوّنة من الأبوين والأبناء حينما يشذّ أحد أبنائهم فإنهم قطعاً لا يتوجهون إلى فضح هذا الابن أمام الناس وإلى توبيخه أو معاقبته أمامهم؛ لأن هذا سوف يكون مدعاة إلى حصول حالة من حالات انهيار الأُسرة أو تدميرها؛ إذ أن هذا الولد ربما تأخذه العزّة، فيعتدّ برأيه ويصرّ على، أو ربما تأخذه حالة من العناد، فيهرب من أُسرته دون أن يعالج خطأه، أو دون أن

---

(١) كما في الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ ، وهو قوله: «مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». مسند أحمد ٤: ٢٧٠.

يصحح مساره وطريقة حياته، وبالتالي فإن الأُسرة تكون قد ثلمت ثلمة بفقدانها أحد أبنائها دون أن تعالجه.

أما إذا لجأت هذه الأُسرة إلى معالجة هذا الأمر، ودفعت هذا الفساد الكبير بالسكوت عن فضح ابنها مع محاولة معالجته بحكمة، فإنها ربما تحقق الهدف الذي تريده، وهو الإبقاء على وحدة هذه الأُسرة ومتانة كيانها.

إننا نجد هنا أن الحكمة تقضي بأن يعمد رب الأُسرة إلى أن يؤدي دوره بتمام المسؤولية التي ينبغي أن يتحلى بها، وأن يعالج الموضوع بعقل وروية وهدوء حتى لا يسيء إلى سمعته وإلى سمعة أُسرته بفضح ابنه، وحتى يبقى محافظاً على هذه الأُسرة التي أُمرنا بالمحافظة عليها والإبقاء على هيكليتها؛ كي تبقى صورته وصورة أُسرته ناصعة محفوظة أمام المجتمع وأمام الناس، وتبقى تلك العلاقات التي تربطهم مع بعضهم نظيفة دون أن تشوبها شائبة، أو دون أن تكدّرها أكدار سوء التصرّف في أمثال هذه الأُمور.

وبما أن المسلمين معاً يعتبرون جسداً واحداً أو أُسرة واحدة فإن الحال ينطبق عليهم تماماً، وتكون المسألة هنا من هذا الأمر عينه، وهذا ما نجده من خلال تأكيد الآية الكريمة على هذا الأمر بأنها تقول للرسول الأكرم: إننا لو أردنا أن نطلعك على أسماء هؤلاء ونواياهم لأطلعناك، لكننا لا نفعل هذا ولا نسلط الأضواء عليهم، بل نترك لك أمر معالجتهم ومكافحتهم بالطرق العقلية التي يمكن أن تؤدي إلى حدوث مصلحة، بالإضافة إلى دفع مفسدتهم دون أن يكون العلاج مقتصراً فقط على دفع المفسدة فقط، وهو فيما لو قتلناهم، بل إنه ربما يكون علاجاً جالباً لمفسدة أكبر كما ذكرنا، وهو ذلك الأثر الذي يخلفه قتلهم في نفوس ذويهم وأبنائهم ومن يمتّ إليهم بصلة قرابة أو دم.

تقييم الصحابة وفق المقاييس القرآنية

وهنا أود أن أُنوه إلى أن هؤلاء كان معظمهم يعيش مع النبي ﷺ؛ ولهذا فإن البعض يعدهم من الصحابة، ومن هنا جاءت المصيبة القاتلة للمسلمين. إن البعض من المسلمين يتطاول على الشيعة فتمتد كلماته وكتاباته إليهم بالتكفير والسباب؛ بحجة أنهم يتهجّمون على الصحابة ولا يجلّونهم أو يبجّلونهم، وأنا كإنسان شيعي أتكلم نيابة عن هذه الطائفة، فأقول: معاذ الله من هذه التهمة الجائرة، إننا لا نكنّ أي عداء لأي شخص لا يستحق ذلك العداء، فنحن ليس من صفتنا الاعتداء على الآخرين، وكل ما نقوم به هو التقييم وليس الشتم.

ونحن بهذا إنما نتبع منهج القرآن الكريم الذي سلط الأضواء على بعض الناس ممن عاصر النبي ﷺ وعايشه وهم الذين يطلق عليهم إلى الآن لفظ الصحابة مع أن أغلبهم كانوا منافقين، وإلّا فبربّك هل يمكن أن نجعل من حاطب بن أبي بلتعة وأبي بكر على حد سواء؟ إن هذا غير صحيح؛ فكل واحد منهما له قيمته وله وزنه. وهنا نقول: إن الصحبة لو كانت عاصمة لصاحبها من أن تطاله يد النقد لما سلط القرآن الكريم الأضواء على هؤلاء وهتك سرّهم، ولما بيّن فعال الكثير منهم ممن كان في حقيقته يضمر سوءاً للإسلام فيحاول أن يمرر هذه النوايا عبر تلك الصحبة التي يريد أن يستغلها: **﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾**[1].

كما أن هناك سورة كاملة قد نزلت في خصوص المنافقين ووصفهم وبيان مساوئهم ومثالبهم. وأنا لا أُريد أن أتوسع كثيراً في هذا الموضوع؛ كيلا يجري هنا

---

(١) التوبة: ١٠١.

المثل الشعبي القائل: «امرأة مكروهة وقد ولدت بنتاً». وهنا أود أن أُلفت النظر إلى أحد أبرز مفسري إخواننا أهل السنة أعني القرطبي، وهو من خيرة فقهاء المالكية ومفسريهم، وأنا شخصياً أكنّ كثير احترام لهذا الرجل، وأُجلّه لما له من مواقف في موارد كثيرة، كما أن تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) في واقع الأمر تفسير جليل، له ثقله ووزنه بين كتب التفسير في المكتبة الإسلامية. وحينما يتناول فيه تفسير الآية (١١٠) من سورة (آل عمران)[١] نجد أنه قد عقد فصلاً في

---

(١) قال: «وذهب أبو عمر بن عبد البر إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة، وإن قوله ﷺ: «خير الناس قرني» ليس على عمومه؛ بدليل **ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول**. وقد جمع قرنه جماعة من **المنافقين المظهرين للإيمان وأهل الكبائر الذين أقام عليهم أو على بعضهم الحدود**... وقال ﷺ لخالد بن الوليد في عمار رضي الله عنه: «**لا تسب من هو خير منك**».

وروى أبو أُمامة أن النبي ﷺ قال: «**طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى سبع مرات لمن لم يرني وآمن بي**».

وفي مسند أبي داود الطيالسي عن محمد بن أبي حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فقال: «أتدرون أي الخلق أفضل إيماناً؟... **أفضل الخلق إيمانا قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولم يروني**، يجدون ورقاً فيعملون بما فيها»... عن أبي جمعة قال: قلنا: يا رسول الله، هل أحد **خير منا**؟ قال: «**نعم**، قوم يجيئون من بعدكم فيجدون كتاباً بين لوحين، فيؤمنون بما فيه، ويؤمنون بي ولم يروني...».

وروى أبو ثعلبة الخشني عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أمامكم أياماً الصابر فيها على دينه كالقابض على الجمر، للعامل فيها أجر خمسين رجلاً يعمل مثل عمله». قيل: يا رسول الله، منهم؟ قال: «**بل منكم**»... قوله ﷺ: «**أُمّتي كالمطر، لا يدرى أوله خير أم آخره**»...

وروي أن عمر ابن عبد العزيز لما ولي الخلافة كتب إلى سالم بن عبد الله أن اكتب إلي بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها. فكتب إليه سالم: **إن عملت بسيرة عمر، فأنت أفضل من عمر**؛ لأن زمانك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر. قال: وكتب إلى فقهاء زمانه، فكلهم كتب إليه بمثل قول سالم.

وقد عارض بعض الجلة من العلماء قوله ﷺ: «خير الناس قرني»، بقوله ﷺ: «**خير الناس من طال عمره وحسن عمله**، وشرّ الناس من طال عمره وساء عمله». قال أبو عمر:

الصحابة وبيان صفاتهم وما يتعلق بهم، وأنا أقول هنا: إني أُقسم بأن فقهاءنا لا يقولون غير ما يقوله هذا الرجل. وهذا إنما يدل على أننا لا نملك أي عداء مع أحد من المسلمين، وليس عندنا نية في التجريح بشخص دون أن تكون هنالك أسباب علمية أو موضوعية لذلك.

إن الزمن الذي عاش به رسول الله ﷺ هو سيد الأزمان، والرواد الأوائل من الصحابة هم حملة الإسلام ونحن واقعاً نتبرك بتراب أقدامهم، لكن هذا الأمر لا يطلق على علّاته ولا على عواهنه، بل إن هناك موازين وضعها القرآن الكريم ونحن نتبعها في هذا المجال أعني مجال التقييم. فكما أن القرآن قيّم كثيراً من الصحابة ووضع نقاطاً عامة لتحديد هوية الصالح منهم من غيره، فنحن إنما نفعل ذلك ونهتدي بهدي القرآن ونقتدي به في كلّ حال في هذا المجال، ونقيم كما قيّم

فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها التسوية بين أول هذه الأُمّة وآخرها. والمعنى في ذلك ما تقدم ذكره من الإيمان والعمل الصالح في الزمان الفاسد الذي يرفع فيه من أهل العلم والدين، ويكثر فيه الفسق والهرج، ويذلّ المؤمن ويعزّ الفاجر، ويعود الدين غريباً كما بدأ غريباً، ويكون القائم فيه كالقابض على الجمر، فيستوي حينئذٍ أول هذه الأمّة بآخرها في فضل العمل، إلّا أهل بدر والحديبية». الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٧١ ـ ١٧٣.

وفي رواية عن عمر بن الخطاب قال: لما مرض النبي ﷺ قال: «ادعوا لي بصحيفة ودواة اكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً». **فكرهنا ذلك أشد الكراهة**، ثم قال: «ادعوا لي بصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً». فقال النسوة من وراء الستر: ألا تسمعون ما يقول رسول الله ﷺ؟ فقلت: إنكن صويحبات يوسف؛ إذا مرض رسول الله ﷺ عصرتن أعينكن، وإذا صحّ ركبتن عنقه. فقال رسول الله ﷺ: «**أحزنتني؛ فإنهن خير منكم**». «**دعوهن؛ فإنهن خير منكم**». الطبقات الكبرى ٢: ٢٤٣ ـ ٢٤٤، المعجم الأوسط ٥: ٢٨٨، كنز العمّال ٥: ٦٤٤ / ١٤١٣٣، ٧: ٢٤٣ / ١٨٧٧١.

وقال ﷺ لأنس: «يا أنس، أو في الأنصار خير ـ أو أفضل ـ من علي؟». انظر: الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٠، أُسد الغابة ٤: ٣٠، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٢٤٩، ٥١: ٦٠، كنز العمّال ١٣: ١٦٧ / ٣٦٥٠٧. فهذا ينبئ عن أن الصحابة ليسوا الأفضل مطلقاً.

القرآن وكما قيم نبي الإسلام نفسه ﷺ، والاّ فإننا لا نحبّذ الشتم ولا الاعتداء، ولا نحبّ ذلك ولا نريده أبداً.

إثارتان حول اللعن

ولذا فإن في المقام نقطتين ينبغي الإشارة إليهما، هما:

الأولى: أن اللعن دون مبرّر شرعي أمر مستقبح

إن من المعلوم أنه ليس هناك من مسلم يؤمن بالله وبرسوله وهو يحب أن يشتم حملة فكر النبي ﷺ أو حملة فكر القرآن، لكن من يشخّصه القرآن الكريم ويشير إليه على أنه حالة غير طبيعية وصورة شاذّة فإننا نفعل هذا الفعل عينه، ونقيمه هذا التقييم نفسه؛ لأنه ما لم يكن الأمر كذلك فإنه ينقلب إلى حالة الإساءة إلى الإسلام، وإلى منهجه وإلى قوانينه ككل. فمن يمدحْه القرآن والسنة النبوية المطهرة نمدحْه، ومن يذمّاه نذمَّه.

الثانية: ضرورة إخضاع الصحبة لميزان العقل الذي تعبّدنا الشارع به

لقد قلنا: إن الله تبارك وتعالى قد تعبدنا بالعقل، ولا يجوز لنا أن نتقول على من صاحَب النبي ﷺ أو أن نشتمه أو أن نسبّه دون أن يكون هناك مسوغ شرعي لذلك عن طريق القرآن أو عن طريق السنة النبوية المطهرة، لكننا في مقابل هذا لا نريد بحكم هذا العقل الذي تعبدنا الله به أن نحكم على من صاحب الرسول ﷺ أو رآه فترة قصيرة جداً بأنه قد اكتسب مناعة ضدّ النقد، فهذا غير مقبول؛ ذلك أننا نعتبر الإسلام أسمى من هذا الشخص وأعزّ علينا منه ومن بعض الأفكار المهلهلة. بل إن هذا الفكر في واقع الأمر وفي حقيقته فكر مهلهل لا يصمد أمام النقد المبتني على الوقائع التاريخية، وعلى ضوء التقييم القرآني أو تقييم السنة النبوية المطهرة لهذا الواقع.

رجـع

إذن فالآية الكريمة تقول للرسول الكريم ﷺ: إننا نستطيع أن نسلط الأضواء على هؤلاء ونفضحهم، لكننا لا نريد ذلك لأن هؤلاء كانوا ذوي علائق ووشائج بمجتمعات تحيط بهم وقبائل ينتمون إليها، مع أن هؤلاء كانوا قد أتعبوا النبي ﷺ وآذوه في كثير من المواطن؛ فمثلاً كان بعضهم يتجسّس على النبي ﷺ، وكان البعض الآخر يتفق مع المشركين ضدّه، وما إلى ذلك من أشياء كانت تسيء إلى الرسول الأكرم ﷺ وإلى الإسلام، وإلى الدولة الإسلامية الفتية.

وبهذا فإننا نقول: إن هؤلاء كانوا يسببون المتاعب والمصاعب للرسول الأكرم ﷺ فضلاً عن أن الكثير منهم كان يسبب المتاعب للمسلمين بشكل عام، ومن هذا ما يروى من أن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ اغتابا رفيقهما سلمان حيث بعثاه إلى رسول الله ﷺ ليأتي لهما بطعام، فبعث إلى أُسامة بن زيد، وكان خازن رسول الله ﷺ على رحله، فقال: ما عندي شيء. فعاد إليهما، فقالا: بخل أُسامة، وقالا في سلمان: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسّسان عند أُسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ، فقال ﷺ لهما: «ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟». فقالا: يا رسول الله، ما تناولنا يومنا هذا لحماً. فقال ﷺ: «ظللتم تأكلون لحم سلمان وأُسامة»[١].

ومن هذا النمط أفراد كثر، ونحن كمسلمين لا نقيم أمثال هؤلاء بخلاف ما قيمهم القرآن أو قيمتهم السنة النبوية الشريفة؛ ذلك أن كلّ مسلم لا يمكن له أن يتعدى هذا الخطّ ولا يسعه أن يتخطاه، وأن يضع له خط تقييم مستقلاً وخاصّاً به

---

(١) مجمع البيان ٩: ٢٢٥، بحار الأنوار ٢٢: ٥٤، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٣٣٠ ـ ٣٣١.

بعيداً عن خط القرآن الكريم والسنة الشريفة، والعقل تلك الجوهرة التي منحنا الله اياها وجعلها مناط التكليف ومناط قبول الأعمال وصحتها، وتعبدنا بها وأمرنا بالمحافظة عليها وباستعمالها وعدم تحييزها أو تحجيمها أو دفعها عن أداء وظيفتها.

المبحث الثاني: في المقصود من لحن القول

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، وفي هذا المقطع الشريف ثلاثة آراء للمفسرين حول قوله تعالى: ﴿لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، هي:

الرأي الأول: عدم ترتيب أثر على القول

وهذا يعني مثلاً أن المنافقين حينما يأتون إلى النبي ﷺ ويقولون له: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[1]، فهم في واقع الأمر كاذبون ومخادعون؛ لأنهم كانوا يقولون شيئاً ولا يرتّبون عليه أثراً، فيقولون: هذا رسول الله دون أن يكون هنالك أي أثر واضح أو ملموس لهذا القول على تصرفاتهم أو علاقاتهم برسول الله ﷺ أو بالمسلمين. وبمعنى آخر فإن هؤلاء يقولون بألسنتهم ما لا يطبقونه، وهم عندهم لحن خاص أو لغة خاصة يخدعون الناس من خلالها بأقوالهم المعسولة التي لم تكن في يوم من الأيام خاضعة للغة التطبيق.

ولتوضيح هذا المعنى أكثر ولتقريبه إلى الأذهان نذكر بعض الأمثلة على ذلك من خلال واقع المسلمين وسيرتهم، فابن حجر مثلاً صاحب كتاب (تهذيب التهذيب) ـ وهو كتاب مختص بذكر سير الأشخاص وتراجمهم وحياتهم ـ حينما

---

(١) المنافقون: ١.

يتناول ترجمة الإمام علي عليه السلام يروى هذه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حقه مخاطباً فاطمة عليها السلام: «**زوّجتك خير الناس من بعدي**»[١].

وإذا كان الأمر كذلك، وهو أن أمير المؤمنين عليه السلام خير البشر، فهل إن ابن حجر نفسه قد رتب على هذا الحديث الشريف أثراً بالنسبة لاعتقاداته أو كتاباته؟ إن هذا الحديث الذي يرويه ابن حجر ـ كما ذكرنا ـ ويرويه غيره من علمائهم[٢] بسند صحيح لم يرتب عليه أي شخص من هؤلاء أي أثر مطلقاً، ولو أنهم رتبوا على ذلك أثراً لما كان موقفهم ماهو عليه في ذلك الوقت أو في هذا الوقت من أمير المؤمنين عليه السلام.

ونحن نقول في المقام: إن هذا الحديث الشريف الذي ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل إن له معنى، أم ليس كذلك؟ وحتماً لا يجرؤ أحد على أن يقول: إن كلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليس له معنى؛ لأنه يستلزم أحد أمرين: إمّا كفر صاحبه والقائل به، وهو ما لا يرتضيه أحد منهم، أو عبثية أن يذكره أحد في كتبه أو مدوناته. وما دام الأمر كذلك ـ أي أن له معنى خاصاً ـ فلماذا إذن لا يعمل بهذا المعنى الذي أشار إليه الحديث الشريف، ولا يرتب أحد عليه أثراً يستوحيه من ذلك المعنى الذي يتضمنه؟ وما دام الأمر كذلك وهو أن الإمام علياً عليه السلام خير البشر، فلماذا يُقدم عليه غيره؟ ولماذا يؤخذ الحكم الشرعي من غيره ويترك الحكم الشرعي الذي

---

(١) لم نعثر عليه في نسخة (تهذيب التهذيب) التي بين أيدينا بهذا اللفظ، غير أنه ورد فيه بلفظ: زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة. تهذيب التهذيب ٧: ٢٩٦، وفي لسان الميزان ٣: ٥٤ قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «زوجتك سيداً في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين». ومثله في ج ٦ ص ٩ منه.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى ٨: ٢٤، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ١٢٦، كنز العمّال ١١: ٦٠٥ / ٣٢٩٢٦، ١٣: ١٣٥ / ٣٦٤٢٣، وفيها: «خير أهلي».شرح نهج البلاغة ٤: ٩٦، الفصول المهمة في معرفة الأئمة (ابن الصبّاغ المالكي) ٢: ١١٦٨، وفيهما: «زوجتك خير أُمّتي».

ينسب إليه؟

إذن فهذا هو معنى هذاالمقطع الشريف من الآية الكريمة، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾، فهو يعني أن هؤلاء يقولون ما لا يفعلون، ويتكلمون بأشياء لا يرتبون عليها أي أثر. وهذه الظاهرة ببالغ الأسف الشديد موجودة في مجتمعاتنا حتى الآن، فهي ظاهرة لا تزال تعيش معنا، ولا تزال يتّصف بها الكثير من أبناء هذا الدين وتصبغ تصرفاته أو تصرفاتهم وحركاتهم وكتاباتهم، مع أن هذا المجتمع الذي نعيش فيه هو مجتمع مسلم، ونحن حينما نقول: مجتمع مسلم، فهذا يعني أنه يجب أن يكون مجتمعاً ملتزماً بآداب الإسلام، ومتخلقاً بأخلاق الإسلام، ومتشبعاً بتعاليم الإسلام وقيمه وثقافاته، ومطبقاً لقوانينه وأحكامه، ومنقاداً لتلك المنظومة الأخلاقية التي رسمها له رسول الله ﷺ عبر أقواله وأفعاله، وحركاته، وسكناته، وتصرفاته كافة.

والغريب ـ وهو الأمر الذي يؤسف له ـ أننا نجد شخصاً يدّعي بأنه مسلم، لكنه لا يدفع حق الإسلام الشرعي كاملاً، أو لا يدفعه أبداً مع أن تلك الحقوق الشرعية ـ وأعني بها العبادات لا الأموال، كالصلاة والصوم وغيرها ـ لا تكلف الإنسان شيئاً، فالصلاة لا تكلفه أكثر من دقائق يؤدّيها بها، والصوم لا يكلفه أكثر من سويعات ينقطع فيها عن الطعام والشراب وملاذّ الدنيا، لكنه مع ذلك لا ينقاد لهذه الأحكام الشرعية.

هذا مع أن الصوم قد يكون مفيداً له، حيث إننا نرى أن الكثيرين يسعون لمحاولة ترشيق أجسامهم بعد أن جعلوا الرشاقة همّهم وشغلهم الشاغل، وسعياً وراء الرشاقة يفعلون كلّ شيء، لكن حينما تصل الأُمور إلى القضايا الدينية أو الإسلامية فإننا نجدهم يتقاعسون عن أداء هذه الحقوق والعبادات والواجبات. وهذا الأمر يتفاقم أكثر حينما يتعلّق بالدفاع عن الدين، أو بالمساهمة بأمواله في

الأُمور التي تهمّ الشارع الإسلامي أو بناء الجسد الإسلامي.

إذن، ما هي الفائدة المتوخّاة من دعوى شخص ما أنه مسلم دون أن يكون هناك تطبيق واضح منه وملموس لأحكام الإسلام؟ وهل إن الإسلام مجرد لفظة يتفوه بها الإنسان ليكون مسلماً؟ وهل هو عبارة عن قول بما لا يمكن أن يكلف الإنسان شيئاً من أجل هذا الدين؟ يقول الإمام الحسين عليه السلام: «**إن الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون**»[1].

الرأي الثاني: أنه الكناية والتلميح

أي أنه ما يفهمه السامع من كلام المتكلم دون أن يتلفظ به بلفظه الخاص به، ومثال هذا قوله تبارك وتعالى على لسان الذين جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا له: ﴿**إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً**﴾[2]؛ كي يمتنعوا عن الذهاب معه إلى المعركة. فالمقصود بهذه الآية الكريمة أنهم كانوا يريدون أن يقولوا: إن بيوتنا خالية من أي شيء، فلا طعام ولا فراش ولا من يدافع عنها. وهذا يعني أنهم يلحنون بالكلام ويتلفظون بما يكون ظاهره غير المراد منه، وهم يقصدون شيئاً آخر. وهذا معنى من معاني لحن القول، يروى أن مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري مر على المنطقة التي في ظهر النجف، وكان سكانها من المسيحيين من عهد عيسى عليه السلام إلى ما قبيل الإسلام؛ ولهذا فإنها كانت مملوءة بأديرة الرهبان ودور العبادة للمسيحيين.

---

(١) تحف العقول: ٢٤٥، بحار الأنوار ٤٤: ١٩٥، ٣٨٣، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر (الحلواني): ٨٧ / ٢٤، شرح نهج البلاغة ٧: ٢٤٩.

(٢) الأحزاب: ١٣.

ونحن نعرف أن الرهبان والمسيحيين لا يتوقفون عن شرب الخمرة ولا يحرمونها، حتى إن بعض الخلفاء الأُمويين كانوا يأتون من الشام إلى هذه المناطق المعروفة لشرب الخمرة ويشربها معهم ثم يرجعون. ومالك هذا كانت له قطعة شعرية في هذا المعنى يذكرها الشريف المرتضى ويستشهد بها في أماليه المسماة بـ(الغرر والدرر) حول تلّ من التلال موجود هناك اسمه «تل ديونا»، فيقول:

حبّذا ليلتي بتل ديونا ... حيث نسقى شرابنا ونغنّى

وحديث ألذّه هو مما ... ينعت الناعتون يوزن وزنا

منطق صائب وتلحن أحيا ... نا وخير الحديث ما كان لحنا[1]

فقوله: «منطق صائب» يعني به كلاماً صريحاً وواضحاً ليس فيه لبس ولا كناية أو تورية، وقوله: «تلحن» يعني به أن المتكلم به يريد معنى غير المعنى الظاهرى من اللفظ.

وبناء على ما مرّ من بيان فإن هذه الآية الكريمة تريد أن تقول بأن هؤلاء إذا جاؤوا إلى النبي ﷺ وتكلموا بشيء أمام المسلمين، فإن كلامهم يكون كله دساً وسماً عبر هذه الألفاظ التي يتفوّهون بها أمام الرسول الأكرم ﷺ. ومن ذلك أنهم كانوا يذكرون بعض مكاسب النبي الأكرم ﷺ وما حققه، ثم يعرّجون ويختمون ذلك الكلام بفرية ينسبون فيها النقص إلى النبي الأكرم ﷺ، وأنه لم يفعل الشيء الفلاني المجدي للأُمة أو للمسلمين، أو لم يطبق الشيء الفلاني الذي فيه نفع لهم، أو

---

(١) الأمالي ١: ١٠ ـ ١١، وانظر تاريخ الإسلام ٧: ٢٣٤. وقد نقل البيت الأول تاريخ مدينة دمشق ٥٦: ٣٥١.

أنه قتل أبناءهم في معاركه، وما إلى ذلك ممّا ألفاظه تندرج تحت هذا الإطار أو تحت هذا النوع.

وهذا أمر واضح يريد به هؤلاء المتكلمون أن يدسوا وأن يطعنوا في الرسول الأكرم ﷺ دون أن يكون هناك أساس صحيح لهذا الدس ولهذا الطعن، وبما أن أحدهم لا يستطيع أن يطعن بشكل واضح وظاهر فإنه يقوم بالتماس العورات للإسلام. وهذا في واقع الأمر تصرف خطر على الأمة، ووجود أصحابه وجود خطر عليها؛ لأنه يُشبه حشرة العث التي تأكل الخشب شيئاً فشيئاً حتى يتهرأ ويسقط، أو التي تأكل الأشجار من لبها حتى تقتلها وتميتها.

إذن فالآية الكريمة تقول للنبي الأكرم ﷺ: إن هؤلاء المنافقين معروفون بلحن قولهم، أي أن عندهم نمطين من اللغة: لغة يتعاملون بها أمامك، ولغة يتعاملون بها في ظهرك.

الرأي الثالث: أنه بغض علي عليه السلام والتزوير في سيرته

وهذا الرأي لا نرويه نحن فقط وإنما يرويه غيرنا، وإن شاء الله سوف أُشير إلى هذه المصادر، وأُطلع الآخرين عليها وأذكرها لهم، فقوله تعالى: ﴿**وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ هو محاولات البعض في تشويه سيرة علي بن أبي طالب عليه السلام، ومحاولة الأقلام التي امتدت لتزوير هذه السيرة العطرة. وممن يروي هذا المعنى في تفسير هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة القرطبي في تفسيره[1]،

---

(١) لم نعثر عليه في النسخة التي بين أيدينا، إلّا أن تكون في نسخة لم تطلها يد التغيير والتزوير اللذين يشير إليهما المحاضر ﷺ هنا.

والسيوطي في تفسيره (الدر المنثور)، وغيرهما[١]؛ حيث يقول السيوطي: بتزوير سيرة علي بن أبي طالب[٢].

الازدواجيّة في التعامل مع الخارجين على الخليفة الشرعي

أي أن هناك جماعة إذا مرّوا بعلي بن أبي طالب﵇ وتناولوا سيرته فإن السامع يشم من هؤلاء رائحة عداوته وبغضه، كأن يجلس أحدهم للناس ويقول لهم: «لو أن علي بن أبي طالب بقي في المدينة يأكل من حشفها لكان خيراً له مما دخل فيه من سفك دماء المسلمين»[٣]، وهذا هو التزوير عينه.

ومن هم المسلمون الذين سفك علي﵇ دماءهم؟ إن علي بن أبي طالب﵇ لم يقاتل غير من أمره الرسول الأكرم ﷺ بقتالهم، وهم الطوائف الثلاث المذكورون في الحديث الشريف عنه ﷺ، وهو قوله: **«تقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين»**[٤].

وهذا الحديث وإن كان خبراً، لكنه كما يقول الأُصوليّون جملة إنشائية جاءت بصيغة الخبر، أي أنه ﷺ يأمره بقتال هذه الطوائف الثلاث. ثم إن لنا أن نتساءل هنا ونقول: إن من يخرج على الخليفة الشرعي المنصوص عليه والذي نصبته الأُمّة وانتخبته بالإجماع ألا يعتبر منحرفاً عن الإسلام، وعن خط الخلافة؟ وألا يعدّ

---

(١) انظر: شواهد التنزيل ٢: ٢٤٨، فتح القدير ٥: ٤٠، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٢٦.

(٢) الدر المنثور ٦٦ ـ ٦٧، وفيه: ببغضهم علي بن أبي طالب. قال: عن ابن مسعود﵁ قال: ماكنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ إلّا ببغضهم علي بن أبي طالب.

(٣) انظر: الأُصول الستة عشر: ١٠٧، شرح نهج البلاغة ٤: ٩٥.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٩، ١٤٠، مسند أبي يعلى ١: ٣٩٧ / ٥١٩، المعجم الكبير ٤: ١٧٢، وفي الجميع: «أمرني رسول الله ﷺ ...».

إنساناً باغياً، مع معلوميّة أن الباغي يجب أن يُقاتل[١]؟ وألم يُحكم على كلّ من قاتلهم أبو بكر بأنهم باغون؛ لأنهم خرجوا عليه؟ وألم يحكم كذلك على من قاتلهم عمر بن الخطاب لأنهم قاتلوه؟ فلماذا إذن من خرجوا على أمير المؤمنين عليه السلام فقاتلهم لا يعتبرون في نظر المسلمين باغين؟ وما هو الفرق بين الخليفة الأول والخليفة الرابع؟

إذن فقول البعض: إن علي بن أبي طالب يسفك دماء المسلمين، هو قول لا معنى له ولا وجه له شرعيّاً، بل إنه يدل على تحامل صاحبه على هذه الشخصية العظيمة وعلى كيل الأُمور بمكيالين وإن اتّحدت وتشابهت[٢].

وهكذا فإننا نجد أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يقاتل أحداً إلّا من أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمقاتلته بأمر من الله عزّ وجلّ؛ لأن أوامر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كلها بعلم الله وبأمره، ومحط قبوله؛ ولذا فإنه عليه السلام وصفهم بأنهم إخوة بغاة كما تقول الرواية، ذلك أنه عليه السلام سمع قومه يصفونهم بالكفر، فلمّا فرغ من القتال في واقعة الجمل، أمر مناديه بأن ينادي في عسكره بألّا يأخذوا شيئاً من معسكرهم أبداً. فجاء إليه جماعة فقالوا: أتباح دماؤهم ولا تباح أموالهم؟ قال عليه السلام: «**هؤلاء إخواننا بغوا علينا، فلا تتناولوا شيئاً من معسكرهم**»[٣]. والباغي يجب قتاله لأن الله تبارك وتعالى قد أمر بمقاتلة البغاة.

ومن هذا نخلص إلى نتيجة هي أن المراد بـ﴿لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ في هذا المقطع

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الحجرات: ٩.

(٢) وحكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد.

(٣) انظر تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣.

الشريف من الآية الكريمة هو تزوير المزوّرين في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام.

حبّ أمير المؤمنين عليه السلام مقياس عفّة النساء

يروى عن أبي سعيد الخدري وعبادة بن الصامت قالا: «كنا نبور أولادنا بحب علي بن أبي طالب ﷺ، فإذا رأينا أحدهم لا يحب علي بن أبي طالب علمنا أنه ليس منا، وإنه لَغير رَشدة»[1]. أي أنهم يختبرونهم على ضوء بغضه عليه السلام وحبه، فمن

---

(١) الغدير ٣: ٢٦، ٤: ٣٢٢ / ١ عن الحافظ في أسنى المطالب: ٨، وفيه: ثم قال الحافظ: «وهذا مشهور من قديم وإلى اليوم أنه ما يبغض علياً ﷺ إلّا ولد زنا». وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ١٦١ ـ بور، لسان العرب منظور ٤: ٨٧ ـ بور.
وقد وردت في هذا المعنى أحاديث كثيرة منها:
١ ـ عن أبي مريم الأنصاري عن علي عليه السلام قال: «لا يحبني كافر ولا ولد زنا». شرح نهج البلاغة ٤: ١١٠.
٢ ـ روى المسعودي عن كتاب الأخبار لأبي الحسن علي بن محمد بن سليمان النوفلي بإسناده عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ أقبل علي بن أبي طالب، فلما رآه أسفر في وجهه، فقلت: يا رسول الله، إنك لتسفر في وجه هذا الغلام. فقال: «يا عم رسول الله، والله لَلّهُ أشدّ حباً له مني، ولم يكن نبي إلّا وذريته الباقية بعده من صلبه وإن ذريتي بعدي من صلب هذا. إنه إذا كان يوم القيامة دعي الناس بأسمائهم وأسماء أُمّهاتهم إلّا هذا وشيعته فإنهم يدعون بأسمائهم وأسماء آبائهم لصحّة ولادتهم». مروج الذهب ٢: ٤٧٧.
٣ ـ عن ابن عباس قال: قال علي بن أبي طالب ﷺ: «رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند الصفا وهو مقبل على شخص في صورة الفيل، وهو يلعنه، فقلت: ومن هذا الذي يلعنه رسول الله؟ قال: هذاالشيطان الرجيم. فقلت: والله يا عدو الله لأقتلنك، ولأُريحن الأُمّة منك. قال: والله ما هذا جزائي منك. قلت: وما جزاؤك مني يا عدو الله؟ قال: والله ما أبغضك أحد قط إلّا شركت أباه في رحم أُمّه. الجامع لأحكام القرآن ١: ٩١، وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٢: ٢٩٠ والكنجي في الكفاية: ٢١ عن أربع من مشايخه.
وقيل للشافعي: إن قوماً لا يصبرون على سماع فضيلة لأهل البيت، فإذا أراد أحد أن يذكرها يقولون: هذا رافضي. فأنشأ الشافعي يقول:

إذا في مجلس ذكروا عليا ... وسبطيه وفاطمة الزكيه

أبغضه علموا أنّ أصله غير طاهر. وهذه هي عبارة الصحابة، وهو المعنى الذي أخذه صفي الدين الحلي حيث قال:

بحبِّ عليٍّ تسرُّ النفوسُ — وتزكو القلوبُ وتحلو الثمارُ

فإمّا رأيتَ له مبغضاً — ففي أصلِهِ نسبٌ مستعارُ

فلا تعذلوه على فعله — فحيطان دار أبيه قصارُ[1]

افتراءات محيي الدين الخطيب

وهكذا نجد أن هذا المعنى حول هذا المقطع الشريف مذكور في كتب بعض علماء المسلمين، وكذلك رأينا أن بعض الصحابة يختبرون أبناءهم في طهارة النسب وعدمها بحب علي بن أبي طالبؑ. وهؤلاء الصحابة من أمثال عبادة بن الصامت وجابر بن عبد الله الأنصاري وأبي سعيد الخدري (رضوان الله عليهم)

فأجرى بعضهم ذكرى سواهم — فأيقن أنه لسلقلقيه
إذا ذكروا علياً أو بنيه — تشاغل بالروايات الدنيه
وقال تجاوزا يا قوم هذا — فهذا من حديث الرافضيه
برئت إلى المهيمن من أناس — يرون الرفض حب الفاطميه
على آل الرسول صلاة ربي — ولعنته لتلك الجاهليه

الفصول المهمة في معرفة الأيمّة (ابن الصباغ المالكي) ٢: ١٣٥٣، نظم درر السمطين (الزرندي الحنفي): ١١١، ينابيع المودة لذوي القربى (القندوزي الحنفي) ٢: ٣٧٣، ٣: ٩٧، النصائح الكافية: ٢٢٥.

(١) ديوان صفي الدين الحلي غير متوفّر بين أيدينا، وفي روضة الواعظين: ١٣١، مناقب آل أبي طالب ٣: ١١، أبيات قريبة منها نسباها للصاحب. وهي:

بحب علي تزول الشكوك — وتزكو النفوس وتصفو النجارُ
فمهما رأيت محبّاً له — فثم الزكاء وثم الفخارُ
ومهما رأيت عدوّاً له — ففي أصله نسب مستعارُ
فلا تعذلوه على فعله — فحيطان دار أبيه قصارُ

وأمثالهم من الصحابة الأجلاء هم في نظر محيي الدين الخطيب لا صلة لهم بالإسلام؛ لأنه يرى أن كلّ من يتشيع لعلي بن أبي طالب لا يرتبط بالإسلام لا سبباً ولا نسباً، ولهذا فإننا نجد أنه ينعت الشيخ الكليني بأنه كذّاب، والشيخ المفيد بأنه وضّاع، وأن الشريف الرضي‌ﷺ والمرتضى‌ﷺ مختلقان ومزوّران ويضعان الأحاديث. وهذا كله لأنهم يوالون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب‌ﷺ ويحبونه.

مداخلة تاريخية

ونحن حينما نسمع عن هذا العالم مثل هذا الكلام، أو حينما نقرؤه في كتبه، فهل من الممكن أن يبقى عندنا شيء من الثقة بهذا التاريخ؟ إن مثل هذا الكلام لا يوحي إلّا بشيء واحد هو أنه تاريخ مزور، مع أن المفروض بنا كمسلمين أننا كما نروي رواية في فضل أحد الصحابة؛ فإن هناك روايات كثيرة في فضل علي بن أبي طالب‌ﷺ ويجب أن نرويها، مع اعتراف الكل بأنه إمام المتقين والزاهدين، والمدافع عن رسول الله وعن الدين الحنيف. وعليه فما المانع إذن من نقل الروايات الواردة في فضله؟ ولماذا ترد مثل هذه الروايات؟ وهكذا فإننا نجد أن هؤلاء يرون أن الإنسان إذا أحب علي بن أبي طالب‌ﷺ أصبح في نظرهم منحرفاً بعيداً عن الإسلام، ولا يمت إليه بصلة أبداً.

افتراؤه على الرضي‌ﷺ بوضع (نهج البلاغة)

وبالرجوع إلى محيي الدين الخطيب نجد أنه يتهم الشريف الرضي‌ﷺ بالتزوير لأنه من وجهة نظره قد زور (نهج البلاغة) ونسبه إلى علي بن أبي طالب وهو ليس له، وما هذا إلّا لأن (نهج البلاغة) يحتوي على تلك الخطبة المسماة بالخطبة الشقشقية، وهي الخطبة التي يستشرف منها كلّ من يقرؤها أن الإمام‌ﷺ كان متأثراً من الوضع آنذاك، وكان ناقماً عليه، وكان عليه أن يعالج حالة ضرورية

ومهمة وأن يبرزها لأرض الواقع؛ وهي أخذهم حقه منه. وما عدا هذا فليس هناك شيء يدعو إلى الاتهام. ثم إن الشريف الرضي ﵀ لا يمكن أن يكون هو الذي وضع (نهج البلاغة)؛ لأنه ليس هو راويه وحده، بل إن هناك جملة من الرواة غيره قد رووه، أو رووا بعضاً من كتب الإمام ﵇، أو حكمه، أو وصاياه، وما إلى ذلك.

ردّ هذا الافتراء

والشيء اللّافت للنظر والذي ينبغي الانتباه إليه هو أن هؤلاء الذين رووا (نهج البلاغة) بهذا الشكل قد رووه قبل أن يولد الشريف الرضي ﵀. ومن هؤلاء الذين رووه قبل أن يرويه الشريف الرضي (رضوان الله عليه) محمد عبد الرحمن بن قبة المولود قبل الشريف الرضي بسنين طويلة، وكذلك المسعودي صاحب (مروج الذهب) الذي مات قبل أن يولد الشريف الرضي بعشر سنين، وهو الذي أحصى خطب (نهج البلاغة) وقال: إنها أربعمئة واثنتان وثمانون خطبة. فهل بعد هذا يمكن أن يسمع لشخص يقول: إن الشريف الرضي ﵀ مزور مخترع؛ لأنه قد زور واخترع هذه الخطب التي أسماها (نهج البلاغة)؟ ثم إن هناك العشرات من المصادر الموجودة التي تثبت صحة هذا الكلام.

ويجب ألّا ننسى أننا الآن إذا ما أخذنا مقطعاً من مقاطع نهج البلاغة فإننا نعرف بشكل مباشر نفس علي بن أبي طالب ﵇ واضحاً فيه، وكل من له اطّلاع على الآداب قديمها وحديثها، أو على الفكر الإنساني يعرف منهج كلّ إنسان أو أديب من خلال نتاجاته وإبداعاته الأدبية، وحينما يصبح عنده حس أدبي أو فني أو نقدي فإنه بمجرد أن يقرأ مقطوعة أدبية شعراً كانت أو نثراً فإنه حينئذٍ ينسبها إلى صاحبها بعد أن يكون قد عرف من خلال متابعته لأدبه نفسه الأدبي وأُسلوبه الكتابي الذي هو عليه. وهذا كما لو أننا أخذنا آية قرآنية من بين خمسين عبارة

مشابهة لها من كلام الناس فإن الإنسان المتمرّس بأُسلوب القرآن وسوف يعرفها ويشير إليها على أنها تختلف عن ذلك الكلام، وبأنها من كلام الله تبارك وتعالى.

وهذا طبعاً لا يستطيع أن يقوم به إلّا الأديب الضليع صاحب الفكر النفّاذ أو الذهن الوقّاد، الذي يستطيع عبرهما أن يعرف الأساليب الأدبية المختلفة التي يتّبعها أصحابها ويتميّزون بها؛ فيشير إلى الآية القرآنية على أنها لغة القرآن الكريم، ويشير إلى غيرها على أنها من لغة غير لغته.

افتراؤه على أبي ذر بالشيوعية

بل إن محيي الدين هذا قد تطاول أكثر حينما وصف حب أهل البيت ﵈ بأنه فكرة شيوعية؟ إننا نعتقد ـ وهو المفروض الذي ينبغي أن يكون ـ بأن الأزهر من مؤسساتنا الإسلامية التي نعتز بها ونعتز بمواقفها وجهادها وخدمتها للإسلام، وأنا لا أُريد أن أقول بأن مثل هذه المؤسسات لا يمكن أن يخرج منها مثل هذه النماذج، أو أن تنتج مثل هذه الأفكار، فالمؤسسة أشبه شيء بالمزرعة يخرج فيها الفاكهة الطيبة ويخرج منها النبات الضار الذي لا نفع فيه، لكن أن يأتي كلّ شخص مهما كان منهجه أو مشربه العلمي، ثم يتهم التشيع لأهل البيت ﵈ ومودتهم وموالاتهم بأنها أفكار شيوعية فهذا غير مقبول ولا يمكن أن يرتضيه إنسان منصف.

ردّ هذه الفرية

وفي واقع الأمر فإن التاريخ بين أيدينا، ونحن حينما نرجع إلى هذا التاريخ فإننا سوف نجد جماعة من هؤلاء الذين يسمون (وعّاض السلاطين)، وهم الذين يعتاشون على موائد القصور خدمة لأُولئك السلاطين الذين يجنّدونهم لتمرير أغراضهم وأهدافهم وسياساتهم لنشرها بين الناس. ومن هذا أنه في سنة (١٩٥٣)

ظهرت فتوى مؤدّاها أن الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري ﷺ هو إنسان شيوعي، وقد وقّع عليها ثلاثة علماء أو أربعة، مع أن أبا ذر تلميذ القرآن وتلميذ السنة النبوية الشريفة، وهو الذي عبّر عنه النبي ﷺ بقوله الشريف: «**ما أقلّت الغبراء، ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر**»[١].

إذن فأبو ذر ﷺ إنما عُبر عنه بهذا التعبير لأنه كان يحمل منهج القرآن، ولأنه كان يتولّى أمير المؤمنين ﷺ وأهل بيته ويودهم، ولأنه أراد أن يطبق قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾[٢]، فهل مثل هذا يمكن أن يوصم بأنه شيوعي؟ وبطبيعة الحال فإن هذا منتظر من أمثال هؤلاء الذين لم يلتزموا قواعد الآداب والأخلاق وتعاليم الإسلام في خلافاتهم العلمية أو العقيدية أو المذهبية؛ ولهذا فإنهم إذا ما اصطدم أحد ما بمصالحهم فإنهم سوف يصمونه بكل شيء قبيح، وأبو ذر ﷺ قد اصطدم بمصالحهم فكان أن نعتوه بتلك النعوت.

رجع

إذن فالمراد من هذا المقطع الشريف على ضوء هذا التفسير هو التزوير في الكلام فيما ينمى لعلي بن أبي طالب ﷺ ويتصل به؛ ولهذا فإن الصحابي الجليل

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٥٣ / ٧٠، مسند أحمد ٢: ٢٢٣، ٥: ١٩٧، ٦: ٤٤٢، سنن ابن ماجة ١: ٥٥ / ١٥٦، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٣٤ / ٣٨٨٩، ٣٨٩٠، قال في الأول: «هذا حديث حسن». وفي الثاني بزيادة: «ولا أوفى من أبي ذر؛ شبه عيسى بن مريم». فقال عمر بن الخطاب كالحاسد: يا رسول الله، أفتعرف ذلك له؟ قال: «نعم فاعرفوه»...». ثم قال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

(٢) التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.

جابر بن عبد الله الأنصاري (رضوان الله تعالى عليه) كان يقول: «أدبوا أولادكم على حب علي، فمن أبى فانظروا في شأن أمّه»[١].

وهذه إنما هي لهجة الصحابة، وليست لأحد المتأخرين الذين ربما يكونون قد وصل إليهم الأمر بشكل محرّف، وأنا أنقلها بكل أمانة وإخلاص. إن هؤلاء صحابة الرسول ﷺ، وقد عاصروه وعايشوه، وتعطّروا بطيب أنفاسه، وسمعوا من حكم كلامه، وقد أرادوا أن يترجموا ذلك على شكل هذه المقولات التي يحثون فيها أتباعهم على محبة هذا الرجل وموالاته ونصرته.

ثم إنني حينما أقول: إن هذه إنما هي لغة الصحابة فإني إنما أذكرها عن الكتب التي تكفلت بنقلها، وهي كتب المسلمين عامة وليست مختصة بطائفة دون طائفة.

المبحث الثالث: في أن الله تبارك وتعالى يعلم ما يعمل عباده

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾، ومن هذا المقطع الشريف نفهم أن الله تبارك وتعالى يخاطب عباده ويقول لهم: إننا مطلعون على ما في نفوسكم، أو أنه يخاطب رسوله الأكرم ﷺ بذلك؛ فهو تعالى يعني بهذا الكلام هذه الشريحة الضالة التي كانت تؤذي النبي ﷺ وتؤذي المسلمين وتتسبب بالضرر للإسلام وتشكل خطراً عليه. وهكذا فإن هذا المقطع الشريف ينبه إلى أن الله تبارك وتعالى يعلم كلّ أعمال هؤلاء؛ سواء كانت بالقول، أو بالإشارة، أو أعمالهم الفعلية التي يقومون بها سعياً وراء إلحاق الضرر والأذى بالإسلام وبنبي الإسلام ﷺ وبالمسلمين عامة.

وهنا ننبه إلى نقطة هامة هي أن ما توحي به الآية الكريمة هو أن الله تبارك

---

(١) الفقيه ٣: ٤٩٣ / ٤٧٤٤، الأمالي (الصدوق): ١٣٥ ـ ١٣٦ / ١٣٣.

وتعالى إنما يعطي هؤلاء مهلة دون أن ينزل بهم عقابه أو عليهم حسابه، أو يوحي إلى الرسول ﷺ ويأمره بمحاسبتهم والاقتصاص منهم لسبب هو أن وحدة المسلمين أهم من عملية كشف هؤلاء وإنزال العقوبة بهم وقتلهم. أي أن هذه الآية الكريمة كأنما تريد أن تقول: إن وحدة المسلمين أهم من تسليط الأضواء على هؤلاء وعلى أفعالهم، وهو ما أشرنا إليه في المبحث الأول.

وفي هذا درس يجب أن نتعلمه وأن نستوحي منه كلّ تصرفاتنا وأفعالنا وأقوالنا وكتاباتنا، ونحن نعيش تحت ظل خيمة هذا الدين، ونكتب عن أبنائه، أو نتكلم عنهم؛ فوحدة المسلمين هي أعلى هدف يسعى إليه الإسلام ورسول الإسلام ﷺ، وليس هنالك من شيء أهم من هذا الهدف حتى يمكن أن يقال: إن على الرسول أن يفضح هؤلاء وأن يحاسبهم.

وهنا يطرح سؤال في البين نفسه وهو: إذا كان ذلك المجتمع مجتمعاً إسلامياً مترابطاً يسند بعضه بعضاً، وهو مجتمع متّحد كله وتحت لواء «**لا إله إلّا الله محمد رسول الله**»، فلماذا إذن هذا التحامل الذي يبديه بعض المسلمين على بعض؟ وإذا كانت هذه الوحدة هي ما يسعى إليها الإسلام نفسه أو نبي الإسلام ﷺ، فلماذا إذن يحاول البعض على مرّ التاريخ الإسلامي أن يهدم أُسس هذه الوحدة، وأن يقطع جذورها، وأن يقتلعها دون مراعاة لمشاعر أحد من المسلمين، أو لمشاعر نبي الإسلام ﷺ الذي نادى بها وسعى إلى تحقيقها وقيامها؟

إن غاية ما في الأمر الذي يحصل هو أن بعض المسلمين يختلفون مع بعض في الآراء الفقهية أو الأُصولية، أو ربما حتى في مسألة من المسائل الكلامية، لكن هذا ينبغي ألّا يكون سبباً ومسوغاً لأن يسعى البعض إلى هدم وحدة المسلمين عبر تكفير طائفة كبيرة منهم، أو عبر التهجم عليهم.

عقيدة الرجعة والقول بها

ونحن مثلاً حينما نأتي إلى القرآن الكريم ونقرأ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[1]، ثم نقرأ في مكان آخر قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[2]، فإن البعض ربما يقول: الظاهر من هذا أن هناك تعارضاً أو تناقضاً بين هاتين الآيتين، وبدلاً من أن نلجأ إلى القول بهذا الأمر، وبما أننا نريد أن ننزّه القرآن الكريم عن هذا[3]، فإننا نلجأ إلى القول بأنه من الممكن أن يكون هناك حشر قبل الحشر الأكبر.. حشر تحضر فيه بعض الأقوام أو بعض الناس، وليس الناس كلهم. وهذا الأمر كما هو معروف تسنده الروايات والآيات الكريمة.

وبناء على هذا فإن هناك طائفة كبيرة من المسلمين تذهب إلى القول بمسألة الرجعة تأسيساً على ما في هاتين الآيتين الكريمتين أو على آيات أُخر أو على روايات موجودة في السنة المطهرة. لكن لما كانت شريحة أُخرى مسلمة لا تقول بالرجعة ولا تؤمن بها ولا تعتقدها، فهل يعطيهم عدم الاعتقاد هذا الحق في أن يتحاملوا على تلك الشريحة العريضة التي تقول بالرجعة أو أن تكون مسوغاً لهم في أن يكفروها ويحكموا بمروقها عن الإسلام، وبالنتيجة بجواز قتل أبنائها؟ إن هذا لا يمكن أن يكون، وهو أمر نابع عن عدم الشعور بالمسؤولية تجاه هذا الدين وتجاه حرمته، والحفاظ عليه وعلى وحدته، وإلّا فإن هذا التحامل والاتّهام بالكفر أمر لا ضرورة له؛ لأنه ليس إلّا اختلافاً في الآراء التي يمكن أن تقع بين

---

(١) النمل: ٨٣. (٢) الكهف: ٤٧.

(٣) لأنه تبارك وتعالى يقول: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت: ٤٢.

أبناء المذهب الواحد.

وعليه فإذا كان هذا الرأي ترتئيه شريحة كبيرة من المسلمين، ثم دلّت عليه رواية وأسندته آية قرآنية أُخرى، فإن هذا يكون داخلاً في إطار النزاع العلمي الذي لا يسوّغ أبداً التهجم على الآخرين أو تكفيرهم أو الافتاء بوجوب قتالهم أو قتلهم. وكل ما ينبغي في المقام فعله هو النقاش العلمي الهادئ والمتّزن، والحوار المتعقّل والمرن، والمحاجّة القائمة على الأُسلوب الأكاديمي الصحيح الذي يوصل إلى نتيجة مرضية، يكون نتاجها تقوية وحدة المسلمين وتكاتفهم، وليس بأساليب تؤدي بالنتيجة إلى هدم هذه الوحدة وخلخلة الصف الإسلامي وبعثرة أبنائه وتفريقهم، وبالتالي جعلهم يتقاتلون ويتناحرون.

أدب القرآن وواقع المسلمين

فالتحامل هذا لا وجه له كما ذكرنا، وهو لا ينم عن مسؤولية أو معرفة بأحكام الدين أو قواعده أو القواعد العلمية في النقاش والرد. إن الذي أود أن أُنبّه عليه هنا هو أننا يجب أن نأخذ دروسنا من القرآن الكريم الذي يصرّح بأن مصلحة المسلمين والحفاظ عليها وعلى وحدتهم أهم من كشف هؤلاء؛ ولذا فإننا سوف نغض النظر عن مسألة تسليط الأضواء عليهم وكشفهم وهتكهم؛ لأنه ربما أدى ذلك إلى خرق هذا المصلحة وقتل تلك الوحدة، وبالتالي حدوث النزاع بينهم وإضعافهم مما يؤدي إلى تغلّب عدوهم عليهم. إن هذا درس عظيم يعلمنا القرآن إياه، ويريد منا أن نأخذ به لا أن نخالفه ونحكم على الآخرين بالكفر لمجرد أنهم اختلفوا معنا بالرأي أو بفكر ما.

إن المسلمين ببالغ الأسف بعيدون كلّ البعد عن التعامل وفق هذا الأُسلوب العظيم، ووفق هذه الطريقة السليمة التي تحاول جاهدة أن ترصّ صفوف

المسلمين لا أن تفرقهم أو تمزّقهم؛ ولهذا فإننا نجد أن المسلمين في هذه الأزمان يشتم بعضهم بعضاً، وينبز بعضهم بعضاً، وهذا في حد ذاته كارثة عظيمة.

الدور اليهودي في إثارة هذه الفتنة

وفي هذا المقام فإني أود أن أذكر بأنه ليس هناك من شك في أن لليهود دوراً واضحاً وبارزاً في هذا المجال ورسم معالمه، حيث تمتد أيديهم القابعة خلف بعض أصحاب اللحى، وهي تحاول أن تهدم بمعولها وحدة المسلمين، مع أن وحدة المسلمين أهم بكثير من اختلافهم بالرأي حتى يسوغ للآخرين أن ينعتونا بمختلف النعوت، مع أن عند أُولئك كثير من العلماء والرواة القائلين بأن القرآن فيه تحريف.

وأنا على استعداد كامل لأن اطلع الآخرين على عدد كبير وكم هائل من رواة أهل السنة القائلين بوقوع التحريف في القرآن. ومع هذا فنحن لا نتقوّل عليهم، ولا ندّعي بأن نقول: إن هؤلاء يقولون بتحريف القرآن، معاذ الله، بل إننا نعتبر أن هذه آراء فردية تفرد بها أصحابها ولا تمثل طوائف أهل السنة كلهم أو مذاهبهم؛ ولذا فإننا في هذا المجال نضرب بهذه الآراء عرض الجدار، ولا نعتمدها كمسوغ أو أمر ننطلق منه إلى سبّ الآخرين أو شتمهم أو تكفيرهم.

فليس لمجرد أن يروي راوٍ من أي طائفة كانت رواية ما نأخذ بروايته، وليس لمجرد أن يرى هذا أو ذاك رأياً فإننا نأخذ برأيه، كما أن هذا لا يعني أن نجعل من رأيه أو روايته منطلقاً للتشنيع على طائفة بكاملها. إن الواجب الشرعي والأمانة العلمية يقتضيان أن تؤخذ تلك الآراء أو الروايات من المحقّقين، وليس من رأي واحد شاذّ، وربما يكون مخطئاً. إنّ هذا إنْ حصل فإنما يشير إلى أن هناك هدفاً وغرضاً غير شريفين وراء هذا التصرف، ويشعر الآخرين بأن هناك وراءه يداً غير

نظيفة تحاول أن تعمل معاولها في الجسد الإسلامي.

قبل بضعة أشهر نشرت إحدى الصحف خبراً مفاده أن إسرائيل تقوم بحقن أبناء الفلسطينيين بفايروس الأيدز، وإذا كان اليهود يفعلون هذا بأطفال المسلمين، فأليسوا مستعدين لأن يحقنوا مجتمعاتنا بأُناس مشبوهين، وكتبنا بأفكار شاذّة وغير صحيحة؟ طبعاً هم على استعداد كامل لفعل لذلك، بل إنهم فعلوه؛ لأنهم يريدون أن يسري الداء داخل الجسد الإسلامي وينخره؛ ليعمل على سقوطه وانهياره. كما أنهم مستعدون من أجل فعل ذلك إلى القيام بأي شيء دون تردّد أو دون مراعاة لأحد.

وظيفة المسلمين تجاه المخطّطات اليهوديّة

أما وظيفتنا نحن كمسلمين، فيجب أن نتنبه إلى أن كلمة «**لا إله إلّا الله، محمد رسول الله**» هي كلمة أهم من أي اعتبار في حياة كلّ مسلم هذه الدنيا، ويجب أن نلتفت إلى أن إعلاءها وتشييد المجتمع الإسلامي المتين القائم على أساسها أهم من كلّ المحاولات الشخصية أو المغرضة التي تحاول اقتلاع هذه الكلمة من نفوس الناس وحرفهم عنها.

ومما يروى في مجال إثبات أهميّة هذه الكلمة أن أُسامة بن زيد خرج يوماً على رأس سرية، وحينما عادوا وجدوا رجلاً على رأس جبل وقد اعتصم به ومعه أغنام يرعاها، فلما رآهم نزل وقال: «**أشهد ألّا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله**». وفرح بالمسلمين، فقالوا له: إنك لم تسلم، إنما رأيتنا فخفت منا، واستعذت بهذه الكلمة. ثم جرد أُسامة سيفه وقتله، فلما رجعوا وأخبروا النبيﷺ حزن حزناً شديداً، فقال أُسامة: إنه استعاذ، وأراد أن يتستّر بالإسلام، ولم يسلم

صادقاً. فقال النبي ﷺ: «**هلا شققت عن قلبه؟**»[1].

وهذا يعني أن علينا أن نتعامل مع المسلمين وفق الظاهر، أما الباطن فالله تعالى أعرف به، أي كلّ من نطق بكلمة التوحيد والشهادة والرسالة والتصديق بالرسالة لمحمد ﷺ فعلينا أن نعامله على أنه مسلم وإن لم يكن مريداً لذلك، ويستمر الحكم عليه بهذا، والتعامل معه على هذا الضوء حتى يثبت العكس، حيث إنه حينذاك يعامل على أنه غير مسلم.

وفي هذا جنبة أخلاقية هي أن الله تبارك وتعالى يريد منا أن نترك المجتمع على نقائه، ولا نحاول أن نشوه وحدته بمثل هذه الأُمور أو الاتهامات؛ لأنه تبارك وتعالى يريد أن يكون المجتمع مجتمعاً نقياً صافياً خالصاً ليس فيه شيء من الغش أو من الخلافات التي تؤدّي إلى انهيار ذلك المجتمع وتفككه؛ ذلك أن الحفاظ على ذلك المجتمع كما رسم الله تبارك وتعالى له هو هدف لا يعادله شيء. إن الله سبحانه وتعالى إنما أنزل هذا الدين الحنيف لتوحيد الكلمة، ولرصّ الصفوف، ولجمع المسلمين على كلمة واحدة وعلى لسان واحد وعلى يد واحدة؛ لأن الاتّحاد عماد روح الفرد المسلم وعماد المجتمع المسلم، وبه يقومان، وبه تستقر الحياة كما أراد الله تبارك وتعالى لها.

ومن هنا فإنه ينبغي علينا أن نتنبه إلى أن الحفاظ على هذه الوحدة وإلى أن مراعاة كلمة «**لا إله إلّا الله محمد رسول الله**»، هما أمران أسمى شأناً وأعلى من أن تطالهما تلك الأغراض الشخصية التي تحاول هدمهما عبر توجيه الاتهامات إلى أبناء المذاهب الأُخرى بالكفر أو المروق عن الدين. يقول تبارك وتعالى: ﴿وَاللهُ

---

(١) مسند أحمد ٥: ٢٠٧. صحيح مسلم ١: ٦٧. ومثله في مسند أحمد ٤: ١٣٩، غير أنه لم يسمّ أُسامة.

يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾.

وهذا يعني أن على كلّ مسلم أن يعرف بأنه ليس غائباً عن عين الله جلّ شأنه، ولا بعيداً عن علمه حينما يريد أن يستخدم الألفاظ أو الأفعال أو التصرفات مع الآخرين، أو حينما يريد أن يستخدم قلمه وكلمته؛ لأنه ينبغي عليه أن يكون معتقداً بأنه تحت عين الله، وتحت علمه؛ يعلم ما يفعل، ويعلم كلّ تصرّف يقوم به، فهو تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء[1].

نتيجة البحث

وهكذا نعرف أن هذه الآية الكريمة جاءت لتسلّط الأضواء على المجتمع الذي عاصر النبي ﷺ، وهم الصحابة الذين عاشوا معه، والذين يعتقد البعض أنهم من قرن النبي ﷺ. كما أنها تعطي نبذة عن هؤلاء الذين عاشوا معه، وتبيّن لنا أن الصحبة ليست عاصمة لصاحبها عن أن يقع تحت طائلة التقييم، أو أن يكون معصوماً عن الوقوع في الخطأ.

كما أنها تشير إلى أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قد ابتلي بجماعة زوّروا تاريخه وسيرته، وكلّ ما يمتّ إليه بصلة، حتى إن هناك شريحةً كبيرة ممن عاشوا معه عليه السلام في الكوفة أو المدينة قد أتعبته وجعلته يتململ من هذه الحياة التي يعيشها بينهم[2]، فكان عليه السلام حينما يأمرهم بالخروج لقتال أعدائهم لا يخرجون.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يونس: ٦١.

(٢) حتى قال عليه السلام: «إني ولّيت فلاناً فخان وغدر، واحتمل فيء المسلمين إلى معاوية، وولّيت فلاناً فخان وغدر وفعل مثله، فصرت لا آتمنكم على علاقة سوط. وإن ندبتكم إلى عدوّكم في الصيف قلتم: أمهلنا ينسلخ الحرّ عنّا، وإن ندبتكم في الشتاء قلتم: أمهلنا ينسلخ القرّ عنا.

بل إن الأمر وصل ببعضهم في حالات معينة إلى أن يتطاول على خليفة الرسول الأكرم ﷺ وأن يتجاسر على القول بأنه لو بايع ضبّاً لكان خيراً له من أن يبايع علي بن أبي طالب[1].

إن هؤلاء يريدون من الحاكم الذي يتولّى أُمورهم أن يسلب قوت الآخرين وحقوق ضعفاء المسلمين الذين لا يملكون حولاً ولا طولاً ويعطيه لهم، في حين أن الإمام عليّاً عليه السلام من المستحيل أن يفعل هذا؛ لأنه إنما جاء إلى الحكم وقبل به بعد إلحاح الملحّين عليه بذلك جاء وهو عازم على أن يرد الأُمور إلى نصابها، وأن يعيد توزيع الثروة، وأن يجعل العدل يعمّ الحياة كلّها، فيساوَى بين الغني والفقير، والقوي والضعيف[2].

ومع كلّ هذا فإننا نجد أن الخلق الإلهي العالي الذي استوعبه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من معلمه الأعظم رسولنا الأكرم ﷺ منهجاً ودرباً يسير عليه، ووظّف له كلّ مفردات حياته اليومية مختطّاً له فيها، ومتخذاً إياه هدفاً يسعى إلى تحقيقه، وكذلك الأدب الرفيع الذي كان يتحلّى به قد منعاه من أن يشهّر بهؤلاء، أو أن يشير إليهم، أو أن يسلّط عليهم الضوء ويفضحهم أمام غيرهم من الناس؛ وكل ذلك نابع من خلقه السامي الذي امتاحه من رسولنا الأكرم ﷺ، ولكيلا يخلق مشكلة داخل المجتمع الإسلامي، وحتى لا يمتدّ الداء داخله فيعمل على نخره.

اللهم إني قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني. اللهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء». نهج البلاغة / الخطبة: ٢٥، وانظر: الإرشاد ١: ٢٨٢، الغارات ٢: ٦٣٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.

(١) ستأتي مفصّلة في الصفحة التالية.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام عندما انتهت إليه الخلافة: «واللّه لو وجدتها مهرت بها النساء لرددتها، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق». نهج البلاغة / الكلام: ١٥.

أمير المؤمنين عليه السلام يساوق أخاه الرسول صلى الله عليه وآله فيما ابتلي به

ومن هؤلاء الذين ابتلي بهم أمير المؤمنين عليه السلام كما ابتلي أخوه رسول الله صلى الله عليه وآله بمثل هذا، ولم يفضح أُولئك بأمر الآية الكريمة على سبيل المثال الأشعث بن قيس الذي آذى أمير المؤمنين عليه السلام لكنه عليه السلام لم يشأ أن يؤاخذه بما فعل ضدّه؛ لأنه كان يعرف أن عنده قبيلة كبيرة ربما يصل أفرادها إلى مئة ألف، وحينما يعاقبه فإنه ربما يخلق مشكلة داخل المجتمع الإسلامي هو عليه السلام في غنىً عنها. ولذا فإنه سكت عنه وعن مطالبته بحقّه، غير أنه عليه السلام كان يعقّب على كلّ تلك التصرفات بالإشارة والتلميح دون التصريح، ومن ذلك أنه عليه السلام قال وهو يخطب على المنبر، وقد دخل رجل فرآه عليه السلام: **«والله ليبعثن الله أُناساً يوم القيامة وإمامهم الضبّ، ولو شئت أن أُشير إليهم لفعلت»**[1].

وهكذا فإنه عليه السلام قد ابتلي بجماعة من هذا النمط، فآذوه وآذوا الإسلام بتصرّفاتهم وأقوالهم وأفعالهم، وابتعادهم عن الحقّ، وامتناعهم عن تطبيق أوامر

---

(١) في الخرائج والجرائح ١: ٢٢٦ / ٧٠، بحار الأنوار ٣٣: ٣٨٤ / ٦١٣ عنه، أنه لما أراد أمير المؤمنين عليه السلام أن يسير إلى النهروان، استنفر أهل الكوفة، وأمرهم أن يعسكروا بالمدائن، فتأخر عنه شبث بن ربعي، وعمرو بن حريث، والأشعث بن قيس، وجرير بن عبد الله البجلي، وقالوا: أتأذن لنا أياماً نتخلّف عنك في بعض حوائجنا، ونلحق بك؟ فقال لهم: «قد فعلتموها، سوأة لكم من مشايخ، فوالله ما لكم من حاجة تتخلفون عليها، وإني لأعلم ما في قلوبكم، وسأُبيّن لكم، تريدون أن تثبّطوا عني الناس، وكأني بكم بالخورنق، وقد بسطتم سفركم للطعام، إذ يمرّ بكم ضب، فتأمرون صبيانكم فيصيدونه، فتخلعونني وتبايعونه.
ثم مضى إلى المدائن وخرج القوم إلى الخورنق وهيؤوا طعاماً، فحصل لهم كما وصف أمير المؤمنين عليه السلام، ثم أقبلوا على المدائن، فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: «﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠]، ليبعثكم الله يوم القيامة مع إمامكم الضبّ الذي بايعتم، لكأني أنظر إليكم يوم القيامة، وهو يسوقكم إلى النار». ثم قال: «لئن كان مع رسول الله منافقون، فإن معي منافقين، أما والله يا شبث ويابن حريث لتقاتلان ابني الحسين، هكذا أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله».

الخليفة الشرعي الذي نصبته السماء وانتخبه المسلمون. ومن جملة أخلاقه عليه السلام الرفيعة والسامية مع هؤلاء أنه كان يوصل العطاء بيده الشريفة إلى بيوتهم[1]، مع أنهم كانوا يمتنعون عن الخروج معه أو القتال بين يديه، بل إن بعضاً من هؤلاء كانوا يتقرّبون إلى الله تعالى بشتمه كلّ يوم مئات المرات. ومع أن من حقّ أي مسلم أن يمتنع عن أخذ أي حكم شرعي من هؤلاء الذين يشتمون علي بن أبي طالب كلّ يوم مئات المرات أو يستفتحون أيامهم بهذا الشتم؛ ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول لأمير المؤمنين عليه السلام: «**يا علي، من قتلك فقد قتلني، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن سبّك فقد سبّني**»[2] لكن البعض يشنّع علينا عدم الأخذ عنهم.

إذن فالإمام علي عليه السلام قد ابتلي بأمثال هذه النماذج من الناس كما ابتلي بهم من قبل أخوه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

المبحث الرابع: أصحاب الإمام الحسين عليه السلام على ضوء الآية

ونحن حينما نريد أن ننتقل عبر التسلسل التاريخي وأدواره إلى زمن أبي الأحرار وسيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام فإننا نجد أن مجموعة أصحابه عليه السلام تضمّ ثلّة عظيمة وجليلة من صحابة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وهي ثلّة يهتزّ التاريخ إعجاباً

---

(١) كما في موقفه عليه السلام مع سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب الجعفي. انظر الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

(٢) الأمالي (الصدوق): ١٥٥، ينابيع المودة ١: ١٦٧، الفصول المهمة ١: ٥٩٠، ٢: ١١٧٩، وفيهما بعده: «لأنك مني كنفسي، روحك من روحي، وطينتك من طينتي، إن الله تبارك وتعالى خلقني وإياك، واصطفاني وإياك، فاختارني للنبوة واختارك للإمامة، فمن أنكر إمامتك فقد أنكر نبوتي. يا علي، أنت وصيّي، وأبو ولدي، وزوج ابنتي، وخليفتي على أمّتي في حياتي وبعد مماتي، أمرك أمري، ونهيك نهيي، أقسم بالذي بعثني بالنبوة، وجعلني خير البرية، إنك لحجة الله على خلقه، وأمينه على سره، وخليفته على عباده».

بها، وينحني إجلالاً وإكباراً لما تنطوي عليه من نبل وإيمان والتزام وتقى، فقد أخذ عليه السلام من صحابة النبي صلى الله عليه وآله نماذج رائعة تشرّف وجه التاريخ وتزيّن وجه الدنيا، ومن هؤلاء نذكر:

الصحابي الأول: زاهر بن عمر

وهو زاهر بن عمر مولى عمرو بن حمق الخزاعي. وزاهر هذا كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، بل من الصحابة الأجلّاء (رضوان الله عليهم)، وقد التحق بالإمام الحسين عليه السلام يوم الطف، وكان يكتب اسمه على النبلة ويرمي بها إلى جيش عبيد الله ابن زياد فيقتل بها. وقاتل بين يدي الإمام الحسين عليه السلام قتالاً مشرّفاً حتى صرع دونه عليه السلام.

الصحابي الثاني: حبيب بن مظاهر الأسدي

وهذا الرجل بالإضافة إلى كونه من صحابة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان من خواصّ أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وكان هو ومسلم بن عوسجة من أقطاب نهضة مسلم بن عقيل عليهما السلام في الكوفة، لكن لمّا اضطر مسلم بن عقيل عليهما السلام إلى تقديم موعد النهضة ـ كما ذكرنا ذلك مراراً ـ بعد أن اضطرته الظروف إلى تقديمها على وقتها المحدد لها فإنهما وغيرهما لم يستطيعوا أن يلحقوا به عليه السلام؛ لأنهم كانوا لا يزالون في بيوتهم؛ ولذا فإنهم قد التحقوا بعد ذلك بالإمام الحسين عليه السلام. لقد جاء حبيب بن مظاهر إلى الطف بعد أن أرسل إليه الإمام الحسين عليه السلام يستدعيه، وبمجرد أن وقع نظر الإمام الحسين عليه قال لأصحابه: «**هذا حبيب بن مظاهر، قوموا بنا إليه**».

ثم استقبله الإمام الحسين عليه السلام وعانقه عناقاً طويلاً، وجدّد هذا الصحابي

الجليل عهده بالحسين عليه السلام وأهل بيته، ثم بعد ذلك قال له: سيدي، ائذن لي أن اُلقي التحيّة على زينب ابنة أمير المؤمنين عليه السلام. فأجابه الإمام عليه السلام إلى ذلك، وجاء به إلى باب خباء النساء، فجلس بباب الخباء من بعد، وسلم على زينب عليها السلام، وأطرق برأسه إلى الأرض ودمعت عيناه وقال: آه آه لوجدك يا زينب يوم تُحملين على بعير ضالع[1]. وهي إرهاصة كان قد سمعها من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن الإمام علي عليه السلام. ولذا فإنه كان لحبيب موقف مشرّف يوم العاشر من المحرم حيث نزل وهو يرتجز:

أنا حبيب وأبي مظاهرُ ... فارس هيجاء وحرب تسعرُ
أنتم أعدّ عدّة وأكثرُ ... ونحن أوفى منكمُ وأصبرُ[2]

وقاتل قتال الأبطال إلى أن سقط على الأرض صريعاً، يقول المؤرخون: فأقبل إليه الحسين عليه السلام، وذاد عنه الخيل يميناً وشمالاً، وجلس عند مصرعه، وأخذ رأسه وراح يمسح الدم والتراب عن وجهه، وهو يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾[3].

الصحابي الثالث: مسلم بن عوسجة

وهو أيضاً من الصحابة الأجلّاء الذين قتلوا بين يدي الإمام الحسين عليه السلام، وقد قُتل شهيداً قبل أن يستشهد حبيب بن مظاهر الأسدي، وحينما وقع إلى الأرض جاءه الإمام الحسين عليه السلام وبه رمق، وكان معه حبيب فقال له حبيب بن مظاهر وقد دنا منه: يعزّ عليّ مصرعك يا مسلم، أبشر بالجنة. فقال له قولاً ضعيفاً: بشّرك الله

---

(١) انظر ثمرات الأعواد ١: ٢١٢.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٢، مثير الأحزان: ٤٦، تاريخ الطبري ٤: ٣٣٥، البداية والنهاية ٨: ١٩٨.
(٣) الأحزاب: ٢٣.

بخير. فقال له حبيب: لولا أني أعلم أنني في الأثر لأحببت أن توصي إلي بكل ما أهمّك. فقال مسلم: فإني أُوصيك بهذا ـ وأشار إلى الحسين عليه السلام ـ فقاتل دونه حتى تموت. فقال حبيب: لأُنعمنّك عيناً. ثم مات (رضوان الله عليه)، فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «**رحمك الله يا مسلم، نصرتنا حياً وأوصيت بنا ميتاً**»[1].

الصحابي الرابع: جون مولى أبي ذر

وهو عبد أسود وقف أمام الحسين عليه السلام يوم الطف، وطلب منه الإذن بالنزول إلى ساحة القتال للمجاهدة بين يديه، فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «**أنت في إذن مني، فإنما تبعتنا طلباً للعافية، فلا تبتلِ بطريقنا**». فقال له: يابن رسول الله، أنا في الرخاء ألحس قصاعكم، وفي الشدّة أخذلكم! والله إن ريحي لمنتن، وإن حسبي للئيم، ولوني لأسود، فتنفّس عليّ بالجنة، لتطيب ريحي ويشرف حسبي، ويبيضّ وجهي. لا والله لا أُفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم. فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «**جزاك الله خيراً**». ثم برز للقتال في اليوم العاشر من المحرم وبيده سيفه وهو يرتجز ويقول:

كيف يرى الكفّار ضرب الأسودِ ... بالسيف ذبّاً عن بني محمدِ

أذبّ عنهم باللسان واليد ... أرجو به الجنّة يوم الموردِ

ثم قاتل حتى قتل، والإمام الحسين عليه السلام يراقبه، فلما سقط على الأرض صريعاً شهيداً، أقبل عليه السلام إليه وجلس عند رأسه، ومسح الدم والتراب عنه، ثم رفع رأسه الشريف إلى السماء وقال: «**اللهم بيّض وجهه، وطيّب ريحه، واحشره مع الأبرار، وعرّف بينه وبين محمد وآل محمد**». ثم نظر إليه طويلاً وقال عليه السلام: «**لا لقيت هواناً**

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٩ ـ ٢٠، تاريخ الطبري ٤: ٣٣١ ـ ٣٣٢.

بعد هذا اليوم»، ثم نقله إلى خيمة الشهداء، ووضعه إلى جانبهم، ثم جلس بينهم يقلّب عينه؛ فمرّة ينظر إلى الشهداء من أهل بيته، وأُخرى ينظر إلى الشهداء من أصحابه:

أدركـوا بـالحسين أكـبر عـيد ... فغدوا في منى الطفوف أضـاحي

لست أنسى من بعدهم طود عـزّ ... وأعـاديه مـثل سـيل البـطاحِ[1]

* * *

أحـتّنا مـن للـظعائن بـعدكم ... فليت فداكم يـا كـرام الظـعائنُ

---

(١) ديوان السيد رضا الهندي: ٥٢.

﴿٢٣٠﴾

الإيمان بالعالم الآخر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾[1]

مباحث الآية الكريمة

إن هذا المقطع من الآية الكريمة يشتمل على مضامين عالية سوف أعرض لها إن شاء الله تبارك وتعالى من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: الإيمان بالعالم الآخر ضرورة غريزية

إن الإنسان حينما يكون بعيداً عن التفكير الديني، وحينما يغفل أو لا يعتقد بعالم آخر وراء العالم الذي يعيش فيه الآن فإنه سوف يخرج من الدنيا حينما يحين أجله وهو يشعر بحسرة قاتلة وبلوعة محرقة؛ ذلك أن الحياة سوف تتحول

---

(١) الحج: ٥.

في عينيه إلى جحيم لأنه سوف يغادرها ويتركها وراءه، يقول أحد الادباء:

أيــها البــلبل المعلق بـالسجـ ــن سـلام فـيه شظايا فـؤادي

في ظلال الوادي يـرف شـقيق فـــحنيني إلى ظـلال الوادي

وبحضن الربيع فـي قـبة الور د يناغي الصباح شادٍ وشـادي

وكلانا نروح في قبضة الصيا د أسـرى شـلت يـد الصـيادِ

فهذا يشعر باللوعة نتيجة شعوره بالفوت، وهو شعور بأنـه سـوف لن يـنتهي إلى غاية معينة، فـتصبح الحـياة فـي عـينيه جـحيماً مـطبقاً لا يـطاق. ويـقول شاعر آخر:

قالت وقد سلخ ابتسامتَها الأسىٰ صـدق الذي قـال الحـياة غـرورُ

أكـذا نـموت وتـنتهي أحـلامنا فـي لحـظة وإلىٰ التـراب نـصيرُ

وتـموج ديـدان الثـرىٰ فـي أكـبدٍ كـانت تـموج بـها المـنىٰ وتـمورُ

ولا شك أن الإنسان إذا ما تصور أن هذه هي نهاية الدنيا ونهاية الحياة الممتعة التي كان يعيشها دون أن يكون لديه اعتقاد بأن هناك حياة وراءها، فإن هذا الأمر سوف يقضّ مضجعه، ويشعره بالحزن والألم واللـوعة، بـل إن تـلك اللـحظات المتبقية من حياته سوف يعيشها جحيماً لا يكاد يطيقه. أما إذا عرف الإنسان هذا أن الموت ينقلنا من عالم الفناء إلى عالم الخلود والبقاء.. عالم آخر نشـعر فـيه بالدعة والأمن والاستقرار فيما لو كان مؤمناً مطبّقاً لأوامر الله تعالى، وأنه يرجع إلى الله تعالى بانتقاله هذا من ذلك العالم إلى هذا العالم، فإنه حينئذٍ سوف تتغير نظرته إلى الأُمور تماماً، وسوف يخرج من هذا العالم وهو مطمئن النفس مرتاح البال هادئ وادع؛ لأنه إنما يرى نفسه كما لو أنه قد استقل حافلة لتنقله من مدينة

إلى أُخرى أفضل منها وأحسن وأجمل، وأكثر بهاء ونعيماً، وأكثر راحةً ليعيش فيها منعماً يحيطه السرور والفرح والراحة وما إلى ذلك من مقومات السعادة في الحياة.

المبحث الثاني: في إعادة خلق الإنسان

إن هذه الآية الكريمة تجيب على تساؤل يطلقه البعض وهو: هل إن هناك حياةً أُخرى بعد هذه الحياة؟ ومنشأ هذا التساؤل هو أن الإنسان إذا عاد إلى التراب ودُفن فيه ثم تحلل جسمه وتحول إلى ذرات منه وفيه، فهل من الممكن أن يعاد بناء هذا الجسم ثانية، وإعادة الحياة إليه؟ وبهذا فإن القرآن الكريم يجيب على هذاالتساؤل بهذه الآية الكريمة عبر قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ**﴾.

وهذا هو أول شيء يمكن أن نتناوله من مضامين هذه الآية الكريمة، وهذا السؤال ينطوي على قياس مع أنه قياس مع الفارق كما يقال؛ ذلك أن وجه استبعاد هؤلاء عودة الإنسان إلى الحياة مرة ثانية لا أصل له ولا مجال لأن يوسم بالصحة؛ ذلك أن الإنسان قد خلق أول الأمر من تراب مخلوق من عدم، ثم تحول هذا التراب إلى إنسان بكلمة ﴿كن﴾. وفي هذا تتجلّى القدرة الإلهية التي تتضح معالمها من خلال خلق الإنسان وغيره، فإذا كان الإنسان قد خُلق من تراب أصلاً فإنه ليس من العسير ولا من الصعب أن يعاد جمع ذراته من التراب بعد أن تفتت ذلك الجسم إلى تلك الذرات.

فالقدرة التي خلقت الإنسان من تراب أول الأمر ليست بعاجزة على أن تجمعه ثانية بعد أن تحول إلى تراب؛ لأن من يقدر على الابتداء يقدر على الاستعادة؛ ذلك أن الاستعادة التي هي إعادة موجود تعتبر أسهل من الابتداء

الذي هو إيجاد الشيء وخلقه من العدم. ومبدئياً فإن الله تبارك وتعالى قد أفاض الوجود على الناس جميعاً، بل على المخلوقات جميعاً، وهو الذي أخرج الإنسان من التراب مبدئياً، وبهذا فإنه يستطيع أن يستعيده من التراب مرة أُخرى: **﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾**[1]، **﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾**[2].

علة جمع تراب الإنسان من كلّ أصناف الأرض

إن الإنسان الأول أو الإنسان الذي توالدت منه هذه الأجيال التي تملأ الأرض الآن قد خُلق من تراب كما ذكرنا، وتقول النظرية التاريخية: إن الله تبارك وتعالى حينما أراد أن يخلق آدم أوحى إلى ملك من الملائكة وقال له: «**خذ قبضة من سبخ الأرض وقبضة من عذبها، وقبضة من السهل وقبضة من الجبل، وامزجها**».

والهدف من هذا هو أن يصبح عند الإنسان قدرة على التكيّف لأن يعيش في أبعاد الأرض.

وفي كلّ أماكنها ومناخاتها وظروفها التي تتراوح بين الظروف المناخية الحارة والظروف المناخية الباردة والطبيعة السهلية والطبيعة الجبلية والطبيعة الصحراوية وما إلى ذلك من التقسيمات الجغرافية للأرض.

يقول المفسرون: إن اللّه تعالى بعد أن خلق آدم وجبن طينته تركه على باب الجنة، فكانت الملائكة تطؤه بأرجلها أربعين عاماً قبل أن تنفخ فيه الروح. ولو سأل سائل فقال: ماهو الهدف من هذا؟ فيقال في البين: يبدو أن الهدف هو

---

(١) يس: ٧٨ ـ ٧٩.   (٢) الأنبياء: ١٠٤.

ترويض الإنسان على أن يمشي وفق النهج الإنساني الصحيح والسليم الذي رسمه الله له، وأن يتجرد من التكبر الذي هو رداء الله تبارك وتعالى، فلا ينازعه رداءه، وأن ينبذ عن نفسه الترفع على الآخرين وعنهم، والأنفة، وأن يتواضع لعباد الله جميعاً.

وهكذا فإن الآية الكريمة تخاطب الإنسان قائلة له: لقد خلقت مبدئياً من التراب، والتراب موطئ الأقدام، ثم إنك بعد ذلك سوف تتحوّل إلى تراب أيضاً فتطؤك الأرجل، فهل بعد هذا يحقّ لك أن تتكبّر وأن تترفّع؟ يقول الشاعر:

يابن التراب ومأكول التراب غداً ... قصّر فإنك مأكول ومشروبُ[1]

إذن فالإنسان في النتيجة هو ابن التراب، ومن التراب وإلى التراب، وسوف يصير بكل ما يحمل وبكل ما يتجمل به وبكل أناقته ومزاياه إلى التراب، ويصبح جزءاً من الأرض التي هي موطئ الأقدام للمخلوقات كافة. وبهذا فإن هذا الوجه الجميل وهذا الجسد الذي يسعى الإنسان بكل ما أُوتي من قوة ومقدرة ووسائل على المحافظة عليه سوف يوضع تحت التراب، وسوف يكون قوتاً لحشرات الأرض وموضعاً لوطء أقدام الناس وغيرهم من الكائنات الأُخرى، ولهذا فإن الخيّام يقول:

كُلُّ ذَرَّاتِ هذهِ الأرْضِ كانَتْ ... أَوْجُهاً كَالشُّمُوسِ ذاتَ بَهَاءِ
أجْلُ عَنْ وَجْهِك الغُبَارَ بِرِفْقٍ ... فَهْوَ خَدٌّ لِكَاعِبٍ حَسْنَاءِ[2]

وهكذا فإن على الإنسان أن يخفف من غلوائه ومن عجرفته وخيلائه وزهوه؛ لأنه كائن ضعيف لا يليق به شيء من كل هذه الصفات، بل إنه لا يرتفع به إلّا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٢٩٥. (٢) رباعيات الخيام: ١.

التواضع والخلق العالي[١]. فهذا الخدّ الذي سوف يلامس التراب لا يليق بـه أن يتكبّر وأن يترفّع وأن يتّصف بصفة الخيلاء. كان أحد العبّاد والأولياء المعروفين بالتديّن يمشي، فرأىٰ شخصاً من أُسرة آل المهلب يمشي مشية غير طبيعيّة، وكان هذا الرجل بحكم وضعه الأُسري الراقي والارستقراطي والمكانة العالية التي هو عليها يتبختر في مشيته، فقال له ذلك العابد: لو تركت هذه المشية لكان أليق بك. قال له: أو لست تعرف من أنا؟ قال: بلىٰ. قال: كيف تعرفني؟ قـال: أوّلك نـطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت مابينهما تحمل العذرة[٢].

فهذا المهلبي يرى نفسه أنه من أُسرة عالية ومن بيت مـن البـيوتات الراقـية ذات المكانة الاجتماعية ولذا فإنه يرى أن له الحق في أن يمشي هـذه المشـية وأن يتخلّج بها.

وهكذا فإن الآية توحي بهذا الجو، وتقربه إلى أذهان الناس، ذلك أن الإنسان إذا ما التفت إلى حقيقة أنه من التراب وأنه سوف يعود إلى التراب وإلى الحشرات التي سوف تعيث في جسمه فإن ذلك التفكير سوف ينعكس على خلقه، ويجعله يخفف من غلوائه.

---

(١) قال عبد العزيز الطباطبائي مشطراً، والأصل للشاعر الحلبي فـرانسـيس مـراش (١٣٩٠ - ١٣٥٢):

(تَواضَع تَكُـن كَـالنجمِ لاحَ لِـناظِر)	بِـهِ يـهتَدي السـارونَ حَـيثُ تَـضيعُ
وَرَم خُلُقاً في الحُسنِ كَالبَدرِ إِذ يُرى	(عَلى صَـفحاتِ المـاءِ وَهـوَ رَفـيعُ)
(وَلا تَكُ كَـالدُخانِ يَـعلو بِـنَفسِه)	وَلَـيسَ بِـهِ لِـلاِنتِفاعِ نُـزوعُ
وَذو الكِبْرِ نَكس كَالبَعوض إِذا عَـلا	(عَلى صَفحاتِ الجَوِّ وَهُـوَ وَضيعُ)

(٢) وهو كلام مقتبس من حِكم أمير المؤمنين عليه السلام. يقول فيه: «ما لابـن آدم والعـجب؛ وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة؟». عيون الحكم والمواعظ (علي بن محمد الليثي الواسطي): ٤٧٩.

لكن مع هذا كله فان الكثير من الناس يبتعد عن هذا أو يأنف من أن يعترف بهذه الحقيقة، فيتكبر على الآخرين، ويجور عليهم، ويظلمهم، بل وأكثر من هذا فإننا نجد أن البعض يدّعي الأُلوهية مع أنه لو تفكر في نفسه وفي حقيقتها وفي حقيقة خلقه وما يحويه جسمه لوجد أنه لا يليق به إلّا التواضع.

والإنسان بتكبره هذا يفوّت الغرض أو السبب الذي من أجله سمى إنساناً، فالإنسان إنما سمي إنساناً لأنه يأنس بالناس والناس يأنسون به، لكنه حينما يتكبر على الآخرين ويترفع عنهم ويبتعد عنهم ولا يخالطهم فإنه بذلك سوف لن يحقق هذا الهدف أو الغرض أو العلة التي من أجلها سمي إنساناً، فلا يأنس بغيره ولا يأنس به غيره.

النظرية العرقية وخلق الإنسان من تراب

إن الآية الكريمة حينما تقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ**﴾ فإنها تؤشر إلى حقيقة هي أن الإنسان بترفعه عن أبناء جلدته، وبتكبره عليهم هو في واقع الأمر يؤيد النظرية العرقية التي يحاول هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة أن يضربها وأن يقضي عليها، ويرفعها من أذهان بعض الناس الذين يحاولون أن يصوّروا لغيرهم بأنهم يملكون دماء نقية متميزة، وأن غيرهم من دماء أدنى مرتبة وجنس أقل رتبة ودرجة من جنسهم.

وهؤلاء بهذا يحاولون أن يُقنعوا أنفسهم ويقنعوا الآخرين بأن الإنسان من حيث الخلْق يتفاوت رفعةً وضعة، أي أن بعض الناس الذين هم من أجناس معينة يجب أن يسودوا على الآخرين؛ لأن جنسهم يجب أن يسود على الأجناس الأُخرى غيرهم وأن يحكمها، بل يسترقها ويتحكّم بمصائرها

ومقدّراتها بدعوى أنها أجناس جاهلة.

وهذا الأمر لا يختص بالتفكير فيه عامة الناس أو جهالهم، بل إنه ينسحب على شرائح تلك المجتمعات كافة حتى علمائهم الذين يصنفون الإنسان إلى أصناف كما هو شأن بعض العلماء البايلوجيين الاسكندنافيين، والسويديين منهم بشكل خاصّ، فهؤلاء يصنفون الناس أصنافاً؛ فمثلاً القارة الافريقية صنف، والشرق الأوسط صنف، وأهل الشمال أو الشماليّون كما يطلقون على أنفسهم صنف آخر، ويحاولون إعطاء خصائص لكل صنف، فتفضل بعض تلك الأصناف على غيرها بموجبها، فتلك التي تعيش في أوروپا مثلاً تفضل على الاصناف الإنسانية التي تعيش في القارات الاخرى.

ومن هؤلاء العالم ديمتري بار الذي وضع بحثاً مختصاً في هذا المجال. وهؤلاء العلماء يقولون: إن الفروق بين إنسان وآخر من منطقة إلى أُخرى بالخواص الوراثية لا يتعدى العشرة بالمئة، أما ديمتري هذا فيقول: لو أخذنا على سبيل الفرض شخصاً من منطقة من مناطق أوروپا، وآخر من منطقة من مناطق آسيا وأردنا أن نقيس الفرق بينهما بالخواص الوراثية فإننا سنجد أن الفروق هي (٣٥ إلى ٤٠ فرقاً)، أما لو أخذنا اثنين من أوروپّا واثنين من آسيا فإننا سنجد أنها تصل إلى (٤٠ فرقاً).

إذن يوجد فرق بحدود (٥٪) بين إنسان وإنسان، وهذه النسبة قد تكون ناتجة من البيئة وليس من الخواص الوراثية؛ لأن الله عزّ وجلّ قد خلق الناس من مصدر واحد؛ وعليه فليس هناك من فرق بينهم من جهة هذه القضية، وهي التي ينظر إليها على أنها تمييز عنصري بين أبناء الأصل الواحد وهو الإنسان الذي خلق من تراب.

وهكذا فإننا نجد أن المآسي التي نتجت عن هذا النمط من التفكير أو الترفع والتكبر، وتصنيف الناس إلى هذه الأصناف من حيث العرق والدم هي مآسٍ ناشئة عن اعتقادات وهمية باطلة ليس لها منشأ أبداً. وكما قلنا فإن هذه الخواص هي خواصّ لا تتجاوز الـ(٥٪)، وغالباً ما يعزوها علماء البيولوجيا إلى تأثيرات الجلد واللحم، أي أن هذه الخواص ليست خواصّ من أعماق النفس، وإنما هي خواص تتعلق بالجلد واللحم والهيكل المادي للإنسان دون أن يكون هنالك أي دور للوراثة فيها، بل هي عبارة عن تكيّف الجسد المادّي في بيئته وتفاعله وتعامله معها.

وإن بهذا المورد تنتج الاختلافات بين الناس في هذا المجال من حيث الألوان أو الطبائع أو ما إلى ذلك، أما الاختلاف في المضمون فلا وجود له أبداً على ضوء النظريات العلمية الحديثة.

إذن فهذا اللون من الشعور بالعرقية والتعالي على الآخرين والتميّز عليهم لا أساس له من الصحة، مع أنه شعور يجعل البعض يدّعي أن الحضارة إنما أنشأها جنس واحد على هذه الأرض وهو الجنس الأشقر دون بقية الأجناس الأُخرى. وهذه كلها نظريات واهية ضعيفة لا تصمد أمام النقد العلمي، وقد حاول الإسلام الحنيف أن يعالجها وأن يقضي عليها بأن يرد عليها وينفيها من أساسها، مؤكداً على أن أصل الإنسان واحد وأن طينته واحدة، وحاول أن يثبت بأن الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره. وهذه ليست أُخوّة أخلاقية، بل إنها أُخوة بالخواصّ وبالأساس الذي خلق الإنسان عامة منه، فلا يفرق عنه بشيء أبداً، وإذا كان الأمر كذلك فإن الآية الكريمة تخاطب الناس فتقول لهم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ**﴾.

المبحث الثالث: في معنى النطفة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾، والنطفة المرادة هنا ليست على إطلاقها، بل إن المراد بها النطفة المنتجة، والنطفة المنتجة هي التي كتب الله عزّ وجلّ لها أن يكون من نتاجها الولد. إننا نعلم أن بعض الناس قد قُدر لهم ألّا ينجبوا، مع أن الفحوصات الطبية التي يجرونها تثبت لهم بأنه ليس هنالك أي عائق أو مشكلة طبيعية تمنع من وقوع الحمل: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1].

أمّتان ممسوختان

وهناك من يذهب إلى أن هؤلاء الذين لا ينجبون هم أُمم ممسوخة، ويروون بهذا طائفتين من الروايات عن النبي الأكرم ﷺ:

الأولى: أمّة مسخت فأراً

وننقل منها رواية واحدة، وهي مروية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، تقول هذه الرواية: «فقدت أُمة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت، وإني لا أراها إلّا الفأر، إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربت»[2].

الثانية: أمّة مسخت ضبّاً

وننقل منها روايتين، هما:

الأولى: عن جابر قال: أُتي رسول الله ﷺ بضبّ فأبى أن يأكل منه، وقال:

---

(١) الشورى: ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) صحيح البخاري ٤: ٩٨، صحيح مسلم ٨: ٢٢٦، حياة الحيوان الكبرى ٢: ٢٠٤.

« لا أدري لعله من القرون التي مسخت »[١].

الثانية: وهي مروية عن أبي سعيد قال: إن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: إني في غائط مضبّة، وإنه عامّة طعام أهلي. فلم يجبه ﷺ، فعاوده فلم يجبه ثلاثاً، ثم ناداه رسول الله ﷺ فقال: **« يا أعرابي، إن الله لعن ـ أو ـ غضب على سبط من بني إسرائيل فمسخهم دوابّ يدبّون في الأرض، ولا أدري لعل هذا منها، فلم آكلها ولا أنهى عنها »**[٢].

ثم يأتي من ينقل هذه القصّة(!) ليعلّل هذا الأمر بقوله: « وقد صحّ عنه ﷺ أن الممسوخ لا نسل له، والظاهر أنه لم يعلم ذلك إلّا بوحي، وأن تردّده في الضبّ كان قبل الوحي بذلك... وأما حديث الضبّ والفأر، فكان ذلك قبل أن يوحى إليه ﷺ أن الله تعالى لم يجعل للممسوخ نسلاً، فلما أُوحي إليه بذلك، زال عنه ذلك التخوّف، وعلم أن الضبّ والفأر ليسا مما مسخ، فعند ذلك أخبرنا بقوله ﷺ لمن سأله عن القردة والخنازير، أهي مما مسخ؟ فقال ﷺ: **« إن الله لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك »**. وهذا نص صريح... وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته ﷺ وعلى مائدته فلم ينكره، فدلّ ذلك على صحّة ما قلناه »[٣].

وهذا المعنى يرويه ابن عبد البر عن البخاري كما ذكر في (حياة الحيوان)[٤] للدميري في باب (قرد) في آخر هذا الباب.

---

(١) مسند أحمد ٣: ٣٢٣، صحيح مسلم ٦: ٧٠، الجامع لأحكام القرآن ١: ٤٤١، ٤٤٢، إمتاع الأسماع ٧: ٣٠٨، حياة الحيوان الكبرى ٢: ٢٠٤.

(٢) مسند أحمد ٥: ١٩، سنن ابن ماجة ٢: ١٠٨١ / ٣٢٤٥، السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ٣١٩، المصنف (ابن أبي شيبة) ٥: ٥٤٤، الآحاد والمثاني ٣: ٩٣.

(٣) انظر نيل الأوطار ٨: ٢٨٧.

(٤) حياة الحيوان الكبرى ٢: ٢٠٤.

المهم أن هذا اللون من الاختلاطات الجانبية لا نريد أن نشوش الفكر الإسلامي بها، وينبغي أن أنبه إلى أن هناك أشياء سنمر بها خلال البحث يجب إعادة النظر فيها وعرضها على الطرق العلمية الصحيحة، والمنهج الأكاديمي لكي نحكم عليها بالصحة أو بالخطأ؛ لأن هنالك الكثير من الناس حينما يقرأ كتاباً يعتقد أن كلّ ما فيه صحيح وغير قابل للتكذيب أو للنقاش سيما إن كان ذلك الكتاب يحظى بقدسية عنده، ثم يجد فيه مثل هذه الأساطير، فإنه حتماً سوف يعتقد بصحّتها.

مع أن الواقع يقول غير ذلك، بل عكسه، فليس كل ما يُنقل صحيح؛ فكل رواية لها حسابها الخاص ولها ميزانها الذي توزن به، ولها مقاييسها التي تعرض عليها وضوابطها التي ينبغي النظر فيها؛ كي نحكم عليها بالصحة أو الخطأ.

رجع

وعليه فإن النطفة التي يكون منها التوالد هي المقصودة في هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة، وهي الأمشاج التي عبر عنها القرآن. والمشيج هو البويضة التي تلقّح بنطفة الرجل. وهناك مسألة يبحثها المتأخرون وهي: هل إن المرأة عندها نطفة، أم إنها مجرّد بويضة تخرج في أجواء معينة؟ إن فهم هذا لا يعنينا بشكل خاص ولكن بشكل عام فإن الجنين يتكون من تخصيب البويضة بالحويمن، والغرض من هذا معروف.

نظرة العرب إلى تكوّن الجنين

إن العرب فيما سبق كان عندهم نظرية هي أن المرأة ليست إلّا وعاء لحمل الولد، ولا تأثير لها عليه مطلقاً، والولد عندهم هو ابن أبيه، والاُم ليس لها أي تأثير

وراثي على الجنين، أو أية علاقة به.

وهذه النظرية باطلة؛ لأن الأُم لها تمام التأثير في عملية خلق الولد وتـخليق كيانه؛ فالولد مدين في تركيبه وفي نشأته إلى الأب وإلى الأُم معاً: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾**، وهذه النطفة هي في الأساس من التراب لأنها تتكون من الأغذية، وكما هو معلوم فإن الأغـذية عامة ترجع إلى التراب، غاية ما في الأمر أنها مرت بعملية تحول حتى انتهت إلى تلك النطفة المودعة عند الإنسان والتي أراد الله تبارك وتعالى له أن تأخـذ ذلك الطريق النظيف لكي يتأتى لنا أن نمد المجتمع النظيف بمكوناته النظيفة، وهو الولد الشرعي.

وهكذا فإننا نجد أن شغل الإسلام الشاغل ودأبه الذي درج عليه هو أن تكون الأُسرة نظيفة، وبالتالي يكون المجتمع نظيفاً. وقـد حثّ عـلى ذلك حـثاً كـبيراً، فشرع له قوانين لتحقيقه، ولمعاقبة من يخالفه. وبهذا فإننا نلمس حرص الإسلام على بناء المجتمع الإسلامي النظيف: «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره»[1]؛ لأن الإنسان حينما يضع نطفته التي جـعلها الله فـيه، والتي أراد لها أن تكون وسيلة وآلة لتكوين الإنسان النظيف، حينما يضعها فـي طريقها غير الشرعي وغير النظيف ـ أي بالطرق غير الحلال ـ فإنه حينئذٍ سوف تختلط الأنساب، وهو ما يعرّض الإنسان إلى المساءلة بين يدي الله عزّ وجـلّ، بالإضافة إلى تعرّضه إلى مصيبة أخـلاقية أو اجـتماعية؛ لأنـه إذا تـعدّى عـلى أعراض الناس فإن الناس سوف يعتدون على عرضه، وفي الحـديث الشـريف:

---

(١) مسند أحمد ٤: ١٠٨، سنن أبي داود ١: ٤٧٨، السـنن الكـبرى (البـيهقي) ٧: ٤٤٩، ٩: ١٢٤، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٣: ٤٣٦، ٨: ٥٢٣.

«عفّوا تعفّ نساؤكم»[1].

إذن النطفة يجب أن توضع في مكانها لكي تأخذ طريقها الشرعي الطبيعي، والآية الكريمة حينما تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ فإنها إنما تريد أن تؤكد على حقيقة أن الإنسان قد خُلق من هذه النطفة التي ينبغي أن تكون بالطرق المشروعة التي أقرتها السماء والتي قننها الإسلام الحنيف.

المبحث الرابع: في معنى العلقة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾، إن النطفة بعد أن تعلق في قرارها المكين وتستقرّ في فراشها الوثير، فإنها تسمى حينئذٍ علقة. وفائدة هذا

---

(١) الكافي ٥: ٥٥٣ ـ ٥٥٤ / ٣، المعجم الأوسط ٦: ٢٤١. وفي الكافي: عن مفضل الجعفي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما أقبح بالرجل من أن يرى بالمكان المعور، فيدخل ذلك علينا وعلى صالحي أصحابنا! يا مفضل، أتدري لم قيل: من يزنِ يوماً يزنَ به؟». قلت: لا، جعلت فداك. قال: «إنها كانت بغي في بني إسرائيل، وكان في بني إسرائيل رجل يكثر الاختلاف إليها، فلما كان في آخر ما أتاها أجرى الله على لسانها: أما إنك سترجع إلى أهلك فتجد معها رجلاً. فخرج وهو خبيث النفس، فدخل منزله على غير الحال التي كان يدخل بها قبل ذلك اليوم، وكان يدخل بإذن، فدخل يومئذٍ بغير إذن، فوجد على فراشه رجلاً، فارتفعا إلى موسى عليه السلام، فنزل جبرئيل عليه السلام على موسى عليه السلام فقال: يا موسى، من يزنِ يوماً يزنَ به. فنظر إليهما فقال: عفّوا تعفّ نساؤكم».

ومما ينسب للعلّامة المقري قوله:

عفّوا تعفّ نساؤكم في المحرمِ ... وتجنبوا ما لا يليق بمسلمِ

يا هاتكاً حرم الرجال وتابعاً ... طرق الفساد تعيش غير مكرّمِ

من يزنِ في قوم بألفي درهم ... في أهله يزنَ بربع الدرهمِ

إن الزنا دَين إذا أقرضته ... كان الوفا من أهل بيتك فاعلمِ

كشف الخفاء ٢: ٦١ / ١٧٣٨.

التسلسل هي تقسيم مراحل نمو الجنين وأدواره في عملية الخلق والتكوين.

وهذه الأدوار عندما يمر بها الفقه الجنائي فإنه يتعامل مع الجنين على ضوئها على أنه كيان كامل ومستقل؛ ولذا فإنه يُعطي لكل مرحلة من مراحل الجنين التي يمر بها ديتها الخاصة التي تترتب على تعمد إسقاط الجنين بخوف أو ضرب أو ما إلى ذلك من مسببات إسقاطه، حتى إذا ما أكمل شهره الرابع وحلت فيه الحياة فإنه حينئذٍ يعامل على أنه إنسان كامل، ويحكم بأن له دية كاملة، وهي ألف دينار ذهب، أو مئة ناقة، أو ألفا برد يماني.

هذا إذا كان القتل قتلَ خطأ، أو كان قتل عمد لكن ولاة الدم أرادوا أن يعفوا عن القاتل ويأخذوا الدية. أما إذا كان قتلَ عمد ولم يعفُ ولاة الدم، فإن له حينئذٍ حساباً آخر[1].

على أية حال فإن الأمر المهم الذي أردنا أن نذكره من وراء سردنا لهذه التفاصيل هو بيان أدوار الجنين، وأنه له حق في كل دور منها يكون فيه. وهذه المراحل عندما يمر بها القرآن الكريم فإنه يحاول أن يبيّن لنا أن كل دور منها له شأنه الخاصّ، وله تقييمه باعتبار أنه يشكّل مرحلة هامة من مراحل تكوّن الجنين.

المبحث الخامس: المراد من المضغة المخلقة وغير المخلقة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، والمضغة

---

(١) رأي الإمامية في دية الجنين إذا تم خلقه مئة دينار. وإذا لم يتمّ، فغرّة عبد أو أمة. الخلاف ٤: ١١٣ ـ ١١٤ / المسألة: ١٢٦، ٥: ٢٩٣ / المسألة: ١٢٤.
أمّا رأي بقيّة المذاهب الإسلاميّة فهو أنها غرة عبد أو وليدة مطلقاً. كتاب الأم ٦: ١١٥، الموطّأ ٢: ٨٥٥.

هي القطعة من اللحم تكون بمقدار ما يمضغه الإنسان. وهي مرحلة ثانية تأتي بعد مرحلة العلقة. والمضغة تنقسم إلى قسمين: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، وللمفسرين في معنى هذا المقطع الشريف رأيان، هما:

المعنى الأول: أنها ناقصة أو غير ناقصة

فالمضغة تارة تكون مخلّقة، أي أنها تكون تامّة الخلق، وأُخرى تكون مضغة غير مخلّقة، أي أنها ناقصة الخلق. لكن يرد هنا سؤال هو أن هذا النقص الذي يصيب الجنين في هذه المرحلة هل هو نقص ناشئ عن خطأ الطبيعة، أم إنه خطأ مقصود؟ إن بعض المفسرين يميل إلى أن هذا الأمر فيه تخطيط، يعني أن المسألة ليست اعتباطية ولا تلقائية أو عفوية، أو مجرد أن هنالك خطأ طبيعياً قد وقع في التركيبة الجنينية في هذه المرحلة، أو بناء على خطأ طبيعي قد وقع في المرحلة السابقة، وهي مرحلة كونه علقة مثلاً، بل إن في هذا الترتيب تخطيطاً، ووراءه تقديراً وغاية وقصداً، وأُموراً لا نعلمها نحن.

مستحبّات الفراش وأثرها في كمال الجنين

إننا نعلم أن الشارع المقدس قد نهانا عن أشياء بعينها، وهذه الأشياء التي ينهانا عنها، إذا لم ننتهِ نحن عنها فإن النتيجة سوف تكون أننا سوف نقع في الخطأ. ونحن نعلم أن الشريعة المقدسة تتدخل حتى في العلاقة بين الزوجين لتبين الوقت الصالح لممارسة عملية الفراش، أو مقاربة الرجل أهله، والوضع الصالح لذلك، والمكان الذي يستحبّ فيه أن يكون ذلك، فضلاً عن المستحبّات الأُخرى التي تكتنف هذه العملية، والتي ينبغي ـ على نحو الاستحباب ـ مراعاتها وعدم تفويتها؛ كي يبتعد الإنسان عن الوقوع في المحذور، أو أن يحصل هناك خطأ ما للجنين بعد تكونه فيسبّب له تشوّهاً أو ما شاكل.

إن مراعاة هذه الأوامر الاستحبابية هي في حقيقة الأمر لصالح الزوجين والجنين، وفيها مراعاة للجنين نفسه وتأكيد من الشريعة المقدسة على ضرورة أن يكون الجنين سليماً ومعافى، وأن الإخلال بمثل هذه المستحبات ربما يؤدّي إلى أن يكون هذا الجنين ناقص الخلق. فمعنى أن يقنن الإسلام مثل هذه القوانين، وأن يضع المستحبات المختصة في وقت لقاء الزوجين، والمكان أو الطريقة أو الوضع الذي يجب أن يكونا عليه، وما إلى ذلك من مستحبات أُخرى هو أنه في نهاية الأمر تكون هذه الأُمور في صالح الجنين، وبالتالي في صالح الزوجين أنفسهما، ونحن إنما نقول: إن الاخلال بهذه المستحبّات أو عدم مراعاتها ربما يؤدّي إلى أن يكون الجنين ناقص الخلقة غير تامّها، وليس مطلقاً.

إن هذا يعني أننا في حقيقة الأمر نفتقر إلى الثقافة من هذه الناحية، الأمر الذي يؤدّي بنا إلى القول بأننا نمتلك أُمّية حضارية بالاصطلاحات الحديثة؛ لأنه ليس هنالك من يكلّف نفسه ويحثّها على مراجعة قوانين السماء بهذا الخصوص لمتابعتها وللحرص على تطبيقها؛ كي يخرج الإنسان من عهدة هذه النتيجة التي ربما تكون غير مرضية لهذين الزوجين، مع أن الرجوع إلى هذا القانون هو سهل جداً إذ أن بإمكان الفرد أن يمسك أي رسالة عملية لعالم من العلماء، ليتعرّف بشكل كامل على الهيئة أو الكيفية التي يريد الشارع الأقدس له أن يتعامل بها كلّ إنسان مع أهله؛ ليس في مثل هذه الحالات وحسب، بل في كلّ حالات الحياة ومراحلها وأشكالها وأنماطها.

إن الله تبارك وتعالى لا ينهى عن شيء إلّا وفيه نوع من المبغوضيّة أو الضرر الموجود في ذات ذلك الشيء، وإلّا فإنه لولا هذا الضرر الذي فيه لما نهى الله تبارك وتعالى عنه، غاية ما في الأمر أن هذه المسألة تختلف شدة وضعفاً

باختلاف الأماكن والأوقات، وباختلاف الضرر نفسه. وفي مقابل هذا فإننا نقول: إن الله تبارك وتعالى لم يأمر بشيء إلّا وفي ذلك الشيء نوع من المحبوبية أو المصلحة المترتبة على فعله، والتي تصبّ في نتيجة الأمر في صالح الإنسان وفي فائدته. ولذا فإننا نذهب إلى أن ملاك الأحكام الشرعية كافة هي المصالح والمفاسد.

المعنى الثاني: أنها الموت

وهناك رأي آخر في مقابل المعنى الأول يقول: إن معنى قوله تعالى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أنها لم يقدّر لها الخلق والحياة، أي أنه لم يقدر للجنين أن يعيش. وهذا يعني أن الجنين يولد ميتاً.

والحقيقة أن البعض من الناس نجد أنه كثير التذمر بل دائمه، بل إن دأبه في هذا الحياة التأفّف وكثرة الاعتراض على وجوده، ويتمنى لو أنه لم يخلق؛ لأنه لم يحصل على شيء من هذه الحياة كما يريد هو، ذلك أنه يرى أنه إنما وُجد لمجرد أن يبحث عن رغيف خبز ليأكله، أو أن يجني المال فيكتنزه، ثم إذا به يجد نفسه أنه لم يحصل على هذا الرغيف إلّا بعد المرارة والألم وبذل الجهد والمشقة، وربما مع كثير من المشاكل. وبهذا فإنه يرى أن وجوده لا معنى له لأنه لم يحصل على ما يريد، وإن حصل فعلى شيء قليل وبكثير من التعب والجهد والمشقة، وبعد كل هذا الجهد والمشقة فإنه سوف يكون تراباً بعد أن يصير إليه، فيترك البيت الذي شيّده لغيره، ويترك المال الذي جمعه قل أو كثر لورثته.

وكل هذا في نظره مدعاة لأن يتذمّر من الحياة، وأن يعترض على وجوده بهذه الشاكلة فيها، ومن هؤلاء مثلاً ابن الشبل البغدادي الذي كان يميل إلى التفلسف في شعره، حيث إننا نجد في بعض أبيات له الاعتراض واضحاً على

وجوده، ومن ذلك قوله:

صحّةُ المرءِ للسقامِ طريقٌ وطريقُ الفناءِ هذا البقاءُ

بالذي نغتذي نموت ونحيا أقتَلُ الداءِ للنفوسِ الدواءُ

قبّح اللّهُ لذّةً لأذانا نالها الأمّهاتُ والآباءُ

نحن لولا الوجودُ لم نألمِ الفقـ ـدَ فإيجادُه علينا بلاءُ[1]

فالإنسان لا يشعر بمرارة فقد الشيء إلّا بعد أن يكون قد استمتع به. وكمثال على ذلك الكهرباء، فإننا لا نستشعر انقطاع التيار الكهربائي إلّا بعد أن نكون قد استمتعنا بوجوده عبر تشغيل أجهزة التكييف أو الأجهزة الكهربائية الأُخرى التي نستفيد منها في حياتنا؛ ولهذا فإننا سوف نشعر بألم مثلاً أو بمرارة حينما ينقطع عنا هذا التيار؛ لأننا سوف نفقد خاصية إمكان الاستفادة من هذه الأجهزة التي يتوقف عملها على وجود هذا التيار.

وهكذا فإن هذا الشاعر يقول: لولا اللذة التي دفعت الآباء والأُمّهات إلى إيجادنا لما شعرنا بالألم ولا بالمرارة بعد أن نفقد هذا الوجود. والواقع إن هذه النظرة نظرة تشاؤمية؛ ذلك أن الوجود خير كله، وهذه الأيام التي يمر بها الإنسان هي أيام يجب على الإنسان العاقل أن يستغلها ليكتسب بها الأجر والثواب وفعل الخير مع الآخرين؛ لأن «الدنيا مزرعة الآخرة»[2] كما ينصّ عليه الأثر الشريف. وبعد أن يفقد الإنسان هذا الوجود وينتقل إلى وجود آخر فإنه سوف يقدّم ما حصل عليه في الدنيا بين يدي ربه ليجازيه به ويحاسبه عليه؛ فإن كان خيراً أُمر به إلى النعيم، وإن كان شرّاً أُمر به إلى الجحيم.

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٣٣٦، الوافي بالوفيات ٣: ١٢، فوات الوفيات ٢: ٣٢٥.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٣٨.

هذا هو المعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، مع أن هناك نظريات أُخرى في كتب التفسير حول هذا المقطع الشريف من الآية لكنها ربما لا ترقى إلى درجة الوثاقة أو التمامية؛ ولذا فإننا نعرض عنها.

المبحث السادس: في متعلق ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، أي لنبين لكم قدرتنا ولنريكم إياها، فكأن القرآن يقول لنا: إن الله تبارك وتعالى ينقلكم من عالم إلى آخر ليبرهن لمن ينكر البعث بعد الموت على أن الله تبارك وتعالى قادر على ذلك؛ بدليل أنه سبحانه وتعالى قد قلّب الإنسان في عملية خلقه من عالم إلى عالم، ونقّله بينها بعد إتمام مرتبة العالم السابق. وهذه العوالم سبعة، هي:

١ـ عالم التراب، وهو العالم الذي أخرج الله تبارك وتعالى الإنسان منه.

٢ـ عالم النبات، وهو العالم الذي يصبح وجود الإنسان فيه بالقوّة؛ ولذا يسمى عالم القوّة، وذلك حينما يؤكل هذا النبات ويتحول إلى عالم الأصلاب.

٣ـ عالم الأصلاب، وهو عالم النطفة،

٤ـ عالم الرحم، وهو عالم العلقة، وعالم المضغة المخلّقة وغير المخلقة.

٥ـ عالم الوجود الحقيقي، وهو عالم الحياة التي يولد فيها الإنسان بعد خروجه من رحم أُمّه ليتردّى ثوب الدنيا.

٦ـ عالم البرزخ، وهو عالم وجود الإنسان في القبر بعد أن ينقل من عالم الدنيا وثوبها؛ حيث يرجع فيه إلى التراب، ويصير تراباً فيمتزج معه.

٧ـ عالم الآخرة، حيث يعاد الإنسان من التراب إلى الحياة في عالم وجود حقيقي آخر غير الذي كان فيه، وهو العالم الذي يحاسب فيه؛ فيثاب ويكرم، أو يعاقب ويهان.

فالذي يمشي بالإنسان كلّ هذه المراحل في الخلق، أليس بقادر على أن يبعث الإنسان مرة أُخرى للحساب والعقاب؟ والذي يسير به هذه المسيرة الضخمة المليئة بالعجائب والغرائب والمعجزات، والدالة على وجود حكمة وقدرة بالغتين، أليس بقادر على أن يبعثه في الحياة مرة ثانية ليلقى جزاءه بعد أن يحاسب على ما عمل في هذه الدنيا؟

ولهذا فإننا نجد أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، أي لنبرهن لكم على أننا قادرون على الخلق الثاني كما قدرنا على الخلق الأول، وكما انتقلنا بالجنين عبر ١٠٠٠٠٠٠هذه المراحل التي هي مراحل يكتنفها الإعجاز، وتمتلئ بالعجائب والغرائب. فالأُمور يجب أن تقاس بأشباهها، فالله تبارك وتعالى الذي خلق البشر مبدئياً من تراب يستطيع أن يعيد خلقه ثانية منه.

المبحث السابع: في بعض أنماط السلوك عند الطفل بعد الولادة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ﴾، فهذا الجنين مادام داخل الرحم فإن له أحكاماً خاصة، كما أنه كذلك له أحكاماً خاصة بعد أن يخرج من الرحم ويلج الحياة التي سوف يستوعب فيها عمره وأجله الذي قدره الله تبارك وتعالى له. وينبغي أن نلتفت إلى أن هذه الأحكام ترتبط ارتباطاً مباشراً بالمجتمع.

مدة مكث الجنين في بطن أُمّه

وقد رأيت في كتب المذاهب الأربعة أن بعضهم يذهب إلى أن الجنين يمكن أن يبقى في بطن أُمّه سنتين، وهذا هو رأي الأحناف، أما المالكية فإن عندهم رأياً هو أن الجنين يمكن أن يبقى في بطن أُمّه أربع سنين، وهم يستشهدون بزوجة محمد

ابن عجلان التي يقولون: إنها امرأة صالحة، وإن زوجها رجل صالح، وقد أنجبت له ثلاثة أولاد، كل واحد منهم كان يبقى في بطنها أربع سنين جنيناً، أي أن مدة حملها بهؤلاء الأولاد الثلاثة هي اثنتا عشرة سنة. ومن يرغب بالاطلاع على هذا الأمر فعليه بالموسوعات الفقهية المختصّة التي تتناول مثل هذه المواضيع، وأقرب مثال على هذا هو الموسوعة الفقهية التي صدرت في الكويت، فلينظر فيها ذلك في باب «حمل».

كما أن هناك رأياً سائداً عند المالكية هو أن الجنين يمكن أن يبقى خمس سنين، وهناك آراء أُخرى تقول: إن الجنين يمكن أن يبقى في بطن أُمه ثماني عشرة سنة أو عشرين سنة. ومن أحب أن يطلع على ذلك ويتأكد منه فليراجع (المغني)[1]: لابن قدامة.

وأنا لا أود أن أُعلّق على الموضوع من حيث صحته وعدمها، لكن الذي أُريد قوله هو أن هناك قاعدة عند الفقهاء تقول: «إن الحكم لا يخلق موضوعه». وهذا يعني أن وظيفة الفقيه هي أن يبحث عن الحكم الشرعي للموضوع، والموضوع عندنا في الفرض هو الحمل. وبخصوص الحمل فإن هناك قاعدة يشير لها الإمام مالك نفسه حيث يقول: إذا لم يوجد هناك نص في هذه المسألة، فإنه يرجع إلى الحمل الموجود أو المعروف عند الناس، وبما أنه لا يوجد نص في المقام يحدد فترة بقاء الجنين في بطن أُمّه فإنه حينئذٍ يجب الرجوع إلى الغالب ممّا هو موجود عند الناس.

وهنا لنا أن نسأل: هل إن الرجوع إلى الموجود يحكم به مع الحالات الشاذّة أو

---

(١) المغني ٩: ١١٦ ـ ١١٧، وانظر: مغني المحتاج ٣: ٣٩٠، مواهب الجليل ٥: ١١٥، البحر الرائق ٤: ٢٦٥.

الحالات النادرة أو على حالة واحدة، أم إنه يرجع إلى ما هو الأعم الأغلب؟ إن التي يرجع الموالك إليها في هذا الخصوص هي امرأة محمد بن عجلان حيث ادعوا أنها قد بقي كل واحد من أولادها الثلاثة في بطنها أربع سنوات، وهذا يعني أنه رجوع إلى حالة شاذّة، والدنيا كلها لا تقاس على حالة فردية واحدة بل تقاس على العمومات الغالبة على أبنائها.

ونحن إذا رجعنا إلى كل الاستقراءات لوجدنا أنّ هذه فعلاً حالة شاذّة ولا يمكن أن يقاس عليها أبداً؛ ذلك أن الأحكام الشرعية لا تتبع الشواذّ، والقاعدة السائدة في المقام والتي يمكن استقراؤها من خلال متابعات حالات الولادة التي تقع في العالم بشكل عام، أو في المستشفيات والأماكن المخصصة للولادة بشكل خاص تقول: إن أقصى مدة يمكن أن يمكث فيه الجنين في بطن أُمّه هي عشرة أشهر، أما الاعتقاد ببقاء الجنين كل هذه الفترة الطويلة (وهي فترة أربع سنين، أو عشرين سنة) فهو اعتقاد يترتب عليه الولوج في مأساة حقيقية.

وقد وجدت رأياً لأحدهم يقول: إن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب قد أجّل المرأة المفقود عنها زوجها أربع سنين، وبعد أن تمر هذه السنين الأربع دون أن يكون هناك ذكر لزوجها أو خبر منه فإن لها أن ترفع أمرها إلى القاضي فيطلقها. ثم يعقّب على هذا الأمر بقوله: إن عمر إنما أعطاها فترة أربعة سنين تتربص بنفسها لأن هذه هي فترة الحمل. والواقع أن هذه المدة ربما تكون مدة استبراء وليست مدة حمل، فالفقهاء يريدون أن يبحثوا عن الزوج في الأصقاع التي سافر إليها، وانقطع ذكره منها، أو التي يحتملون وجوده فيها إلى أن يحصل اليأس منه.

وعلى هذا فإن هذا الدليل يعد غير ناهض، وتترتب عليه أُمور خطرة منها أنه هل يمكن للمرأة أن تطالب بالميراث بعد خمس عشرة سنة من فوات زواجها، إذا

جاءت وعلى يدها ولد؟ إن هذا رأي غير مقبول، بل إنه يعتمد على وضع شاذّ، والشاذّ لا يؤخذ به.

إذن القاعدة المعقولة تقول: إننا إذا أردنا أن نرجع إلى ماهو موجود بين الناس فالمراد به هو الحالات السائدة، أو تلك التي تمثّل الأعم الأغلب، وليست الحالات الفردية النادرة. والأعم الأغلب يقول: إن مدة بقاء الجنين في بطن أمّه كل هذه الفترة مستحيلة، بل إن الفترة الطبيعية المعلومة التي يمكن أن يبقى فيه الجنين في بطن أُمه هي تسعة أشهر وإن زادت فعشر(١).

ثم إنه سيمر بنا من خلال هذا المقطع: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾، أنه لا يمكن أن يُسمى من يمكث في بطن أُمه عشرين سنة طفلاً.

إذن بقرينة الآية الكريمة إن الجنين لا يمكن أن يتأخر في بطن أُمّه إلّا هذا المقدار الطبيعي السائد، وما هو غير هذا لا يمكن الصيرورة إليه، ولا القول به، ولا الأخذ به. فضلاً عن أن هذا هو الذي يتماشى مع العلم ومع متانة الفقه الإسلامي. إننا نعتبر الفقه الإسلامي أعز علينا من رواية تنسب لفلان أو فلان، فالفقه الإسلامي هو حضارتنا، وهو وجودنا، وهو طابعنا وهويتنا التي نتميز بها بين الناس على هذه الأرض. ونحن بهذا لسنا على استعداد لأن نسمح بدخول آراء لا تلتقي مع العلم ولا تتّفق معه إلى ديننا، فتعمل فيه معاولها، وبخلافه فإننا سوف نفتح الباب على مصراعيه لمن يقول: إن دينكم دين الخرافة. والواقع أن الله تبارك وتعالى هو بارئ العباد، وهو رب الكمال وهو المشرّع، ولا يمكن

---

(١) وهو رأي الإماميّة، انظر: المقنعة: ٥٣٩، المهذب (ابن البراج) ٢: ٣٤١، السرائر ٢: ٦٤٨، حيث إن في الجميع أن أقصىٰ مدة الحمل تسعة أشهر، الحدائق الناضرة ٢٥: ٨٠، وفيه أن أقصاها سنة.

لمشرّع موصوف بأنه رب الحكمة والكمال أن يقول: إن الجنين يبقى في بطن أُمّه كل هذه الفترة الطويلة.

المبحث الثامن: في المراد من الأجل في الآية الكريمة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ والأجل هو مدة مكث الجنين في بطن أُمّه؛ فبعض الأجنة تولد لسبعة أشهر، وأُخرى تولد لستة أشهر، وقسم ثالث منها يولد لتسعة أشهر أو عشرة، وكل هذا خاضع لحكمة إلهية؛ لأن كل شيء لا يصدر عن الله تبارك وتعالى إلّا وهو داخل ضمن إطار الحكمة وفي حدودها. وهنا أودّ أن أُشير إلى أنه ينبغي الالتفات إلى أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ لنا حوله أكثر من التفاتة، هي:

الالتفاتة الأولى: حول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾

وهو يشير إلى جملة من ألوان السلوك المعقّد الذي يمارسه الطفل بعد ولادته مباشرة. إننا نلاحظ أن الطفل بعد خروجه من بطن أُمّه يسلك سلوكاً عجيباً ومعقداً، ومن ضمن حيثيات هذا السلوك التقامه لثدي أُمه ثم يأخذ برضاعته بتلك الحركة الرحوية الدائرية. وهنا لنا أن نسأل عن الجهة التي علّمته أو درّبته على فعل هذا، ومن أين له بهذه المعرفة التي تجعله يلتقم الثدي بهذه الطريقة التي يمتصّ اللبن عبرها ليغتذي بها ويعتاش عليه؟ إن علماء الوراثة يقولون: إن هناك لونين من السلوك؛ هما السلوك الفطري، والسلوك المكتسب، لكن هل هذا السلوك الذي يقوم به الطفل بعد ولادته مباشرة وهو البحث عن ثدي أُمه ثم التقامه ورضاعته، هل هو من أنواع السلوك التي تتكيف مع التفاعل العقلي، أم إنه ذلك السلوك الذي يعبّر عنه بأنه منقوش في خلايا الدماغ؟

نماذج من السلوك الفطري عند بعض الحيوانات

وهذا السلوك المنقوش في خلايا الدماغ يمثّل العلماء له بالسلوك المعروف عند بعض الحيوانات، ومنها:

الأول: السلوك الموجود عند سمك السلمون

فهذا النوع من الأسماك يقطع مسافات بعيدة ويسبح عكس التيار حتى يصل إلى الماء الذي يريده ليضع بيوضه فيه. وهذه العملية كما نرى تنطوي على مقدار من الفكر أو التعقّل.

الثاني: السلوك الموجود عند بعض القوارض

ومثلها ما عند القوارض التي إذا ما استشعرت بتهديد معيّن، فإنها تذهب إلى نهاية القنوات التي تحفرها تحت الأرض لتتقي ذلك الخطر الذي تستشعره، وهذا كما ذكرنا لون من ألوان التفكير المعقد.

الثالث: السلوك الموجود عند الطيور

أمّا بالنسبة للطيور، فإننا نجد أنها تقوم بفعاليات عجيبة تنطوي على نوع من أنواع الغزل الذي تقوم به الإناث أو الذكور لجذب أفراد الجنس الآخر إليهم، حتى تتم عملية التزاوج، فضلاً عن الفعاليات العجيبة الأُخرى.

إذن فلنا أن نسأل هنا عن مصدر هذا السلوك المعقد الذي تقوم به هذه الحيوانات أو هذا الطفل الذي لا يعقل، وهل إنه من النمط الذي ينتقش على خلايا المخ، أم إنه من السلوك الذي ينتج عن عملية تفاعل عقلي مع المحيط؟ ومن الطبيعي أو البديهي أنه لا يمكن أن نتصور أن الطفل لحظة خروجه من بطن أُمّه يمكن أن يكون له تفاعل عقلي مع المحيط الذي يعيش فيه، لكن يمكن أن

يقال: إن عنده استعداداً لحصول ذلك، وهذا ما يؤدي بنا إلى القول بأن هذا السلوك منقوش عنده، وهو نوع من السلوك الفطري[١].

دور الرضاعة في بناء شخصية الطفل وصحته النفسية

طالما ذكرت في مناسبات عدة وفي محاضرات أُخرى حينما أتطرق إلى هذا الموضوع مسألة أهمية الرضاعة الطبيعية للطفل، وأنا أُريد أن أُلفت نظر الأُمّهات إلى أن حرمان الطفل من اللبن الطبيعي يعد جريمة في عرف الإنسانية، سيما في الأيام الأُولى؛ ذلك أن لبن الأُم يحتوي على مواد غذائية ومواد وقائية، كما أنه يحتوي على مادة صمغية مطهرة لمعدة الطفل؛ كي تقيه من الأمراض وتحول دون أن تصيبه الجراثيم.

وهكذا فإن على الأُمهات أن يعرفن أن الحق الطبيعي والإنساني للطفل هو أن يأخذ كفايته من الحليب، كي يحصل على مادته الغذائية وعلى لبنات الوقاية أو الدفاع عنه ضد الأمراض وضد أنواع الجراثيم أو الفايروسات التي يمكن أن تفتك به. كما أنني قد ذكرت أكثر من مرّة أن كلّ أُم حينما ترضع طفلها لبنها، فإنه لا يرتضع منها اللبن فقط، بل إنه يرتضع معه الحنان والدعة والراحة والاستقرار؛ وبهذا فإنه حينما يأخذ كفايته من الحليب يكون قد أخذ معه كفايته من الحنان والعاطفة والاستقرار النفسي.

الالتفاتة الثانية أن الطفل زينة الحياة الدنيا

وهذه هي الحقيقة؛ فالحياة مهما كانت، ومهما امتلك الزوجان فإنهما سوف لن

---

(١) قد ذكرنا فيما سبق من هذه الموسوعة أن علماء الاجتماع قد ذكروا أن هناك نوعين من السلوك، هما: السلوك الفطري أو الغريزي، والسلوك العقلي أو المدروس أو المخطّط له، فراجع.

يستشعرا حلاوة الدنيا إلّا إذا كان هناك طفل بينهما يزيّن تلك الحياة، ويجعلها طرية، ويقوم بترطيب الأجواء بينهما، وهذا ما لا يفعله إلّا هؤلاء الأطفال الصغار.. أحباب الله تبارك وتعالى. فالطفل في حقيقة الأمر يضفي على الحياة زينة وزخرفاً وبهرجاً، ويعكس على حيثياتها السعادة التي ترتسم على جبيني والديه؛ ولذلك فإن الله تبارك وتعالى قد أمرنا بأن نرعى الطفل وأن نهتم به، وأمرنا بأن نأخذ بيد الطفل لنسير به في متاهات الحياة ودروبها المظلمة؛ كي نصل به إلى برّ الأمان؛ لأن الطفل أمانة عندنا.

هل يراعى الأطفال كما أمر الله تعالى؟

غير أننا نقول ببالغ الأسف: إن الذي يجري في مجتمعاتنا هو أننا نضيّع هذه الأمانة في سبيل حفنة دنانير تحصل عليها الأم. وبطبيعة الحال فإننا لا نلوم الأُم فيما لو كانت مضطرة إلى ذلك، إن الحال حينما يكون على هذه الشاكلة فإن هذا يصبح شأناً آخر وله كلام آخر يخاطب المجتمع الذي يترك تلك الأُم تصارع أمواج الحياة لوحدها، لكننا نتكلم في الظرف الطبيعي وفي ضوء الحالة الصحية أو السليمة، وهي ما إذا كانت الأُم مكتفية ماديّاً مثلاً وغير مضطرة لأن تتخلى عن طفلها ثم بعد ذلك تتخلى عنه من أجل العمل، فتغيب عنه نهاراً كاملاً أو أقل أو أكثر، وتتركه بيد المربية التي ربما تطعمه وتسقيه لكنها لا يمكن أن تغذيه حباً وحناناً كذينك اللذين تغذيهما الأُم إياه.

إن ترك الطفل بيد المربية أو الخادمة هو جريمة لا تغتفر بحقه؛ لأننا لا زلنا كل يوم نسمع عن الكثير من المآسي التي يتسبب بها الخدم وهم يعبثون بهؤلاء الأطفال دون رعاية حقيقية أو دون متابعة لهم. وكما ذكرنا فإن المربيات أو الخادمات وإن أحسنّ إلى الطفل برعايته لكنهن لا يمكن أن يغذينه الحنان

والعاطفة، فكيف إذا لم يكنّ يحسنّ تلك المسؤولية التي تناط بهن، والتي يكلّفن بها، فيسئن معاملة الأطفال، ويسئن تربيتهم، ويسئن أمر العناية بهم ورعايتهم والاهتمام بهم؟

إن هذا طبعاً يؤدي إلى حدوث جريمة حقيقية بحق الإنسانية أوّلاً، وبحق الطفل ثانياً. إن الطفل زينة الحياة الدنيا، والأُم حينما تأخذ طفلها وتضمه إلى صدرها، وتحنو عليه وتشمه فإنها تستشعر السعادة والحياة بين يديها، تقول إحدى الأُمهات وهي ترقص ولدها:

يا حبّذا ريحُ الولدْ ... ريح الخُزامى في البلدْ

أهكذا كلّ ولدْ ... أم لم تلد قبلي أحدْ[1]

فلا شك أن الولد هو زهرة الحياة الدنيا.

الالتفاتة الثالثة: أن الولد يحبّب الإنسان إلى وطنه

فالإنسان حينما يسافر ويتغرّب لأجل معيشته ولأجل توفير متطلّبات حياته، ويترك صغاره في وطنه فإنه يستشعر شيئاً ضخماً يشدّه بقوة إلى وطنه ذلك هو وجود صغاره فيه؛ لأنه لولا هؤلاء الصغار لما تغرّب، ليوفّر لهم الحياة الكريمة، ولقمة العيش الهانئة.

ثم إن كل إنسان يمكن أن يكون كالطائر يتنقل من مكان إلى مكان، ويعيش في أي مكان يريد لولا أنّه حينما يكون لديه أبناء صغار فإنهم يشدونه إلى وطنه وإلى الرجوع إليه.. إلى ذلك التراب الذي يمثّل وجود هؤلاء الأطفال، يقول الأديب:

لولا بنيّاتٌ كزغبِ القطا ... رددن من بعضٍ إلى بعضِ

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ٦٢.

لكـــان لي مـــضطربٌ واســـعٌ في الأرض ذاتِ الطولِ والعرضِ
وإنـــــما أولادُنــــا بـــيننا أكـــبادُنا تـــمشي عـــلى الأرضِ
لو هــبّت الريــح عـلى بـعضِهم لامـتنعت عـيني مـن الغـمضِ[1]

فالولد في واقع الحال هو الذي يشدّ الإنسان إلى وطنه وبلده، وهو الذي يربطه بأرضه التي ولد وترعرع عليها.

المبحث التاسع: الطفل في واقعة الطف

وشيء لا يحتاج إلى ذكر أو إلى تأكيد هو أن الأب حينما يحمل طفله فإنه حينئذٍ يستشعر سعادة لا حدود لها؛ لأنه يرى امتداده الطبيعي في الحياة في هذا الولد، ويرى وجوده ممتداً عبره؛ فالأولاد ثمرات القلوب. وواقع الأمر أن هذه الثمرة لا يعدلها شيء، بل الدنيا كلها لا تعدل أنملة من أنامل هذه الثمرة. ومن هنا نستطيع أن نتعرّف حجم الفادحة التي حصلت يوم العاشر من المحرم الحرام لبعض الأُمهات اللائي فقدن أولادهن؛ ففي تلك المعركة التي قصد من ورائها إطفاء النور المحمدي الذي أبى الله تبارك وتعالى أن يطفأ ذهب مجموعة من الأطفال نذكر منهم:

الأول: طفل ولد يوم العاشر من المحرّم

وهو ابن أُمّ إسحاق بنت طلحة، وقد ولدته يوم العاشر، وأقبلت به إلى الإمام الحسين عليه السلام ووقفت أمامه وقالت له: يا آل محمد، خذوا رضيعكم، لقد جف صدري من اللبن. فأخذه الحسين عليه السلام، وأطال النظر في وجهه وقال: «**تعساً لقوم يكون جدك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خصمهم يوم القيامة**». ثم خرج عليه السلام به من الخيمة،

(١) ديوان الحماسة ١: ٢٨٧، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٤٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ٦١.

وبينما هو على صدره إذ أقبل له سهم فذبحه من الوريد إلى الوريد، وهذا الطفل هو الذي يؤشر له شاعر الطفّ فيقول:

له اللّه مفطوراً من الصبر قلبه ... ولو كان من صُمّ الصفا لتفطّرا

ومنعطفٍ أهوى لتقبيلِ طفلهِ ... فقبّل منه قبله السهمُ منحرا

لقد وُلدا في ساعةٍ هو والردى ... ومن قبلهِ من نحرهِ السهمُ كبّرا[1]

وهذا أحد أطفال الإمام الحسين عليه السلام الذين ذهبوا يوم العاشر من المحرم.

الثاني: طفل له من العمر سبع سنوات

وهناك طفل آخر استشهد أيضاً على خلفيّة أحداث الطفّ؛ حيث إنه أقبل إلى الإمام الحسين عليه السلام وهو مسجّىً في أرض المعركة، وكان له من العمر سبع سنوات، فأخذه الإمام الحسين عليه السلام وأدناه إليه، وبينما هو عليه السلام يمسح على وجهه إذ أقبل أبجر ابن كعب، فأهوى على الإمام الحسين ليضربه، فتلقّى هذا الطفل الضربة بيده فقطعها من المرفق وبقيت معلقة بالجلد، فاحتواه الإمام الحسين عليه السلام وقال: «صبراً ولدي، صبراً بني الكرام، واللّه لا لقيتم هواناً بعد هذا اليوم، إن الموت قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّ إلىٰ جنان اللّه الواسعة والنعم الدائمة. فأيكم يكره أنه ينتقل من سجن إلىٰ قصر؟ وهؤلاء أعداؤكم كمن ينتقل من قصر إلىٰ سجن وعذاب أليم. إن أبي حدّثني عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم من أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[2].

الثالث: عبد الله الرضيع

ومن الأطفال الذين استشهدوا في معركة الطف يوم العاشر من المحرّم عبد الله

---

(١) ديوان السيّد حيدر الحلّي: ٧٨.

(٢) الاعتقادات في دين الإماميّة: ٥٢، بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٧ / ٢.

الرضيع الذي أخرجه الإمام الحسين عليه السلام ليستسقي له عندما رمي بسهم ذبحه من الوريد إلى الوريد، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لقد كان طفل جدي الحسين في قماطه لما أحسّ بحرارة السهم، فانتزع يديه من القماط واعتنق رقبة والده وجعل يرفرف كالطير المذبوح».

ولو تراه حاملاً طفله　　　رأيت بدراً يحمل الفرقدا

مُخضّباً من فيض أوداجه　　　ألبسه سهم الردى مجسدا

فجاء عليه السلام به، وأعطاه لأُمّه وقال: «خذي رضيعك». فرجعت به، وجعلت تدور داخل الخيمة حول مهده، ودموعها جارية:

يـلـچنت بالظلمه تـلالي　　　عگبك بگت وحشة الليالي

أدورن على ايميني وشمالي　　　أهز بالمهد والمهد خالي

خذت سلوتي وظلّيت اسالي　　　بـرويحتي والدمع هالي

﴿٢٣١﴾

الإنسان والغيب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: معالجة مشاكل الحياة بالأسباب الطبيعية والغيبية

توطئة

وتشتمل على ثلاثة تنبيهات:

التنبيه الأول: أصل الدعاء

إن هذه الآية الكريمة تنقل لنا دعاء أبي الأنبياء النبي إبراهيم عليه السلام حينما جاء مهاجراً بزوجته هاجر مع ابنها إسماعيل عليه السلام. وبطبيعة الحال فإن عاطفة الأب

(١) إبراهيم: ٣٧.

وشفقته تستدعيان أن يظلّ مشغولاً ذهنيّاً على أهله وهو يتركهم في مكان قفر أو فيه خطر عليهم، وحينما لا يكون له سبيل على حياطتهم إلّا بالدعاء فإنه يدعو الله تبارك وتعالى لهم بأن يحفظهم ويكلأهم.

فالآية الكريمة إذن تشرح لنا هذه الحالة في أصل الدعاء ومضمونه؛ فأصل الدعاء هو الاستعانة بالله عزّ وجلّ في أُمور غير مقدورة. وهنا نقطة حساسة جدّاً ينبغي الإشارة إليها؛ ذلك أن أبناء الغرب عندما يمرون بترجمة المسلمين فإنهم يصفونهم بأنهم أُناس اتّكاليّون ليس لهم القابلية على مواجهة الواقع ومصارعته، ومجاهدة الحياة ومصارعتها. والإنسان لا يمكن أن يُصبح إنساناً بحقّ، قوياً مقتدراً، ويُثبت وجوده إلّا بمواجهة الواقع ومصارعة الحياة؛ كي تشتدّ عريكته، ويقوى عوده.

التنبيه الثاني: سلبيات الاتّكال كلّياً على القدر

أما أن يجلس الإنسان متّكلاً على القضاء والقدر وهو يريد منه أن يغير له مسار الحياة أو يغير له الواقع، فهذا لون من ألوان الكسل والخمول، وهو ينطوي على جنبتين: جنبة صحة، وجنبة عدم صحة. وبيان ذلك أنه صحيح أن عندنا قضايا يمكن أن تعالج عن طريق مواجهة الواقع ومصارعته ومجاهدة الحياة دون أن يلجأ الإنسان إلى عدم أخذ الأشياء بأسبابها، وعدم معالجتها بدواعيها الطبيعية. لكن ذلك ليس على نحو الإطلاق، جاءتني رسالة من أحدهم يقول فيها: إن عندنا مريضاً مصاباً بمرض معيّن، وأشار علينا أحدهم بأن نقرأ بعض الأذكار، ونكتب بعضها، ثم نخلطه بالماء ونسقيه إياه، فما رأيك بهذا؟

وأنا أقول: إن الله تبارك وتعالى قد أنزل من القرآن ماهو شفاء، وهذا أمر مقطوع به، لكن الشفاء في مثل هذا الحال له نحوان من التصور:

النحو الأول: تصور أن القرآن يأمرنا بربط الأسباب بمسبّباتها[١]

ولهذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يقول لنا: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[٢]، والرسول الأكرم ﷺ يقول لنا وقد سئل: أنتداوى؟ قال: «**نعم؛ فإن اللّه لم ينزل داء إلّا وقد أنزل له دواء**»[٣].

أي أن يعالج بالأسباب الطبيعية؛ لأن الله عزّ وجلّ ما خلق داء إلّا وجعل له دواء.

فمبدئياً طالما يوجد علاج بالأسباب الطبيعية فإنه حينئذٍ لا ضرورة إلى اللجوء إلى الأسباب الغيبية؛ لأن هذه الأسباب لا يتمّ الرجوع إليها إلّا إذا عجز الواقع عن المعالجة. فالإنسان إذا رجع من أول الأمر إلى الأسباب الغيبية فإنه ربما يقع بين أيدي الدجالين الذين يتربّصون بالأشخاص من أمثال هؤلاء من ذوي الحاجات ليبتزّوهم، وليسرقوا أموالهم. وهؤلاء الدجّالون عادة تكون عندهم حاسّة شم قوية جداً بحيث إنهم إذا رأوا شخصاً طاهراً وعنده مشاعر نظيفة، فإنهم يستغلّون هذا النمط من المشاعر لابتزازه وسلب أمواله؛ لأنهم لا مانع عندهم من أن يخلقوا ألف وسيلة من وسائل الدجل لكي يوقعوا الإنسان ضحية لهم، في محاولة لابتزاز ما يملك.

التنبيه الثالث: أمور لابدّ من الرجوع فيها للأسباب الطبيعيّة

وهكذا فينبغي الرجوع في أول كل أمر، وفي كل مسألة أو معضلة إلى العلاج الطبيعي، فإن عجز هذا العلاج فإنه حينئذٍ يُلجأ إلى الله تبارك وتعالى مع ملاحظة

---

(١) لم يذكر المحاضر؛ النحو الثاني من نحوي التصور في المسألة.

(٢) الحشر: ٧.

(٣) وسائل الشيعة ٢٥: ٢٢٣ ـ ٢٢٤، مسند أحمد ٣: ١٥٦، سنن أبي داود ٢: ٢٢٢ ـ ٢٢٣ / ٣٨٧٤.

الاحتراس عن الوقوع بين براثن أُولئك الدجّالين الذين أشرنا إليهم، أي بالرجوع إلى الأسباب الغيبيّة المشروعة الصحيحة، كأن يلجأ الإنسان إلى الدعاء، فيخاطب ربّه جلّ شأنه ويقول له: إلهي إني لجأت إلى جميع الوسائل الطبيعية التي أمرتني باللجوء إليها وباستعمالها، لكنها لم تجدِ نفعاً، وأنا بحاجة إلى رحمتك وعفوك وعطائك. بهذا ثبت أن هناك أُموراً بعينها ينبغي عدم اللجوء فيها من أول الأمر إلى الأسباب الغيبية، بل لابدّ من قصد الأسباب الطبيعية، نذكر منها:

الأول: الرزق

فعلى الإنسان أن يطلبه بالعمل، وهذا هو الأُسلوب الصحيح الذي ينبغي أن يُلجأ إليه في مثل هذه الحالات، فحينما تكون الأُمور المعاشية لإنسان ما قليلة المورد، ولا تكفي لأن يعتاش منها لوحدها، أو هو وعائلته، فإن الشكل الطبيعي لحلّ مثل هذه المشكلة هو في أن يسعى الإنسان إلى البحث عن عمل، وأن يُهيّئ نفسه، ويستعد لهذا العمل وممارسته، ثم يسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل له البركة والكفاية فيه؛ فإن لم يجد عملاً معيّناً، أو لم تكن له طاقة على ممارسة هذا العمل، فإنه حينئذٍ من الممكن أن يلجأ إلى الدعاء أو إلى الأُمور الغيبيّة لحلّ معضلته أو مشكلته هذه. أما أن يقصد ذلك من أول أمره، فلا يحرّك ساكناً، ولا يبحث، ولا يجهد نفسه في طلب الرزق، ثم يطلب من الله تبارك وتعالى أن يهيّئ له طعامه وشرابه ومسكنه وملبسه فهذا أمر غير صحيح البتّة، وهو بعيد عن التصوّر الإسلامي وعن منظور السماء لحلّ هذه المشكلة.

الثاني: المرض

وكذلك الحال في مسألة المرض، فالإنسان مثلاً حينما يصاب بمرض ثم لا يعمد إلى التداوي عن طريق العلاجات الطبيعية التي أودعها الله تبارك وتعالى في بعض النباتات أو في بعض العلاجات الأُخرى، ثم يرجع إلى الغيب فيطلب من الله

تبارك وتعالى أن يداويه وأن يشفيه من مرضه، فهذا غير ممكن وغير صحيح؛ لأنه إنما يجب عليه اللجوء إلى الدعاء حينما تعجز الأسباب الطبيعية عن أن تكون هي الوسيلة إلى الشفاء وإلى تحصيل البرء. وهكذا فحينما يعجز السبب الطبيعي على الإنسان أن يرجع إلى السبب الغيبي.

المبحث الثاني: المراد من الذريّة في آية المقام الكريمة

وبعد هذه التوطئة التي استعرضناها عبر هذا المبحث، لنرجع إلى آية المقام الكريمة؛ لنرى هل إن نبي الله إبراهيم عليه السلام قد حاول أن يهيّئ الأسباب الطبيعية وأن يعمل بها، وحينما لم يستطع لجأ إلى الدعاء، أم لا؟ إن النبي إبراهيم عليه السلام نظر إلى هذه المسألة، وحاول أن يعالجها عبر الأنماط الطبيعية، فهيأ السكن، ودرس المجتمع، لكنه عرف أنه لا يمكن له أن يعيش مع هؤلاء؛ ولذا فإنه بعد أن تركهم دعا الله تبارك وتعالى في أن يغير ذلك الواقع، وكأنه يقول له: يا رب، إني قد استنفدت الأسباب الطبيعية وما تبقى فإنّي أكِل أمره إليك: **﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾**.

يروى عن الإمام الباقر عليه السلام وقد تلا قوله تعالى: **﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾**، أنه قال: «نحن هم، ونحن بقية تلك الذرية»[1].

ومما لا شكّ فيه ولا يشكّ فيه عاقل أنهم عليهم السلام وجدهم صلى الله عليه وآله وسلم أطهر ذرية نبي الله إبراهيم عليه السلام وأشرفهم وأفضلهم، فهم كانوا في أصلاب الأنبياء وأرحام مطهّرات من لدن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، بل منذ خلق الله آدم عليه السلام حتى وصل الأمر إلى عبد

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٣١ / ٣٥، التفسير الصافي ٣: ٩٠.

المطلب ﷺ، فانشقّ النور إلى نورين:

١ـ نور النبوة، وقد جعله الله تبارك وتعالى في صلب عبد الله بن عبد المطلب (رضوان الله تعالى عليهما).

٢ـ نور الإمامة، وقد جعله الله تبارك وتعالى في صلب أخيه أبي طالب بن عبد المطلب (رضوان الله تعالى عليهما).

فالأئمة عليهم السلام هم جزء من هذه الذرية؛ ولذا فإن النبي إبراهيم عليه السلام قال: ﴿**مِنْ ذُرِّيَّتِي**﴾، أي بعض ذريتي، وهم إسماعيل عليه السلام ثم مَن تناسل من ولده من بعده.

المبحث الثالث: في المراد من الوادي في الآية الكريمة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ**﴾، والوادي هو المنخفض الأرضي الذي يقع عند حافة الجبل العظيم أو عند سفحه، وإنما سمي وادياً لذلك. يقول اللغويون: إن كلمة الدية قد اشتقّت من الوادي؛ لأن الوادي يدي الماء فيه، أي يجري فيه[1]، أو لأن الوادي حافّة الجبل العظيم، والدية هي عبارة عن مبلغ عظيم يدفع إزاء عمل عظيم.

ولابدّ هنا من ملاحظة أن الدية التي قد فرضها الشارع المقدس في المقام في حقيقة الأمر ليست ثمناً حقيقياً للإنسان حينما يُقتل، وإنما هي لون من ألوان الأساليب الرادعة في المجتمع؛ كيلا يقدم أحدهم على القتل. فنحن مثلاً نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**مَنْ قَتَلَ نَفْسَاً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعَاً**﴾[2]. فالإنسان أثمن عند الله من الدنيا وما فيها؛ ولهذا فلا يمكن أن يُتصور أنه يمكن أن يُثمّن بهذا المقدار من العقوبة المالية التي افترضها الله تبارك

---

(١) عمدة القاري ٢٤: ٣٠ عن (المغرّب في اللغة)، تحفة الأحوذي ٤: ٥٣٤.

(٢) المائدة: ٣٢.

وتعالى على القاتل، كما أنه ينبغي ألّا تُتَصور الأُمور بتصوّر على أنها بهذااللون من السهولة؛ ولهذا فإننا نقول: لو أن جاهلاً قتل أحد عباقرة الدنيا، فهل إن هذا العبقري يمكن أن يثمّن بألف دينار؟ فالمتنبّي وغيره من العلماء والمبرّزين لا يمكن أن يكون هناك إزاءهم ثمن معيّن، بل إن هؤلاء لا ثمن يمكن أن يُجعل إزاءهم؛ لعظم المثمّن.

إذن فالوادي هو عبارة عن حافّة الجبل العظيم، وقد وصفت الآية الكريمة هذاالوادي بقولها: ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾، ففي زمن النبي إبراهيمعليه السلام لم تكن تلك المنطقة التي أمره الله تبارك وتعالى بأن يترك زوجته وابنه فيها قابلة للنبات والإنبات؛ لعدم توفّر المياه فيها.

القرآن وتاريخ الحجاز الأنثروبولوجي

فهذه الصفة (الجدب) التي أعطتها الآية الكريمة لهذا الوادي هي في زمن النبي إبراهيمعليه السلام؛ لأن تاريخ ابتداء الزراعة على الأرض قد حدّده علماء الأنثروبولوجي[1]، فهؤلاء يقولون: إن الناس الذين مرّوا بالكرة الأرضية إلى الآن

---

(١) علم الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان هو علم يهتم بكل أصناف وأعراق البشر في جميع الأوقات، وبكل الأبعاد الإنسانية. فالميزة الأساسية التي تميزه بين المجالات الإنسانية الأخرى كافة هي تأكيده على المقارنات الثقافية بين كافة الثقافات. وهذا التميز الذي يعتبر أهم خصائص علم الإنسان يصبح شيئاً فشيئاً موضوعَ الخلافِ والنِقاش عند تطبيق الطرقِ الأنثروبولوجية عموماً في دراسات المجتمعِ أو المجموعات. من أهم علماء الأنثروبولوجيا، إيفانس ريتشارد، ورادكلف براون، وليفي شتراوس، وروث بندكت، وماكريت ميد، وغيرهم.
وهو علم يقسم إلى خمسة حقول:
الأول: علم الإنسان الحيوي. وهو العلم الذي يتطرق إلى تحليل تنوع جسم الإنسان في الماضي والحاضر على حد السواء؛ وبالتالي فهو يدرس التطور الجسماني للإنسان بالإضافة إلى العلاقات بين الشعوب الحالية وتأقلمها مع محيطها.

يقدّرون بمليار نسمة[١]. وهذا في طبيعة الحال لا يعدو أن يكون تقديراً؛ لأن هؤلاء العلماء لا يملكون حقائق ثابتة في هذا المجال، بل إن كل ما يقولونه هو عبارة عن ظن أو تخمين دون أن يرقى إلى مسألة كونه حقيقة ثابتة. إن هؤلاء ليس عندهم شيء على نحو الحقائق الثابتة أو ما يرقى لأن يكون حقائق ثابتة، سيما حينما يتناولون تلك الحقب السحيقة والبعيدة من التاريخ البشري ليتحدّثوا عنها. وهذا العدد من الناس الذين يذكره هؤلاء العلماء قد عاشوا (٩٩٠) ألف سنة، وهي فترة وجود الإنسان البدائي على الأرض.

ويذكر هؤلاء العلماء أن الإنسان البدائي قد عاش على جمع الثمار البرية وصيد الحيوان في ذلك الوقت دون أن يكون قد وصل إلى مرحلة متطوّرة في

الثاني: علم الإنسان الطبيعي. وهو العلم الذي يدرس الرئيسيات منه، وتطوّر النوع البشري وعلم الوراثة الجماعي.

الثالث: علم الإنسان الثقافي، ويدعى علم الإنسان الاجتماعي، وفي أغلب الأحيان يعرف بعلم الإنسان الثقافي ـ الاجتماعي. وهو العلم الذي يدرس شبكة العلاقات الاجتماعية، والانتشار البشري والسلوك الاجتماعي، والقرابات الاجتماعية، والقانون، والسياسة، والعقيدة، والأنماط في الانتاجِ والاستهلاك، والتبادل، والتربية، والجنس الاجتماعي، وممارسات الشعوب الأُخرى في الثقافةِ.

الرابع: علم الإنسان اللغوي، وهو علم يدرس الاختلاف في اللغة عبر الوقت، ويتكفّل بدراسة الوقت والمكانِ، والاستعمالات الاجتماعية للّغة، والعلاقة بين اللغة والثقافة.

الخامس: علم الآثار، وهو العلم الذي يدرس البقايا المادية للإنسانِ في المجتمعات. ويعتَبر علماً بحدّ ذاته كحقل دراسة مستقل، على الرغم من أنه وثيق الصلة مع الحقلِ الأنثروبولوجي من حيث دراسة الثقافة المادية التي تَتعامل مع الأجسامِ الطبيعية التي خَلقت أَو استعملت ضمن مجموعة حية راهنة أَو ماضية، كمحاولة لفهم قيمها الثقافية.

موسوعة ويكيبيديا الحرّة.

(١) كذا. والظاهر أنه إما أن يكون سهو من المحاضر﵀، أو أنه ينقل عن هؤلاء العلماء تقديرهم هذا عن فترة زمنية محدّدة.

أساليب العيش والحياة، أي أنه لم يصل إلى تقنية متقدمة في التفكير فيخطّط لجعل زراعة الأرض واستعمالها طريقة للحياة. إذن فالإنسان في ذلك الوقت لم يكن يزرع، أي لم يكن يستنبت النبات بالبذر، وهذا هو معنى الزرع. وهذه الآراء هي عبارة عن نظريّات لعلماء الأنثروبولوجي والاجتماع[1]، كما ذكرت من أمثال «توماس هوبز» ونظائره من أساطين علم الاجتماع، فهؤلاء قد توصّلوا إلى هذه المعلومات وفق اختصاصهم ودراستهم وأبحاثهم وتوقّعاتهم.

ويقول هؤلاء العلماء: إن ما يوازي (٦٪) من هذا العدد من الناس الذين كانوا يعيشون آنذاك قد اشتغلوا بالزراعة بعد ذلك، وأن (٤٪) منهم قد عملوا

---

(١) علم الاجتماع، هو علم يعنى بدراسة الجماعات البشرية والتفاعلات المختلفة والعلاقات بين أفراد هذه الجماعات، وحياتهم الاجتماعية؛ سواء كانت على شكل مجموعات، أو مجتمعات، ويهتم بسلوك الناس ككائنات اجتماعية، وبالقواعد والعمليات الاجتماعية التي تربطهم وتفصّلهم لا على أساس أنهم أفراد فقط، بل كأعضاء جمعيات ومجموعات ومؤسسات. وهو توجه أكاديمي جديد نسبياً تطور في أوائل القرن التاسع عشر.
يعتبر أوغست كونت من أهم الباحثين في علم الاجتماع، بل إنه يعتبر المؤسّس الغربي له إلا إن الكثير من العرب يعتبرون ابن خلدون بملاحظاته الذكية في طبائع العمران البشري التي دونها في مقدمته الشهيرة المؤسس الفعلي له.
وهو يقسم إلى أقسام كثيرة منها:
١ ـ علم اجتماع الدين
٢ ـ علم اجتماع الصراع
٣ ـ علم اجتماع القانون
٤ ـ علم اجتماع العلوم
٥ ـ علم اجتماع الجندر
٦ ـ علم اجتماع العمل
٧ ـ علم اجتماع الثقافة.
موسوعة ويكيبيديا الحرّة.

بالصناعات البدائيّة الخفيفة، أما الـ(٩٠ ٪) الباقون فقد بقوا على وضعهم الذي كانوا عليه من جمع الثمار وصيد الحيوانات. وهذا يعني أنهم في ذلك الوقت لم يكونوا قد توصّلوا إلى الزراعة والاستنبات، فالزراعة غير معروفة بالنسبة إليهم. ثم إن هؤلاء يقررون أن الزراعة قد بدأت عند الإنسان قبل اثني عشر ألف سنة في بعض الأماكن، وانتشرت في أماكن أُخرى قبل ما يقارب الخمسة آلاف سنة، وهي الفترة التي بيننا وبين النبي إبراهيم عليه السلام.

وهذا التحديد غير دقيق طبعاً.

ولا يقال: إن الإنسانية عندها ضبط تاريخي تعتمد عليه في التاريخ الميلادي أو التاريخ الهجري.

لأننا نقول: إن التواريخ قبل التأريخ الهجري هي تواريخ غير صحيحة وغير دقيقة، وتفتقر إلى الضبط. وهذا لا يختصّ بالتاريخ فقط، بل إنه ينسحب على كثير من الأشياء الأُخرى، بل حتى على بعض ما يسميه هؤلاء بالحقائق التي هي في الواقع ليست كذلك، وليست إلّا كلاماً ليس عليه طابع علمي، أو أنها كلام يفتقر إلى المسحة العلمية. وبهذا فإننا لا نستطيع أن نطمئن إليها، ومن قبيل هذا أن يقال: إن المسافة بين السماء الأُولى والسماء الثانية هي خمسمئة سنة، ومثل هذا الكلام لا يمكن الاستناد إليه ولا يمكن الأخذ به ولا الوثوق بصحّته، أو توثيقه إلّا أن يكون عبر نصّ صحيح السند عن المعصوم عليه السلام؛ لأننا حينئذٍ سوف نتعبّد بذلك النص.

فما دام نصاً صحيح السند قطعيّ الصدور عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، وكذلك إذا أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعض أهله بأمثال هذه الأُمور ثم أخبرونا هم بها، فإننا حنيئذٍ نأخذها ونتعبد بها إن كانت بالوصف الذي ذكرنا. أما إذا لم يوجد نصّ في ذلك، أو أن هنالك نصّاً لكنه غير صحيح السند ولا قطعي الصدور، فلا يمكن حينئذٍ الأخذ به، بل يجب أن نطرحه ولا نعتقد بصحّته.

إذن فالعلماء المختصّون في مجال الاجتماع والأنتروبولوجي عندهم في بعض الأحيان من الآراء والنظريات ما لا يمكن أن يعتمد عليه؛ لأنه غير مبتنٍ على أساس علمي.

لكن يمكن أن يقال في المقام: إن هناك ما يجعل التأريخ أو ما يذكره هؤلاء العلماء مما يمكن الاعتماد عليه والوثوق به نوعاً ما، ذلك هو أخذهم بالعوامل الأنثروبولوجية والجيولوجية؛ حيث إنهم أخذوا يدرسون طبقات التربة والتفاعلات الحاصلة فيها، والتغيرات الجيولوجية فتوصّلوا عبر قوانين علمية إلى تقدير التاريخ التقريبي لبعض الموارد.

إذن فهؤلاء العلماء يقولون: إن الزراعة قد بدأت قبل اثني عشر ألف سنة، وهذاالوادي الذي وضع النبي إبراهيمعليه السلام ولده وزوجته فيه كان في ذلك الوقت غير ذي زرع، أي أنه جديب ليس فيه زراعة ولا نبات، وكان من الممكن أن يتعرّض ابنه وزوجته إلى الجوع والعطش، وربما الهلاك والموت بسبب ما يتّصف ذلك المكان به من كونه صحراء جرداء قاحلة. والنبي إبراهيمعليه السلام لم يكن في تلك اللحظة وفي ذلك المكان القاحل يمتلك أي شيء من الأسباب الطبيعية التي تساعده على أن يوفّر لأهله مستلزمات الحياة والعيش ومقوماتهما، والتي تساعده على أن يوفر لهم الماء والطعام، فلما تعذّرت عليه الأسباب الطبيعية وتعذّر عليه تحصيلها لجأ إلى الأسباب الغيبية، فرفع رأسه إلى السماء، ودعا الله تبارك وتعالى ربّه بهذا الدعاء الشريف.

وبهذا فإننا نفهم من خلال هذا الطرح أن الإنسان إذا ماقدر على السبب الطبيعي فإنه ينبغي عليه أن يتوجّه إليه، وأن يسعى في تحصيله؛ ذلك أن عليه أن يعيش بالسبب الطبيعي ابتداء، فإن لم يتمكّن من تحصيل هذا السبب، أو لم يتمكن من إيجاده فإن عليه حينئذٍ أن يلجأ إلى الأسباب الغيبيّة، ومنها الدعاء. وبخلاف هذا

ـأي إن لم يلجأ إلى الأسباب الطبيعية وتحصيلها ابتداء ـ فإنه لن يستجاب دعاؤه.

حديث خمسة لا يستجاب دعاؤهم

ونحن نعرف أن هناك خمسة لا يستجاب لهم الدعاء، كما ورد في الحديث الشريف الذي يقول: «**خمسة لا يستجاب لهم: رجل جعل الله بيده طلاق امرأته فهي تؤذيه وعنده ما يعطيها ولم يخلِّ سبيلها، ورجل أبق مملوكه ثلاث مرات ولم يبعه، ورجل مر بحائط مائل وهو يقبل إليه ولم يسرع المشي حتى سقط عليه، ورجل أقرض رجلاً مالاً فلم يُشهد عليه، ورجل جلس في بيته وقال: اللهم ارزقني ولم يطلب**»[1].

بيان بعض ألفاظ الحديث الشريف

فمن هؤلاء الخمسة نذكر:

الأول: من جلس «**في بيته وقال: اللهم ارزقني، ولم يطلب**»، فهذا حينما يجلس في بيته دون أن يسعى في طلب الرزق عن طريق العمل والكد والكدح، ثم يطلب رزقه من الله تبارك وتعالى، ويسأله أن ينزل إليه مالاً أو طعاماً، فهذا قطعاً ممّن لا يستجاب لهم الدعاء أبداً؛ لأنه لم يأخذ بالسبب الطبيعي، ولم ينتهج الشكل الاعتيادي الذي عليه عامّة الناس.

الثاني: «**رجل جعل الله بيده طلاق امرأته، فهي تؤذيه، وعنده ما يعطيها ولم يخلِّ سبيلها**»؛ لأن أمر الزوجة وطلاقها بيده، فله أن يسيّرها كما يريد في نطاق ما أمر الله تبارك وتعالى به.

الثالث: ؛ «**رجل أقرض رجلاً مالاً، فلم يُشهد عليه**»؛ لأنه إذ أقرضه لم يكتب عليه وثيقة بذلك، ولذا لم يعطه حقّه.

---

(١) الخصال: ٢٩٩ / ٧١، الرسائل العشر (ابن فهد الحلي): ٤٣٦، بحار الأنوار ٩٠: ٣٥٦ـ ٣٥٧.

إذن فهناك أسباب طبيعية ينبغي الأخذ بها أولاً قبل أن يلجأ إلى الأسباب الغيبية، فإن عجز الإنسان عن إدراكها وتحصيلها فإن عليه أو له أن يلجأ إلى الأسباب الأُخرى، أعني الأسباب الغيبية المذكورة آنفاً. وهذه هي العبرة التي نأخذها من هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة، وهو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾، فهذا الوادي فعلاً كان لا ماء فيه ولا زرع؛ ولذلك فإنهم احتاجوا إلى الماء، وحينما فحص إسماعيل عليه السلام برجله الأرض أثناء بكائه انبعثت منه بئر زمزم الذي كان سبباً لنزول الطير على الماء. وهكذا استفادوا من هذه البئر للشرب ولجوانب حياتية أُخرى، فبدأت الحياة تدبّ في ذلك المكان بعد أن رأى الناس في ذلك المكان أسباب الحياة، بل سبب الحياة الأول وهو الماء، فجاؤوا إليه يقصدونه.

المبحث الرابع: في قدسية مكّة المكرّمة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾، وحول هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة نقطتان ينبغي الالتفات إليهما، هما:

الأولى: التعبير بقوله تعالى ﴿بَيْتِكَ﴾

إن لنا هنا أن نسأل فنقول: لماذا استخدمت الآية هذا التعبير مع أن المفروض أن البيت قد بناه إبراهيم واسماعيل، ولم يكن موجوداً حينها، أي عندما جاء النبي إبراهيم عليه السلام بابنه وزوجته إلى هذا المكان؟ تذكر الروايات أن هذا البيت الحرام قد خُطّط له وبُني في عهد آدم عليه السلام، لكن حينما جاءت قبيلتا طسم وجديس، ووقع بينهم صراع وحرب خرب البيت الحرام، غير أن آثاره ظلّت باقية حتى ذلك الحين، أي زمان النبي إبراهيم عليه السلام عند مجيئه إلى ذلك المكان. ولذا صحّ أن ينسب النبي إبراهيم عليه السلام هذا البيت إلى الله تبارك وتعالى كما في الآية الكريمة.

الثانية: معنى الإضافة في قوله تعالى: ﴿بَيْتِكَ﴾

والإضافة في الآية الكريمة هي إضافة تشريفية، وليست إضافةَ ملكية، وإلّا فإن كل شيء هو ملك لله تبارك وتعالى. ومعنى قولنا: إضافة تشريفية أن الله عزّ وجلّ يريد أن يخلع اسمه على هذا البيت؛ كي يخلع عليه صبغة التقديس؛ لأنه قد اتّصف حينئذٍ بصفة الانتماء إليه تبارك وتعالى. وهذا يعني أن هذا البيت يجب أن يكون في غاية الاحترام والتقديس والتبجيل، وأن ينظر الناس إليه على أنه بيت من بيوت عبادة الله سبحانه وتعالى، بل أشرفها؛ ولذا فإن عليهم أن يوقّروه وأن يبجّلوه وأن يحترموه.

إن الإنسان العادي في الدنيا حينما يمرّ ببيت صاحبه ذو مكانة مرموقة في الدنيا، فإنه يحترم ذلك البيت باحترام صاحبه، ويحترم نسبته إليه لأجله. وهذا هو المراد هنا، حيث إن نسبة هذا البيت إلى الله تبارك وتعالى تستدعي تشريف ذلك البيت وتقديسه؛ فكما أن الله تبارك وتعالى ينبغي تقديسه وتبجيله، فكذلك بيته الحرام؛ ولذا فإنه تبارك وتعالى قد عبّر عن أمثال هذه البيوت بقوله تعالى: **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾**(١).

وفي هذه البيوت ثلاث روايات:

الرواية الأولى: أنها بيوت الله، أي المساجد.

الرواية الثانية: أنها بيوت الأنبياء ﵈.

الرواية الثالثة: أنها بيوت العلماء.

---

(١) النور: ٣٦ ـ ٣٧.

وكل هذه الروايات صحيحة ويمكن الجمع بينها؛ لأنها مضافة إلى الله تبارك وتعالى؛ فبيت النبي هو بيت نبي الله، وبيت العالم هو بيت حامل شريعة الله تبارك وتعالى، وبهذا فإنها كلّها ترجع إلى الله جلّ وعلا.

موقف المسلمين وخلفائهم من البيت الحرام

إذن فالبيت يكتسب أهميته من حيث انتماؤه، والآن لنرَ هل احترم المسلمون بيت الله تبارك وتعالى؟ إن عندنا تجارب كثيرة مرّت في هذا التاريخ يذكرها المؤرّخون في كتبهم حول الانتهاكات التي قام بها حكام المسلمين لبيوت الله تبارك وتعالى، كالبيت الحرام الذي هو ثاني القبلتين، والمسجد النبوي الشريف الذي هو ثاني الحرمين. فهؤلاء يذكرون مثلاً أن الحجّاج قد وجّه المنجنيقات إلى بيت الله الحرام، وسلّطها عليه فهدمه، وانتهك حرمته. وقد أوقع الأُمويون القتال فيه حتى أُريقت في ساحته الشريفة الدماء، ووصلت إلى قلب الكعبة المقدّسة، وحتى قُتل عبد الله بن الزبير داخل الكعبة[١]، وكان قد ضربه حجر على جبهته، فأخذ الدم يسيل منها، فراح يردّد:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما[٢]

---

(١) انظر: سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤، التاريخ الكبير ٣: ٤ / ١٢، وقد ضعّف السند. سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ – ٢٥٢، ٢٦١، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.

(٢) البيت للحسين بن الحمام. المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٢٧ / ٢٢٨، شرح نهج البلاغة ٣: ٢٨٣، ٢٠: ١٢٢. وحول واقعة انتهاك حرمة الكعبة المشرّفة بقتل ابن الزبير داخلها انظر سير أعلام النبلاء ٤: ٣٤٣ / ١١٧.

فالأُمويون قد انتهكوا حرمة الكعبة، وضربوها بالمنجنيقات حتى هدموها، وقد فعلوا ذلك مرتين. ولو أنهم قُدّر لهم أن يفعلوا ذلك كل يوم لفعلوه دون أن يكون هنالك مانع يمنعهم أو حاجز يحجزهم عن فعلهم هذا، ودون أن يكون هنالك رادع يردعهم عن انتهاك محارم الله تبارك وتعالى. ومع هذا فإننا لا زلنا حتى الآن نجد من يقدس الأُمويّين ويعظّمهم، ويعتبرهم أُمراء للمؤمنين، ويعطيهم صفة الإيمان، وأنهم حماة الدين وخلفاء المسلمين.

وربما يقول قائل: لمَ كل هذه المفارقات في تاريخنا؟

ونقول: إنها فعلاً مفارقات، بل هي مفارقات مروّعة؛ ذلك أن عند شريحة كبيرة من المسلمين أن كلّ من يصل إلى كرسي الحكم يصبح مقدساً لا يمكن أن تطاله الأقلام أو الألسن بالنقد والتقويم؛ لأن هؤلاء يرفعونهم إلى مقامات الأنبياء عليهم السلام، ويعطونهم صفة التقديس والتبجيل والاحترام دون النظر إلى ما إذا كانوا يستحقّون مثل هذا التقدير والتبجيل أو لا يستحقونه. فهؤلاء ينظرون إلى الحاكم على أنه منزّل من السماء، وهو بهذا لا يمكن أن يخطأ أو أن يُنتقد، بل إنهم يروون في ذلك رواية عن رسولنا الأكرم ﷺ يجعلونها مستنداً وذريعة لمذهبهم؛ حيث يُدّعى أنه ﷺ قال: «**من أطاعني فقد أطاع الله، تبارك وتعالى، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني. إنما الأمير مجنّ؛ فإن صلّى جالساً فصلّوا جلوساً أو قعوداً، فإذا قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد؛ فإنه إذا وافق قول أهل الأرض قول أهل السماء غفر له ما مضى من ذنبه، ويهلك قيصر فلا يكون قيصر بعده، ويهلك كسرى فلا يكون كسرى بعده**»[1].

---

(١) مسند أحمد ٢: ٤١٦، ٢٥٣، ٣٤٢، ٣٨٦ ـ ٣٨٧، ٤١٦، ٤٦٧، مسند أبي داود الطيالسي: ٣٣٦، منتخب مسند عبد بن حميد: ٤٢٦، شرح معاني الآثار ١: ٤٠٤، صحيح ابن حبان ١٠: ٤٢٠.

مع أن البعض يذهب إلى أن هذا الحديث قد حُرّف عن معناه، فعائشة تقول: إن الرواية ليست بهذه الصورة، كما أنني رأيت بحثاً منشوراً في أحد أعداد مجلّة العربي يقول فيه كاتبه: إن هؤلاء الذين حرّفوا هذا الحديث هم علماء سوء؛ لأنه حديث قصد به أمير الجند؛ ذلك أن النبي الأكرمﷺ كان يخرج الجند ثم يُؤمّر عليهم أميراً، وكانﷺ يأمرهم أن يطيعوا هذا الأمير وألّا يعصوه، ثم يبين لهم أن طاعة هذا الأمير من طاعته (صلوات الله عليه). فجاء هؤلاء ذوو قلوب السوء والنوايا غير الشريفة، فوجّهوا الحديث إلى غير ما كان مقصوداً به، وحاولوا أن يجعلوه في الحجّاج وأمثاله، فنصّوا على أن من يطع الحجاج فقد اطاع الله تبارك وتعالى.

وهذه الحالة المشينة لا زالت موجودةً عند البعض من الناس حتى الآن؛ ولذا لازلنا نرى أن البعض حينما يمرّ بأشخاص يصفهم التاريخ على أنهم كانوا في غاية فعل المنكر والابتعاد عن الصلاح والتقوى والعبادة والارتباط بالله تبارك وتعالى فلا يذكرهم بسوء أبداً، بل إن بعض من كتبوا التاريخ حاولوا تشويهه بعدم ذكر مثالب هؤلاء أو بكشف حقائقهم للناس، فتركوا الناس في ضلالهم وعماهم تجاه ما كان عليه هؤلاء المنحرفون عن الإسلام وعن شريعته وعن قوانينه وعن أخلاقه وآدابه والالتزام بمقدساته.

لكن هؤلاء وغيرهم حينما يمرّون بأحد من آل بيت نبينا محمدﷺ نجد أنهم يشبعهم سبّاً وشتماً، لا لشيء إلّا لأنه يكنّ لهم الكراهية والبغضاء والحقد. فهل هذا تاريخ نزيه يمكن الرجوع إليه والركون إلى مدوّناته والوثوق بمروياته؟ إنه تاريخ يجعل قارئه يشعر بالاشمئزاز من مادته التي تبتني على الازدواجية في التعامل، وعلى تزوير الأحداث وتغييرها. إن من يقرأ التأريخ يشعر كأنه يقلّب روائح منتنة؛ لأنه تاريخ لا يضع يده على الداء الحقيقي فيعالجه، وإلّا فلماذا لا يفضح

الحجّاج والتيّار الذي ينتمي إليه؟

إن المفروض بنا أننا نلتزم نهج القرآن الكريم الذي يقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، والحال أنه ليس هناك أمر بمعروف ولا نهي عن منكر. إننا نلاحظ ما الذي حدث للأُمة العربية والإسلامية من جرّاء فِعال هؤلاء، كما حدّثنا التاريخ النزيه عن ذلك، وهو شيء وإن كان ضئيلاً لكنه يستحقّ التقدير.

إذن فهذه الإضافة هي إضافة تشريفيّة، أي أنها تشرّف المضاف لشرف المضاف إليه وقدسيته وجلالته.

المبحث الخامس: في المراد من ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ في الآية الكريمة

والآية الكريمة إذ تقول: ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾، فإن للمفسّرين في قوله تعالى: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ آراء ثلاثة، هي:

الأول: أنه يحرم فيه ما لا يحرم في غيره

إن هناك جملة من الأُمور الاعتيادية التي يمارسها الإنسان في حياته العامّة، وهي أُمور ذات صبغة شرعية، حيث إن الله تبارك وتعالى قد أباحها لعباده، وسمح لهم بإتيانها، لكنه حينما يصل إلى البيت المحرّم فإنه سوف لن يصبح قادراً على ممارستها هناك، ولا يستطيع أن يقوم بها. ومن ذلك مثلاً أنه لا يستطيع أن يصطاد فيه، ولا أن يقارب أهله، ولا أن يقطع شجرة من شجره، وما إلى ذلك.

الحكمة من تحريم جملة من الأشياء في البيت الحرام

ولعلّ الحكمة الكامنة وراء هذا التشريع هو أن الإنسان حينما يقصد الكعبة،

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

فإنه ينبغي عليه أن يستشعر أن هذه البنيّة المقدسة سوف تعطيه درساً في تسليط الإرادة على الغرائز وتحكّمها فيها؛ فيفعل وفق إرادته وعقله وتشريع الله تبارك وتعالى مغلّباً كلّ هذه الأُمور على الغرائز الأُخرى. فالإنسان مثلاً حينما يستشعر الجوع فإن غريزة حبّ الطعام تدفعه إلى اصطياد الحيوانات الموجودة حوله، لكنه هنا لا يفعل لأن الإرادة والتشريع من قبلها قد قضيا بأنه يحرم عليه ذلك ما دام ضمن الدائرة الشرعية للبيت الحرام.

الثاني: تطهير النفس والجسد والثياب

فالإحرام ينعكس نفسياً حينئذٍ على الإنسان، ويعطيه شعوراً بأنه قد أصبح في أجواء مكان مقدّس حريّ بالإجلال والاحترام والتبجيل والتقديس؛ لأنه سوف يستشعر بأنه مقبل على بقعة مقدسة. وحينئذٍ فيجب عليه أن يطهّر نفسه وملابسه حتى يتناسب الحال الذي هو عليه مع حال ذلك البيت المقدس.

الثالث: أنه الاحترام

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن المراد من ﴿بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ هنا: البيت المحترم الذي ينبغي احترامه؛ لأن الحرام مشتقّ من الاحترام. وهو إنما يجب احترامه لأنه مضاف إلى الله تبارك وتعالى ومسمّى باسمه. أما ضروب الاحترام التي ينبغي إظهارها في هذا البيت الطاهر الشريف فهي أشكال كثيرة وأنماط عدّة نصّ عليها الفقهاء في كتبهم وذكروها، منها ما ذكرته الآية الكريمة التي تقول: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[1]. وهنالك أشياء كثيرة أُخرى كلّها تنمّ عن واجب احترام هذا البيت العتيق والكعبة الشريفة.

---

(١) البقرة: ١٩٧.

مفارقة أدبية

وبالمناسبة فإني أود أن أذكر طريفة تاريخية يرويها بعض الكتّاب، وهي أن رجلاً كان معروفاً عنه بأن كلّ عمله وتكسّبه حرام، فهو لا يترك شيئاً فيه حرمة إلّا فعله، وبعد فترة افتقده أبناء المنطقة التي يعيش فيها فلم يجدوه، فسألوا أحد أصدقائه عنه، فأجابهم بأنه قد قصد البيت الحرام. فاستغربوا منه هذا التصرّف الذي يخالف سجيّته، وانتابهم العجب لأجل ذلك؛ لأنه رجل معروف عنه أنه لا يفعل شيئاً فيه طاعة، فسألوا صديقه هذا عن سبب حجه البيت الحرام مع ما هو عليه من ولوج أفعال الحرمة وباب المعصية، فقال لهم: إنه إنما حجّ إلى البيت الحرام؛ لان اسمه حرام، ولو أنه كان بيتاً حلالاً لما حجه ولما قصده. وفيه يقول أحد الشعراء:

رأى البيت يدعى بالحرام فحجّه ... ولو كان يدعى بالحلال لما حجّا

الأثر الوضعي المترتّب على الحج

إن البعض ببالغ الأسف لا يقيّم ذهابه أو رواحه إلى البيت الحرام، ولا يعطيه ما يستحق من عناء ومن تعب ومن قدسية ينبغي أن يكون عليها؛ لأنه يقصد بقعة مقدسة على هذه الأرض، حتى يرجع منه وهو متطهر من الذنوب ليستأنف حياة جديدة كريمة مفعمة بطاعة الله تبارك وتعالى، ومتّسمة بسمة الحلال على مستوى التعامل مع النفس أو التعامل مع الآخرين أو التعامل مع الله تبارك وتعالى. إن الذي يجري الآن هو أن البعض يعتبر الحج ضريبة ينبغي عليه أن يؤدّيها ويرجع ليسقط واجبه، فإن رجع ليمارس أعماله اليومية الحياتية فإنه يمارسها دون ورع عن حرام أو دون صدّ عن مأثم، أو دون أن يلتفت إلى أنه ربما يقع في شبهة ينبغي عليه اجتنابها.

وهكذا فإن الذي ينبغي بالإنسان فعله حينما يحجّ البيت الحرام ويرجع أن يبتعد عن كل ما يكدّر صفو حياته الجديدة التي يبتدئها بعد رجوعه من هذه البقعة المقدسة الطاهرة. ومعكّرات صفو حياته الجديدة ربما تكون عبر أعمال محرمة، أو بأعمال فيها شبهة يقوم بها، وربما تكون بألفاظ نابية يستعملها مع من هم حوله. وهو بهذا يعمد إلى أن يمد معول الهدم إلى هذه الحياة الجديدة الناصعة ويخربها مع أن المفروض به أنه يُبقي عليها؛ لأنها معيار المؤمن، وميزان القبول عند الله تبارك وتعالى.

ثم إن هذا الأمر مبتنٍ على أمر آخر هو أن الذهاب إلى البيت الكريم، والوقوف عنده ينبغي أن يكون له أثره على الإنسان، وينبغي أن يأخذ أثره من نفسه، فالإنسان حينما يذهب إلى الحج فإن عليه أن يستذكر أُموراً كثيرة وطاعات أكثر، ومن جملتها مثلاً قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

المبحث السادس: الصلاة دورها وتشريعها

ثم انتقلت الآية الكريمة، فقالت: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، ومن خلال هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة سوف نشير إلى ثلاث جنبات إن شاء الله تعالى:

الجنبة الأولى: أن الصلاة مفروضة في كلّ شريعة سماوية

فمن خلال هذا المقطع الشريف يتّضح لنا أن الصلاة هي أمر مفروض في كلّ شريعة من الشرائع السماوية، وليس هنالك من نبي يبعثه الله إلى قومه أو إلى غيرهم إلّا ويبعثه والصلاة أمامه. وبناء على هذا فإننا نجد أن نبي الله إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، كما أن النبي عيسى عليه السلام يقول: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ

﴿وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾(١)، وكذلك النبي موسى عليه السلام كان في شريعته الصلاة (٢).

الجنبة الثانية: أنها عنوان التذلّل والخضوع إلى الله تعالى

ولا ننسَ أن الصلاة أبرز مصاديق التعظيم والتبجيل للمعبود، أو للطرف المقابل بشكل عام. ولو أننا أردنا أن نقوم بعملية استقرائية لمعرفة مظاهر التعظيم عند الإنسان حينما يريد أن يعظّم أحداً، فإننا نجد أنه يعبّر عن ذلك التعظيم بالانحناء عادة أمام الشخص الذي يريد أن يعظّمه، أو بالإشارة الدالّة على الخشوع، أو الخضوع له. وهذه التعبيرات كلّها موجودة في الصلاة.. الصلاة التي تجعل من الإنسان يرفع يديه إلى أُذنيه ليكبّر ثم يركع ويسجد، وهما أمران مشتملان على الانحناء والخضوع، بل غاية الخضوع؛ لما ينطوي السجود عليه من تعفير للجبين في التراب، وهو غاية التذلّل والتضرّع والخضوع والخشوع من الإنسان إلى الله تبارك وتعالى.

وهكذا الحال مع كل ضروب التعظيم الأُخرى، فإنها جميعها موجودة في الصلاة.

الجنبة الثالثة: أنها أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة

ولذا فإنه قد ورد في الحديث الشريف: «**إن أول ما يحاسب به العبد الصلاة؛ فإن قبلت قبل ما سواها. إن الصلاة إذا ارتفعت في أول وقتها رجعت إلى صاحبها**

---

(١) مريم: ٣١.

(٢) ويدل على هذا ما ورد في حديث المعراج من حوار بين نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والنبي موسى عليه السلام حول عدد فرائض الصلاة التي كلّف الله تبارك وتعالى المسلمين بها، ومساءلة النبي موسى عليه السلام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في أن يرجع إلى ربّه ويسأله ليخفّف عن امّته بعلة أنها لا تقدر على ذلك الكمّ من الصلاة؛ لأن قومه عليه السلام من بني إسرائيل لم يقدروا عليه. انظر بحار الأنوار ٣: ٣٢١.

وهي بيضاء مشرقة تقول: حفظتني حفظك الله؛ وإذا ارتفعت في غير وقتها بغير حدودها رجعت إلى صاحبها وهي سوداء مظلمة تقول: ضيعتني ضيعك الله»[١].

كما أنه ورد عن النبي الأُمّي الأمين (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله) قوله: **«أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»**[٢].

ومن خلال هذا الحديث الشريف نجد أن موقع الصلاة يكون بعد تحصيل الإسلام المتمثّل بالنطق بالشهادتين، أي أن موقع الصلاة بعد ذكر الشهادتين مباشرة؛ ولذلك فإننا نجد أن الحديث الشريف يعبّر عنها بالقول: **«الصلاة قربان كلّ تقي»**[٣]. فالإنسان بطبيعة الحال حينما يريد أن يُظهر خشوعه وخضوعه وعبوديته لمن يعبده يقدّم قرباناً له ينمّ عن هذه الصفات التي يريد أن يظهر له بأنه يتصف بها، أما المسلم فإن قربانه هو هذه الجملة العباديّة المحصورة بين التحريمة والتسليمة؛ ولذا فإننا نجد أن للإنسان المؤمن في كل يوم قرابينَ خمسة إلى الله تبارك وتعالى من خلال صلاته خمس مرات، وهي أوقات الصلاة المفروضة.

جحود الصلاة

والإسلام لا يعتبر أحداً كافراً فيما إذا ترك عملاً من الأعمال العبادية إلّا إذا ترك الصلاة متعمداً دون من يتركها عن تكاسل أو عن عجز عن أدائها، وهذا ما يسمى بعرف الفقهاء عصياناً أو فسوقاً، وليس هو بجحود؛ لأن من يجحد الصلاة

---

(١) الكافي ٣: ٢٦٨ / ٤، الفقيه ١: ٢٠٨ / ٦٢٦، تهذيب الأحكام ٢: ٢٣٩ / ٩٤٦.

(٢) بحار الأنوار ٦٥: ٢٤٢، صحيح البخاري ١: ١١ ـ ١٢، السنن الكبرى (البيهقي) ٨: ١٧٧، صحيح ابن حبّان ١: ٤٥٢ / ٢١٨، ٤٠٠ / ١٧٤.

(٣) نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٦، مسند الشهاب ١: ١٨١ / ٢٦٥، وفيه عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

فإنه يحكم بكفره. والجحود هو كأن يقول: إن الصلاة غير واجبة على الإنسان، أو إنها خرافة، أو إنها تقليد قديم ينبغي عدم الالتفات إليه وعدم الإتيان به. فكل هذا كفر يخرج صاحبه عن ملّة الإسلام وربقة الإيمان.

فلسفة الصلاة وأخلاقياتها

إننا في الواقع لا نستطيع أن نجد في الإسلام عملاً من الأعمال العباديّة يحظى بهذا الاهتمام الكبير الذي حظيت به الصلاة، فالصلاة تحظى باهتمام كبير لا حدود له في شريعة السماء، والفرد المسلم في واقع الأمر عماده وعصمته وهويّته الصلاة، بل إن الشيء الذي يهذّبه ويجعله يلتمس الرحمة من الله تبارك وتعالى، ويلتصق بالحقّ هو الصلاة؛ ولذلك فإن تارك الصلاة يجب أن يهيّئ نفسه ويعدّها لعذاب شديد. فلابد له أن يمرّ بهذه العقبة؛ ولذا فإن على الإنسان أن يفكّر عدد الحصى كيف يمكن له أن يجتاز هذه العقبة الكؤود.

إن على المسلم وهو يصلّي أن يراعي في صلاته أنها يجب أن تكون ذات ردع له عن المحرّمات[١].. صلاةً تأمره بفعل الطاعات والواجبات؛ لأنها إذا لم يكن فيها ردع، فسوف تتحوّل إلى مجرد شعيرة فارغة[٢]. وهذا يعني أن الصلاة يجب أن تؤثّر على أخلاق الإنسان المصلّي، ويجب أن تؤثّر في نفسه، وعلى تصرّفاته في الحياة، فتمنع يده من أن تمتدّ إلى الاعتداء على الآخرين، أو أن تسلب أموالهم، وتؤثر على لسانه فتحفظه وتمنعه من أن يتطاول عليهم أو ينالهم بسبّ، أو يجرّحهم أو يكفّرهم بغير حقّ، فالمهمّ هو التلبّس بروح الصلاة وأجوائها[٣].

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت: ٤٥.

(٢) وتصبح بذلك عادة لا عبادة.

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفكّر». الكافي ١: ٣٦ / ٣، معاني الأخبار: ٢٢٦ / ١.

دقّة التعبير القرآني

إذن فالصلاة وسيلة تربوية وتثقيفية، وأداة ضبط النفس ومعيارها، فإذا لم تكن كذلك فإنها تتحول إلى مجرد شعار فارغ لا معنى له ولا أثر. ولهذا فإننا نجد في هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، ولو نظرنا إلى التعبير القرآني الذي يقول: ﴿لِيُقِيمُوا﴾، فإننا نلتفت إلى ضرورة تطبيق ما ذكرناه آنفاً. إن القرآن الكريم لم يقل: ليصلّوا، بل قال: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وهذا لون من الأساليب البلاغيّة التي تتوفّر على أهداف أُخرى كان العرب يستعملونها، ومن هذا قولهم: قامت السوق، ويعنون بذلك أن السوق في تلك اللحظة تتّصف بالحيوية، وتعجّ بحركة البيع والشراء وتضجّ فيهما، وما إلى ذلك من لوازم الحيويّة والنشاط التجاري فيها؛ ولهذا فإنهم ينظرون إليه على أنه سوق قائم.

وكذلك الحال هنا مع الصلاة التي ينبغي أن تشتمل على تلك الحيوية والنشاط، وعلى الردع وتهذيب النفس والأخلاق وتقويمهما، وعلى تقويم صاحبها وعلى حثّه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بحيث إن الناس يعرفون أن هذا الشخص المصلّي لا يأكل حراماً، ولا يعتدي على حقوق الآخرين، ولا يفعل المنكر، ولا يتعدّى حدود الله وحرماته، ولا يعتدي على حقوق الآخرين؛ ذلك أن صلاته تنهاه عن هذا كله. وبهذا فإننا نشعر بأن الصلاة قد أخذت أثرها من ذلك الإنسان المصلّي؛ ولهذا كان التعبير بقوله تعالى: ﴿لِيُقِيمُوا﴾، ولم يكن بتعبير: ليصلّوا.

لكننا مع هذا نجد من ينزع صلاته في المسجد أو في المحراب أو في مصلّاه الذي يصلّي فيه، ثم يخرج عنهما دونها، أي أن هذه الصلاة لا تلازمه في كلّ أفعاله وأقواله وحركاته وتصرفاته، بل إنها تظلّ معه، وتبقى ملازمة إيّاه حتى باب

مصلّاه، فلا تعدو كونها حينئذٍ عادة قد اعتادها صاحبها، ويتخلّى عنها بمجرّد أدائها أو فراغه منها. وبهذا فإن مثل هذه الصلاة سوف تصبح شعاراً فارغاً أهوج لا قيمة له ولا وزن؛ لأن الصلاة يجب أن تلازم الإنسان في مسيرته الحياتية، فتأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر.

وهنا فقط نرى المضمون الحقيقي للصلاة، وما هو مطلوب من المصلّي توفيره، وبخلافه فإن الهدف من الصلاة لم يتحقق هنا حينئذٍ.

في معنى الصلاة

والصلاة في اللغة هي الدعاء، وفي اصطلاح الفقهاء هي مجموعة من الأفعال والأقوال التي يؤدّيها المصلّي، والتي تفتتح بالتحريمة وتختتم بالتسليمة. والتحريمة هي تكبيرة الإحرام. وهذه المنظومة من الأفعال والأقوال هي منظومة عباديّة توقيفية، ومعنى قولنا: «توقيفية»: أن صحّتها تتوقّف على أدائها وفق ما أمر الله تبارك وتعالى به؛ فلا تكون فيها زيادة ولا نقصان. وهذا هو معنى قولنا: إن الأُمور العبادية هي أُمور توقيفية، فالشارع المقدّس هو الذي يضع لها هيكليتها وأركانها وشروطها وأجزاءها وما يتعلّق بها؛ كي تصحّ ممّن يأتي بها أو ممن يمتثل أمر الشارع المقدس بأدائها. وكلّ هذه الأُمور قد نصّ عليها الفقهاء، وأوضحوها في مدوّناتهم وكتبهم.

فهيكل الصلاة معروف، وبهذا فإنه لا يمكن لأحد أن يأتي بما هو أكثر ممّا أمر به الشارع المقدّس، ولا بأقلّ ممّا أمر به وأوجبه؛ وبهذا فإنه لا يمكن لشخص ما أن يقول مثلاً: إن قراءة الحمد لا ضرورة لها ولا داعي كما هو عند أبي حنيفة مثلاً، فالأحناف يذهبون إلى أن الإنسان يستطيع أن يصلّي ويقرأ فيها دون أن تكون هنالك حاجة لقراءة سورة كاملة، ويستندون في ذلك على قوله تعالى: **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ**

اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾[١].

و﴿مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ يصدق على الكلمة الواحدة ولو كانت مترجمة[٢]، أي في غير اللغة العربية. وهذا بطبيعة الحال لون من الاستنتاج الذي يختلف فيه فقهاء المسلمين، ثم إن القاعدة تقول: «**لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب**»[٣].

وعليه فيجب ألّا تكون هناك صلاة بغير سورة الفاتحة وإلّا كان هناك نقص في هيكليتها، وقد قررنا كذلك أنه لا يجوز أن تكون هناك زيادة في هذه الهيكلية إلّا أن تكون عن غير قصد الجزئيّة.

من مصاديق الزيادة في الصلاة

والزيادة تتحقّق بأن يضيف الإنسان قولاً أو فعلاً إلى هذه الهيكلية معتقداً ومتيقّناً بجزئيته منها، ومن ذلك نذكر:

الأول: ظاهرة التكفير

وهي التكتّف في الصلاة كما يذهب إلى ذلك الغالبية من أبناء المذاهب الأُخرى، فهؤلاء إن كانوا يكفّرون أثناء القيام في الصلاة بعنوان أنه جزء منها فهذا باطل؛ لأنه زيادة على هيكليتها، وهي هيكلية محفوظة، وينبغي أن تبقى محفوظة كما أمر بها الشارع المقدس، أما إذا فعلها الإنسان لا على نحو الجزئية بل على

---

(١) المزمل: ٢٠.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٩: ٧٢ - ٧٣، وفيات الأعيان ٥: ١٨٠ - ١٨١.

(٣) قاعدة مأخوذة عن حديث لرسولنا الأكرمﷺ، انظر: الخلاف ١: ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٦، ٣٤٢، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ١: ١٥٦ / ٢٤٧ ـ باب ما جاء أنه لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب، رواه عن عبادة بن الصامت عن النبيﷺ، قال الترمذي: حديث عبادة حديث حسن صحيح، والعمل عليه عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبيﷺ منهم عمر بن الخطاب وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين وغيرهم، قالوا: لا تجزئ صلاة إلّا بقراءة فاتحة الكتاب. وفي سنن الدارمي ١: ٢٨٣ / باب لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب قولهﷺ: «من لم يقرأ بأمّ الكتاب فلا صلاة له».

نحو الخضوع لله تبارك وتعالى والخشوع له استحباباً فإنها حينئذٍ تكون زيادة مقبولة شرعاً؛ لأن صاحبها لم يقصد أنها جزء أساس من هيكل الصلاة.

وحتى فقهاؤنا يميل البعض منهم إلى عدم القول بحرمة التكفير، بل إلى كراهيته فيما لو كان بعنوان الخضوع والخشوع وليس بعنوان الجزئية[١]. ويستند أبناء المذاهب الأُخرى إلى رواية يروونها عن النبي ﷺ أنه كان حينما يصلي يتلفّع بإزاره، فكان يضع يداً على يد، وحينما يريد أن يركع يخرج يديه من الإزار فيركع[٢].

وعلى كلّ حال، فهؤلاء لهم دليلهم الذي ينبغي أن يناقشوا على ضوئه من حيث سنده ودلالته وتماميتهما.

الثاني: الأذان

ومن مصاديق الزيادة التي هي ليست بعنوان الجزئية من الصلاة، والتي تعتبر من مقدماتها الأذان، وهو من المقدمات الصلاتيّة المستحبّة، وليس هو بواجب فيها.

شبهة حول شهادة أن علياً ولي الله، والجواب عنها

وهنا ربما يقول البعض ويصرّ متسائلاً: لماذا تقولون دائماً في الأذان: «**أشهد أن علياً ولي الله**»؟

---

(١) الكافي في الفقه: ٢٠٩، المعتبر ٢: ٢٥٥.

(٢) لم نعثر عليه بهذا التعبير، وفي الشرح الكبير ١: ٦١٠ ـ ٦١١ قوله: وروي عن النبي ﷺ أنه التحف بإزاره وهو في الصلاة، فلا بأس إن سقط رداء الرجل أن يرفعه لذلك، وإن انحلّ إزاره أن يشدّه.

وفي كشّاف القناع ١: ٤٥٥ قوله مع لفظ أبي الشجاع: وله لبس ثوب وعمامة ولفّها، وحمل شيء ووضعه؛ لما روى وائل بن حجر أن النبي ﷺ التحف بإزاره وهو في الصلاة... وكذا إن سقط رداؤه فله رفعه.

والجواب أن يقال: إن الردّ على هذا التساؤل يكون من جهات أربع:

الأولى: أننا نقولها لا على نحو الجزئية

إننا في حقيقة الأمر لا نقول بجزئية هذه العبارة من الأذان، فنحن نجيء بها على نحو الاستحباب.

الثانية: أن القرآن الكريم شهد له عليه السلام بالولاية

ثم إننا إذ نشهد لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالولاية، فإننا لا نعدو الحقيقة ممثّلة بالقرآن الكريم في شيء أبداً؛ لأن القرآن الكريم هو الذي شهد له عليه السلام بهذا.

وحول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى تفاسير المسلمين[1] حول قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**[2]، فهناك العشرات من الروايات التي تنصّ على أن هذه الآية الكريمة قد نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام؛ ذلك أنه عليه السلام هو الذي تصدّق بخاتمه في حال الصلاة، فنزلت بحقّه.

الثالثة: أن الله تبارك وتعالى ولي كل مؤمن وكل مؤمن وليه

إن من الأُمور الثابتة أن الله تبارك وتعالى ولي المؤمنين، كما أن المؤمنين أولياء الله كذلك، ولذا فنحن نشهد «**أن علياً ولي الله**»؛ لأنه مؤمن بالله تبارك وتعالى، بل كل ذرّة من ذرّات كيانه ووجوده هو عبارة عن إيمان صرف بالله

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ١: ٣٠٧، جامع البيان ٦: ٣٨٩، ٣٩٠، تفسير ابن أبي حاتم ٤: ١١٦٢/٦٥٤٧، معاني القرآن ٢: ١١١/٣٢٥، تفسير السمرقندي ١: ٤٢٤، تفسير الثعلبي ٤: ٨١، تفسير السمعاني ٢: ٤٧، وغير هذه التفاسير كثير يضيق المجال عن عدّه وحصره.

(٢) المائدة: ٥٥.

تبارك وتعالى. وبهذا فإننا إذ نؤذّن بهذه العبارة لا نقول ما ينافي الثوابت الإسلاميّة، أو القرآن الكريم.

الرابعة: أن غيرنا أضاف على الأذان

ثم إن بعض المسلمين يقولون في أذان الفجر مثلاً عبارة: «الصلاة خير من النوم»، وهي ليست من الأذان، وقد أضافها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بعد أن استحسنها حينما أيقظه المؤذّن من النوم بها، فارتأى إضافتها إليه. وهكذا أُضيفت هذه العبارة عليه لمجرّد استحسان الخليفة الثاني لها، وبقيت تقال فيه حتى هذا اليوم. ونحن لا نتحسّس منها أبداً باعتبارها ليست جزءاً من الأذان، فلا ضرر في أن تقال فيه، فكذلك الحال مع «**أشهد أن علياً ولي الله**».

لكن إذا كانت عبارة «الصلاة خير من النوم» تقال بعنوان الجزئية من الأذان، فإننا لا نقول بها؛ لأنه سوف يبطل بذلك؛ كونها دخيلة على هيكليته التي شرعها الله تبارك وتعالى، وأنزلها على رسوله الأكرم ﷺ. فالأذان وإن كان مستحبّاً لكن الاستحباب حكم شرعي تكليفي، والأحكام التكليفية توقيفية يجب أن تأتي من السماء، وأن تحدّدها لنا السماء، وألّا نفعلها إلّا بعد أن تأمر بها، وأن نفعلها ونحن نمتثل الأمر بها دون أن نتجاوز في ذلك أوامرها زيادة أو نقصاناً.

رجـع

إذا عرفنا هذا فإننا نعود إلى الآية الكريمة التي تقول: ﴿**رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾، فنقول: إن الصلاة هي عبادة توقيفية، لأنها أمر واجب، والوجوب حكم تكليفي؛ وبهذا فإنها لا يصحّ فيها إلّا ما أمر الشارع المقدس به، ولا يصح منها إلّا ما كان بحدود ما أمر به، وكل زيادة عليها أو نقصان شيء منها باطل ومبطل لها، وينبغي حينئذٍ الإتيان بها مرة ثانية على النحو الصحيح.

المبحث السابع: في أسباب حصول المحبّة بين الناس

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾، إن هذا يعني أن النبي إبراهيمﷺ طلب من الله تبارك وتعالى، ودعاه أن يحبّب ذريته إلى الناس، أي إلى المجتمع؛ ذلك أن الإنسان حينما يحصل على مكانة في قلوب الناس أو في المجتمع، فإن هذه المكانة تعتبر نعمة من الله تبارك وتعالى كبيرة لا تضاهى، ولا يمكن أن يوازيها شيء.

وهنا أود أن اُلفت النظر إلى نقطة على نحو من الأهمية، هي أن هنالك الكثير الكثير من العروش التي مرّت في هذه الدنيا عاشت وماتت دون أن تنال قسطاً من حبّ الناس، مع أنها عروش مصنوعة من الذهب والفضة، وأرقى أنواع الأخشاب، ونحن نجد أنها هي ومن عليها قد تلاشت، ولم يبقَ منها شيء، أما ذلك الذي يتربّع على عروش قلوب الناس، فإنه يظل خالداً، كلّما مرت به الأجيال تذكّرته وازدادت له حبّاً وتقديراً وتبجيلاً.

إن عروش القلوب عروش متوارثة، وهي عروش شديدة الالتصاق بقلوب أصحابها، لا تنفك عنها وإن حصلت محاولات لذلك؛ ولذا فإننا نجد أن هناك كمّاً هائلاً من المحاولات التي أراد من خلالها الحكّام تهديم تلك العروش في قلوب الناس، واقتلاعها منها، لكنها فشلت جميعها؛ لأن الرجل الذي يجعل من قلبه عرشاً لله تبارك وتعالى ولأوليائه حبّاً فيه تعالى، فإن الله سبحانه يجعله أميراً أيضاً في مشاعر الناس، وفي قلوبهم، وفي ذاكرتهم. وهذا هو السبب الذي من أجله أنهم كلّما مرّت الأيام تجذّروا أكثر وأكثر في قلوبهم، وازدادوا عمقاً في نفوسهم، يقول أحد الأُدباء:

كلّما مرّ في سماك طماحي ... ضاع في زحمة النجوم جماحي

غـمرتك الـنـجوم بـالضوء حـتـى ضاع درب السنا على اللـمّاحِ[1]

المبحث الثامن: عرش أمير المؤمنين﵇

وهذا هو شأن أمير المؤمنين﵇ الذي تجذّر في قلوب الناس وملكها، وسـرّ ذلك أنه أخلص لله عزّ وجلّ، وما عُرض عليه أمران أحدهما لله والآخر لنفسه إلّا قدّم الذي لله على نفسه؛ ولذا فإنه﵇ قد استحقّ بكلّ جدارة صفة الخـلود التـي ميّزته، والتي اتّصف بها حتى الآن. وهكـذا بـعد أن مـرت الدهـور والعـصور، وحاولت معاول الهدم أن تهدم ذلك الخلود، وجـاءت مـحاولات إبـعاده عـن القلوب، نجد أن كل ذلك قد باء بالفشل والخسران، وبقي علي بن أبي طالب﵇ متربعاً على عروش قلوب محبّيه، وعلى عروش قلوب المنصفين من الناس حتى من غير المسلمين؛ لأنهم رأوه أنه أهل لمثل هذا العرش الذي لا يمكن أن يمنح إلّا لمن هو أهل له.

لقد حاولت بعض السلطات التي مرت في تاريخنا وأتباعها كذلك أن يُـخفوا ذكره﵇، وأن يطمسوا معالم قبره لتخفى معالم ذلك الذكر، لكن الله جلّ وعلا قد ردّ كل ذلك الكيد إلى نحور أصحابه. وهذا واضح من خلال تتبّعنا لواقـع هـذا الأمر؛ فإننا لا زلنا حتى الآن نقرأ مثلاً في التاريخ المشوّه أن هذا القبر ليس لعلي ابن أبي طالب﵇، بل إنه﵇ ليس له قبر معروف، وهكذا يروحون يرددون مثل هذه المزاعم والأكاذيب والترّهات المقصودة؛ كي يضللوا الناس عن حقيقة علي ابن أبي طالب، لكنهم لم يستطيعوا.

ثم إننا نقول: هل إن مثل أمير المؤمنين﵇ يمكن أن يضمّه قبر؟ أبداً، إن من يظن أن أمير المؤمنين﵇ تضمّه الرمال، فهو في حقيقة الأمر لا يعرف من هو علي

(١) ديوان المحاضر ٢: ١٨.

ابن أبي طالب عليه السلام.. علي بن أبي طالب العملاق الذي رسم وجوده على جبهة الدهر وعلى وجه الدنيا ألقاً ساطعاً يتلألأ فيبهر عين الكون؛ ولذا فإننا نقول: إنه أكبر من الرمال وأكبر من القبر. إن القبر لا يضمّ إلّا العظام والجسد، لكنه يعجز عن أن يضم المضمون الضخم، ولا يستطيع أن يحتوي الأفكار والرؤى العملاقة والسامية؛ ولذا فإن أحد الشعراء يقول في هذا الكيان الضخم عليه السلام:

أخو الذكرِ والمحرابِ إنْ جنَّ ليلُهُ ... وصِنوُ القَنا والسَّيفِ إن طَلَع الفجرُ

وفارسُ مِضمارِ البَيانِ بنَهجِهِ ... تَلاقى البيانُ الجَزلُ والفِكَرُ الغُرُّ

تزوَّدَ منهُ كُلُّ عصر كما اشتهىٰ ... وما زالَ للدُّنيا بمزوده ذخرُ

فإن قيل هذا قبره قلت أربعوا ... أهذا الكيان الضخم يجمعه قبرُ

ولكنه بابٌ إلى معطياته ... يمدُّ غِناه من بساحته فَقرُ

فعلي بن أبي طالب عليه السلام ممّن رام الحق والإذعان له فكان ذلك عنوان خلود له، فهو أكبر من هذه الحفنة من التراب التي تضم جسد الإنسان العادي المضمحلّ بعد موته، ومع ذلك فإننا نجد أن هذا القبر لم يسلم أيضاً من الملاحقة والمحاولات الكثيرة لطمسه؛ سواء كانت محاولات فعلية، أو محاولات تاريخية، أو فكرية عبر إنكار وجود قبر له، وأن هذا القبر الذي هو موجود الآن في النجف هو قبر المغيرة أو غيره.

وهم بذلك إنما يريدون إبعاد شيعته ومحبّيه عنه، وهذا خطأ كبير منهم؛ لأننا نرى أن من يتصور هذا التصوّر، أو من يظن مثل هذا الأمر فإنه يكون قد أخطأ خطأً كبيراً.. إن من يظن أننا إنما نقف على عظام فهو مخطئ، إننا إنما نقف على ذات علي، وعلى شموخ علي، وعلى عنفوان علي، وعلى فكر متعملق لعلي، وعلى ذلك الألق الذي شقّ الدنيا وأنار آفاقها، وعلى تلك المواقف الضخمة،

وعلى ذلك العطاء السامي والهائل، وعلى كل سر من أسرار خلود هـذا الرجـل العظيم.

وهكذا فإننا بعد أن نقف على كل هذه القيم والمفاهيم العظيمة والخالدة، سوف لن يفرق الأمر بالنسبة إلينا؛ سواء وقفنا على قبر له، أو على قبر لغيره؛ لأن مثل هذه الأشياء موجودة ومحفوظة له في قلوب الناس في كل آن وفي كل زمان.

إذن فكل هذه المحاولات التي وُضعت لطرده عن الساحة، ولإبعاده عن قلوب الناس قد باءت بالفشل والخسران، وباء أصحابها بالذلّ والهوان، وهكـذا فـإننا حينما نقف بين يديه لنزوره فإننا نقول له: «**صلى الله عليك، وجعل أفـئدة مـن المؤمنين تهوي إليك، والخير منك وفي يديك**»[1].

وأنا أُقسم بكل شيء يقسم به على أن هذا الرجل تطوف حوله المشاعر كـما تطوف الفراشة حول الضياء فيحرقها الألق الذي تحوم حوله، لكنها لا تبتعد عنه ولن تتركه حتى تحترق وتقع. وهكذا شأن أمـير المـؤمنين عليه السلام ومـحبيه، فـإنهم يحومون حول ذلك الألق الذي ينبعث من كيانه ووجوده، ويظلون يحومون حوله وإن احترقوا بلهيبه ووقعوا، فهؤلاء يظلّون متمسكين به وإن أسقطتهم سيوف الغدر أو سياط الظلم والإرهاب. إن هؤلاء يحرقهم الشوق إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، فيتهاوون على قبره وعلى نحره وعلى ثغره.

المبحث التاسع: الإمام الحسين عليه السلام في قلوب محبّيه

ومثل أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك العطاء والألق والتربّع على عروش الناس ابنه سبط الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الإمام الحسين عليه السلام حين وقف في ذلك الموقف العصيب،

---

(١) المزار (المشهدي): ١٨٥، المزار (الشهيد الأول): ٤٦، وقريب منه في بصائر الدرجـات: ١٤٩، الكافي ٤: ٥٨٢ / ١١، كامل الزيارات: ٢٢٨، ثواب الأعمال: ٩٥.

وهو يقول: «**والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرُّ إقرار العبيد**»[١]. وهكذا فإن الإنسان حينما يضع يده على القبر الشريف لهذا الثائر العظيم، فإنه إنما يضعها على متناضد من المواقف الكريمة والمزايا السامية الرائعة؛ إذ تتوافد عليه كل تلك الصفات الطيّبة والسمات الطاهرة، وكل تلك المواقف المشرقة والمشرّفة التي وقفها أهل البيت عليهم السلام.

إذن فنحن لا نقف على حفنة من التراب أو من الرمال أو من العظام ونخاطبها، بل إننا نقف على كل تلك القيم والأخلاقيات، وكل ذلك الألق، وكل تلك المواقف النبيلة والكريمة التي أشرنا إليها.

أول يد وُضعت على قبر الإمام الحسين عليه السلام

وأول يد وُضعت على قبر الإمام الحسين عليه السلام بعد دفنه هي يد الإمام زين العابدين عليه السلام حينما دفنه مع بني أسد، وبعد أن خرج من القبر، يقول بنو أسد: نظرنا إليه وقد جلس على القبر وأخذ يزوره ويقول: «**أبتاه، طوبى لأرض تضمّنت جسدك، أما الدنيا بعدك فمظلمة، وأمّا الآخرة فبنور وجهك مشرقة. أما حزني فسرمد، وأمّا ليلي فمسهد، حتى يختار الله لي الدار التي أنت فيها مقيم**».

يقول المؤرخون: يروي بنو أسد أنه عليه السلام افتقد عليه السلام شيئاً فانحنى وأخذ يبحث عنه في التراب، ثم التقط منه شيئاً، فإذا هو ذلك الإصبع المقطوع من أصابع الإمام الحسين عليه السلام ـ وكان قد قطعه أحد أفراد جيش يزيد لينتزع منه خاتماً كان فيه ويسلبه ـ فحمله وأنزله إلى القبر:

لهفي على تلك الأنامل قطّعت ... ولوَ انها اتّصلت لكانت أبحرا[٢]

* * *

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤.

(٢) ديوان ابن معتوق: ٢١٣.

دوّر عــلـى مكـطوع صـبعه　　　بــاله عـليك الچـفه رجـعه
اعـداي مـا خلـوني اودّعـه

يقول بنو أسد: بعد أن أتم دفن أبيه الإمام الحسين عليه السلام وجميع أهل بيته وأصحابه، قام يتلفّت يميناً وشمالاً، ثم اتجه إلى نهر العلقمي، وطلب منّا أن نتبعه، وذلك بعد أن سألنا: «هل بقي أحد؟». فقلنا له عليه السلام: نعم، لقد بقي عند الفرات ضيغم، كلّما حملنا منه عضواً سقط العضو الآخر. فصاح عليه السلام: «واعمّاه واعبّاساه، السلام عليك يا عمّاه». وأقبل إليه، فاحتفر له حفيرة عنده إلى جانب نهر العلقمي وأنزله هناك في قبره. وبعد أن أتمّ دفن الجميع مر على قبورهم كلّها وجلس عندها هنيهة ليودّعها:

يـا نـازلين بكـربلا هـل عـندكم　　　خـبر بـقتلانا ومـا أعـلامُها
مـا حـالُ جـثةِ ميتٍ فـي أرضِكم　　　بـقيت ثـلاثاً لا يـزار مـقامُها
بـاللهِ هـل واريـتموها فـي الثرى　　　وهل استقرّت في اللحودِ رمامُها[1]

---

(١) وفيات الأئمة: ١٦٧.

﴿٢٣٢﴾

السخرية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: حول أهمية الأخلاق في الإسلام

يُسلك الفقهاء هذه الآية الكريمة ضمن مقرّرات الفقه الأخلاقي، وغير خفي أن الشريعة الإسلامية تحرص حرصاً كبيراً على صياغة الإنسان صياغةً خلقيةً سامية؛ لأنه لبنة بناء المجتمع السامي الذي تسعى الشرائع السماوية إلى تحقيقه. والعبادات بحدّ ذاتها ما هي إلّا تشريعات قد افترضها المشرّع الإسلامي وسائط

(١) الحجرات: ١١.

وليست غايات، وهذا ما يسمّى بتعبير علماء المنطق أنها ملحوظة بلحاظ آلي وليست بلحاظ استقلالي. ومثال هذا لو أنّ أحداً أخذ مرآة ونظر فيها فإنه لا ينظر إلى المرآة لأنه يريد النظر إليها، وإنما نظر إليها لأنه يريد أن ينظر إلى صورته المنعكسة عليها. فالمرآة هنا حينما يستعملها الإنسان فهو يستعملها وسيلة لإظهار صورته، وليست غاية للنظر.

الصلاة والوحدة الإسلاميّة

والعبادات من هذا النمط، فهي ليست غاية، وإنما هي وسيلة لتهذيب الإنسان تهذيباً إسلامياً سامياً، ولتربيته على الخلق النبيل وعلى القيم الفاضلة؛ حتى يتسنّى للإسلام أن يصنع منه مجتمعاً فاضلاً متماسكاً متراصّاً. والمصلّي حينما يقف في الصلاة ويقرأ سورة من سور القرآن الكريم أو أكثر فإنه لا يهدف من قراءته هذه قراءة هذه السورة بحدّ ذاتها، وليس ذلك غرضه، وكذلك ليس هو الإتيان بشرائط هذه الصلاة أو أجزائها، وإنما هو امتثال العبد لأمر الله تبارك وتعالى بإتيان الصلاة وسيلةً لذلك، ولرفع مستواه الخلقي، كما أنها واسطة لتهذيبه وبنائه بناء صحيحاً وفق الضوابط الإسلاميّة؛ كي تصنع منه مواطناً صالحاً، وهذا هو الذي ينبغي أن يكون. وهو الهدف الذي تقف خلفه العبادات كافّة، ومنها الصلاة.

الصوم والشعور بالمسؤوليّة

كما أن الهدف من الصوم في المقابل ليس هو الإمساك عن الطعام والشراب لهذه الفترة المعلومة المحصورة بين الفجر ووقت المغرب، ثم يعمد الإنسان بعد ذلك إلى ملء معدته بشتّى أنواع الطعام والشراب؛ لأننا بهذا الشكل نكون قد ألغينا الهدف الحقيقي من الصيام، بل إننا لم نعمل شيئاً حينها.

فليس الهدف من الصيام هو الجوع والعطش بما أنهما جوع وعطش، بل إن هناك هدفاً أسمى وراءهما، وهو الإحساس بجوع الآخرين وحاجتهم. وهذا واحد من تلك الأهداف السامية التي يرمي الصيام إليها، وإلّا فإن أغلب الناس هم مصاديق لقول الرسول الأكرمﷺ: «**كم من صائم ليس له من صيامه إلّا الجوع والعطش**»[1].

فالمفروض بالصوم أن يكون واسطة لتقوية الإرادة ووسيلة لتسليطها على الغرائز؛ لتتحكّم بها؛ حتى لا تفتك هذه الغرائز بالإنسان وبتصرّفاته وبخلقياته؛ وبالنتيجة فإن الكيان الخلقي للإنسان سوف يسقط فريسة بين أنيابها، وهو ما يؤدّي في آخر المطاف إلى تحلّل الإنسان أخلاقياً، وانسياقه وراء الهوى والنفس. وإننا لا نغفل عن أن النبيﷺ قد قال: «**إنما بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**»[2].

فالأخلاق في الواقع هي روح الحياة، وعنوان الإنسان.. الإنسان الذي تسعى السماء إلى هيكلته بتلك الهيكلية التي تحفظ له وجوده وكيانه، والتي تبثّ فيه روح الحياة، والتي تبعث في وجوده الحيوية والعفاف والفضيلة. والإنسان ما لم يكن عنده أخلاق فإننا لا يمكن أن نعطيه صفة الإنسانية، ولا أن نصفه بها، ولا أن نَسِمه بأنه كائن راقٍ؛ لأن الإنسان لا يؤاخذ إلّا من أخلاقه، ولا يعرف إنساناً إلّا من خلال تصرّفاته وسلوكيّاته داخل المجتمع؛ فإن كان متصفاً بهذه الجنبة الخلقية استطعنا أن نعتبره أُنموذجاً مشرّفاً، وأن نتعامل معه على أنه عنصر جيد وصالح للعيش داخل المجتمع. وهكذا يمكن أن يتمّ التعامل معه براحة بال

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٢٩٤ / ٢٤، سنن الدارمي ٢: ٣٠١.
(٢) مكارم الأخلاق: ٨، السنن الكبرى (البيهقي) ١٠: ٩٢.

وباطمئنان ضمير

أما إذا كان على العكس من ذلك فإنه حينئذٍ سوف يُصبح عنصراً غير صالح للحياة داخل المجتمع، والنتيجة أنه سوف يصبح من العسير التعامل معه؛ لأنه سوف يخرق كل قوانين التعامل الصحيحة وكلّ أخلاقياته مع الآخرين.

إذن فالأخلاق هي الطابع الذي يميّز صاحبه عن غيره، بل ويميّز أُمّةً كاملة عن غيرها من الأُمم؛ ولذلك فإن الشريعة المقدّسة تُعنى كثيراً بالأخلاق وبشأن ترسيخها في أذهان الناس، وتطبيقها والمحاسبة على عدم الاهتمام بها، وعدم الانصياع لمقرّراتها؛ ولهذا فإننا نجد أن النبي الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ من بعده قد عنوا عناية كاملة بهذا الجانب، وأرادوا له أن يكون هو المحور الأساس في حياة كلّ فرد داخل المجتمع، وفي مسيرته وتصرّفاته. ومن هذا المنطلق فإننا نقول: إن الشريعة الإسلاميّة المقدسة تعدّ جميع العبادات وسائط ووسائل لرفع مؤشّر المستوى الأخلاقي عند الأفراد، وبالتالي عند المجتمعات بما أنها تكتّلات تضمّ مجموعات كبيرة من الأفراد.

المبحث الثاني: في المراد من السخرية

تقول الآية الكريمة: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾**، إننا بعد أن أشرنا إلى أهمية الأخلاق في الإسلام، وإلى دورها الفعّال في بناء الشخصية على الصعيد الفردي والاجتماعي، سوف ننتقل إلى مضامين آية المقام الكريمة، وهي مضامين عالية وكثيرة، سوف نتناول منها ما يتيسر إن شاء الله تعالى كلاًّ في مبحث مستقل. وسوف نخصّص هذا المبحث للكلام عن معنى السخرية، السخرية لفظ ينصرف فيه المفسّرون إلى آراء مختلفة، كما أنهم اختلفوا في السبب في نزول هذه الآية؛ الأمر الذي أسّسوا عليه تفاسيرهم بعد ذلك.

سبب النزول

إن الحقيقة التي ينبغي الإشارة إليها هي أن سبب النزول الذي يذكره المفسرون حول هذه الآية الكريمة هو سبب أجنبي عنها، ولا يرتبط بمضمونها مطلقاً، فهم يروون في سبب نزولها أن أحد الصحابة من الطبقة الفقيرة كان ثقيل السمع، وكان يجلس إلىٰ جانب النبي ﷺ كيلا يفوته شيء من كلامه، وكان ثابت بن قيس بن شماس ـ أو قيس بن ثابت ـ من وجهاء الأنصار، أصمّ أيضاً، فدخل يوماً علىٰ النبي ﷺ وشقّ طريقه إليه؛ كي يجلس إلىٰ جانبه ويستمع إليه أيضاً، ظانّاً أن هذا الجالس الأوّل سوف يتنحّىٰ عن مكانه، ويتركه له باعتباره من عائلة فقيرة، وهو من الأغنياء والوجهاء المعروفين. لكن هذا لم يتحرّك له عن مكانه ولم يتزحزح؛ فقد كان معتزّاً به وبمجلسه من النبي الأكرم ﷺ، فقال: من هذا الرجل؟ قال: أنا فلان. فقال له: بل أنت ابن فلانة. ذكر له شأناً لأُمّه التي كان يعيّر بها في الجاهلية، فخجل الرجل[1].

إن الله كتم ثلاثة في ثلاثة

وسبب النزول هذا لا يمكن أن نربط به مفهوم الآية الكريمة، لأن السخرية هي غير هذا، وهذا الكلام هو شتم وليس سخريةً. وهناك رأي آخر يذكره بعض المفسرين هو أنّ السخرية ما كان يصنعه الأغنياء بالفقراء. وهذا المعنى قد كافحه الإسلام مكافحةً شديدة، ووقف بوجهه بقوة، وحاول محاولات جادة للقضاء عليه، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**إن الله كتم ثلاثة في ثلاثة: كتم رضاه في طاعته، وكتم سخطه في معصيته، وكتم وليه في خلقه؛ فلا يستخفن أحدكم شيئاً من الطاعات، فإنه لا يدري في أيها رضا الله، ولا يستقلّن أحدكم شيئاً من المعاصي**

(١) الكشاف ٣: ٥٦٦، تفسير النسفي ٤: ١٦٦، زاد المسير ٧: ١٨٢، وانظر: الكافي ٢: ٢٦٢ / ١١، بحار الأنوار ٢٢: ١٣١ / ١٠٨، ولم يسميا قيساً.

فإنه لا يدري في أيها سخط الله، ولا يزرين أحدكم بأحد من خلق الله فإنه لا يدري أيهم ولي الله »[١].

بيان ألفاظ الحديث

وهكذا نجد أن هذا الحديث الشريف قد ذكر ثلاثة أُمور نهى عن ممارستها هي:

الأول: كتم الرضا في الطاعة وإن صغرت

يروى أن رجلاً كان معروفاً بالانحلال والبعد عن الدين، فلمّا توفي أوحى الله تبارك وتعالى إلى نبي عصره أن احضر جنازته، فقال النبي عليه السلام بما معناه: يا رب، إن هذا معروف بالانحلال، وبالسمعة غير المحمودة عند الناس، فكيف لي أن أحضر جنازته؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه بما معناه قائلاً: إن هذا قد مرّ على كلب وهو عطشان، وكان واقفاً على فم بئر عميقة، وكان من شدة عطشه ينظر إلى الماء دون أن يستطيع أن يشرب منه، وكان هذا الرجل لا يملك إناء ليستخرج به الماء، فأخذ ملابسه وشدها إلى بعضها، وانزلها إلى الماء حتى ابتلّت به، فأخرجها وعصرها في فم ذلك الكلب، وكرر هذا العمل عدة مرات، حتى ارتوى الكلب وذهب. فهذا العبد قد رحم خلق من مخلوقاتي وأنا أُكرمه من أجل هذه الرحمة[٢].

---

(١) كنز الفوائد: ١٣، وسائل الشيعة ١٥: ٣١٣ / ٢٠٦١٤، العهود المحمدية: ٣٧٤.

(٢) لم نعثر عليه بنصّه، وهناك رواية قريبة منها عن امرأة قال فيها رسول الله ﷺ: « غفر الله لامرأة مومسة مرّت بكلب على رأس ركي، يلهث كاد يقتله العطش، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك ». مسند أحمد: ٥١٠، صحيح البخاري ٤: ١٠٠، الجامع الصغير ٢: ٢٠١ / ٥٧٧٨، كنز العمّال ٦: ٤٢١ / ١٦٣٥٤، ١٥: ٧٧٧ / ٤٣٠٦٨، ٧٨٧ / ٤٣١١٦.

وفي كنز العمّال ٦: ٤٢٠ / ١٦٣٥٣: بينما كلب يطوف بركية كاد أن يقتله العطش إذ رأته بغي

ومثل هذا الأمر (الأثر الذي ترتّب عليه) ربما ـ بل إنه يقيني ـ لم يكن يدور في خلد هذا الرجل، ولم يخطر له في بال أن فيه رضا الله تبارك وتعالى؛ ولذا فإن الحديث الشريف يؤكّد على هذا الشأن فيقول: « **فلا يستخفنّ أحدكم شيئاً من الطاعات، فإنه لا يدري في أيها رضا الله** ».

إذن يجب ألّا نحتقر عملاً حتى لو كان بسيطاً فهناك احتمال كبير أن يكون رضا الله تبارك وتعالى في ذلك العمل.

الثاني: عدم استصغار المعصية

ثم قال الحديث الشريف الآنف: « **ولا يستقلّن أحدكم شيئاً من المعاصي فإنه لا يدري في أيها سخط الله** ». فالإنسان ربما يكون قد استهان بمعصية معيّنة لكنه لا يدرك أن هذه الاستهانة هي سبب هلاكه، وأن هذه المعصية هي محور غضب الله تبارك وتعالى وسخطه وانتقامه. ولذا فإن على الإنسان أن تكون تصرفاته مدروسة، كما أنه يجب أن يراعي المجتمع الذي يعيش فيه مراعاة شديدة؛ لأن الإنسان ـ كما هو معلوم ـ يتميّز عن الحيوان بميزة السلوك المهذّب، ولذا فإنه إذا كان المبنى أن الإنسان لا يسلك ذلك السلوك المهذب في حياته، فإن عليه أن يدرك أنه سوف يجعل من نفسه عرضة لعذاب الله تبارك وتعالى، ولسخطه، ومحاسبته.

الثالث: عدم ازدراء إنسان وإن بدا رثّ الهيئة

ثم انتقل الحديث الشريف فقال: « **ولا يزرين أحدكم بأحد من خلق الله فإنه لا يدري أيهم ولي الله** »، ونحن نعرف أن أولياء الله تبارك وتعالى موجودون بين الناس، ويعيشون معهم، لكننا نعجز عن أن نشخصهم بأشخاصهم وأعيانهم؛ ولهذا

من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فاستقت له به فسقته، فغفر لها.

فإننا يجب ألّا نحتقر أحداً من عباد الله ما دمنا لا نعرف حقيقته، وخبايا نفسه. وهذا يعني أنّ كرامة الناس يجب أن تحفظ لهم وأن تراعى.

وهذا أُنموذج مثالي عندما نبحث عنه عند أرقى الشعوب أو عند من تظنّ نفسها أنها أرقى الأُمم حضارةً وتطوّراً وعلماً فإننا لا نجده. وبهذا فإن لنا أن نتصوّر حرص الشريعة على تدريب الإنسان على السلوك الأخلاقي المهذّب؛ لأننا بأمس الحاجة إلى مثل هذا السلوك. وهذا هو هدف الآية الكريمة حيث تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾. بقي أن ننوّه هنا إلى أن لفظة ﴿قَوْمٍ﴾ يراد بها الرجال فقط، فهي تقتصر عليهم دون النساء، يقول أحد الشعراء:

وما أدري ولست أخال أدري ... أقوم آل معن أم نساءُ

المبحث الثالث: الرجل والمرأة سواء في المجتمع الإسلامي

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾، يروي المفسّرون حول سبب نزول هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة أنه في صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت زوجة رسول الله ﷺ، ذلك أن عائشة وحفصة كانتا تؤذيانها وتشتمانها، وتقولان لها: يا بنت اليهودية. فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال لها: «ألا تجيبينهما؟». فقالت: بماذا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**قولي: أبي هارون نبي الله، وعمي موسى كليم الله، وزوجي محمد رسول الله، فما تنكران مني؟**». فقالت لهما ذلك، فقالتا: هذا علمكيه رسول الله ﷺ[1].

(١) تفسير القمي ٢: ٣٢١ ـ ٣٢٢، تفسير البغوي ٤: ٢١٤ ـ ٢١٥، وفيه قوله: عن ابن عباس أنها نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب قالت لها النساء: يهودية بنت يهوديين.

وهناك رواية أُخرى تقول: إن سبب النزول هو: أن نساء رسول الله ﷺ عيّرن أُم سلمة بأنها قصيرة القامة[١].

إذن فالقرآن الكريم قد نزل لينهى بعض نساء النبي ﷺ عن الإساءة إلى نسائه الأُخريات، وهو خطاب عام يشمل كلّ النساء، فليس من حق امرأة أن تسخر من امرأة أُخرى؛ لأنها ربما تكون أفضل منها؛ ذلك أن السخرية في واقع الأمر تنطوي على لون من ألوان الإهانة والتحقير والتقليل من شأن من يُسخر منه.

وهكذا فإن الله تبارك وتعالى قد كرّم العبد ـ رجلاً كان أو امرأة ـ وأراد أن يربّيه تربية صحيحة.. يربّيه على ألّا يسخر من أحد، ولا يسخر منه أحد، يقول عزّ من قائل: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[٢].

فكل عبد من عباد الله عزّ وجلّ له منزلته وله كرامته، أي أن كرامته يجب أن تكون محفوظة وأن تبقى كذلك حيّاً وميّتاً. وهذا ماتريد أن تنبّه له هذه الآية الكريمة، فهي تنهى عن أن يتقوّل الإنسان على أخيه بما يقلّل من شأنه، وتذمّ هذااللون من التصرّف، وتضعه في مصافّ ألوان التصرّف التي يأباها الدين وترفضها الشريعة المقدسة في كل حال وتحت أي ظرف، بل وتضع فاعلها تحت طائلة المحاسبة.

وكما قلنا فإن الله تبارك وتعالى قد خصّ المرأة في هذا الخطاب بخطاب

---

(١) مجمع البيان ٩: ٢٢٤، تفسير السمرقندي ٣: ٣١١، تفسير الثعلبي ٩: ٨١، أسباب نزول الآيات: ٢٦٣، تفسير البغوي ٤: ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) الإسراء: ٧٠.

مستقلّ لها ولم يشركها مع الرجل حيث قال: ﴿**وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ**﴾، فلا يجوز لامرأة أن تسخر من امرأة؛ لأن المرأة التي تسخر من امرأة أُخرى سواء من قصر قامتها، أو خلقتها، أو لفقرها، أو ما إلى ذلك من عوارض سيما الدنيويّة منها؛ فإن هذه المرأة ربما تكون قد سخرت من امرأة عملاقة في أخلاقها، وفي مكارمها، وفي كيانها.

فقصر القامة لا يعني أن صاحبته يجب أن تكون موضع سخرية، ولا طول القامة واشتداد الجسم وكونه فارهاً أو فيه بسطة أن صاحبته ينبغي أن تصبح موضعاً لاحترام الآخرين أو لإجلالهم وتبجيلهم؛ فربّ قصيرة عملاقة في مكارم الأخلاق، وربّ طويلة هي في واقع الأمر تتقزّم أمام الأُخريات بسبب سوء تصرّفاتها، أو ابتعادها عن مكارم الأخلاق، وعن قواعد الدين والشريعة. وعليه فالمناط في هذا ليس طول القامة أو قصرها، بل المناط في هذا هو مكارم الأخلاق، والعقلية الضخمة التي تستطيع معها أن تتفاعل مع المجتمع، وأن تتلاقح مع الثقافات الأُخرى والأفكار والأخلاقيّات، فهذه هي الأُمور التي يستحق صاحبها أو صاحبتها عليها جميل الثناء، وأن يمتدح لأجلها، وأن يبجل، وأن يكرّم، يقول أحد الأُدباء:

رب مهزولٍ سمينٍ عرضُهُ ... وسمين الجسم مهزول الحسبْ[1]

فكم من شخص يراه الناس لا يملأ عيونهم ولا يظنّون فيه خيراً، أو أنه صاحب كيان ضخم لكنه في واقع الأمر متين في أخلاقه ومكارمه ومزاياه؛ وهذا يؤدي بنا

---

(١) البيت لمسكين الدارمي. الأمالي (المرتضى) ٣: ٨٥ ـ ٨٦، تاريخ مدينة دمشق ١٨: ٥٦، خزانة الأدب ٣: ٧٠.

إلى القول بأن المسألة ليست مسألة طول أو قصر، أو غنى أو فقر، أو بسطة في الجسم أو عدمها، بل هي مسألة مبتنية على ما يستحقّ أن يفتخر به، وهي التقوى والورع، ومكارم الأخلاق، وتطبيق الشريعة، وطاعة الله تبارك وتعالى بشكل مطلق وفي كل شيء. وبعبارة أكثر اختصاراً هي الأُمور الذاتية والأخلاقية التي تؤهّل صاحبها لأن يكون موضع مدح الناس وإجلالهم.

المبحث الرابع: الشتم؛ دوره، سلبيّاته، علاجه

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾، ويقول المفسرون بأن المقصود باللمز هنا هو الشتم، وفي هذا نوع من الموضوعية؛ لأن المجتمع الشتّام لا يمكن لأحد أن يعتبره مجتمعاً أخلاقياً، فالشتم في الواقع تترتّب عليه آثار وضعية سيئة جداً؛ لأن الشتم بطبيعة الحال يهدف من ورائه صاحبه إلى التشفّي ممّن يشتمه وإلى الانتقام منه. وهذا الخلق لا يعتبره القرآن الكريم خلقاً إسلامياً ولا نبيلاً؛ لأن التشفّي في حقيقته وهم عند صاحبه، وتطبيقه عبر عملية شتم الآخرين أمر له ضرره السلبي على الشاتم دون أن يكون له أثر واقعي على من شُتم؛ لأن من يُشتم لا يمكن أن يؤثر به الشتم أبداً؛ فهو لا ينقص منه شيئاً، ولا يقلّل من كرامته أو منزلته[1].

وبهذا فإنه لا يبقى أمامنا إلّا أن نقول: إن الشتم هو عبارة عن مرض نفسي

---

(١) وقد مرّ بنا في المحاضرة الأُولى من هذا المجلّد قول رسولنا الأكرم ﷺ لأصحابه حول عكرمة بن أبي جهل، بعد أن أخذت له زوجته الأمان منه ﷺ: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً، فلا تسبّوا أباه؛ فإن سبّ الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت». بحار الأنوار ٢١: ١٤٣ ـ ١٤٤، شرح نهج البلاغة ١٨: ٩ ـ ١٠، الاستيعاب ٣: ١٠٨٢، المستدرك على الصحيحين ٣: ٢٤١.

يلازم صاحبه، ويسيطر عليه دون أن يستطيع أن ينفكّ عنه. ولو أنه نظر إلى الأُمور بموضوعية وعقلانيّة وتروٍّ، فإنه سوف يجد أن شتمه هذا ربما يرفع من شُتم وينفعه دون أن يضره.

فمن يرد أن يتشفّى من الآخرين ثم يلجأ إلى الشتم فإن عليه أن يلتفت إلى أنه سوف لن يؤثّر في الآخرين شيئاً أبداً، وبالتالي فإنه لا يمكن أن يتشفّى منهم، أو أن يُشفي ما في نفسه أو غيظ صدره؛ لأنه حينما ينظر إلى الواقع فإنه سوف يجد هؤلاء الذين شتمهم يعيشون كما يعيش هو، وربما بحال أفضل، ويجد ذكرهم أفضل من ذكره، وعليه ربما عاد عليه هذا بالألم أكثر.

أمير المؤمنين﵇ والنتائج التي ترتّبت على سبّه

وبهذا التصوّر الذي يستولى على هذا الشاتم، وبهذه النتيجة الطبيعية التي خرجنا بها من كون الشتم لا يؤثّر فيمن يوجه إليه الشتم فإننا نخلص إلى نتيجة أُخرى هي أن الشاتم إنما يضيف إلى مرضه النفسي مرضاً ثانياً؛ لأنه بشتمه لهؤلاء يكون قد رفع من قدرهم، وخلق لهم مكانة كبيرة في أعين الناس، وزرع لهم مودّة في قلوبهم؛ لأن الناس سوف يشعرون بأن هؤلاء الذين شُتموا مظلومون، وأنهم أهل لأن يقدروا، أو لأن يُكرموا. وأفضل مصداق على ما نقوله، وأقربها إلى الواقع ما تعرّض له أمير المؤمنين علي بن أبي طالب﵇، وذرّيّته، سّيما هو﵇؛ حيث إنه﵇ شتم على مرّ العصور، فقد سبّه الأُمويون على المنابر لعقود طويلة، ثم إنه﵇ لا زال إلى الآن يتعرض إلى شتم البعض.

غير أننا نقول: إن هذا الشتم لم يزد أمير المؤمنين﵇ إلّا حباً في قلوب الناس ومكانة عندهم، فكلّما أكثروا من شتمه ارتفع وتعملق في وجوده وفي كيانه وفي محبة الناس له، وفي المقابل يتقزّم أمامه الآخرون الذين شتموه، فينحسر شتمهم

عن طود عظيم وعلم شامخ لا يتزعزع. يروى أن عمر بن عبد العزيز قال: كنت غلاماً أقرأ القرآن على بعض ولد عتبة بن مسعود، فمر بي يوماً وأنا ألعب مع الصبيان، ونحن نلعن علياً، فكره ذلك ودخل المسجد، فتركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وردي، فلما رآني قام فصلى وأطال في الصلاة شبه المعرض عني، حتى أحسست منه بذلك، فلما انفتل من صلاته كلح في وجهي، فقلت له: ما بال الشيخ؟ فقال لي: يا بني، أنت اللّاعن علياً؟ قلت: نعم؟ قال: فمتى علمت أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضي عنهم؟ فقلت: يا أبت، وهل كان علي من أهل بدر؟ فقال: ويحك، وهل كانت بدر كلّها إلّا له؟ فقلت: لا أعود. فقال: الله أنك لا تعود؟ قلت: نعم.

فلم ألعنه بعدها، ثم كنت أحضر تحت منبر المدينة، وأبي يخطب يوم الجمعة ـوهو حينئذٍ أمير المدينة ـ فكنت أسمع أبي يمر في خطبته تهدر شقاشقه، حتى يأتي إلى لعن علي عليه السلام فيجمجم، ويعرض له من الفهاهة والحصر ما الله عالم به. فكنت أعجب من ذلك، فقلت له يوماً: يا أبتِ، أنت أفصح الناس وأخطبهم، فما بالي أراك أفصح خطيب يوم حفلك، حتى إذا مررت بلعن هذا الرجل، صرت ألكن علياً! فقال: يا بني، إن من ترى تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم، لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد.

يا بني، عليك بالدين؛ فإن الدنيا ما بنت شيئاً إلّا هدمه الدين، وإذا بنى الدين شيئاً لم تستطع الدنيا هدمه، ألا ترى علي بن أبي طالب، وما يقول فيه خطباء بني أُمية من ذمّه وعيبه وغيبته؟ والله لكأنما يأخذون بضبعه إلى السماء، ألا تراهم كيف يندبون موتاهم، ويرثيهم شعراؤهم، والله لكأنما يكشفون عن جيفة[1].

---

(١) عثرنا على هذا النصّ لعبد الله بن عروة بن الزبير وقد قاله لابنه مع اختلاف في بعض

يقول عمر: فوقرت كلمته في صدري، مع ما كان قاله لي معلمي أيام صغري، فأعطيت الله عهداً، لئن كان لي في هذا الأمر نصيب لأُغيرنه[1].

وفعلاً فإنه حينما جاء إلى كرسي الخلافة رفع شتم أمير المؤمنين عليه السلام ووضع مكانه قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**[2].

وبعد أن أصدر عمر أصدر أمره برفع شتم أمير المؤمنين عليه السلام وتركه، امتنع عن تنفيذ هذا الأمر جماعة من الأُمويين، ومنهم حرّان الذي لم يستطع أن يترك شتم أمير المؤمنين عليه السلام . ثم إن هذه الفئة لبست الأكفان وقالت: إن هذه ـ شتم أمير المؤمنين عليه السلام ـ سنة نموت ونحيا عليها.

إذن فخلاصة الأمر أن الشتم الذي وُجه إلى أمير المؤمنين عليه السلام قد انحسر عنه، في حين أن أصحابه قد تقزّموا، وفي إزائه نجد أنه عليه السلام قد تعملق في دنيا الفكر، وكون العلم والتقوى، ومحبة الناس ومودتهم وتولّيهم.. تعملق في سماء الحقّ والرحمة والإنسانية[3].

ألفاظه سيما في ذيل الرواية. انظر شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، المحاسن والمساوئ (البيهقي): ٧٧، البيان والتبيين ٢: ١٧٣، ونسبه في بحار الأنوار ٤٢: ١٩ للوليد بن عبد الملك. أمّا ذيلها بنصّه فهو منسوب للشعبي كما في الإرشاد ١: ٣٠٩ ـ ٣١٠، كشف الغمّة ٢: ٣٧، تنبيه الغافلين: ١٠٤، أو للوليد بن عبد الملك كما في بحار الأنوار ٤٢: ١٩.

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٥٨ ـ ٥٩، وانظر ج١٣: ٢٢١، العثمانية (الجاحظ): ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٢) النحل: ٩٠.

(٣) فامتدحه حتى من غير المسلمين كما فعل جورج جرداق وبولس سلامة وغيرهما من المسيحين الذين نظروا فيه إلى الجنبة الإنسانية وإلى جنبة العدل والمساواة بين الناس.. الجنبة التي لم يكن أحد ليحلم بها في تلك العصور، حتى في الدول التي تدّعي أنها أساس العدل، كالدول الغربية ومن سار على شاكلتها.

من سلبيات الشتم بثّ الفرقة بين الناس

ثم إن من الواضح أن أهم مساوئ الشتم هو زرع التشرذم بين أفراد المجتمع الواحد والأُمّة الواحدة والدين الواحد، وخلق التفرقة والتمزّق بينهم؛ فالشتم لا يؤدي بطبيعة الحال إلّا إلى التمزق الذي ذكرناه؛ لأنه حتماً سيوجد ردّ فعل عند بعض ممن يحب ذلك الذي شُتم. وهذه الغلطة قد ارتكبها الأُمويون حينما عمدوا إلى شتم أمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك العباسيون من بعدهم؛ لأن هؤلاء حينما شتموا أمير المؤمنين عليه السلام حصلت حالات من المروق والخروج على السلطة، وقامت بعض الثورات هنا وهناك في شتى رقاع البقعة الإسلامية وفي شتى ولاياتها وممالكها.

وليس هذا بغريب؛ ذلك أن التشيع كان موجوداً حينما عُمد إلى سبّ أمير المؤمنين عليه السلام، ووجود التشيع يعني أن هناك جماعة من الشيعة ممن يتولّون أمير المؤمنين عليه السلام ويحبونه ويفدونه بأرواحهم ومهجهم، ووجودهم يعني استماتتهم دونه عليه السلام. والتشيع كما هو معروف كان موجوداً من أيام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؛ فقد نص بعض المؤرخين على بعض الأشخاص على أنهم شيعة لعلي ابن أبي طالب، ويعدون منهم سلمان المحمدي [1] وأبا ذر وعمار بن ياسر والمقداد ابن الأسود [2] (رضوان الله تعالى عليهم)، وجماعة آخرين غيرهم، وهم معروفون [3]. وهؤلاء كلّهم صحابة كانوا على زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومع ذلك فإننا

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٩. (٢) شرح نهج البلاغة ١٩: ١٨٤.

(٣) كمالك بن النخع النخعي الكوفي المعروف بالأشتر، انظر تهذيب الكمال ٢٧: ١٢٦ / ٥٧٣١، وسعيد بن وهب الهمداني، انظر سير أعلام النبلاء ٤: ١٨٠ / ٧٠؛ فقد صرّحا كلاهما عنهما كليهما أنهما أدركا الجاهليّة، وصحبا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

نجد أن المؤرخين ينصّون عليهم على أنهم كانوا أيضاً شيعة لعلي عليه السلام.

وهكذا فإننا حينما نبحث عن هذه البذرة (بذرة التشيع) فإننا نعرف أنها كانت موجودة من أيام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ولو أننا نظرنا إلى التاريخ منذ أن وجدت هذه البذرة الشريفة وحتى زمن معاوية بن أبي سفيان، فإننا لم نجد أحداً من المسلمين عامة، أو الصحابة بشكل خاصّ ممن يجرؤ على أن يسبّ أهل بيت النبوّة عليهم السلام متمثّلين بأمير المؤمنين عليه السلام والسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام والحسنين عليهما السلام، فهؤلاء كانوا محطّ تكريم المسلمين، ومحطّ تقديرهم، ومحطّ تبجيلهم ومودّتهم.

وكما ذكرنا فقد استمر هذا الحال دون أن يتجرأ أحد على أن يتطاول عليهم إلى أن جاء عهد معاوية بن أبي سفيان الذي ما إن جاء إلى الحكم حتى جعل من شتم أمير المؤمنين عليه السلام وشتم شيعته من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله سنة تحتذى، بل أمراً مفروضاً يجب على كل المسلمين أن يعملوا به. ولهذا فقد بُدئ بسبه عليه السلام على منابر الصلاة وهي مما يجب أن يكون من أشرف الأماكن؛ لأنها منابر الدعوة إلى الله وإلى طاعته، وإذا بها تتحوّل إلى منابر لمعصية الله تبارك وتعالى إذ يسب عليها أمير المؤمنين عليه السلام.

إن شتم الصحابة لم يكن معروفاً في عصر صدر الإسلام، بل إنه أمر غير مألوف في تلك الحقبة الشريفة.. الحقبة التي عاشها أمير المؤمنين عليه السلام منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وانتقاله إلى الرفيق الأعلى وحتى تولّى معاوية الحكم. فكنا لا نجد شيعيّاً يسبّ صحابياً، ولا مسلماً آخر من غير شيعة أمير المؤمنين عليه السلام يسبّ صحابياً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله ممّن ينصّ عليهم المؤرّخون بأنهم شيعة علي عليه السلام، أو ممّن يسبّ الإمام علياً عليه السلام نفسه. وفوق هذا فإنه ليس هناك أحد من علمائنا إلّا كان يصرّح بأن الشتم ليس من شيمنا، ولا من منهجنا، ولا من سيرتنا، ولا من

أخلاقنا؛ لأنه ليس منهجاً لأيمّتناعليهم السلام، وليس منهجاً لسيرتهم وليس خلقاً لهم. وهكذا فإننا نجد بعض شعراء الأيمّةعليهم السلام يذهب إلى هذا المذهب، كما روي عن الكميت رحمه الله في أبيات له حيث يقول:

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا	أرضى بسبّ أبي بكر ولا عمرا
ولا أقول وإن لم يعطيا فدكاً	بنت النبيّ لقد جارا وقد كفرا
الله أعلم ماذا يأتيان به	يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا[1]

الشيعة ودعوى السبّ ونظرتهم إليه

وهذا هو لسان حال الشيعة. إذن فنحن إذا أردنا أن نؤرّخ لهذه المسألة نجد أنها قد نشأت وانطلقت منذ أن بدأ الأُمويّون بشتم أمير المؤمنينعليه السلام.

وهنا فإننا نقول: إن ما بدر من الشيعة في المقام لا يعدو كونه عملية رد فعل على ما ابتدأ به هؤلاء الأُمويون من سبّ، وما فتحوا له من أبواب، ودقّوا له من أسافين للخلافات والمناوشات بالألسن. وقد استمر هذا الأمر لفترة، وإلّا فإن أخلاقنا ونصوصنا يأبيان كلّ ذلك، وهذا هو خلق أيمّتناعليهم السلام الذين هم أمثلة تحتذى في مكارم الأخلاق ورفيع القيم، وفي احترام الآخرين، فهمعليهم السلام ما عُرف عنهم أنهم كانوا شتّامين.

وبناء على هذا فإن كل رواية تنسب لأهل البيتعليهم السلام شيئاً من هذا القبيل فإننا نضع عليها أكثر من علامة استفهام. دخل جماعة على الإمام السجادعليه السلام فبدؤوا يجترئون ويسبّون بعض الصحابة، فالتفت إليهم الإمامعليه السلام وقال: «**هل أنتم من السابقين إلى الإسلام؟**». قالوا: لا. فقالعليه السلام: «**فهل أنتم من حملة القرآن؟**». قالوا:

---

(١) شرح نهج البلاغة ٦: ٢٣٢، الروضة المختارة: ٨١ ـ ٨٢.

لا. فأمرهم عليه بالكفّ عن ذلك والخروج عن مجلسه؛ لأنهم إنما يشتمون، والشتم لا يؤدّي إلى نتيجة محمودة أبداً.

والآن وقد أصبح واضحاً أن الإنسان لا يصل إلى هدفه بالشتم، ولا يستعيد حقّه المغتصب بالسبّ، فينبغي أن نقول: إن المؤمن الحقيقي ـ صحيح أنه يقدّس أهل البيت عليهم السلام ويحترمهم، ويفضّلهم، ويرى أن لهم ميزة، ويقيّمهم بما قيّمهم به الله ورسوله ﷺ لكنه لا يجوز له بحال من الأحوال أن يسبّ غيرهم، وأن يشتمهم وأن يتجرّأ عليهم؛ لأن القرآن الكريم ينهى عن شتم أي أحد إلّا إذا تجاهر بالفسق، فمثل هذا نجد أن الفقهاء يتسامحون في شتمه. فكلّ ما على المسلم أن يقول: إن هذا خطأ، وهذا صواب دون أن يؤدّي به هذا إلى الاجتراء على غيره، وإلى سبّهم وإلى شتمهم.

الكتابة عند بعض من لا يريد أن يرى الحق

ونحن نعلم أن الذي خلق هذا الشقاق في جسد الأُمّة، والذي أوجد في قلبها هذا الشرخ المبتني على التباغض والتباعد، والذي أدّى إلى تفريق كلمتها وتشتيت جمعها هو هذا الشتم الحاصل بين المسلمين، والذي ابتدأه الأُمويّون، وبالتحديد معاوية بن أبي سفيان. وأنا أُؤكد أن بعض الكتّاب يمتاز بأن له عيناً واحدة يرى بها ما يريد أن يرى، أما العين الأُخرى فهو إما أن يغطّيَها عن رؤية ما لا يريد أن يراه عند الجانب الآخر من حقّ، أو أنه قد لطمها فجعلها عوراء لا ترى شيئاً.

والدليل على هذا أننا نراه يكتب بجانب واحد ولجانب واحد، بل إن شتمنا عند هؤلاء أصبح على كلّ لسان من ألسنتهم، وفي كل كتاب من كتبهم، وهو شتم اعتدناه منهم ليل نهار، بل إن الأمر قد وصل ببعضهم إلى الائمة (سلام الله عليهم)،

فيعبر مثلاً عن الإمام الصادقعليه السلام بقوله: «كاذبهم» وآخر يقول: «جعفر معفر لعفر، كان يشتغل بالزجر والكيمياء». وآخر يقول: «لو أن علي بن أبي طالب بقي في المدينة يأكل من حشفها لكان خيراً له مما دخل فيه من سفك دماء المسلمين»[1].

وهناك أُناس كُثر من هذا النمط الذي يتجرّأ على أهل البيتعليهم السلام فيشتمهم[2].

وأكثر من هذا فإننا نجد أن هذه الحالة تمتدّ زمنياً لتصل إلى فترة من هم في واقع الأمر أبناء عمّ لهم، وهم العباسيون حيث يتجرّأ شاعرهم مروان بن أبي حفصة شاعر البلاط مصوّراً هذا الخلاف بقوله:

عليٌّ أبوكم كان أفضلَ منكمُ ... أباهُ[3] ذَوو الشورى وكانوا ذَوي فضلِ

وساءَ رسولَ اللهِ إذ ساء بنتَهُ ... بخطبته بنت اللعين أبي جهلِ[4]

فهل يوجد شتم أشد من هذا؟

---

(١) انظر: الأُصول الستة عشر: ١٠٧، شرح نهج البلاغة ٤: ٩٥.

(٢) وقد مرّ بنا في هذه الموسوعة من قبل قول النبهان وأمثاله حول الإمام الصادقعليه السلام.

(٣) أي رفضوه ولم يرضوا به.

(٤) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٥، الفوائد الرجالية ١: ٨٩.

وقد تصدّى له السيد الحميريرحمه الله، فقال:

وقل للذي خاض الضلالة والعمى ... ومن خبط العشواء في ظلمة الجهلِ

ومن باع بالأثمان جوهرة الهدى ... كما باع بالخسران جوهرة العقلِ

هجوت أناساً في الكتاب مديحهم ... وفي العقل بان الفضل منهم وفي النقلِ

ولفقت زوراً كادت السبع تنطوي ... له والجبال الشم تهوي إلى السفلِ

علوا حسباً من أن يصابوا بوصمة ... فيدفع عن أحسابهم أنا أو مثلي

ولكن أبت صبراً نفوس أبية ... وأنف حميّ لا يقر على الذلّ

فأصغ إلى قولي وهل أنا مسمع ... غداة أُنادي الهائمين مع الوعلِ

عليٌّ أبونا كان كالطُّهر جدّنا ... له ما له إلّا النبوّة من فضلِ

وذو الفضل محسود لذي الجهل والعمى ... لذا حسد الهادي النبي أبو جهلِ

☚ لئن كانت الشورى أبّته وقبلها ... صحيفتُهم أصلُ المفاسد والخَتلِ

إذن فالشتّامون موجودون عبر التاريخ، لكننا نقول: إن هؤلاء أفراد يتحمّلون مسؤولية كلامهم وتبعة شتمهم وافترائهم. ونحن عندما نرد شتّاماً لأهل البيت عليهم السلام فهذا لا يعني أن أهل البيت عليهم السلام يشتمون غيرهم، إننا لسنا شتّامين بالفطرة، وليس الشتم لنا شيمة أو عادة، لكننا نقيّم فنقول: إن هذا حقّ، وإن هذا باطل. وبخلاف هذا فإن الإنسان إنما يُلغي عقله ومقاييسه التي وضعها الله تبارك وتعالى له ليزن بها الناس. وقد علّمنا القرآن الكريم هذا المعنى حينما مدح قوماً لأنهم أحسنوا فقال: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، وذمّ آخرين لأنهم أساؤوا فقال: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]، وقال: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً

فقد أنكرت خير البرية ندوة ... وضلّت رجال الرحلتين عن السبلِ
أبوا حيدراً إذ لم يكونوا كمثله ... وما الناس إلا مائلون إلى المثلِ
أبوه ويأبى الله إلا الذي أبوا ... وهل بعد حكم الله حكم لذي عدلِ

إلى قوله:

وزوجه المختار بضعته وما ... لها غيره في الناس من كُفُوٍ عدلِ
فأكرم بزوجين الإلهُ ارتضاهما ... جليلين جلّا عن شبيه وعن مثلِ
لذلك ما هم الوصي بخطبة ... حياة البتول الطهر فاقدة المثلِ
بذا أخبر المختار والصدق قوله ... أبا حسن ذاك المصدق في النقلِ
فأضحى بريئاً والرسول مبرّاً ... وقد أبطلا دعواكُمُ الرثة الحبل
بذلك فاعلم جهل قوم تحدثوا ... بخطبته بنت اللعين أبي جهلِ
نعم رغبت مخزوم فيه وحاولت ... بذلك فضلاً لو أُجيبت إلى الفضلِ
فلما أبى الطهر الوصي ولم يجب ... رمته بما رامت ومالت إلى العذلِ

إلى آخرها، وهي تناهز الثلاثمئة بيت، يستوعب فيها عامّة فضائل أمير المؤمنين عليه السلام. انظر: الفوائد الرجالية ١: ٨٩ ـ ٩٠، أعيان الشيعة ١٠: ١٦١.

(١) التوبة: ٩٩. (٢) التوبة: ٩٨.

وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

إذن فهذه عملية تقييم موضوعية وعلمية لأنها إنما تنبع من القرآن الكريم ومن قوانين السماء ومن سنة الرسول ﷺ الذي ذمّ كثيراً ممّن عاصرهم وعاصروه في وقته.

المبحث الخامس: في التنابز بالألقاب

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾، واستعمال القرآن الكريم لكلمة اللقب هنا استعمال أعم من الاسم والكنية واللقب، ونحن نلاحظ أن هناك موارد ينصّ عليها بعض أهل الاختصاص، لكننا نلاحظ أن بعض الناس إذا ما وصف بلقب معيّن ثم سمع الآخرين ينادونه به أو يصفونه به فإنه حينئذٍ ينتابه الأذى والألم حتى وإن كانت تلك الصفة موجودة فيه فعلاً. ومن هذا الأعرج مثلاً، أو الأعور أو غيرهما ممّن فيه عاهة خَلْقية ظاهرة، فإنه يتألّم عندما يوصف بها أو ينادى. وفي مثل هذه الأحوال فإنه يحرم حينئذٍ وصفه بهذه الصفة أو مناداته بها؛ لأنها تنطوي على إساءة له وإحراج وإثارة مشاعر تسبّب له الأذى، وربما تدفعه إلى الانطواء على نفسه أو الابتعاد عن الناس.

وبهذا فإن القرآن الكريم يحاول أن يجعل من الإنسان مهذباً إزاء أخيه، فلا يخاطبه بما يؤلمه وبما يزعجه، ولا يصفه بما يؤذيه، ويشدّد على ضرورة مراعاة الأُسلوب المهذب في الخطاب والتخاطب مع الآخرين.

اللقب قسمان: لقب رفعة ولقب ضعة

واللقب تارة يشعر برفعة الملقّب به، وتارة يشعر بضعته؛ فقولنا: فلان عبقري،

---

(١) التوبة: ٩٧.

أو فلان عالم، أو فلان ذكي، هو قول ينصبّ على ذكر الألفاظ التي تشير إلى رفعة صاحبها أو الموصوف بها، وهي ألقاب تبعث السرور والارتياح في نفسه؛ لأنه يستشعر من خلالها المدح والرفعة. هذا في حين أن بعض الألقاب التي نحن في غنى عن ذكرها تثير حزن الإنسان وألمه، وتسبّب له الأذى؛ لأنها تشعره بأن الآخرين يستهزئون به، أو يسخرون منه، أو أنهم يريدون أن ينتقصوا من حقّه. وهذا في واقع الأمر أمر محرّم شرعاً؛ لأنه يشكّل اعتداء على حريّات الآخرين وتوهيناً لهم في المجتمع.

المبحث السادس: ألقاب الرفعة عند السجّاد عليه السلام

وبالرجوع إلى سيرة الإمام السجاد عليه السلام فإننا نجد أنه قد لُقب بعدة ألقاب، وهي ألقاب رفعة تشكّل عناوين كاشفة عما تختزنه ذاته الطاهرة المقدسة من عطاء، ومن نزاهة، ومن قدسية، ومن علمية وأخلاق وجوهر حسن، ومنها:

اللقب الأول: ابن الخيرتين

فمن ألقابه عليه السلام «ابن الخيرتين»، وهذا اللقب قد جاء من قول معروف لرسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن لله من عباده خيرتين: فخيرته من العرب قريش، ومن العجم فارس**»[(١)].

والإمام عليه السلام هو ابن هاتين الخيرتين؛ لأن أُمه عليها السلام من خيرة العجم، ونسبه الطاهر من جهة أبيه عليه السلام معروف وليس بحاجة إلى ذكر أو بيان. فالإمام هو ابن النسب الطاهر الذي يرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإلى أمير المؤمنين عليه السلام.. النسب الذي تنحني له الرقاب، ويسجد أمامه كل نسب مهما تطاول شرفاً وسؤدداً، كما أن

(١) كشف الغمّة ٢: ٣١٨، بحار الأنوار ٤٦: ٨.

أُمّهعليه السلام غنية عن التعريف، فهي بنت يزدجرد، أي أنها من بيت عزّ وشرف، وهو بيت معروف بالمجد والأصالة. وهذا المعنى هو الذي يأخذه أبو الأسود الدؤلي رضي الله عنه فيقول:

وأن غلاماً بين كسرى وهاشم ... لأكرم من نيطت عليه التمائمُ[1]

وفي تلقيبهعليه السلام بهذا اللقب إشارة إلى قانون الوراثة، فنحن نعرف أن الإنسان حينما يكون في بيت أصيل فإنه سوف يعبّر عنه بالقول: إن فلاناً ابن بيت شرف ونبل وكرم وأصالة، وله مكانة أو منزلة اجتماعيّة ضخمة؛ لأنه ينتمي إلى مثل هذاالبيت الذي تحدّد معالمه الأصالة ويرسمها المجد.

ألقابهعليه السلام لا تزيده شرفاً أو رفعة

وينبغي أن نلفت النظر هنا إلى أن مثل هذا اللقب في حقيقة الأمر لا يشكّل شيئاً ذا أهمية بالنسبة للإمام السجادعليه السلام؛ لأنه (سلام الله عليه) عنوان المجد والأصالة والشرف والطهارة، ولأنه بلغ الغاية والقمّة في الكمال، فلا يحتاج إلى أن يكون ابن أشرف القبائل من جهة الأب أو من جهة الأُم. فمثل هذا اللقب بالنسبة للإمامعليه السلام نفسه لا يعطي البعد الحقيقي للشرف، يقول طاووس اليماني: كنت أطوف بالكعبة في جوف الليل، وكانت ليلة شاتية، فأقبل رجل قد أكربته أحزانه وأقلقته أشجانه، فدخل إلى الكعبة، فقلت: أُريد أن أتبعه، فرأيته قد رمق السماء بطرفه، وسمعته يقول: «**إلهي غارت نجوم سماواتك، وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتحات للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني، وتريني وجه جدي محمدصلى الله عليه وآله وسلم في عرصات القيامة**».

---

(١) الكافي ١: ٤٦٧ / ١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٥.

ثم بكى وقال: «إلهي، وحقّك ما عصيتك إذ عصيتك وأنا بنكالك شاكٌّ، ولا لعقوبتك متعرّض، ولكن سوّلت لي نفسي وغرّني سترك المرخىٰ علي، فأنا الآن من عذابك مَن يستنقذني؟ وبحبل مَن أعتصم إذا قطعت حبلَك عني؟ فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفّين: جوزوا، وللمثقّلين: حطّوا. ليت شعري، أمع المثقلين أحطّ، أم مع المخفّين أجوز؟ ما لي كلّما طال عمري كثرت خطاياي، أما آن لي أن أستحي من ربي؟». يقول طاووس: ثم سقط فأقبلت إليه، فرأيت شفاهه تتمتم بهذين البيتين:

«أتُحرقُني بالنار ياغايةَ المُنَى فأينَ جزائي ثمَّ أينَ محبّتي

أتيتُ بأعمالٍ قباحٍ زريّةٍ وما بالورى خلقٌ جنى كجنايتي»

فجلستُ عنده أمسح التراب وحبات العرق عن وجهه، فانتبه لي فقال: «من؟ طاووس هذا؟». قلت: نعم، فداؤك طاووس، هذا أنت وتصنع هذا؟ قال: «ولماذا؟». قلت: سيدي، من ورائك شفاعة جدك ونسبك، ثم إنك محسن ورحمة اللّه قريبة منك. فالتفت إليّ، وقال: «دع عنك حديث أبي وأمي، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾[1]». ثم قال لي: «دعني أدنُ إلى الله». قلت: تدنو إلى اللّه وأنت زين العابدين؟ قال: «نعم، لا تحُل بيني وبين ربي». فأضجعته وقمت عنه[2].

وهذا يعني أن الإمامؑ لا يعتبر النسب مقياساً، صحيح أنه في نظر البعض من الناس يكون كذلك، لكن الإمامؑ يصرّح بأنه لا يمكن أن يكون بهذه المقاييس

---

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) الصحيفة السجادية: ١٧٦ ـ ١٧٧، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩١، المزار (المشهدي): ١٤١ ـ ١٤٢.

التي ينظر إليها عامة الناس، فهي لا يمكن أن يشكّل مجداً للإنسان ما لم يصحبها العمل. فالمجد الحقيقي للإنسان هو عمله. كان النبي ﷺ يقول: **«معاشر الناس، ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف به عنه شرّاً إلّا العمل. أيها الناس، لا يدّعِ مدّعٍ، ولا يتمنَّ متمنٍّ، والذي بعثني بالحق لا ينجي إلّا عمل مع رحمة، ولو عصيت لهويت. اللهم هل بلغت؟»**[١].

وهكذا فإن المسألة من وجهة نظر الإمام عليه السلام تختلف عنها من وجهة نظر الناس الذين ينظرون إلى الإمام علي أنه مجد العرب ومجد الفرس، وعلى أنه من نسب خير الناس أجمعين.

حول تشيّع بلاد فارس

وأذكر أنني قد بينت فيما مضى من السنوات من خلال محاضراتي التي ألقيتها أن هناك خطأً في بعض المقاييس التي يذهب إليها البعض من الكتّاب أو المؤرخين الذين يحاولون أن يثبتوا ما يسمونه حقيقةً وليس هو كذلك، وهو أنّ الفرس إنما أصبحوا شيعة لأنهم أصهار الإمام الحسين عليه السلام وأخوال أبنائه. فكون الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام زوج إحدى بناتهم، وكونهم أخوال أولاده وهو ابن أمير المؤمنين عليه السلام الذي ينسب إليه التشيّع والشيعة، فإنهم بهذا قد أصبحوا شيعة تبعاً لابنتهم التي صاهروا بها الإمام الحسين عليه السلام.

لكننا في واقع الأمر لو رجعنا إلى بنات يزدجرد اللاتي تزوّج منهن الإمام الحسين عليه السلام واحدة، وكانت أمّ الإمام السجاد عليه السلام، لوجدنا أنهن كن ثلاث نساء؛ ثانيتهن تزوجها عبد الله بن عمر وولدت له، والثالثة تزوّجها محمد بن أبي بكر وولدت له أيضاً. إذن فلماذا كل هذا التركيز على مثل هذا الأمر، مع أنه من

---

(١) الإرشاد ١: ١٨٢، شرح نهج البلاغة ١٠: ١٨٤.

الممكن أن يقال: إن هذا الكلام مردود؛ لأنه لو كان يصحّ على إطلاقه لأمكن أن يقال: لماذا لم يصبح الفرس من أهل السنة، وهم قد صاهروا أبا بكر وعمر كما صاهروا الإمام علياً عليه السلام؟ كما أنهم قد صاهروا أمير المؤمنين عليه السلام بواحدة، وصاهروا أبا بكر وعمر باثنتين.

ثم إن من المعلوم تاريخياً أن دخول التشيّع إلى إيران بهذا الشكل الواسع والنمط العريض إنما كان في القرن العاشر الهجري، والتاريخ يحدّثنا أن الخطيب في أصفهان كان يصعد المنبر ويقول: إن الله تبارك وتعالى يجلس على العرش يوم القيامة، فيؤتى بمعاوية يومئذٍ يزفّ كما تزف العروس، فيجذبه الله تعالى ويجلسه إلى جنبه. فهذان اللونان من الفكر والاعتقاد هما اللذان كانا سائدين في إيران في ذلك الوقت، وهذا يدلّ على أنهم كانوا من أهل السنة ولم يكونوا شيعة، حتى إنهم حينما أذّن بعضهم بـ«**أشهد أن علياً ولي الله**» حصلت بينهم معارك ضارية حول ذلك سالت فيها الدماء.

إذن فبلاد فارس إنما دخلت في مذهب التشيع في وقت قريب، وما هذا الذي يثار حول هذا الموضوع إلّا إشاعات مغرضة يهدف من ورائها أصحابها إلى تقليل قيمة التشيّع وأهميته عند الفرس عبر وصمه بأنه تشيّع ناتج عن مصاهرة، وليس عن اعتقاد أو عن يقين، وهذا هو ما يريدون أن يثبتوه للآخرين. ومثل هذه المغالطات كما نعرف أشبه ما تكون بأن تشحن الدنيا بتنانير من الحقد، فتجعل قلوب المسلمين أتوناً يتّقد ناراً يمكن أن ينفجر في كل لحظة، فيدمّر وحدة المسلمين، ويقضي على اجتماعهم واتّفاقهم وتكاتفهم. وهؤلاء يعمدون من أجل إثبات هذا الأمر إلى أن يوظّفوا بعض الأشياء التاريخية توظيفاً حاقداً، مع أن الأُمور ليست كذلك أبداً.

إننا لا نفرّق بين عربي أو فارسي أو تركي أو كردي أو أوروپّي أو أفـريقي، أو أي شخص من أيّة جنسيّة أُخرى ما دام يحمل هوية **«لا إله إلّا الله، محمد رسول الله»**. فهذه هي الهوية الناصعة التي تجمعنا معاً دون أن يكون هنالك فرق بين أحد وآخر من هذه الطوائف، أو من هذه الأُمم والقوميات ما داموا يقولونها باعتقاد وتطبيق.

ثم إننا لا نجعل من اعتزازنا بأهل البيت عليهم السلام هوية خاصّة نتفرّد بها فتميّزنا عن غيرنا من المسلمين، لكننا نفترض أن هذا التيار (حب أهل البيت عليهم السلام) هو تـيار يسري في قلوب شرفاء المسلمين جميعاً، بحيث إنه لا يوجد مسلم يؤمن بـالله وبرسوله وباليوم الآخر وهو يسعه أن يبتعد عن هؤلاء الأطهار عليهم السلام، وعن ولائهم وعن محبّتهم؛ لأنهم ممّن يجب أن يحبّوا وأن يوالوا وأن يطاعوا. ومن يدّعِ أنـه مسلم ولا يحبهم بل يبتعد عنهم وعن طريقهم فإنه يكون معانداً للقرآن الكـريم الذي يقول: **﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾**[1].

فمودّتهم ومحبّتهم ومتابعتهم هي أجر الرسالة التي بلّغها لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وطلب لنا أن نعطيه مقابلاً لها، وهو هذا الحب والود لأهل بيته عليهم السلام.

اللقب الثاني: زين العابدين

ومن ألقابه عليه السلام «زين العابدين»، وهو لقب لقّبه به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأكثر من يؤرّخ لمثل هذه الأُمور يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: **«إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين زين العابدين؟ فكأني أنظر إلى ولدي علي بن الحسين بن علي بن أبي**

---

(١) الشورى: ٢٣.

طالب يخطر بين الصفوف »[1].

وكان عليه السلام يعمل عمل رجل وجهه بين الجنة والنار؛ فكان عليه السلام كما كان جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، حيث يذكر ذلك الإمام الصادق عليه السلام في صفته، فيقول: «إنه ليعمل عمل رجل كان وجهه بين الجنة والنار، يرجو هذه ويخاف عقاب هذه»[2].

ووجه شبه الإمام السجّاد عليه السلام بجدّه أمير المؤمنين عليه السلام ما يروىٰ عنه في هذا الصدد أن ابنه الإمام الباقر عليه السلام دخل عليه، فرآه في حال رقّ له بها، لما بلغت به العبادة، فقد رأى دقّة ساقه، واصفرار وجهه من السهر والصيام، ورأى أن عينيه قد رمصتا من البكاء، ودثرت جبهته، وانخرم أنفه من السجود، فلم يملك عليه السلام أن بكى رحمة له، قال عليه السلام: «فعلم أني بكيت لما رأيت منه. فقال: يا بني، أعطني بعض الصحف التي فيها ذكر عبادة علي عليه السلام. فأعطيته منها صحيفة، فنظر في شيء منها، ثم وضعها بين يديه، وقال: ومن يقوى على عبادة علي؟ ثم لم يمت حتى عمل بعمل علي عليه السلام»[3].

ويقول عنه ولده الإمام محمد الباقر عليه السلام في حديثه عن جدّه أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام: «ما أشبهه أحد من ولده[4] في عبادته إلّا ولده علي بن الحسين».

وهكذا كان الإمام عليه السلام معروفاً عنه بأن عبادته عبادة واعية؛ ولذا فإنه عليه السلام كان بمجرّد أن يقوم إلى الوضوء ويشرع فيه، فإن وجهه يبدأ بالتلوّن، فيصبح شديد

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٤١٠ / ٥٣٣، علل الشرائع ١: ٢٣٠ / ٢، ٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٤، البداية والنهاية ٩: ١٢٤، وقال عنه: غريب جداً، ينابيع المودّة ٢: ٥٢ / ٦٨.

(٢) شرح الأخبار ٣: ٢٧١ / ١١٧٥، الإرشاد ٢: ١٤٢.

(٣) شرح الأخبار ٣: ٢٧٢ / ١١٧٦، الإرشاد ٢: ١٤٢، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٩٠.

(٤) يعني أمير المؤمنين عليه السلام.

الاصفرار، وهنا يقول له أحد أصحابه: ما بالك يابن رسول اللّه؟ فيجيبه: «**ويلك، أتدري بين يدي من أقف أنا؟ إنك لا تدري بين يدي من أقف، إنني أقف بين يدي جبار السماوات والأرض**»[١].

اللقب الثالث: راهب أهل البيت عليهم السلام

وهو عليه السلام كان راهباً فعلاً، ذلك أنه عليه السلام كان إذا جنّ عليه الليل استغلّه غاية الاستغلال في كلّ ما يرضي الله تبارك وتعالى، فكان ليله كله موزّعاً بأكمله بين عبادة الله تعالى وبين خدمة الآخرين. وكان عليه السلام تحوط ليله أبعاد عبادية خاصّة يروم منها وجه الله، ويبتغي فيها رضاه؛ فكان يوزّع الطعام على البيوت، حتى إنه عليه السلام كما يروي المؤرّخون أنه عليه السلام كان يعول مئة بيت في المدينة بصورة دائمية على مدار السنة، ولم يكن عليه السلام يكتفي فقط بإطعامهم، بل إنه كان ينزح لهم الماء من الآبار ويجلبه إليهم؛ لأن بعضهم كانوا ضعافاً لا يقوون على استخراج الماء من الآبار.

وكان عليه السلام يقوّت أهله بالخلّ والعجوة، ويطعم اليتامى العسل والزبيب واللوز، إلى آخره مما كان يقع تحت يده دون أن تمتدّ يده إليه، ويحول دون أن يترك يد أبنائه تصل إليه.

ولم يكن هؤلاء يعرفون أن هذا الذي يعولهم ويقوتهم ويسقيهم هو زين العابدين حتى توفي (سلام الله عليه)؛ ذلك أنه عليه السلام حينما توفي انقطع عنهم الطعام؛ فعرفوا أن الإمام عليه السلام كان يحمله إليهم ويطعمهم إياه[٢]. فنحن حينما نمرّ بسيرة

---

(١) انظر: عوالي اللآلي ١: ٣٢٤ / ٦٣، الطبقات الكبرى ٥: ٢١٦، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٧٨، تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٠، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٢، البداية والنهاية ٩: ١٢٣.

(٢) ولذا فإن أهل المدينة كانوا يقولون: ما فقدنا صدقة السرّ حتى مات علي بن الحسين. مطالب السؤول: ٤١٥، وانظر مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤..

هذا الرجل العظيم وبعبادته فإننا نرى أنه كان يدور ليله على بيوت الفقراء، ويرجع إلى بيته ليواصل العبادة حيث يظلّ قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً حتى يطلع الفجر عليه. وكان عليه السلام يمارس كثيراً من أنماط العبادة والأذكار التي كان يحيي بها ليله حتى طلوع الفجر عليه، ليقوم بعدها إلى صلاة الفجر.

وهكذا كان عليه السلام يوزّع ليله بشكل خاصّ، وأوقاته بشكل عامّ بين العبادة وخدمة الآخرين وإفتائهم، وتخصيص وقت معيّن للدعاء الذي ظلّ خالداً من بعده. ولذا فإنه عليه السلام كان زين العابدين بحقّ، وكان سيد الساجدين بحقّ، وكان راهب أهل البيت عليهم السلام بحق، ولم يكن في هذه الألقاب شيء من المبالغة أبداً.

المبحث السابع: الإمام السجّاد عليه السلام ولوعة الطفّ

ومن ضمن هذه الأوقات التي كان عليه السلام يوليها اهتمامه الخاصّ وقت للحزن واللوعة على ما حدث لأبيه وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام في واقعة الطف؛ لأنه عليه السلام لم يكن لتغيب عنه أشباح الطفّ، أو تمحى من أمام عينيه صورها المأساوية والمروعة التي هزّت وجدان التاريخ، وهزت كيان الإنسانية.

لقد مرت عليه أحداث ووقائع لا يمكن أن تنسى أبداً، وإحداها ما يذكره عليه السلام نفسه لأبي حمزة الثمالي رضي الله عنه حيث يقول: دخلت على الإمام زين العابدين عليه السلام، فوجدته حزيناً، وعيناه تدمعان بين آونة وأُخرى، فقلت له: سيدي، القتل لكم عادة، وكرامتكم من اللّه الشهادة، مَن مِن آبائك عليهم السلام مات حتف أنفه؟ فقال عليه السلام: **«شكر اللّه سعيك يا أبا حمزة، ولكن ما وقعت عيناي علىٰ عماتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خيمة إلىٰ خيمة ومن خباء إلىٰ خباء والمنادي ينادي: احرقوا بيوت الظالمين».**

إضافة إلى هذا كان عليه السلام يسمع الحوراء زينب عليها السلام وهي تبعث بأنينها إلى أخيها الإمام الحسين عليه السلام، فأي شيء يمكن أن ينساه عليه السلام؟ أينسى صوت الحوراء زينب عليها السلام هذا، والإمام الحسين عليه السلام لا يجيبها؟ أم هل ينسى الشام وما حصل فيها لحظة دخوله عليه السلام والسبايا من حرم رسول الله إليها وهو في الأسر والقيود؟ يقول سهل بن سعد الساعدي: دخلت الشام فرأيت الناس مستبشرين، وهم يضربون الطبول، فقلت: ما الخبر؟ فقيل: لقد أظفر الله الأمير بالخوارج، وسيدخلون سباياهم الساعة من هذا الباب. يقول: وبينما أنا كذلك وإذا برؤوس على أطراف الرماح، ونساء سبايا على الإبل، ورأيت الإمام زين العابدين عليه السلام وهو مقيّد إلى بطن ناقة.

وهذه هي اللحظة التي يحدّثنا عنها المنهال بقوله: وقعت عيناي على الإمام زين العابدين عليه السلام فقال: «**يا منهال، هل معك ثوب عتيق؟**». فقلت: يا سيّدي، مالذي تفعله به؟ فقال عليه السلام: «**أضعه تحت الجامعة؛ فقد أكلت لحم عنقي**». ثم قال عليه السلام: «**وهل معك شيء من الدراهم؟ فإني أُريد أن أدفعها لحامل الرؤوس؛ كي يبتعد عن المحامل؛ فقد خزينا من كثرة النظر إلينا**».

ويروي أيضاً فيقول: كنت أمشي في شوارع دمشق فرأيت الإمام السجّاد عليه السلام يمشي هناك، وساقاه محمرّتان من القيد وتشخبان دماً عبيطاً، فقلت: سيدي، ما الذي أخرجك مع ما أرى بك من الضعف؟ فقال له: «**يا منهال، إن الخربة التي نحن فيها لا تقينا من الحرّ، يا منهال لقد تقشّرت وجوه عمّاتي وأخواتي من حرارة الشمس. فأنا أخرج قليلاً لأُروّح عن ضعف بدني**»[1].

---

(١) قريب منه في الأمالي (الصدوق): ٢٣١ ـ ٢٣٢ / ٢٤٣، مثير الأحزان: ٨١.

يقول: ثمّ جاءت امرأة تقوم وتسقط وهي تنادي: إلىٰ أين يا حمانا؟ إلىٰ أين يا بقية السلف؟ فتركني ورجع إليها، فسألت عنها فقيل لي: هذه عمته زينب:

وله حنّت الفصيل ولكن ... هيّمته أُميّة لا ثمودُ

عجباً لم تلن قلوب الأعادي ... لعليل عضّت عليه القيودُ



﴿٢٣٣﴾

الصلاح ودوره في بناء المجتمعات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في الآراء حول آية المقام الكريمة

إن الموضوع الذي تتناوله هذه الآية الكريمة يعدّ من أخطر المواضيع، وألصقها بالمجتمعات وتكوّنها، وبنائها ونظامها. وسنرى من خلال البحث إن شاء الله تعالى أن هذه الآية تتوفّر على مضامين عالية سوف نتناولها كلاًّ في مبحث مستقلّ. ونبتدئ بنظرة المفسرين إلى هذه الآية، فهم إزاءها على آراء عدّة منها:

الرأي الأول: أن الإصلاح لا يفرز الظلم

أي أنّ الظلم الذي يُهلك القرى لا يمكن أن يولد إذا كان في القرى إصلاح. وبديهي أن مراد القرآن الكريم بالقرى هنا هو المدن، فالقرآن الكريم يستعمل لفظة القرية ويريد بها المدينة، وبتعبير آخر إنه يريد المناطق المسكونة أو المأهولة التي يجترح أهلها المعاصي ويفعلونها. وهذه المدن لا يهلكها الله عزّ وجلّ

---

(١) هود: ١١٧.

﴿بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

والواو هنا تسمى واو الحال، أي أن ما بعدها جملة حالية؛ وبناء عليه يصبح المعنى أنه تبارك وتعالى لا يهلكهم في حال وجود الإصلاح بينهم.. الإصلاح الذي يمنع أن يولد الظلم.

المجتمع هو الذي يصنع الطغاة

إن البعض من الناس يتذمّر من تسلّط الطغاة عليه، ويعتبره ظلماً، وينسى أنه هو نفسه من أوصل الطاغية للحكم فتجبّر وتسلط وظلم، وبمعونته ومعونة أمثاله الذين سكتوا عن هذا الظلم، ولم يسعوا إلى الإصلاح؛ سواء على مستوى الحاكم أو على مستوى المحكومين.

من أبى فله السيف

وهكذا فإننا نجد أنه تبارك وتعالى حينما ينص على أنه لا يمكن أن يظلم شعباً يريد العدل، يريد أن يبيّن أن الإرادة يجب أن يتبعها تطبيق، يروى أنه حينما أراد معاوية أن يولّي ابنه يزيد قام يزيد بن المقنع العذري وفي يده بدرة من مال وفي الأُخرى سيف، فقال: هذا أمير المؤمنين، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ومن أبى فله هذا، وأشار إلى سيفه، ومن رضي فله هذه، وأشار إلى بدرة المال. فقال معاوية: اجلس؛ فأنت سيّد الخطباء[1].

وبطبيعة الحال فإن هذا ونظائره يمثّلون شريحة تعيش في المجتمعات، وتعيث بها في كل زمان وفي كل مكان عبر مساندتها الظلم والظالمين. ونحن حينما نقول: «شريحة» فإننا نعنى به تيّاراً متغلغلاً داخل المجتمع، وهو التيار المنتفع الذي

(١) انظر الكامل في التاريخ ٣: ٥٠٣.

يبيع إرادته وكرامته ووجوده بالمال.. التيار الذي يدفعه الهوى ويدفعه التعصّب ليرشّح شخصاً ليس ذا أهلية أو ذا كفاءة إلى الحكم، ويتهدّد الناس من أجل ذلك الشخص مقابل أن يأخذ منه ثمناً على ذلك، هو حفنة من المال أو ما هو بهذا المعنى.

وهذا يتبعه أمر هو أنه يبدأ بمنح الظالمين الكثير من الصفات القريبة من صفات الله تبارك وتعالى ليرسخ وجودهم في أذهان الناس، وليلمّعهم في أنظارهم، وليجعلهم يعتقدون بأن هؤلاء هم الخلفاء أو السلاطين الشرعيّون، والذين يجب أن يحكموا. وهكذا نراه يمنحهم صفات الأُلوهية، ويجعلهم العظماء المتفرّدين في عالمهم، ويبرزهم على أنهم ليس لهم نظير في هذه الدنيا. وهي صفات تكون في غاية الروعة وفي قمة الكمال.

الرأي الثاني: تهيئة مقدّمات الظلم

ثم إن البعض من هؤلاء ربما كان لا يريد من وراء ذلك الفعل المال، لكنه يأتي بهذا السلطان إلى الحكم لهدف معيّن، ثم بعد أن يضعه في الحكم ويعطيه المسوّغات الشرعية، ويصبغه بالصبغة التي لا يمكن أن يتراجع معها أحد عن الإذعان له ومبايعته، ثم يرى منه أنه قد بدأ بظلم الناس وبالتعسّف والجور عليهم، وبأكل أموالهم وحقوقهم، والاستبداد بالأمر لوحده، ويروح ينهب أموالهم، فإنه حينذاك يتوجّه إلى الله مولولاً منادياً: يا ربّ، لماذا كل هذا الظلم من هذا السلطان؟

وهذا بطبيعة الحال يتناسى بأنه هو من جاء بالظلم، عبر إسناده الظالمين ومعونتهم والسير في ركابهم، ووضعهم على رأس السلطة، وتسليطهم على رقاب الناس وأموالهم وأعراضهم؛ لأنه هو الذي صنعهم على تلك الشاكلة بما وصفهم به

من ألقاب، وبما منحهم إيّاه من صفات جعلتهم يقاربون مقام الأُلوهية. ومثل هذا لا يمكن أن يستجاب له دعاء، بل إنه من الممكن أن يكون عرضة للمساءلة والحساب.

الإرادة ودورها في نقض الظلم أو تهيئة مقدّماته

وهكذا فإننا نخلص إلى نتيجة هي أن الأُمّة التي تحمل وعياً، وتملك إرادة صلبة، وتضع يدها على موطن الداء، فإنها لا يمكن أن تهلك بظلم، أو أن ينالها عذاب؛ لأنها تشخّص موضع الداء، ثم تشخّص العلاج الصحيح والمناسب له بما تمتلك من وعي، وبما تحمل من فهم لطبيعة الظلم وما يلزم جرّاءه، وما يترتّب عليه. أما أن يضجّ شعب بالشكوى والتظلّم فإن الله تبارك وتعالى يقول لهم: أنتم الذين وفّرتم المقدمات لحصول مثل هذا الظلم، ثم إنكم تهربون الآن من النتائج التي تترتب منطقياً على تلك المقدمات.

إذن فمن يصنع المقدمات ويهيّئها، فعليه ألّا يهرب من النتائج، ولا أن يستاء منها، أو ألّا يلج في عالم التشكّي والدعاء كي يخلّصه الله تبارك وتعالى منها دون أن يوفّر في مقابلها مقدّمات الخلاص المشروعة التي أمره الله تعالى بها؛ لأنه حينما حصّل تلك النتائج وهيأها وأوجدها، ثم راح يتعامل بها فإن عليه أن ينظر إلى عاقبة ما هو مقدم عليه، فإن لم ينظر، فعليه تبعة عمله وتفكيره وانغلاقه، وعدم انصياعه إلى العقل.

وعليه فلو أن المجتمعات البشريّة أغلقت الأبواب أمام هذه المقدّمات، فإن الظالم لا يمكنه حينئذٍ أن يصل إلى رأس السلطة والحكم، فيتحوّل إلى أداة ظلم وتجبّر وتسلّط، فيستولي على أموال الناس ويستبيح أعراضهم ويبيحها غيره، ويهدر دماءهم ويعتلي رقابهم. أما فتح الباب أمام حصول هذه المقدمات، فهو

يعني فتح الباب أمام الظلم والظالمين ليصلوا إلى السلطة بعد ذلك، وليفعلوا ما يريدون فيظلموا أنفسهم وغيرهم. وهكذا فإن على الإنسان إذا ما أولج نفسه في هذا المدخل ألّا يلوم السماء، ولا يشكو لها ومنها بظن أنها لا تمنعه من الظالم، ولا تنتقم له منه، ولا تأخذ له بحقّه الذي اغتصبه.

إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه الكريم: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾**[1]، وهذا يعني أن الإنسان ما لم يغيّر ما بنفسه أولاً فإنه لا يكون قد فوّت تهيئة مقدّمات الخلاص من الظالم فقط، بل أعدّ المقدّمات التي أوصلته إلى هذه المرتبة من الظلم والطغيان، وإن كان هناك تغيير ينبغي أن يحصل فإنما يحصل نتيجة المقدّمات التي يتعامل وفقها أو لتحصيلها؛ لأن الله تعالى ربط الأسباب بنتائجها، ونهانا عن تحصيل هذه الأسباب فقال: **﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾**[2].

الأسرة أنموذج مصغّر للمجتمع

فإن خالف الإنسان ذلك، وركن إلى الظالم، وصنع منه طاغية متسلطاً على رقاب الناس فإنه يجب عليه حينئذٍ أن يتحمّل مغبّة عمله ونتائج مقدماته التي هيّأها. وكمثال بسيط على ما نحن فيه وما نتكلم بصدده دنيا الأُسرة التي عادة ما يكون تعامل أغلب الناس معها دون إتقان مقدماتها بل دون تحصيلها وتوفيرها، فهم لا يعرفون الكيفيّة التي يوفرونها بها، وهؤلاء حينئذٍ سوف يقعون تحت مغبّة النتائج السيئة والسلبية التي سيوصلهم إليها سوء تحصيلهم لتلك المقدمات، وعدم توفّقهم إلى انتقائها بشكل صائب.

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) هود: ١١٣.

فإذا ما حصل هذا الأمر، وتفكّكت الأُسرة فإن أصوات أفرادها حينئذٍ سوف ترتفع إلى الله داعية عاتبة قائلة: يا رب قد فسد الزمان.. والأولاد قد فسدوا وضلّوا.. والدنيا قد فسدت.. والحال قد تغير. مع أن الواقع يقول: إن الدنيا هي هي لم يتغير منها أو فيها شيء، لكن الذي تغيّر هو تعاملنا معها[1]، وكذلك طريقة تحصيلنا لمقدمات الحياة التي يجب أن يكون بشكل صحيح وسليم، ووفق ما أمرت به الأديان؛ كي تكون هذه الحياة جميلة وخلّاقة وبنّاءة. فالدنيا لا يمكن أن تتغيّر، بل إن الناس هم الذين يتغيّرون بنمط ما.. بطريقة معيشتهم وتعاملهم مع الدنيا، وإلّا فإن الدنيا هي هي؛ لأنها عبارة عن وقت ممتدّ طولياً، هو الليل والنهار، والناس هم أنفسهم الناس إذا ما حصلوا على مربٍّ؛ لأنهم حينئذٍ سوف يصبحون أُناساً متكاملين وفق الصورة التي رسمها الله تبارك وتعالى للمجتمع وأرادها له.. المجتمع الذي يجب أن يكون أفراده من هذه العيّنة أو من هذا النمط من الناس. وبخلاف هذا سوف يفسد المجتمع؛ لأن أبناءه سوف ينحرفون دون أي ريب.

المهلّبي وابنه

وهكذا فإننا نقول: إن الإنسان إذا لم يتقن المقدمات في تربية الأُسرة، فإنه سوف لن يحصل على الأُسرة السليمة المتماسكة المتراصّة والمتحابّة، والتي يمكن لها أن تعيش وهي تسبح في خضمّ تيار الحياة الذي يحوي الكثير الكثير مما يمكن أن يغرقها وأن يفتّتها ويحرفها عن مسارها الطبيعي. وفي هذا المجال

---

(١) تقول الخنساء:

إن الجديدينِ في طولِ اختلافِهما ... لا يفسدانِ ولكن يفسدُ الناسُ

الأمالي (المرتضى) ٢: ٣٨، ونسبه لشاعر لم يسمّه، خزانة الأدب ١: ٤١٤.

سوف أروي حادثة توضّح هذا المضمون وتبيّنه، يروى أن المهلّبي قال لابنه وقد غضب عليه: يا قليل الأدب. فقال له ابنه: لا، أصلحك الله يا أبي، أنا لست قليل الأدب، بل إن قليل الأدب من يضع نطفته في أرحام الإماء.

أي أنه يقول له: لو أنك اخترت لي أُمّاً صالحة طيّبة، فانتظر منّي أن أكون صالحاً، لكنك إذ لم تفعل، وزرعتني في بيئة فاسدة أو موبوءة، فإن عليك ألّا تنتظر منّي الصلاح، بل إن عليك أن تنتظر منّي أن أكون وفق البيئة التي زرعتني فيها. فمتى ما وضعتني في بيئة صالحة فإنّي سوف أُصبح صالحاً، ومتى ما وضعتني في بيئة غير ذلك فإني سوف أكون طالحاً، ولا حقّ لك حينئذٍ في شتمي.

مقدّمات بناء الأُسرة

وبهذا فإننا نجد أن تهيئة المقدمة في بناء الأُسرة أمر ضروري، ونعني بها اختيار النطفة الطاهرة، واختيار الرحم الطاهر الذي سوف ينجب الأبناء ويبني الأُسرة. وحينما لا نوفّر هذه المقدمة فإن الأُسرة من الممكن أن تتفكّك؛ لأن الإنسان يستصعب الحصول مثل هذا الرحم؛ للمعوّقات التي توضع في طريقه، فيلجأ إلى الطريقة السهلة التي يشبع بها حاجته وغرائزه، متناسياً أن هذا ربما يكون وباله وخيماً عليه، فيفقده أُسرته.

ومعروف أن من يسعَ إلى تحصيل شيء فعليه أن يتخلّى عن أشياء كثيرة من أجل ذلك، فإن استصعب هذه الأشياء الضروريّة، وسعى وراء المقدمات السهلة، فإن عليه حينئذٍ أن يتحمّل جميع النتائج المترتّبة على هذا الجري وراء المقدمات السهلة. وهكذا فإن لسان حال ابن المهلّب هذا هو أنك قد استسهلت أمر الأمة ولم تكلّف نفسك بأن تطرق بيتاً فيه امرأة صالحة تحافظ على نفسها وعلى بيتها وأبنائها، فإن كان أولادك على غير ما تريد، فعليك ألّا تلومهم، وألّا تعنّفهم، وإلّا فإنك حينئذٍ سوف تكون أهلاً للّوم، ومحطّاً للتعنيف. فإذ صنعت المقدّمات فعليك أن تتحمّل النتائج.

الرأي الثالث: معالجة الثغرات الاجتماعيّة الممهّدة للظلم

إن هناك بعض الثغرات التي توجد في المجتمعات، والتي يجب معالجتها بدقّة وسرعة؛ لأنه بخلاف ذلك سوف ينتشر الظلم وتعمّ الفوضى. وسوف أنقل هنا أمرين هامّين هما من جملة أُمور كثيرة تمسّ موضوعنا، والتي لها علاقة واضحة في هذا المجال:

الأمر الأول: النزاع حول الجهر بالبسملة

إننا لا ننكر أن في تاريخنا الإسلامي قد ضاعت منّا ممالك بكاملها، وفقدنا بلاداً كاملة كتركستان والأندلس، وغيرهما من البلاد. وكلّ هذه البلاد راحت مع أنها من جنان الله في الأرض، مضافاً إلى كونها بقاعاً ضخمة يسكنها عدد كبير من المسلمين، وفيها خيرات عظيمة، وعطاء كبير لا حدود له. ومع هذا فإننا نسيناها بعد فترة من الزمن، مع أننا إلى الآن وبعد أربعة عشر قرناً من الزمان لم ننسَ الجهر بالبسملة ولا النزاع حوله.

الأمر الثاني: النزاع حول الجمع في الصلاة

كما أن البعض أيضاً من جانب آخر لا يريد أن ينسى مسألة الجمع في الصلاة، ولذا فإنهم يكفّرون طائفة؛ لأنهم يجمعون بين صلاتي الظهر والعصر مثلاً، أو المغرب والعشاء، مع أن هؤلاء إن كانوا كفرة كما يدّعى بحقّهم، فلماذا يصلون أصلاً؟ فالكافر لا يصلي، وهؤلاء يصلّون فهو ليس بكافر في النتيجة.

ومثل هذا الأمر أيضاً لم ينسَه المسلمون؛ لأنهم لا يريدون أن ينسوه، أما تلك البلاد التي فقدوها والتي فقدوا بفقدها كمّاً هائلاً، وعدداً كبيراً من المسلمين، فإنهم تناسوها بسهولة؛ لأن استحضارها وذكرها ليس فيها شقّ لعصا المسلمين وتمزيق لوحدتهم وتفريق شملهم واجتماعهم وكلمتهم.

وهذا الذي يذهب إليه هؤلاء من تكفير طائفة؛ لأنهم يجمعون بين صلاتين في

فترة واحدة هل إنهم لم يكونوا يعلمون على امتداد (١٤٠٠) سنة أن هؤلاء يتوجّهون إلى قبلة المسلمين كلّ يوم، ويحجّونها كلّ عام، ولا يأكلون إلّا من ذبائح المسلمين، ويشهدون «**أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله**»؟ لكن مثل هؤلاء في قلوبهم ألف شيطان وشيطان من الحقد، وفي داخلهم دوافع يقف وراءها النفط والاستعمار الذي ليس له من مهمّة إلّا تمزيق وحدة المسلمين. وهذا هو الذي يؤدّي إلى حصول مثل تلك الأُمور، وإلّا فإن الإنسان حينما يقول: «**أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله**»، ويتوجّه إلى قبلة المسلمين كل يوم خمس مرات، ويحج البيت الحرام، فإن هذا كافٍ للتعايش معه كأخ مسلم يجب احترامه واحترام مذهبه كما أنه يحترم المسلمين الآخرين ويحترم مذاهبهم.

أما إذا وقعت مثل تلك الأُمور، وأدّت بالمجتمع إلى التناحر والتفرّق والتمزّق، ويحصل من يصرّح كلّ حين ضدّ الآخرين، ثم يدعو الله تبارك وتعالى ويسأله عن الأسباب التي يمنع عنهم نعَمه ورحمته من أجلها، وأن يمنّ على هذا المجتمع بالاتّفاق والوحدة والوئام، فإن الله تبارك وتعالى يجيبه بأنه يريد لهم الوئام والوفاق، وأنه لهذا السبب أنزل لهم ديناً ليكونوا أُمّة واحدة؛ لأنه دين الوحدة، ودين التوحيد. لكن هؤلاء بتصرّفاتهم هذه لا يريدون الوحدة والتوحيد، وإذا كانوا لا يريدون كلّ ذلك كما توحي به تصرّفاتهم، فلماذا إذن ينسبون فقدها وافتقادها إلى السماء، ويدعونها بأن توفرها لهم؟

وبتعبير آخر فإن مثل هؤلاء يجعلون من السماء مسنداً ليعلّقوا عليه أخطاءهم وينسبونها إليها دون أن يتفكّروا في أسباب تلك الأخطاء، وعن الحال التي أوصلت إليها، ويتناسون أن السماء لا ذنب لها إذ يعملون الحرام ولا يتناهون عن المنكر؛ فيبيعون الخمر، ويقتلون النفس، ثم يقولون: هذا ليس ذنبنا وإنما الله تبارك وتعالى هو الذي كتب علينا ذلك، أو أجبرنا على فعله!

ونحن هنا نسأل فنقول: هل انتهت طرق الحلال المشروعة والمتاحة للإنسان، والتي يمكن أن يأكل منها؟ وهل نفدت سبل الحق والصلاح، والسبل المحبّبة إلى الله، وإلى العقل والدين، وإلى صلحاء الناس كي يمكن لهؤلاء أن يسلكوا تلك الطرق الملتوية، أو الطرق المحرمة؟ وهل إن الطرق الشريفة والنظيفة، والقنوات السليمة التي يمكن أن ينتهجوها في مسيرتهم الحياتية قد نفدت، بحيث إنها لم يتبقَّ منها شيء حتى يمكن أن يقال: إن هؤلاء معذورون؛ لأنهم مجبرون في أن يصار بهم إلى سلوك القنوات غير الشرعية وغير النظيفة في تحصيل الرزق، وفي تيسير سبل الحياة.

إن الإنسان حينما يختار الصورة السيّئة للعمل، والبيئة غير الصالحة له، والمنهج المعوجّ وغير السليم، فإن عليه ألّا يعلّق مشاكله على السماء، ولا ينسبها إليها أبداً؛ لأنه في ذلك يكون قد ظلم نفسه وظلم غيره؛ إذ أنه هو الذي اختار ذلك الطريق. فضلاً عن أن هذا الإنسان بتصرّفه هذا يكون قد خرج عن حدود اللياقة والأدب في خطابه مع الله سبحانه وتعالى: **﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**[1]. فالله تبارك وتعالى هو العدل، وهو الآمر بالعدل، وهو رب العدل، فليس من المعقول أن يحكم بيننا أو يتصرّف معنا بغير العدل: **﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**[2].

فإذا كان الأمر كذلك فإن علينا ألّا نتّخذ من السماء مسنداً نعلّق عليها جميع الأخطاء التي نرتكبها في حياتنا اليومية. وهذا الموضوع هامّ جدّاً وخطر جدّاً؛ لأن الإنسان حينما يفعل ذلك فإنه إنما يشكّ في عدل الله عزّ وجلّ، وهو إذ يشكّ

---

(١) يونس: ٤٤. (٢) النحل: ٩٠.

بعدله تبارك وتعالى فإنه إنما يشكّ في كل تشريعاته الدينية، بل في كلّ الأديان السماوية التي أنزلها الله جلّ شأنه؛ لأن جميع ما عندنا من قوانين ونظم هي من أنظمة السماء والأديان التي أهبطها الله تعالى على أنبيائه عليهم السلام.

وبعبارة أُخرى فهي كلّها مرتبطة بوجود الله تبارك وتعالى وبعدله. ولهذا فإننا إذا شككنا بعدل الله عزّ وجلّ واعتقدنا أن ما في الوجود من ظلم هو من فعل السماء، فإن فروض الإنسان العبادية الأُخرى سوف لن تسلم له؛ لأنه إنما شكّ في أصل من أُصول الدين وأُصول الإيمان، بل أهمّها بعد التوحيد، وهو العدل. وعليه فإنه حينئذٍ سوف لن ينفعه مع ذلك أي عمل؛ إذ أنه سوف لن يُقبل منه أي عمل؛ لأن السماوات والأرض قد قامت على العدل، والله تبارك وتعالى أمر بالعدل، وطبّق العدل، وأمرنا بأن نحذو في تصرفاتنا حذو العدل، ومتى ما ابتعد الإنسان عن العدل فإنه حينئذٍ سوف يوجد مسبّبات الانحراف والظلم والفساد في الأرض.

وبهذا فإن على الإنسان ألّا ينسب إلى الله عزّ وجلّ أي شيء من ذلك؛ لأنه هو المتسبّب الأول في ذلك، وليس الله تبارك وتعالى، ونحن إنما نقول: إن الإنسان هو المتسبّب في ذلك؛ لأنه يشغل نفسه بمعالجة أُمور تافهة، ويترك الأُمور الهامّة التي يتوقف عليها صلاح المجتمع وعلاج أمراضه وأدوائه كافّة، والقضاء على الظلم الذي ينخر فيه؛ فهو مثلاً يرى أُمّة تغتصب إرادتها، وتصادر حريّاتها، ويفتك بها الاستبداد، ثم لا يتصدّى لكل ذلك مع أن وظيفة حملة الفكر وأصحاب المعرفة أن يتصدّوا لمثل هذه المشاكل، وأن يعالجوا مصائب الأُمّة، وأن يضعوا أيديهم على هذه الجراح والأدواء ومعالجتها دون الاشتغال بمسائل جانبية لا تسمن ولا تغني، كأن يُشغل نفسه بمسألة تافهة من قبيل أن الكلب الأسود هل يقطع الصلاة أم لا؟

يقول المرحوم محمد الغزالي: إن هؤلاء لو أدركوا أهل الكهف لدخلوا معهم في عراك حامٍ؛ لأنهم أخذوا معهم كلباً. وقد أصاب المقتل في هذه العبارة؛ ذلك أن لدينا مشاكل تغطّينا بالكامل، ومصائب تمزّق أحشاء مجتمعنا، وقد جعلت منه مجتمعاً مفكّكاً مهترئاً، تمارس فيه كلّ أنواع الظلم، وتنحر فيه الحريات والإرادات. ومع ذلك فإننا لا نرى قلماً من تلك الأقلام يوجّه كلماته لمعالجة هذه المسائل، وإنما نجد الأقلام تشتغل في معالجة أُمور لا تتّصل بالصالح العام من بعيد أو من قريب أبداً، وإن اتصلت به فهو تعلّق سلبي، أي أنها تعمد إلى تمزيقه، وإلقاء بذور الفرقة والفتنة فيه.

وبالمناسبة فانّي أقول: ما دمنا قد تطرقنا إلى ذكر هذاالرجل (محمد الغزالي) فإني أود أن انوّه إلى أنه قد صدر له كتابان: أحدهما (الدستور الثقافي في الوحدة بين المسلمين)، والثاني (مشكلات في طريق الإسلام)، وأذكر أن أحد الكتّاب المعروفين قد سلّط عليهما الأضواء في أحد أعداد مجلة العربي الكويتية، وعلى ما أذكر كان ذلك في العدد (٢٩٠) لسنة (١٩٨٣)، وكان موضوعه عبارة عن أشعة على العقل الانساني، وكان هذا الموضوع في الحقيقة مقالاً يعالج فيه هذا الأمر بنوع من الجرأة والموضوعية. وقد سلط الأضواء أيضاً على ما يسمى عندنا بالصحوة الإسلامية، وبيّن ما لها وما عليها.. سلبياتها وإيجابياتها، وعالجها بأُسلوب جيّد، وبقلم يتّسم بالجرأة والاتّزان والاعتدال.

ومن ضمن ما جاء فيه قوله: إن النتيجة ستصل بنا إلى تساؤل هو: إلى أين سنصل؟ ثم يقول: إننا الآن نُعنى بهذه الأشياء التافهة، ومجتمعنا قائم على عطاء غيرنا، ولو أننا قلنا لمجتمعنا الآن: ارجع إلى أُصولك وإلى تاريخك وحضارتك، فامتثل ورجع، فإنه سوف يجد نفسه دون أن يكون هناك ثوب يلبسه، أو طعام يأكله، وهو مع هذا يريد أن يرجع إلى ركوب البعير، فهل هذه هي الإنجازات

المطلوبة منّا في هذا الزمن؟

إن القرآن الكريم قد حمل النور والهداية إلى العالم، وقد صنع الدنيا، وجاء إلى الدنيا ولم يكن له من مناصر سوى بضعة من المسلمين الذين كانوا يعتبرون أُميّين قياساً بالأُمم المحيطة بهم، لكنه مع ذلك فتح العالم بهم؛ لأنه صنعهم وجعل منهم ألفاً نيّراً، وعمالقة، وأُناساً يستنّون بسنته ويتخلّقون بأخلاقه، حتى بُنيت هذه الدولة الضخمة [١] التي امتدّت رقعتها إلى مساحات شاسعة من وجه الكرة الأرضية المعروفة آنذاك. لكن حال المسلمين قد تحوّل وانقلب بعد أن انقلبت مسألة الحكم والسلطان عندهم إلى ملك عضوض، فوقع المسلمون في المشاكل، وراحوا يتخبّطون يميناً وشمالاً حتى الساعة.

إننا لا زلنا نرى إلى الآن أن هذا المجتمع لا يحاول أن يخرج نفسه من هذه البؤرة، أو أن يحاول أن يغير هذا الوضع الذي هو عليه.

المبحث الثاني: معنى الإهلاك بالظلم

تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾، وللمفسّرين في معنى قوله تعالى: ﴿لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ آراء عدّة نذكر منها:

الرأي الأول: أنه مقدمات الظلم

أي أنه تبارك وتعالى يريد أن يقول: إن المقدّمات التي تصنعونها أنتم بأنفسكم هي التي تصنع الظلم، وعليه فإنه ينبغي عليكم ألّا تنسبوا هذا الظلم إلى الله تبارك وتعالى؛ لأنه عزّ وجلّ أعدل من أن يظلم أحداً، بل أنتم من صنع الظلم بأيديكم؛ لأنكم قد هيأتم مقدماته، فلا تنسبوه إلى السماء مطلقاً.

---

(١) التي أضاعها حكّام المسلمين ممّن لم يتعب في بنائها بجهلهم وسوء تصرّفهم وابتعادهم عن الدين وتعاليمه.

الرأي الثاني: أن المراد بالظلم هنا الشرك

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى القول بأن الآية ليست بهذا الاتّجاه الذي ينصبّ حوله الرأي الأول، وإلى أن معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾، هو أن هناك جماعة من المشركين يحكمون بلاداً مشركة في مقاييسنا وضمن قواعدنا، فنحن نحدّدها وفق هذه المقاييس والقواعد بأنها مشركة، وأنهم مشركون، وأن من يحكمهم مشرك مثلهم. ومع أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِأَبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَاتُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]، لكننا نجد أن عند هؤلاء المشركين أو الكفّار استقراراً في حدود دولهم تلك، ونجد عندهم أمناً، ونرى أن حقوق الأفراد عندهم محفوظة وكراماتهم مراعاة، ونجد أن المرأة مثلاً لا يغتصب لها حقّ من حقوقها، فهي تختار المنهج الذي تريده وإن كان بعيداً عن الدين، لكنها تجد حقها محفوظاً دون أن يُعتدى عليه؛ فالقانون هناك يحفظ لها هذا الحق، ويحاسب من يعتدي عليه لو حصل مثل ذلك.

ومن هذا القبيل أُمور كثيرة تراعى فيها حقوق الآخرين وكراماتهم ووجودهم وإنسانيتهم، في حين أننا في مجتمعاتنا نكاد نفتقد ذلك كله، بل ونفتقر إليه، يقول أحد الكتّاب المسلمين: حينما أنام في بلد من بلدان الخلافة الإسلامية أنام وأنا خائف على نفسي ومالي، وأُفكر هل إنه من الممكن أن يصبح عليّ الصباح أم لا؟ وهل يصبح علي ونقودي محفوظة لي، أم إني سوف أفتقدها؟ وهل من الممكن أن أجد أمامي فرصاً تضمن لي حياتي، أم إنني أستيقظ فلا أجد تلك الفرص، ولا أطمئن إلى أني سأحيا بشكل طبيعي؟ وهل إن هناك ضوابط تحول بيني وبين أن يتهوّر عليّ أحد من الناس، وتحفظ لي حقوقي منهم أم لا؟

---

(١) لقمان: ١٣.

إلى غير ذلك من التساؤلات التي تصبّ في هذا المصبّ، ثم يتساءل الكاتب فيقول: فما السبب وراء كلّ هذا؟ ثم يعقّب على ذلك قائلاً: في حين أنني حينما أنام في مدينة كـ«لندن»، أو «باريس»، أو «نيويورك»، فإني أنام وأنا مطمئن إلى أنني حينما أستيقظ عند الصباح سأستيقظ وأجد حقّي محفوظاً كاملاً، وأجد مجموعة من الضوابط والقوانين التي تحول بيني وبين أن يعتدي عليّ أحد من السلطة أو من أبناء القانون.. أستيقظ وأنا أجد كامل حقوقي قد حُفظت لي؛ لأن القانون يتكفّل بحفظها ويمنع عنها من يحاول الاعتداء عليها.

ثم يعقّب هذا الكاتب فيقول: إن هذه الآية الكريمة (آية المقام) تتكفّل بالإجابة على هذه التساؤلات، فالآية الكريمة تقول: عندما أنزل الله عزّ وجلّ القرآن، وأنزل الشرائع السماوية، كان الهدف الكامن وراء ذلك هو نشر العدل بين العباد، فإذا ما جاء هذا المشرك ونشر العدل بينهم، وحقّق أهداف السماء والشرائع الإلهية، فإنه لا يبقى عليه إلّا ذنب شركه. وهذا الشرك له عقاب يتولّاه الله تبارك وتعالى يوم القيامة، أما في الدنيا حيث العدل منتشر، وحقوق العباد محفوظة، وكراماتهم مصونة، وهم يتناصفون فيما بينهم وفق القانون الذي يحكمهم، فإن الله عزّ وجلّ سوف لن يعجل على هذا المشرك أبداً؛ لأن هذا الشرك سوف لن يغير عرش الله، ولن يغيّر السماء، فهو شرك سوف يعاقب عليه هذا الإنسان لاحقاً.

وفي مقابل هذا فإننا نجد من يصلّي ويطيل لحيته، لكنه حينما يخرج إلى الشارع فإنه يعمد إلى أن يقتل خلق الله تبارك وتعالى، وإلى أن يبذر الفساد يميناً وشمالاً في الأرض متغطّياً بغطاء الشرع، ويصبغ فعله هذا بصبغة الدين، مع أنها تصرّفات بعيدة كلّ البعد عن الدين. فما الفائدة إذن من إطالة اللحية ومن كثرة الصلاة، ومن هذه المظاهر التي يعمد أو يحاول أن يعمد إلى خداع المسلمين بها،

وجعلهم يغترّون به وبعمله؟

إننا يجب ألّا نغفل عن أن الصلاة إنما هي عبارة عن ميزان عمل يحكم العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، أما ما يترتّب عليها من ثواب وعقاب فهو بين الإنسان المصلّي وبين ربّه، ولذا فإننا لا نريد من هذا الإنسان إلّا أن يصلّي وأن يطبّق الأخلاقيات المترتبة على الصلاة.. نريد منه أن ينشر العدل وألّا يعتدي على أحد أو على رغيف خبزه أو لقمة عيشه، وألّا يستولي على عمله أو على عرضه، وألّا يستبيح كرامته، وألّا يغتصب إرادته وحقوقه؛ لأن الآخرين يريدون أن يعيشوا وهم يشعرون بأنهم أُناس يعيشون وقد حُفظت لهم كراماتهم وحقوقهم، وحرياتهم وإراداتهم، كباقي خلق الله الذين يراهم يعيشون في تلك الدول التي نطلق عليها أنها دول كافرة أو مشركة وفق معاييرنا ومقاييسنا، وقواعدنا وضوابطنا.

أما أن يلبس أحد هؤلاء جبّة مثلاً، ويضع على نفسه بعض الشارات من شارات العدل، وهو في واقع الأمر ليس له علاقة بالعدل جملة أو تفصيلاً، ثم يجعل كلّ همّه ظلم الناس فيعمد إلى سلبهم إراداتهم، وإلى الاستيلاء على حقوقهم فإن هذا هو الظلم بعينه. ولو أننا رأينا ثعلباً يصلّي ويطيل الصلاة فإننا سنعرف أن هذه الصلاة سوف لن تغير هذا المخلوق من كونه ثعلباً أبداً؛ لأن الصلاة في مثل هذه الحال لا تفعل فعلها في صاحبها ما لم يبدأ هو بتغيير نفسه[1].

إذن فالمسألة هي أن الدين ليس ألفاظاً يردّدها الإنسان، ولا مفردات تعيش على الشفاه بعيداً عن التطبيق، وليس هو كذلك مظاهر تعيش على خداع الآخرين وحملهم على التصديق بصاحبها من خلال ألفاظه، أو من خلال بعض تصرفاته،

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١.

في حين أنه في الواقع يتصرف بخلافها أو يعتقد بخلافها. إن الدين هو الأمانة والصدق والعبادة والرحمة، يقول الرسول الأكرمﷺ: «**قال تعالى: إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي**»[١].

فأما إذا ما قدر الإنسان على أن يحقّق الرحمة، وينشر العدل، ثم فعل ذلك فإن هذا في واقع الأمر هو الدين، وهذا هو شرع الله تبارك وتعالى الذي يتحقق به رضاه وهدفه سواء كان من يفعل هذا الفعل مؤمناً بما صنع أو غير مؤمن فإن كان غير مؤمن فإن حسابه عند الله تبارك وتعالى في يوم القيامة. هذا هو الرأي الثاني في الآية، وهو رأي تميل إليه شريحة عريضة من المفسرين، وكما ذكرنا فإن هذا الرأي يقوم على أن الله تبارك وتعالى لا يعذّب في الدنيا الأُمم الكافرة التي تنشر العدل بين شعوبها وأفرادها.

وقد قرأنا في التاريخ مثلاً أن النبي الأكرمﷺ يفتخر بكونه قد وُلد في زمن الملك العادل كسرى فيقولﷺ: «**ولدت في زمن الملك العادل كسرى**»[٢]، مع أن كسرى كان كافراً يعبد النار، وهكذا فإن افتخار النبي الأكرمﷺ بأنه قد ولد في ذلك الزمان؛ لأن العدل أساس كل حقّ، وكسرى هذا كان متّصفاً بالعدل؛ وكان يحاول أن يحقّقه في كل أرجاء مملكته؛ وكانت الأُمور بين العباد تسير بالعدل والإنصاف بعيداً عن الظلم والاعتداء والبغي، وهي صفات حاول مكافحتها ومحاربتها والقضاء عليها.

المنصور الدوانيقي وأحد الوعّاظ

ومما يروى في هذا المجال عن عدل بعض الملوك أن المنصور قد حجّ في

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة: ٩: ٥٤ ـ ٥٥ / ١٠١٨٥، كنز العمّال ٣: ١٦٧ / ٥٩٩١.
(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٤٩، التفسير الكبير ١: ٢٤٠، تاريخ الإسلام ٤٣: ٢٧٧.

إحدى السنين، فكان يطوف ليلاً دون أن يشعر به أحد، وبينما هو ذات ليلة يطوف إذ سمع قائلاً يقول: اللهم إنا نشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحقّ وأهله من الظلم.

فملأ كلامه مسامع المنصور، فاستدعاه وقال له: ما الذي سمعته منك؟ قال: إن آمنتني على نفسي نبأتك. قال: أنت آمن على نفسك، فقل. قال: أنت الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحقّ، وحصول ما في الأرض من البغي والفساد، فإن الله سبحانه وتعالى استرعاك أُمور المسلمين فأغفلتها، وجعلت بينك وبينهم حجّاباً، وحصوناً من الجصّ والآجرّ، وأبواباً من الحديد، وحجبة معهم السلاح، واتّخذت وزراء ظلمة، وأعواناً فجرة؛ إن أحسنت لا يعينوك، وإن أسأت لا يردّوك، وقومتهم على ظلم الناس، ولم تأمرهم بإعانة المظلوم والجائع والعاري؛ فصاروا شركاءك في سلطانك، وصانعَتْهم العمّال بالهدايا خوفاً منهم.

ثم قالوا: هذا قد خان الله تعالى، فما لنا لا نخونه؟ فاختزنوا الأموال، وحالوا دون المتظلّم ودونك؛ فامتلأت بلاد الله فساداً وبغياً وظلماً. فما بقاء الإسلام وأهله على هذا؟

ثم قال له: وقد كنت أُسافر إلى بلاد الصين وبها ملك قد ذهب سمعه، فجعل يبكي، فقال له وزراؤه بالإيماء: ما يبكيك؟ قال: لست أبكي على ما نزل من ذهاب سمعي، ولكن خوفاً من أن يصرخ المظلوم بالباب ولا أسمع نداءه. ثم قال: ولكن إن كان سمعي قد ذهب، فبصري باقٍ. ثم أمر مناديَه فنادى في الناس: لا يلبس ثوباً أحمر إلّا مظلوم. فكان يركب الفيل في كل طرف نهار ليرى هل من مظلوم فيحلّ له مشكلته ويردّ إليه ظلامته، فلا يجد.

فهذا مشرك بالله غير مؤمن به، وقد غلبت رأفته بالمشركين على شحّ نفسه،

وأنت مؤمن بالله، ولا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شحّ نفسك، بل تسلّط السياط على من يحاول أن يرفع صوته بظلامته، فلا تدع المظلوم يصل إليك لما أحطت به نفسك من جلاوزة يوسعون من أراد الوصول إليك ضرباً، ويوجعونه حتى لا يقترب منك.

يا هذا، هل تعاقب من عصاك إلّا بالقتل؟ فكيف تصنع بالله الذي لا يعاقب إلّا بأليم العذاب، وهو يعلم منك ما أضمر قلبك، وعقدت عليه جوارحك؟ وماذا تقول إذا كنت بين يديه للحساب عرياناً؟ هل يغني عنك ما كنت فيه شيئاً؟

ثم قال له: فإنك لا تجمع المال إلّا لواحدة من ثلاث:

إن قلت: إنك تجمع لولدك، فقد أراك الله تعالى الطفل الصغير يخرج من بطن أُمه لا مال له، فيعطيه؛ فلست بالذي تعطيه بل الله سبحانه هو الذي يعطي.

وإن قلت: أجمعها لتشييد سلطاني، فقد أراك الله القدير عبراً في الذين تقدّموا، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الأموال، ولا ما أعدّوا من السلاح.

وإن قلت: أجمعها لغاية هي أحسن، فما الغاية التي أنا فيها؟ فوالله ما فوق ما أنت فيه منزلة إلّا العمل الصالح.

فبكى المنصور بكاء شديداً وقال: يا ليتني لم أخلق ولم أكُ شيئاً[١].

وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إذا ما بلغه عن أحد عماله أنه أخطأ بصغيرة أو كبيرة يقوم فيصلي ركعتين، ثم يرفع رأسه إلى السماء ويقول: «**اللهم إنك تعلم أني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا بترك حقك**». ثم يكتب لهم: «**﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾**[٢]، و **﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا**

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٣٥١ : ٣٥٢ / ٦٠. (٢) يونس: ٥٧.

فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾[1]، إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك من عملنا، حتى نبعث إليك من يتسلّمه منك »[2].

والكل يعلم ما الذي فعله بعثمان بن حنيف حينما قبل الدعوة إلى وليمة أحد أعيان البصرة، فقد راح الإمام عليه السلام يلومه ويقرّعه ويعنّفه، وقد كتب له كتاباً يقول فيه: «أَمَّا بَعْدُ يَابْنَ حُنَيْفٍ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ، فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ. وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ، فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ.

أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ، أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ، أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ، فَوَاللَّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً »[3].

فهو عليه السلام يبين له بأنه والٍ، أن عليه من منطلق مسؤوليته ووجوده بالحكم أن يساوي نفسه بالفقير وبأدنى الناس، وألّا يقبل الدعوة إلى وليمة يصنعها أغنياؤهم والمنتفعون منهم، أو الذين يخطّطون للانتفاع بهذا الأمر من الولاة أو أصحاب الجاه والسلطة؛ فهذه الوليمة لم تصنع حبّاً له، وإنما صنعها صاحبها ليستغله وليظلم به العباد.

---

(١) هود: ٨٥ ـ ٨٦.

(٢) الاستيعاب ٣: ١١١١ ـ ١١١٢، كتاب الفتوح (ابن أعثم) ٣: ٦٠ ـ ٦١، مناقب أهل البيت عليهم السلام (الشيرواني): ٢١٧ ـ ٢١٨. (٣) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

وأقول له: يا أمير المؤمنين، لقد خرجت من الدنيا وأنت تلبس ألف ثوب من رحمات الله سبحانه، ومن الخلود الذي كتبه جلّ شأنه لك.. ألف ثوب من المشاعر والعواطف التي تتوجّه إليك بها قلوب الناس.. ألف ثوب من المجد صنعتها لك السماء من كل عمل كريم قمت به، وجعلت منك رجلاً لا يمكن أن يصار إلى القول بوجود مثله. لقد خرجت من الدنيا وأثواب الحمد والثناء تظلّلك، وسيبقى الدهر يحمل لك الثوب المتألّق الذي هو نتيجة عدلك وطاعتك. فسلام عليك يا سيدي يا أمير المؤمنين ونصير المستضعفين، يوم ولدت، ويوم استشهدت، ويوم تبعث حياً.

وأقول: إن الواقع يقرّر أن كثيراً من الناس ممن لبس الملابس المزركشة هم في حقيقتهم عراة؛ لأنها ثياب دون أخلاق، ودون عمل كريم يحفّ بها:

وإن من لم تلفّعه خلائقه عارٍ وإن لفّعته البُرد والهدمُ

وهكذا فإن ما لا لَبْس به أن من يلبسْ ثوباً من الأخلاق والإنسانية والعدل هو الإنسان الكاسي، وبخلافه ـ أي من لم يلبس ثوب الأخلاق والإنسانية والعدل والأدب والدين ـ فإنه يظل عرياناً وإن كان عليه ما لا يعدّ ولا يحصى من الثياب الدنيوية؛ لأن هذه الثياب الدنيوية زائفة وزائلة، وبالتالي فإن حقيقة زيفها سوف تظهر للناس وتصبح على مرأى منهم.

رجع

إذن فالآية الكريمة تقول: إن هؤلاء حتى ولو كانوا مشركين فإن الله عزّ وجلّ لا يعجّل عليهم بالعذاب أو العقاب ما دامت أُمور العباد عندهم تسيّر بالعدل والإنصاف، وما دامت حقوقهم محفوظة. وهذا هو السبب في أننا نرى هذه الدول ينهمر عليها المطر انهماراً، في حين أننا على الضدّ منهم؛ إذ ننتظر أن تجود علينا

السماء بقطرة منه، ولذا فإن هؤلاء راحوا ينعمون بالخيرات والنعم والاطمئنان، حتى عدّت بلادهم من جنان الدنيا.

وكل هذا لأنهم يتبعون العدل في الحكم، ويعملون به بين رعيتهم، ويحرصون على الحفاظ على حقوق الناس، مع أنهم قوم مشركون، ويمارسون أشياء نأباها نحن لأن ديننا يأباها. وليس العدل فقط هو ما يميز هؤلاء، بل إن عندهم من الأدب ما يجعل الإنسان في موقف يطمئن معه على حياته عندهم، فلو أن مريضاً يدخل إلى أحد مستشفياتهم فإنهم سوف يبذلون قصارى جهدهم من أجل توفير العلاج له، والسهر على راحته، ولا يكلّون ولا ينفكّون عنه، حتى يطمئنّوا إلى أن حالته الصحية قد استقرت.

فهم يتعاملون مع المريض بلون عالٍ من ألوان العناية، إذ يتلقّى عندهم الرعاية القصوى، فنجد الطبيب مثلاً يتعامل مع المريض وكأنه أخوه أو أبوه وقد دخل المستشفى، فيصف له العلاج، ويقدم له الرعاية والعناية على هذا الأساس، دون أن يتماهل، أو دون أن يفكّر في اعتبارات أُخرى. وأنا أذكر أن أحد الأشخاص وقعت في أُذنه حبّة من الحِمّص، فذهب إلى إحدى المستشفيات ظانّاً أنها مستشفى حكومية، ولم يدرِ أنها مستشفى أهلية، فعالجوه وأخرجوا هذه الحبة من أُذنه، وبعد أن أكملوا علاجه طالبوه بالأُجور، فأجابهم بأنه كان يظن أن هذه مستشفى حكومية، وأنه لا يملك ثمن هذا العلاج. فما كان منهم إلى أن أعادوا حبّة الحِمّص إلى أُذنه.

فهل هذا التصرّف ينبئ عن حسّ إنساني أو إسلامي يمكن أن يُحمد عليه صاحبه؟ وهل يمكن أن نسمي من تصرّف هذا التصرّف مسلماً؟ مع أننا نعرف أن المريض حينما يدخل بلاد الكفّار ويرى هذا اللون من التناصف والعدل الذي

يرفعه إلى مستوى الإنسان وحفظ كرامته فإنه بطبيعة الحال يستشعر بأنه إنما يتعامل معه على ضوء الدين الذي يعتنقه هو. وبطبيعة الحال فإن هذا هو الدين الحقيقي، في حين أننا لا نجد صفات المجتمع الإسلامي التي تتمحور حول العدل والرحمة والتناصف والمودّة والوئام والأُخوّة في مجتمعنا المسلم، بل إنه غالباً يكون بعيداً كل البعد عن كل هذه الأخلاقيّات التي أمر الله تبارك وتعالى بتحصيلها في المجتمع. فليس هنالك من عدل ولا تعاون ولا تآزر ولا أي شيء من هذا القبيل إطلاقاً.

الرأي الثالث: أنه الظلم المقتصر على النفس

فقوله تبارك وتعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ**﴾، يراد به الظلم المتعلّق بالنفس، أي أن يظلم الإنسان نفسه فقط دون أن يظلم غيره. وهذا كما هو حال الكفّار الذين تكلّمنا عنهم في الرأي الثاني، فهؤلاء إنما ظلموا أنفسهم فقط، لكنهم إنما استعملوا العدل مع غيرهم؛ ولذا فإن الله تبارك وتعالى سوف يحاسبهم على ظلم أنفسهم بتركهم عبادته وبشركهم. أما إذا تعدّى الظلم النفس، وطال مصاديق أُخرى في الخارج، وامتدّ إلى الناس الآخرين فإن على الظالم حينئذٍ أن يترقّب الهلاك، وأن يتوقّع نزول العذاب به.

وفي هذه النقطة إجابة على تساؤل مقدّر، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كلمة له: «**وَوَاللَّهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً؛ الْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ**»[١].

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٧٤.

أي أن أموال الناس ما دامت محفوظة، وحقوقهم مصانة، لم يعتدِ عليهم أحد، ولم يهضمهم حقوقهم وكراماتهم وحرياتهم وإرادتهم، فإني مسالم له، ولا أتحرّك أبداً وإن وقع الظلم عليَّ خاصّة؛ لأن هذا هو ما أبتغي حصوله وإيجاده في المجتمع الذي أمر الله تبارك وتعالى به، أما إذا لم يكن الأمر كذلك فإني حينها سوف أتحرك للمطالبة بحقوقهم. خرج ﷺ ذات مرّة من مسجد الكوفة، فالتقاه أحدهم وقال له: أُريد أن أُخبرك أني لا أُبايعك ولا أخرج معك لقتال، ولا أنصرك ولا أُجيبك، ولا اجتمع معك في جمعة أو جماعة. فقال له أمير المؤمنين ﷺ: «**وأنا لا أُكرهك، ولا أمنع عنك عطاءك ما دام المسلمون منك في أمان**»[1].

مع أن هذا الموقف لو حصل مع أحد حكامنا في القرن العشرين لما كان له جواب إلّا القتل والحرق والإبادة، وقد حصل قريب من هذا الأمر مع المأمون حيث دخل في أحد الأيام أحد الأعراب عليه، وكانت له حاجة عنده، فبدأ يعرض حوائجه على المأمون إلى أن فرغ منها، وكان ينتظر من المأمون جواباً على ما طلب منه، ويبدو أن المأمون كان له سابق وجهة نظر فيه، فالتفت إليه وقال له: إنني أكرهك ولا أُطيقك. فقال: أصلحك الله، إن أعطيتني حقّي فأحبّني أو اكرهني؛ إنما تحتاج إلىٰ الحبّ النساء. وهذا الموقف إذا كان قد اقتصر على قطع الرزق هنا، فإنه لو كان مع الحجّاج وأمثاله لكان جوابه الدم.

فالآية الكريمة تقول: إن ظلم الإنسان نفسه هو ظلم مقتصر عليها، وما دام

---

(١) ذكر ابن حجر في ترجمته لسلمان بن ثمامة الجعفي عن ابن الكلبي أنه قال: كان سلمان اعتزل القتال هو وقوم ارتابوا به، فكان علي يرسل إليهم عطاءهم ويقول: «لا نمنعكم حقّكم من الفيء؛ لأنكم مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا». الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤. في حين أن معاوية بعد وصوله إلى الحكم قطع أرزاق كل من كان شيعة لأمير المؤمنين ﷺ.

كذلك فهو آمن من العذاب والهلاك، أما إذا خرج ظلمه عن هذا الإطار، وامتد إلى محيط أوسع، فشمل ناساً آخرين، فإنه حينئذٍ سوف يكون موضع عذاب الله تبارك وتعالى وغضبه وانتقامه وهلاكه.

الديمقراطيّة والإسلام

يكتب أحد الكتّاب فيقول: أين تسامح المسلمين وهم إذا ما حاول أحد بيان وجهة نظره، عبّروا عنه بأنه مرتدّ كافر، وحكموا بقتله؟

والجواب على هذا أننا لا نتعرض له، ولا نعبّر عنه بأنه مرتد ما دام هذا الاعتقاد قابعاً داخل ذهنه وفي نفسه، أما إذا أخرجه إلى عالم الوجود فإنه حينئذٍ سوف يكون للمسلمين معه تعامل آخر؛ لأن الشعب الذي يعيش فيه هذا الإنسان هو شعب مسلم، وعليه فإن الذي ينبغي على هذا الشخص هو أن يحترم عقيدة هذا الشعب، فإذا ما فعل ذلك واحترم عقائد الناس فإنه سوف لن يتعرّض له أحد بسوء. أما إذا ما تجاوز هذه المرحلة فتجاهر بالكفر بالله تبارك وتعالى، فإنه حينئذٍ لا يمكن للمسلمين أن يغضّوا الطرف عنه وإن طلب هو ذلك منهم؛ لأن هذا الشخص في هذا التصرف إنما يكون قد اعتدى على أُمّة بكاملها.

وفي الواقع فإن مثل هذا هو الذي يعتدي على حرية الأُمّة، وليست الأُمّة هي التي تعتدي على حريته، فهو بارتداده يكون قد اعتدى على حرية شعب كامل يعتنق ذلك الدين، ويتبع تلك العقيدة. فالمسلم الذي يعتقد بوجود الله تبارك وتعالى حينما يبدأ بتطبيق لوازم هذا الاعتقاد فإنه سوف لن يؤثر على الآخرين، ولن يقف في طريق تقدّمهم وتطوّرهم؛ ولذا فإنه لا يمكن لمسلم أن يمنع مشركاً من بناء مصنع بحجة أنه مشرك، أو لأنه كافر بالله تبارك وتعالى، بل إنه لا يحق له هذا، بل إن عليه أن يدعه يفعل بماله ما يريد ويبتغي. وبهذا فإن اعتقادنا بهذه

العقيدة التي نتبعها لن يقف حائلاً دون أن يتطوّر الشخص المقابل، أو يتقدم، أو أن تزدهر حياته.

إذن فعقيدتنا لا تقف سداً ولا حائلاً في وجه تطوّر الآخرين، فلماذا إذن يحاربوننا؟ إن هؤلاء يعلمون أن التزام المسلمين بدينهم لا يقف في طريق طموحاتهم التي يجب أن تحترم مشاعر الشعوب الأُخرى، بل وحتى على مستوى طموحات الأفراد الذي يعيشون في مجتمع، فإن على هؤلاء الافراد أن يحترموا مشاعر ذلك الشعب، وأن يحترموا عقيدته، وألّا يسيئوا إليه بإعلانهم الكفر أو بالمروق عن متبنّياته الدينية أو الفكرية؛ لأن ذلك يترتّب عليه إساءة وإهانة لهذا الشعب بكامله. ولهذا فإن النبي الأكرم ﷺ يقول: «إذا بليتم بالمعاصي فاستتروا»[1].

تطاول هذا الليل وازورّ جانبه

يروى أن الخليفة الثاني خرج في ليلة من الليالي يجول في طرقات المدينة فسمع امرأة تغني:

تطاول هذا الليل وازورّ جانبه	**وليس إلى جنبي خليل أُلاعبُه**
فوالله لولا الله تخشى عواقبه	**لزعزع من هذا السرير جوانبُه**
مخافة ربّي والحياء يصدني	**وأكرم بعلي أن تنال مراكبُه**
ولكنني أخشى رقيباً موكلاً	**بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبُه**

فتسوّر على البيت ودخل فوجد رجلاً جالساً مع امرأة تغني، وعلى يد الرجل قدح، فقال عمر: من هذه منك؟ قال: امرأتي. قال: وما في هذا القدح؟ قال: ماء

---

(١) كشف الخفاء ١: ٢١١ / ٨٤.

زلال. فقال ثم التفت إليه عمر فقال: يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت في معصيته؟ فقال: وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل علي، إن أكن عصيتُ الله بواحدة فقد عصيتَ الله في ثلاث: قال: ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا**﴾[1] وقد تجسست، وقال: ﴿**وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**﴾[2] وقد تسورت علي، وقد دخلت عليّ بغير إذن، وقال الله تعالى: ﴿**لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[3]. قال عمر: فهل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم، فعفا عنه، وخرج وتركه[4].

فهو يقول له: إنني سمعت أبياتاً نابية اضطرتني إلى الدخول، وأنت في بيتك لك أن تفعل ما تريد لكن على ألّا تمسّ وجود الجماعة، ولا تسيء إلى العفّة والعفاف داخل المجتمع ولا تعرّضه إلى الانهيار، ومادمت لا تؤذي أحداً فإنه ليس لأحد أن يقرب منك أو يمسك بسوء أو يؤذيك. ولهذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام لم يبدِ أي تذمّر إلّا عندما أفضت الخلافة إلى عثمان بن عفان وانتهى إليه أمر كرسيّها؛ لأنه لم يكن سوى علامة في الحكم لا أكثر من ذلك، أما الذي كان يدير شؤون الحكم ويدبّر أُمور الأُمّة والدولة فهو مروان وجماعته. وهكذا انتهت المسألة إلى هذا المستوى من التدنّي؛ لأن مروان كان يحكم بعصبيته بعيداً عن رضا الله تبارك وتعالى، وبعيداً عن تشريعاته، وعن قواعد رسالة الإسلام، وعن أخلاق نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) الحجرات: ١٢. (٢) البقرة: ١٨٩.

(٣) النور: ٢٧.

(٤) تفسير مجمع البيان ٩: ٢٢٥، تفسير الثعلبي ٩: ٨٣، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٣٣٣ ـ ٣٣٤، كنز العمّال ٣: ٨٠٨ / ٨٨٢٧، المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ٩٤.

نفي أبي ذرّ رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله

فهنا فقط اضطرّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى أن يتحرّك، لكنه كان تحرّكاً مدروساً، وضمن نطاق معيّن تراعى فيه مصلحة المسلمين مراعاةً تامّة، لكن مروان كان يتدخّل في كل شيء، حتى إنه حينما حدث صراع بين عثمان وبين أبي ذر رضي الله عنه، قال عثمان: أشيروا عليّ فيه. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أما أنا فأُشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾**[1]...».

فقال عثمان: التراب بفيك يا علي. فقال علي: «**بل بفيك يا عثمان، أتصنع هذا بأبي ذر وهو حبيب رسول الله صلى الله عليه وآله، في كتاب كتبه إليك معاوية من قد عرفت ظلمه؟**». فأمسك عثمان عن أمير المؤمنين عليه السلام[2].

ثم أقبل على أبي ذر فقال: والله لا جمعتني وإياك دار، قد خرفت، وذهب عقلك، أخرجوه من بين يدي حتى تركبوه قتب ناقته بغير وطاء، ثم انخسوا به الناقة، وتعتعوه حتى توصلوه الربذة، فأنزلوه بها من غير أنيس، حتى يقضي الله فيه ما هو قاض. فأخرجوه بالعصيّ، ونادى منادٍ ألّا يشيعه أحد من الناس. فخرج أبو ذر وحيداً، فبلغ ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فبكى حتى بلّ لحيته بدموعه، ثم قال: «**أهكذا يصنع بصاحب رسول الله صلى الله عليه وآله؟ إنا لله وإنا إليه راجعون**».

فهذا واحد من التصرّفات التي لم ترضِ أمير المؤمنين عليه السلام، فخرج إليه ليودّعه، وكان معه الحسنان عليهما السلام وسلمان والمقداد وعمار، هذه المجموعة التي ربيت على يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى يدي أمير المؤمنين عليه السلام؛ ولذا فإنهم يعدون رعيل علي

---

(١) غافر: ٢٨.

(٢) كتاب الفتوح (ابن أعثم) ٢: ٣٧٥.

ابن أبي طالبعليه السلام، حتى لحقوا أبا ذر، فشيعوه. فلما بصر بهم أبو ذررضي الله عنه حنّ إليهم وبكى عليهم، وقال: بأبي وجوه إذا رأيتها ذكرت بها رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم، وشملتني البركة برؤيتها. ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني أُحبّهم، ولو قطعت إرباً إرباً في محبتهم ما زلت عنها ابتغاء وجهك والدار الآخرة. ثم قال: ارجعوا رحمكم الله، والله أسأل أن يخلفني فيكم أحسن الخلافة. فودعه القوم وهمّوا بالرجوع، وهم يبكون على فراقه[1].

وهنا تقدّم مروان بن الحكم إلى أمير المؤمنينعليه السلام وقال له: أليس قد أمر الخليفة ألّا يخرج أحد مع هذا الشيخ، ولا يشيعه أحد من الصحابة؟ فرفع أمير المؤمنينعليه السلام قضيباً كان في يده فضرب به بين أُذني بعير مروان، ثم قال: «**إليك عنا يابن الزرقاء، أمثلك يعترض علينا في الذي نصنع؟**»[2].

ثم التفت أمير المؤمنينعليه السلام إلى أبي ذر فواساه بقوله، وهي كلمة نص عليها المؤرخون: «**يا أبا ذر، إنك غضبت لله فارجُ من غضبت له، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعتهم، وما أغناك عما منعوك! وستعلم من الرابح غداً، والأكثر حسداً. ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقاً ثم اتّقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً، ولا يؤنسنك إلّا الحق، ولا يوحشنك إلّا الباطل. فلو قبلت دنياهم لأحبوك، ولو قرضت منها لأمنوك**»[3].

فمضى أبو ذر حتى صار إلى الربذة، ولم يزل مقيما بها يغشاه الصادر والوارد من الحاجّ وغيرهم، فيعرضون عليه الحوائج فلا يقبل من أحد شيئاً، إلى أن

(١) الأمالي (المفيد): ١٦٤ ـ ١٦٥. (٢) نهج البلاغة / الكلام: ١٣٠.
(٣) نهج البلاغة / الكلام: ١٣٠.

حضرته الوفاة وأصابه بها قدره، ولم يكن معه أحد إلّا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن غسّلاني وكفّناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق. فجعلت امرأته أُم ذر تبكي تحت رأسه، فقال لها: ما يبكيك يا أُم ذر؟ قالت: أبكي لضيعتك هاهنا في أرض غربة وأنا امرأة ضعيفة غريبة، وأخاف أن أعجز عن أمرك. قال: لا تبكي يا أُم ذر، فإن رسول الله ﷺ خبرني أني أموت في أرض غربة، ويلي أمري ودفني قوم صالحون، ولكن انظري يا أُم ذر إذا أنا متّ فاستعيني بمن يذبح لك شاة من غنمي فاطبخيها، والزمي قارعة الطريق، فإذا مر بك نفر من أهل الإسلام فقولي لهم: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ قد قضى نحبه ولحق بربه، فواروه رحمكم الله. فإنهم سيلون أمري ، فإذا فرغوا من أمري فأطعميهم الشاة، ثم انصرفي إلى المدينة فكوني بها إلى أن يأتيك الموت كما أتاني.

ثم توفي أبو ذر ﵁، فجلست امرأته عند رأسه مغمومة بأمره، وقد اصطنعت الشاة كما أمرها أبو ذر، فإذا هي برهط قد أقبلوا من بيت الله الحرام، منهم مالك الأشتر بن الحارث النخعي، فنظروا إلى امرأة قاعدة على قارعة الطريق، فلما دنوا منها وثبت قائمة وقالت: يا هؤلاء، هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ قد قضى نحبه، ولحق بربه، وقد عجزت عن أمره، وما أدري ما أصنع. تقول زوجته: فضج القوم بالبكاء والنحيب، وفدوه بالآباء والأُمهات، ثم قالوا: رحم الله أبا ذر، وصلى على روحه.

ثم نزلوا عن رواحلهم وأخذوا في غسله ثم تنافسوا في كفنه حتى جعلوه من جماعتهم، وأخرج بعضهم حنوطاً فحنطه ثم كفن، وحفرت له حفيرة وصلوا عليه وألحدوه في حفرته. فلما سووا عليه التراب قام الأشتر على قبره عند رأسه، ووضع يده على حسامه، ثم حمد الله وأثنى عليه، وذكر نبيه محمداً ﷺ، ثم

قال: اللهم هذا أبو ذر جندب بن جنادة بـن سكـن الغـفاري صـاحب رسـولك محمد ﷺ، اتبع ما أنزلت من آياتك، وجاهد في سبيلك، ولم يغير ولم يـبدل، ولكن رأى منكراً فأنكره بلسانه وقلبه، فحقر وحرم حتى افتقر، وضيع حتى مات غريباً في أرض غربة، اللهم! فأعطه من الجنة حتى يرضى[1].

وهكذا كان مروان يتدخّل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الدولة، وهو الذي أزّم الوضع إبّان تلك المرحلة، غير أنه أزمه أكثر حينما اشتكى أميرَ المؤمنين عليه السلام إلى الخليفة الثالث وما فعله عليه السلام معه؛ ممّا أدّى إلى أن يعاتبه عثمان.

كل هذا أوجب على الإمام عليه السلام أن يتحرك وإن كان تحركه في حدود حـذرة غاية الحذر؛ لأنه عليه السلام كان يضع نصب عينيه أن التحرك يـنبغي ألّا يشـق وحـدة المسلمين، وألّا يبذر بينهم بذرة الشقاق والتفرقة.

بين مصيبة الإمام الحسين عليه السلام وأبي ذر رضي الله عنه

وأقول: إن زوجة أبي ذرّ حينما رأت أبا ذرّ يحتضر وقفت على قارعة الطريق واستثارت مشاعر المسلمين وقالت لهم: هذا أبو ذر صـاحب رسـول الله ﷺ، فانتدب لها جماعة من صلحاء المسلمين، وغسّلوه وكفّنوه ودفنوه. ولكن العقيلة زينب عليها السلام أُخت الإمام الحسين عليه السلام سيد شباب أهل الجنة وابـن رسـول الله ﷺ وقفت على مصرعه يوم العاشر من المحرم الحرام، وتلفّتت يـميناً وشـمالاً، ثـم صاحت: «ويحكم، أما لهذا المسجى من عشيرة؟ أما فيكم مسلم يـواري هـذا الغريب؟ أما فيكم موحّد يدفن هذا السليب؟». فلم ينتدب لها أحد، فوقفت تقلّب طرفها، وتدير وجهها يميناً وشمالاً، ثم التفتت إلى أهلها إلى جهة المدينة، ونادت:

---

(١) كتاب الفتوح ٢: ٣٧٦ ـ ٣٧٧، وانظر: السيرة النبوية (ابن هشام) ٤: ٩٥١، عيون الأثر ٢: ٢٥٧ ـ ٢٥٨، السيرة النبوية (ابن كثير) ٤: ١٥.

قَـوِّضِي يـا خـيامَ عَـليا نِزارِ　　　فَـلَقَد قَـوَّضَ العِـمَادُ الرَّفِـيعُ
وامـلأي العـين يـا أُميّة نـوماً　　　فحسين على الصعيد صـريع [1]

* * *

تـعالوا لبـنكم غسـلوه　　　مهو عزيزكم چاليش عـفتوه

وهي عليها السلام لم تستطع أن تخرج أثناء النهار لأن وصية أخيها الحسين عليه السلام لا زالت ترن في أُذنها، فخرجت عندما جن عليها الليل:

منهو انصدع يا بين صدعي　　　لهـدات تسـعر تـحت ضلعي
أخـبي عـن الشـمّات دمـعي　　　واضمّ ونّتي حتى على سمعي
واذكرك بنصّ الليل والعِي

* * *

أُأخـي مـا عـودتني مـنك الجـفا　　　فعلامَ تـجفوني وتـجفو مـن مـعي
أنـعِم جـواباً يـا حسـينُ أمَا تـرىٰ　　　شمرَ الخَنا بالسَّوط ألهبَ أضـلُعي

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلي ١: ٣٦.

﴿٢٣٤﴾

دور العلم في الحياة العامّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الجاليات الأجنبية في الجزيرة العربية

لقد ابتليت شبه الجزيرة العربية من عهود سحيقة وأزمان قديمة بوجود الجاليات غير العربية على أرضها، مثل العبرانيين وبعض المسيحيين الرومان من مختلف الأقطار المسيحية واليهودية، ومثل الأحباش وما إلى ذلك، مما أدّى إلى تكوّن جالية أجنبيّة كبيرة سكنت في هذه الجزيرة العربية. وهذه الجالية في الواقع كانت قد وضعت يدها على كل كنوز البلاد؛ سواء الكنوز المعرفيّة، أو الكنوز المادية.

---

(١) يونس: ٩٣.

وبناء على الوضع المعرفي والمادي الذي وصلوا إليه فإن هؤلاء عزّ عليهم أن يُبعث نبي من غيرهم، ليسحب البساط من تحتهم، فيصبحوا أُمّة ذات مكانة متخلّفة لا أثر لها ولا قيمة، بعد أن كان الثقل الكبير في هذا المجال، وكان لهم الحل والعقد، وتسيير الأُمور، وبعد أن كان تدبير السياسات بأيديهم هم؛ فكانوا بهذا يشار إليهم بالبنان على أنهم المراجع العلمية في هذه البلاد، سيما اليهود الذين كانت البؤر العلمية تعدّ محصورة بهم؛ بحيث إنهم إذا أراد أحد ما أن يسأل سؤالاً، أو كان عنده استفسار حول مسألة معينة فإنه يأتيهم باعتبارهم أهل كتاب عندهم التوراة، وما نسجوه حول التوراة من أساطير وأحداث تاريخية، وعندهم علماء مختصون في هذا المجال.

أثر هذه الجاليات في الفكر الإسلامي

وهذا هو السبب الرئيس الذي من أجله تغلغلت بعض الأفكار اليهودية في حياة المسلمين، وكتاباتهم ومؤلفاتهم، فهناك مجموعة من الرواسب اليهودية التي لوّنت التراث الإسلامي بلونها الخاصّ، وطبعته بطابعها الخاص المتميّز. وسيمر بنا بيان هذا المعنى إن شاء الله تبارك وتعالى خلال المباحث القادمة. كما أن هناك مجموعة كبيرة من هذه الرواسب ظلّت عالقة في أذهان بعض الرواة الذين أسلموا، فحملوها إلى التراث الإسلامي، ومرّروها عبر اعتناقهم هذا الدين الجديد إلى أفكار المسلمين، وإلى مروياتهم.

المبحث الثاني: لماذا «مبوّأ صدق»؟

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾، والمبوّأ في اللغة هو المكان، فـ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ تعني: منزلاً صالحاً مرضياً.

ولنا هنا أن نتساءل عن السبب الذي من أجله عبّر القرآن الكريم عن هذا المبوّأ بأنه مبّوأ صدق.

ونقول: بدايةً نشير إلى أن المراد من الـ﴿مُبَوَّأ﴾ هنا هو المكان الذي كان فيه بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع، وهؤلاء كانت منازلهم بين الشام والمدينة(١)، وكانت من أخصب المنازل؛ فقد كانت تكثر فيها عيون الماء والبساتين، وكانت الأرض معشبة، والأرض إذا كانت من هذا النوع فإن العرب يسمونها أرض صدق؛ لأن من عادتهم أنهم إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق(٢).

فالقرآن الكريم يقول: إن هذا المكان الذي كان يعيش فيه هؤلاء كانت نعمه كبيرة، لكنهم لم يشكروا هذه النعم، ولم يشكروا الله تبارك وتعالى ويعبدوه على ما أولاهم منها، وعلى ما أعطاهم من جزيل نعمه.

والحقيقة أن الله تبارك وتعالى إذا أنعم على بلد ما بخيراته، وأعطاه أرضاً خصبة معشبة، ومياهاً ثرّةً كثيرة، فلا شك أنه يعطيه فترة من الحياة نستطيع أن نعبّر عنها بأنها سعيدة ولو بشكل نسبي، وهذا بخلاف من يعيش في صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا زرع؛ لأن الله تبارك وتعالى قد قسم الأرزاق بين عباده؛ ولهذا فإننا قد نرى مثلاً هناك من الناس من يرزقه الله تبارك وتعالى أرضاً خضراء ونبعاً جارياً ونعماً كثيرة أُخرى، لكنه قد يحرمه من المعادن مثلاً، في حين أن آخر يحرمه من الأرض الخضراء والمياه الجارية لكنه جلّ شأنه يرزقه خيرات وثروات أُخرى كالمعادن والنفط وغيرها.

وعلى العموم فإن الله تبارك وتعالى قد وزّع خزائنه حسب ما تقتضيه الحكمة

---

(١) التفسير الكبير ١٧: ١٥٨، وفيه: الشام ومصر.

(٢) انظر: التبيان ٥: ٤٢٩، التفسير الكبير ١٧: ١٥٨.

وحسب ما تراه المصلحة في عباده، والله سبحانه وتعالى عادل لا يظلم أحداً، فيعطي أُمّة ويترك أمّة، فهو تعالى يعطي في الحدود التي تسمح بها المصلحة، أو التي تقتضيها الحكمة دون أن يترك بلداً من غير ثروات، أو من غير نعم منه عليهم.

فلا شك إذن أن هذا العطاء خاضع لملاك الحكمة كما ذكرنا، لكنّ الذي ينبغي أن يشار إليه هو أن العباد قسم منهم من يرضى بما أُعطي وآخر يطمع أن يحصل على ماهو أكثر مما قُدّر له من رزق، لكن النفس على العموم تميل إلى الأرض الخضراء وإلى المكان المخصب والمعشب وإلى الجنان. كما أنه مما لا شك فيه أن النفس ترتاح إلى مثل هذه المواطن[1]، ولذا فإننا نلاحظ دائماً أن القرآن الكريم يعد الصالحين بما ترتاح إليه نفوسهم وتهفو إليه قلوبهم دائماً: ﴿**جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾[2]، وهذا هو شيء محبّب إلى النفس.

وعلى العكس من ذلك فإن المدينة التي لا تقع على حافة نهر مثلاً قد يُعبّر عنها بأنها بلاد جافّة، أو أن عيشها عيش خشن إلى آخره.

جنة النجف

وفي المقام أذكر أن أحد الأُدباء حينما يمر بوصف النجف فإنه يقول:

صدق الذي سمّاك في وادي طوى ... يا دار بل وادي طوى وعَرَاءِ

---

(١) حتى قيل:

ثلاثة يذهبن عن قلبي الحزنْ ... الماء والخضراء والوجه الحسنْ

كشف الخفاء ١: ٣٢٤ ـ ٣٢٥ / ١٠٣٦.

(٢) البقرة: ٢٥، آل عمران: ١٥، ١٩٥، ١٩٨، النساء: ١٣، ٥٧، ١٢٢، المائدة ١٢، ٨٥، ١١٩، التوبة: ٧٢، ٨٩، إبراهيم: ٢٣، الحج: ١٤، ٢٣، الفرقان: ١٠، محمد: ١٢، الفتح: ٥، ١٧، الحديد: ١٢، المجادلة: ٢٢، الصف: ١٢، التغابن: ٩، الطلاق: ١١، التحريم: ٨، البروج: ١١.

جلست على الأنهار بلدان الورى   فعلام أنت جلست بالصحراء

والنجف قد أعطاها الله تبارك وتعالى جنة من نوعٍ ثانٍ.. أعطاها أمير المؤمنين وسيد العابدين والزاهدين علي بن أبي طالب عليه السلام، ويكفيها هذا في واقع الأمر، فالله تعالى بما أنه حكيم فقد وزّع عطاءه ونعمه على مخلوقاته، وفي أرضه، وأودع في هذه الأرض ثرواته ونعمه الظاهرة والباطنة. وهذا التوزيع خاضع إلى مِلاك المصلحة والمفسدة، أي إلى مِلاك الحكمة. فكل شيء يخطّط له الله تبارك وتعالى هو خاضع لهذا المِلاك؛ لأنه سبحانه يريد الفائدة والنفع لعباده.

إذن هذا المكان الذي يعبّر عنه الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم بكونه: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾، إنما يعبّر عنه بذلك؛ لأنه جلّ شأنه قد حشد في هذا المكان نعماً وخيرات وثروات كثيرة تعدّ أساس النعمة، وأوليات وجودها كالمياه الجارية، والأراضي الزراعية، وجمال المكان، ونقاء الهواء، والمناخ المعتدل، وما إلى ذلك ممّا مرّ بنا ذكره.

رواية أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإخراج المشركين من الجزيرة

لكن هؤلاء بعد أن لم يقدّروا أهمية هذه النعمة أمر الله تبارك وتعالى نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بإخراجهم منها. وأُلفت النظر هنا إلى رواية يرويها البخاري[1] ويرويها جماعة آخرون[2]، وقد رأيتها على ما أذكر في الجزء الثالث من كتاب البخاري الصفحة (٦٥٦) من طبعة سنة (١٣٠٤) هـ حيث يقول في هذه الرواية:

---

(١) صحيح البخاري ٤: ٣١، ٦٦، ٥: ١٣٧.

(٢) انظر: مسند أحمد ١: ٢٢٢، صحيح مسلم ٥: ٧٥، سنن أبي داود ٢: ٤٠ ـ ٤١ / ٣٠٢٩، السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ٢٠٧، مناقب أهل البيت عليهم السلام (الشيرواني): ٣٨٨، وغير هؤلاء كثيرون.

أمرهم بثلاث قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أُجيزهم». أي لا تقطعوا الجائزة التي كنت أُعطيها للوفود. قال: والثالثة إما أن سكت عنها، وإما أن قال: فنسيتها، أو تركها[1].

مناقشة النقل في الرواية

ولنقف عند هذه العبارة، إننا نعرف أنه كان هناك يهود ومسيحيون عبّر عنهم النبي ﷺ بأنهم مشركون، وكذلك الأمر مع القرآن الكريم حيث إنه عبّر عنهم بأنهم مشركون أيضاً. وهذا هو الواقع الذي يستشفّ من الأدلّة التي يذهب إليها بعض فقهائنا الذين لا يقولون بطهارة الكتابيين؛ حيث إن من جملة أدلّتهم أنهم يقولون: إن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قد عبّرت عن هؤلاء بأنهم مشركون، كما أن هناك آية ثانية أُخرى تقول: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[2]، وعن طريق الجمع بين هاتين الآيتين من جهة، أو بين الآية الثانية والسنة النبوية من جهة أُخرى نخرج بنتيجة مؤداها أن الكتابيين هم نجسون.

هذا في الوقت الذي يذهب إليه بعض الفقهاء إلى غير ذلك، فيفرق بين كونهم مشركين وبين نجاستهم، فيقولون: إن النجاسة يحكم بها من دليل آخر، وليس من هذاالدليل.

وعلى العموم فأنا لا أُريد أن أخوض في هذا المطبّ، ولا أن ألج فيه وأتوسّع؛ لأنه ليس من صلب موضوعنا، فهو ميدان واسع؛ له مورده، وله من يكتب فيه مبيّناً صحة ما يذهب إليه بالأدلّة المعتبرة.

---

(١) في مسند أحمد ١: ٢٢٢: «فلا أدري أسكت عنها عمداً. وقال مرّة: أو نسيها. وقال سفيان مرّة: وإما أن يكون تركها، أو نسيها».
(٢) التوبة: ٢٨.

إذن فالقرآن الكريم إنما عبّر عنهم في بعض الأحيان بأنهم مشركون، والسنة الشريفة قد عبّرت عنهم كذلك. وبناء على هذه الرواية فإن النبي الأكرمﷺ قد أوصى المسلمين بثلاث وصايا، وصيّتين ذكرتهما الرواية الآنفة المروية كما ذكرنا عن البخاري وغيره من الرواة، أما الوصية الثالثة فقد نسيها الراوي، أو تركها[١]. وفي واقع الحال أنها وصية معروفة، وهي أنهﷺ أمرهم بأن يولّوا عليهم من بعده علي بن أبي طالبعليه السلام[٢].

موقف القوم من أمير المؤمنينعليه السلام

وهذا أمر غريب جدّاً من هذا الراوي، والأغرب منه أن القوم حينما يمرّون بهذا الرجل العظيم فإنهم يفقدون توازنهم أمام مجريات الأحداث حياله، ووصايا الرسول الأكرمﷺ به، وفضائله التي أثبتها له كلّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرّفة.

حديث الطائر المشوي

ومن هذا حديث الطائر المشوي الذي يرويه الحاكم صاحب (المستدرك)[٣]، وهو حديث اشتهر بين المسلمين، ومن يرغب في معرفة هذا الأمر، والاطّلاع عليه أكثر، فعليه بالرجوع إلى كتب القوم التي ترويه، ومن هؤلاء الدميري في

---

(١) وربما تركها عمداً كما مرّ.

(٢) في الإيضاح أن الثالثة هي قولهﷺ: «أنفذوا جيش أُسامة بن زيد». انظر الإيضاح (ابن شاذان): ٣٥٩ ـ ٣٦٠، وهي تصبّ في المصبّ نفسه الذي يتكلّم عنه المحاضر؛ لأن إنفاذ جيش أُسامة يعني إبعاد من قال: إن رسول اللهﷺ ليهجر، ومن سلب أمير المؤمنينعليه السلام حقّه في الخلافة، وبالتالي يعود الحقّ إليه وإلى توليته.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣١، قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

كتابه (حياة الحيوان الكبرى) في باب (نحام)، تقول الرواية: أُهدي للنبي ﷺ طير يقال له النحام، وكان ممّا يعجبه أكله، فأكله واستطابه، فقال: «**اللهم أدخل إلي أحب خلقك إليك**». وأنس بالباب، فجاء أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: «**يا أنس، استأذن لي على رسول الله ﷺ**».

يقول أنس: فقلت ـ وكنت أُحبّ أن يكون رجلاً من الأنصار؛ فيكون فخراً لي ولقومي ـ: إنه على حاجة، ثم جاء فرددته، فدخل في الثالثة أو في الرابعة؛ فقد سمعه رسول الله ﷺ فقال: «**يا أنس أدخله فقد عنيته**». فدفع أمير المؤمنين عليه السلام في صدره ودخل، وقال عليه السلام: «**يوشك أن يحال بيننا وبين رسول الله ﷺ!**» فلما رآه ﷺ قال: «**اللهم والِ من والاه**». ثم قال له النبي ﷺ: «**ما حبسك عني يا علي؟**»، أو: «**ما أبطأك عني يا علي؟**»؟ قال: «**جئت فردني أنس، ثم جئت فردني أنس**». فقال ﷺ: «**يا أنس، ما حملك على ما صنعت؟**». قال: رجوت أن يكون رجلاً من قومي الأنصار. فقال ﷺ: «**يا أنس، أو في الأنصار خير من علي؟**»، أو «**أفضل من علي؟**»[1].

فأنس بن مالك كان يرغب في أن يكون هذا القادم من قومه؛ كي يكون فخراً له ولهم، وكي يختصّوا بهذه المكرمة من دون المسلمين، فيفخروا بها عليهم. لكن الله تبارك وتعالى أباها إلّا لعلي عليه السلام؛ فكانت فخراً له.

الذهبي وحديث الطائر المشوي

وعلى أية حال فإن ممّن يروي هذه الرواية الحاكم في كتابه (المستدرك)، وهو رجل منصف في كثير ممّا يروي، حتى إنه حينما يجد رواية في أمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ٢: ٣٢٨ ـ ٣٢٩، وانظر: الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٠، أُسد الغابة ٤: ٣٠، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٢٤٩، ٥١: ٦٠، كنز العمّال ١٣: ٣٦٥٠٧/١٦٧.

أو في أهل البيت (سلام الله عليهم) فإنه يرويها كما هي وإن كان هـذا لا يـروق البعضَ بطبيعة الحال. وهكذا فإنه حينما ذكر هذه الرواية في كتابه هذا فكأنما قد نكأ جرحاً للذهبي الذي راح يشنّع عليه نقله لها، معلّقاً على ذلك بالقول في كتابه (التلخيص): «لقد كنت زمناً طويلاً أظن أن حديث الطير لم يجسر الحـاكـم أن يودعه في مستدركه»[1].

---

(١) المصدر غير متوفّر لدينا، انظر حياة الحيوان الكبرى ٢: ٢٣٩. وقد نقل بعضهم عن اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر (الشعراني)، في المبحث الثالث والأربعين. قوله: وقال: «إن طرقه ـ حديث الطائر ـ كلّها باطلة، واعترض الناس عليه حيث أدخله في المستدرك». انظر: نفحات الأزهار ١٤: ١٤٣. وقال في (التذكرة): «وليته لم يصنّف المستدرك؛ فإنه غضّ من فضائله بسوء تصرّفه». تذكرة الحفّاظ ٣: ١٠٤٥.
وقد اختلفت كلمات الذهبي في المقام نقضاً وإبراماً؛ فقد قال في معرض كلامه عن حديث الطير هذا: قال الحسن بن أحمد السمرقندي الحافظ: سمعت أبا عبد الرحمن الشاذياخي الحاكم يقول: كنا في مجلس السيد أبي الحسن، فسئل أبو عبد الله الحاكم عن حديث الطير فقال: لا يصحّ، ولو صحّ لما كان أحد أفضل من علي عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
قلت: ثم تغير رأي الحاكم، وأخرج حديث الطيرفي مستدركه. ولا ريب أن في (المستدرك) أحاديث كثيرة ليست على شرط الصحّة، بل فيه أحاديث موضوعة شان (المستدركَ) بإخراجها فيه. وأما حديث الطير فله طرق كثيرة جدّاً، قد أفردتها بمصنف، ومجموعها يوجب أن يكون الحديث له أصل. تذكرة الحفاظ ٣: ١٠٤٢ ـ ١٠٤٣.
ونقل في (السير) هذا القول، وجواب الحاكم عليه، قال: «فهذه حكاية قوية، فما باله أخرج حديث الطير في (المستدرك)؟ فكأنه اختلف اجتهاده. سير أعلام النبلاء ١٧: ١٦٦ ـ ١٦٩.
ونقل سبط ابن العجمي في (الكشف الحثيث) عنه قال في معرض كلامه عن محمد بن أحمد ابن عياض: روى عن أبيه أبي غسان أحمد بن عياض عن أبي طيبة المصري عن يحيى بن حسان، فذكر حديث الطير، وقال الحاكم: على شرط البخاري ومسلم. قال الذهبي: الكلّ ثقات إلّا هذا؛ فأنا اتّهمه به، ثم ظهر لي أنه صدوق، روى عنه الطبراني. الكشف الحثيث: ٢١٨ / ٦١٩.
كما أنه يتهم الحاكم ـ ولعلّه لروايته حديث الطير ـ بالتشيّع، قال: «قال ابن طاهر: «سألت أبا إسماعيل الأنصاري عن الحاكم فقال: ثقة في الحديث رافضي خبيث. ثم قال ابن طاهر:

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول لأمير المؤمنين عليه السلام: **«لا يحبّك إلّا مؤمن طيّب الولادة، ولا يبغضك إلّا منافق»**[1].

وهذا هو الواقع، ولسنا ندري ما هي الأسباب التي أدّت به إلى اتّخاذ مثل هذه المواقف الشائنة مع هذا الطود الأشمّ العظيم الذي نذر نفسه وكلّ ذرة من ذرّات كيانه القدسي للدفاع عن الإسلام الحنيف، وعن نبيّه الشريف، وعن معتقدات

كان شديد التعصّب للشيعة في الباطن، وكان يظهر التسنن في التقديم والخلافة، وكان منحرفاً عن معاوية وآله متظاهراً بذلك ولا يعتذر منه».

قلت: أما انحرافه عن خصوم علي فظاهر، وأما أمر الشيخين فمعظم لهما بكلّ حال؛ فهو شيعي لا رافضي، وليته لم يصنّف المستدرك فإنه غضّ من فضائله بسوء تصرفه». تذكرة الحفّاظ ٣: ١٠٤٥، سير أعلام النبلاء ١٧: ١٧٥.

ونقل عن أبي سعد الماليني قوله: «طالعت كتاب (المستدرك على الشيخين)، الذي صنّفه الحاكم من أوله إلى آخره، فلم أرَ فيه حديثاً على شرطهما».

ثم قال: «هذه مكابرة وغلوّ، وليست رتبة أبي سعد أن يحكم بهذا، بل في (المستدرك) شيء كثير على شرطهما، وشيء كثير على شرط أحدهما. ولعل مجموع ذلك ثلث الكتاب بل أقل، فإن في كثير من ذلك أحاديث في الظاهر على شرط أحدهما أو كليهما، وفي الباطن لها علل خفيّة مؤثرة، وقطعة من الكتاب إسنادها صالح وحسن وجيد، وذلك نحو ربعه، وباقي الكتاب مناكير وعجائب، وفي غضون ذلك أحاديث نحو المئة يشهد القلب ببطلانها، كنت قد أفردت منها جزءاً، وحديث الطير بالنسبة إليها سماء. سير أعلام النبلاء ١٧: ١٧٥.

هذا مع أن الحاكم لم يتفرّد بنقله كما ذكرنا في مصادر الحديث.

(١) انظر: مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨، صحيح مسلم ١: ٦١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٦، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٨، ونقله الذهبي نفسه فقال ـ بعد أن نقل حديث «من كنت مولاه» وقال عنه: «وهو أصحّ»، أي من حديث الطير ـ: «وأصح منهما ما أخرجه مسلم عن علي قال: «إنه لعهد النبي الأمّي ﷺ إليّ أنه لا يحبك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق»، وهو أشكل الثلاثة». سير أعلام النبلاء ١٧: ١٦٦ ـ ١٦٩.

ونقول للذهبي: إن كنت ترى أنه حديث صحيح، فلم هذا البغض له، والنكوص عنه وإنكار الصحيح الوارد فيه عن رسولنا الأكرم ﷺ في صحاحكم وسننكم؟ وهل تريد أن تكون أحد مصاديق هذا الحديث؟

الإسلام حتى إنه لم يترك معركة للنبيﷺ لم يشارك فيها إلّا واحدة تخلّف فيها بأمر الرسول الأكرمﷺ حيث ولّاه على المدينة؛ لأنهﷺ كان يخشى انقلاب المنافقين واليهود على الأمر فيها. ولو أننا تتبّعنا كيانه ككلّ، فإننا لا نستطيع أن نجد كياناً مثله قد فني في ذات الله تبارك وتعالى، وفي خدمة المسلمين، كما هو الحال معهعليه السلام.

وإذا كان الأمر هكذا فلماذا تكون مواقف المسلمين منه بهذه الصورة المشينة التي ترتدّ سهامها عليهم هم أنفسهم، وليس عليه هوعليه السلام. فهذا الكيان الذي كان يعيش ذلك اللون من الفناء في ذات الله تبارك وتعالى، ومن الدفاع والتضحية في سبيل الدين وخدمته هو كيان يستحقّ أن يُرفع فوق الجميع، وأن يوضع في القلوب، لا أن تمقته القلوب كما هو حال الكثير من المسلمين على مر التاريخ. إن من حقّ أي إنسان أن يتساءل عن الأسباب الكامنة وراء موقف المسلمين من هذا الكيان الضخم، وهذا العملاق في الأخلاق والفداء والتضحية والشدّة في ذات الله، وكلّها صفات ارتضاها الله تبارك وتعالى له.

إن هذا اللون من عدم النزاهة ومن الشدّة في الحقد والبغضاء من هؤلاء لا يدلّان إلّا على سطحيّة صاحبهما، ونكوصه بعد الرسول الأكرمﷺ. وهذا الأمر لازال قائماً حتى الآن؛ حيث إننا نرى الآن أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام لا يأخذ من وسائل إعلامنا حتى مساحة شبر واحد، مع أنها تعطي أُناساً ليس لهم نصيب من العلم، ولا من المواقف المشهورة أو المعروفة، ولا من الشجاعة، ولا من الصفات الحميدة شيء يذكر مساحة عريضة أكبر من حجمهم بما لا يعدّ من المرّات، فيُذكرون ويبجّلون ويرفعون فوق ما يستحقّون، في حين أن هذا الرجل العملاق لا يكاد يُذكر، وإن ذُكر فبإشارة بسيطة مهمّشة، وكلّ ذلك

عن عمد وعن قصد.

وعلى أية حال فإن هؤلاء بمحاولتهم تحجيم دور الإمام علي عليه السلام وإقصائه عن الساحة يكونون قد خدموه خدمة كبيرة، فهذا الموقف الذي حاول فيه الذهبي وأمثاله النيل منه عليه السلام لم يدروا أنهم قد خدموه خدمة جليلة لا توصف بهذا الحقد الذي ينخر أدمغتهم؛ ذلك أنهم قد رفعوه به بين الناس، ورحم الله الشاعر أبا تمّام حيث يقول:

وإذا أرادَ اللـهُ نَشْرَ فضيلةٍ ... طُويت أتاحَ لها لسانَ حسودِ

لولا اشتعالُ النار فيما جاورتْ ... ما كان يُعرَفُ طيبُ عَرف العودِ[1]

وكما أن الطيب والندّ كلّما وضعت عليهما النار كلّما ازداد عطرهما، وانتشر شذاهما الزكي وملأ الأجواء، فكذلك ذكر هذا الرجل العملاق؛ فإنه كلّما وضعوا عليه نار أحقادهم وأضغانهم كلّما عبق طيبه وازداد، وانتشر شذاه يعطّر الأجواء والأكوان خلوداً وتعظيماً له وتقديساً. وكلّما امتدّت له الألسنة بالذمّ والشتم كلّما انتشر ذكره وطار صيته، وانتفع به من يريد أن ينهل من هذا المنهل العذب الصافي، والنمير الفرات الذي يتّصل مباشرة بالنبع الرسالي المتمثّل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهكذا نرى أن الحسد والبغض والشتم كلّها أُمور قد تضافرت على خدمته عليه السلام خدمةً واسعة لا حدود لها.

رجع

وعلى أية حال فهذه الثلاثة التي أوصى بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان من جملتهن الأمر بإخراج المشركين من جزيرة العرب؛ لأنهم في الواقع أُناس يسمّمون أفكار الآخرين، وهذا هو الذي حصل بالفعل.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٣١٦.

دعوة إلى إعادة كتابة التاريخ

وسوف أُبيّن من خلال هذا البحث إن شاء الله تعالى بعض نظرياتهم وآرائهم، وما الذي فعلوه في تاريخنا وفي حضارتنا وفي تراثنا. إن الذي أحدثوه جعل من تراثنا وتاريخنا بحاجة ماسّة إلى غربلته وإعادة قراءته بشكل دقيق وأكاديمي؛ كي نستخلص منه الصحيح، ونطرح منه كذلك ما علق به من أفكارهم المسمومة التي دُسّت عن عمد أو غير عمد في هذا التراث؛ لتشويهه، ومحو معالمه، وتضييع صورته من أذهان الناس.

إن أصابع هؤلاء واضحة في تراثنا، هذا التراث الذي ينبغي أن يكون نظيفاً عن مثل آرائهم ونظرياتهم وأساطيرهم، فالمحقّقون الأكاديميّون من المؤرّخين والكتّاب من كلّ المذاهب الإسلامية قد وضعوا أيديهم على الإسرائيليات وشخصوها بأنها قد سمّمت الفكر الإسلامي، لكن الغريب هو أننا لا نجد من يطالب بإزالتها وإخراجها من هذا التراث، سيما ما يرويه كعب الأحبار وأمثاله الذين لم يكن الرجوع إليهم فريضة مسنونة، أو أنها بأمر من الله تبارك وتعالى؛ حتى يمكن أن يقال: إننا لا نستطيع أن نترك ما ذكره هؤلاء، أو ما سطروه في تراثنا. فلماذا إذن لا تزال آراؤهم باقية حتى الآن تعبث بتراثنا وفكرنا وتعيث فيهما فساداً؟

إننا لا زلنا نلاحظ بعض الكتب تحذف منها روايات بخصوصها؛ لأن هذه الروايات تختصّ بأهل البيت عليهم السلام عند إعادة طبعتها مرّة ثانية [1]، فلماذا إذن

---

(١) ومن هذا أن كتاب ابن قتيبة (الإمامة والسياسة) قد طبع عدّة مرات، وطبعة مصر لعام (١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م) قد فُقد منها بعض الفقرات التي تتعلّق بأهل البيت عليهم السلام، في حين أنها كانت موجودة في طبعات أُخرى سابقة.

لا تحذف هذه الأساطير والآراء الخرافية التي أدخلها هؤلاء إلى هـذه الكـتب، وتطهّر من أمثال هذه الأساطير التي ليس لها من هدف إلّا هدم الفكر الإسلامي؟ ولنا هنا أن نتساءل عن الأسباب التي تقف وراء هـذا الإصـرار عـلى ذكـرها، والإبقاء عليها مع أن المفروض أن هؤلاء لا يوجد في الكون من هو أشدّ عـداء للإسلام منهم[1].

وهؤلاء ليسوا أعداء الإسلام فقط بل هم أعداء الإنسانية بأجمعها، ومع كل هذا فإننا لا زلنا نجد أنهم يؤخذ بآرائهم ويُعمل بها ويعتمد على نظرياتهم فـي الفـقه والتفسير والحديث وما إلى ذلك، فيؤخذ بها أخذ المسلّمات دون أن يكون هنالك وعي واضح لردّها أو تهميشها أو القضاء عليها وتطهير الفكر الإسلامي منها. بل إننا نجد أن الأمر يمتدّ إلى ماهو أكثر من هذا، فنجد أن البعض يعتمد على مثل هذه الآراء الخرافية والأساطير في بيان الأحكام الشـرعية، وفـي الإفـتاء، فـتؤخذ الأحكام الشرعية والفتاوى عن طريقهم أخذ المسلّمات.

المبحث الثالث: هل يحصل الاختلاف مع العلم

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ**﴾، والمقصود بالعلم هنا هو القرآن الكـريم، وبـهذا فـإن الله تـبارك وتعالى قد سمّى القرآن علماً، فكيف اختلف هؤلاء من بـعده؟ إن هـؤلاء كـانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث آخر الزمان منهم، فهم يعرفون بأنه سوف يبعث

وكذا ما حصل مع بعض كتب الصحاح كمسند أحمد، والسنن الكبرى للنسائي بعد أن تلاعب بها السيوطي وحذف منها كثيراً ممّا يتعلّق بفضائل أهل البيت عليهم السلام.

(١) قال عزّ من قائل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ المائدة: ٨٢.

في هذه البلاد في آخر الزمان نبي، وكانوا ينتظرون تلك البعثة؛ لأنهم يظنّون أنه سوف يبعث منهم؛ لأنهم لم يكونوا يظنون بأن الله سبحانه وتعالى سوف يبعث نبياً من العرب الذين يصفونهم بأنهم حفاة عراة، مسكنهم الصحراء، حيث تلفحهم الشمس، ودون أن يكون لهم أي إشعاع حضاري، أو خلفية علمية. وبهذا النمط من التفكير كانوا متيقّنين بأن هذا النبي سوف يكون منهم لا من غيرهم.

وربما يكون هذا المعنى موجوداً حتى عند بعض العرب؛ قريش وغيرهم، ويمكن أن يستدلّ لهذا بأنه ﷺ حينما توجّه إلى الطائف ليدعوهم إلى الله تبارك وتعالى قام إليه شخص يقال له عبد ياليل، فاستقبله وقال له: أما وجد اللّه نبياً غيرك يبعثه؟[1]. وكذلك بنصّ القرآن الكريم حيث يقول: **﴿لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾**[2]، أي أنك فقير مع أن هناك من هو متميز بالغنى والمنزلة الكبيرة، وهو الذي يمكن أن يبعث[3].

الاعتراض على النبي ﷺ بأنه مسانخ لمن بُعث إليهم

إذن فاليهود والمشركون اعترضوا على نبوّة رسولنا الأكرم ﷺ بجملة أُمور، اختصّ اليهود بالأمر الأوّل منها، وشاركوا المشركين فيما تبقّى منها. وهذه الأُمور هي:

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦ ـ ٣٧، تاريخ الطبري ٢: ٨٠، السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٨٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢: ١٥، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١. وهذا يعني أنه كان يعرف بقرب أوان بعثة نبي.

(٢) الزخرف: ٣١.

(٣) أمّا الرجل العظيم الذي هو من مكّة، فالوليد بن المغيرة المخزومي القرشي، وقيل: عقبة ابن ربيعة.، وأمّا الرجل العظيم الذي هو من الطائف، فحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وقيل: ابن عبد ياليل، وقيل: عروة بن مسعود الثقفي، وقيل: كنانة بن عمرو. انظر: التبيان ٩: ١٩٥، تفسير الثعلبي ٨: ٣٣٢.

الأول: أن اليهود أعرق حضارة

فاليهود كانوا يظنّون بأنهم أقدم حضارة وأكثر ثراء علمياً، وأكبر مكانةً من غيرهم، وأكثر وعياً وإدراكاً وعلماً بالكتب السماوية، فلماذا لم يكن النبي منهم؟ ولهذا فإنهم واجهوا النبي الأكرمﷺ بهذا المعنى وبهذا الاستنكار.

الثاني: أنهﷺ يأكل كما تأكل الناس

وأكثر من هذا نجد أنه كان عندهم شيء قد وقر في نفوسهم وهو أن النبي الذي يُبعث يجب أن يتميز ويتصف بصفات ترفعه عن مستوى البشر، ومن هذه النظرة نجد أن مذاهب الغلو قد بدأت تظهر وتنتشر: ﴿**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً**﴾[1]، وهؤلاء طبعاً ليس قصدهم أنهﷺ يأكل الطعام، لكن هذا تعبير مؤدّب من القرآن الكريم عن الحالة البشرية التي تعتري الإنسان وهو يقصد بيت الخلاء.

الثالث: أنهﷺ يعترض الأسواق كعامّة الناس

وكذلك كانوا يعترضون عليه بأنه يمشي في الأسواق، حاله حال غيره، يطلب الرزق، وبما أنه كذلك فهو ليس نبياً من عند الله تبارك وتعالى؛ لأن المفترض بالنبي ـ من وجهة نظرهم ـ أن يتكفّل الله سبحانه وتعالى برزقه وينزله عليه، دون الحاجة إلى أن يخرج إلى السوق. كما أنه ينبغي ألّا يعمل؛ لأن العمل عندهم عار على صاحبه، فهم يظنون أن الإنسان إذا ما أكل من كدّ يده ومن تعبه فإنما يكون قد فعل شيئاً معيباً. وعليه فالواجب حسب رأيهم أن يأكل الإنسان عن طريق الرمح والسيف، بل إن من يأكل بهذه الطريقة يسميه تاريخهم ومؤرخوهم بطلاً.

---

(١) الفرقان: ٧.

وأكثر من هذا نجد أن شاعرهم يفتخر بأن طعامه قد أخـذه عـن طـريق الرمـح والسيف، وأن شرابه من بئر ممزوجة بالدم:

ماذا يريد بنو الهيجاء من رجل … بالجمر مكتحلٍ بـالليل مشـتملِ

لا يشرب الماء إلّا من قـليب دم … ولا يبيت له جار على وجلِ[١]

وعليه فهذا المعنى كان موجوداً عند هؤلاء؛ ولذلك حينما بُـعث النـبيﷺ أخذهم العجب والاستغراب من بعثته، وكيف أن الله تعالى أرسله إليهم، مع ما هو عليه مما يشترك فيه معهم في الأُمور الإنسانية والطبيعة البشرية. وبـهذا فـإنهم قد أنكروا نبوّته، وجحدوا الدين الجديد، وحاربوا الإسلام، وراحوا يكيدون له، بل حشدوا ضدّه كل ما يملكون من وسائل الهجوم والتدمير من أجل القضاء عليه والوقوف بوجه الإسلام، ومقابل نبي الإسلامﷺ والمسلمين؛ كي يقضوا عـلى هذه البذرة الجديدة.

دحض هذه الاعتراضات

وهذه اعتراضات باطلة؛ لأن المفترض بكلّ نبي أن يكون من الأُمّة التي يبعث فيها نفسها؛ كي يفهموا كلامه، وما يأتيهم به من أحكام ونظم، وليقدروا على أن يسألوه وقت يشاؤون ذلك[٢].

إذن فالآية الكريمة تقول: إن هؤلاء قد اختلفوا مـن بـعد مـا جـاءهم العـلم وعرفوه.

---

(١) البيت لأبي سعد المخزومي. الفروسية ١: ٤٩٧، الاستقصا لأخبار دول المـغرب الأقـصى ٤: ١٣٣، نفح الطيب ٤: ٥٤٦، الحماسة المغربيّة ١: ٦٧٠، الأمالي في لغة العرب ١: ٢٦٣، الوافي بالوفيات ١٨: ٣٤٩.

(٢) قال عزّ من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ إبراهيم: ٤، وقـال جلّ شأنه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر: ٢٤.

بصمات يهودية في تفسير القرآن الكريم

وهنا ربما لأحد أن يسأل سؤالاً فيقول: إذا كان القرآن الكريم يسميه علماً، فلماذا إذن نجد هذه الأشياء البعيدة عن القرآن، وعن جو القرآن عند البعض وهو يمارس عمليّة تفسير القرآن الكريم؟

والجواب إن هذا ليس من القرآن في شيء، وإنما هو بصمات يهودية واضحة وضعت على القرآن الكريم لتشويه دوره، وهي ليست منه. وقد وُضعت بفعل ذلك الأثر الذي تركته الإسرائيليات، أو الأساطير اليهودية التي اندسّت في تراث المسلمين وكتبهم، كما أشرنا إلى ذلك مراراً وتكراراً في أكثر من محاضرة. ونحن سوف نذكر إن شاء الله تعالى بعض هذه الأساطير المبثوثة في كثير من كتب الحديث والتفسير، فمنها:

أولاً: أسطورة الجبل المحيط بالأرض

ومن هذا أننا لو رجعنا إلى القرطبي في تفسيره قولَه تعالى: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾، فإننا نجده يذكر روايات عن قوله تعالى: ﴿قٓ﴾، فيقول: هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء اخضرّت السماء منه، مساحته مسيرة خمسمئة سنة، وعليه طرفا السماء، والسماء عليه مقبية، وما أصاب الناس من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل.

ثم قال بعد ذلك: أشرف ذو القرنين ﷺ على جبل قاف، فرأى تحته جبالاً صغاراً، فقال له: ما أنت؟ قال: أنا قاف. قال: فما هذه الجبال حولك؟ قال: هي عروقي، وما من مدينة إلّا وفيها عرق من عروقي، فإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرني فحركت عرقي ذلك، فتزلزلت تلك الأرض. فقال له: يا قاف، أخبرني بشيء من عظمة الله. قال: إن شأن ربنا لعظيم، وإن ورائي أرضاً مسيرة خمسمئة

عام في خمسمئة عام، من جبال ثلج يحطم بعضها بعضاً، ولولا هي لاحترقت الأرض من حرّ جهنم[١].

ماذا يجد من يرصد ديننا من خلال هذه المؤلّفات؟

والحال أن الإنسان اليوم قد مسح وجه الكرة الأرضية كلّه، وأصبح يدور حولها بالطائرة خلال وقت محدود، فلم يجد أثراً لهذا الكلام العجيب، وهو كلام غريب عن جوّ القرآن الكريم، فأين هذا الجبل وهذه الأرض التي تبلغ مساحتها مسيرة خمسمئة سنة في مثلها؟ ولو أن شخصاً أراد أن يطّلع على ديننا من خلال هذه الكتب، ثم يجد فيه أمثال هذه الأُمور فإنه سوف يقول: هل هذه هي معلوماتكم، وهذا هو دينكم؟ وهذا في واقع الأمر إنما جاء كنتيجة حتميّة للتعلق بأُولئك الرواة الذين نقلوا مثل هذه الأساطير والخرافات.

ولسنا ندري لمَ كل هذا التمسّك بهذه الروايات وبأصحابها، مع أنها لو كانت واردة عن أهل البيت عليهم السلام لسلطت عليها الأضواء، ولتوجّه النقد إليها من كل حدب وصوب. والمصيبة أننا نجد أن أمثال هذه الروايات ليست في كتب صغار كتّاب هؤلاء فحسب، بل إنها موجودة في كتب علمائهم وعباقرتهم الذين لا يستطيع أحد المساس بهم، ولا توجيه النقد إليهم. فلو أن أحداً تأمّل في هذه الروايات، ووضع إصبعه على موضع الخلل فيها، لأتاه النذير صارخاً: لا تدخل الشكّ في دينك إلى نفسك وإلى نفوس الآخرين.

لكننا نعتقد بأن ديننا أعزّ علينا من هؤلاء الأشخاص، وهو أكبر في نفوسنا منهم. ونحن لا نعبد أشخاصاً، وإنما نعبد إلهاً، ونقدّس ديناً، وهو أهمّ عندنا، وأوقع في قلوبنا منهم؛ لأنه هويتنا ومعيار وجودنا. وهذا ما يجب أن يصان،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧: ٢.

وليس من المعقول أن نقبل مثل هذا اللون من الكلام الذي إنما يمسّ الدين أوّلاً، ويسيء إليه وإلى مقدّساتنا.

ثانياً: رواية قوة سبعين ألف ملك للفراش

وليعلم بأن الروايات من هذا النمط كثيرة جدّاً، وهي عجيبة وغريبة في بابها، ومنها ما جاء في مورد وصف جزاء الصالحين يوم القيامة والمنازل التي أُعدّت لهم، فتذكر بعض الروايات أنّ هؤلاء يعطون قوّة سبعين ألف ملك، وهي قوّة تصرّف في النواحي الجنسية. ولنا أن نتصوّر هذا اللون من الفكر الذي ينضوي تحته أُناس كثيرون، وعقول جمّة تأخذ به وتروّج له.

ثالثاً: رواية السبعين في وصف جزاء الصالحين

ومنها أن الإنسان المؤمن يعطيه الله تبارك وتعالى في الجنة سبعين ألف قصر، لكل قصر سبعون ألف غرفة، ولكل غرفة سبعون ألف باب... وهكذا تستمر سلسلة هذه الأرقام إلى آخره.

مع أن هذا كلّه لا شيء إزاء رضوان الله تبارك وتعالى، يقول رسول الله ﷺ: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[1]. فإذا كان الإنسان تحت رضوان الله سبحانه وتعالى، يغمره عطفه، وتحتويه رحمته، فإن هذا يكفيه عن كل ما يمكن أن يفكّر فيه إنسان غيره. فهذا هو النعيم الذي ليس بعده نعيم، إذ أن رضوان الله تعالى لا يمكن أن يضاهيه أي شيء آخر في الدنيا أو في الآخرة: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ**﴾[2].

---

(١) مسند أحمد ٣: ٤٣٣ ـ ٤٣٤، صحيح البخاري ٤: ٨٧، ٧: ١٧٠.

(٢) آل عمران: ١٥.

لا فضل لأبيض على أسود إلّا بالتقوى

يروي المفسرون حول قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[1] أنه دخل رجل أسود على النبي ﷺ ـ وكان حديث عهد بالإسلام ـ فجلس بين يديه وقال له: يا رسول الله، إنك لأحبّ إليّ من نفسي، وإنك لأحب إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيّين، وليس لنا ما ننظر به إليك، أو منزلة نصل بها إليك. فقال له النبي ﷺ: «**إنك سوف تدخل الجنة**». فقال له: يا رسول الله، وترى عيناي كما ترى عيناك؟ قال ﷺ: «**نعم**». قال: ولا أُحرم منك؟ قال ﷺ: «**بلى**». فخرج وعيناه تهملان دموعاً[2].

ويروي المؤرخون أن هذا العبد الأسود حينما عُرض للبيع، وكان البياع ينادي عليه: من يزيد؟ كان الغلام يقول: من أراد أن يشتريني، فليشترِني على شرط. فقيل له: وما هو هذا الشرط؟ قال: لا يمنعني من الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ. وكان النبي الأكرم ﷺ مارّاً من هناك، فسمعه يقول ذلك، واشتراه رجل على هذا الشرط، فكان رسول الله ﷺ يراه عند كلّ صلاة مكتوبة في المسجد، ففقده ذات يوم، فقال لصاحبه: «**أين الغلام**»؟ فقال: محموم يا رسول الله. فقال لأصحابه: «**قوموا بنا نعُدْه**».

فقاموا معه فعادوه، فلما كان بعد أيام قال لصاحبه: ما حال الغلام؟ فقال: يا رسول الله، إن الغلام قد قورب به. فقام ﷺ ودخل عليه وهو في نزعه الأخير،

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) قريب منه في إعانة الطالبين ٤: ٣٨٥، ولم يذكر أنه عبد أسود.

فقبض على تلك الحال، فتولّى رسول الله ﷺ غسله وتكفينه ودفنه، فدخل على أصحابه من ذلك أمر عظيم؛ فقال المهاجرون: هجرنا ديارنا وأموالنا وأهلينا، فلم يرَ أحد منا في حياته ومرضه وموته ما لقي هذا الغلام. وقالت الأنصار: آويناه ونصرناه وواسيناه بأموالنا، فآثر علينا عبداً حبشياً. فأطرق النبي ﷺ، ونـزلت هذه الآية الكريمة[1].

ليس منّا من دعا إلى عصبيّة

فهذا الأسود يعبّر عن حبّه وولائه لرسول الله ﷺ بأن قال له: أنا حسبي من النعيم أن أكون إلى جانبك، وأن أراك، ولا يهمني ما الذي سأكون عليه بعدها من حيث اللون أو غيره. وعليه فإننا نقول: إنه لا ضرورة ولا صحّة لما يُدّعى من ألوان التفضيل المبتنية على الأعراق والدماء والألوان التي لا مدخليّة لها من قريب أو بعيد في تحديد أخلاق الإنسان وسلوكيّاته، وفي مكـانته فـي المـجتمع، وفـي فضيلته فيه. وبهذا فإنها تصبح تفضيلات غير مبرّرة أبداً، ومع ذلك فإننا نجد أن الكثير من أمثال هذه التفضيلات المبتنية على الأعراق والدماء أو الأنواع موجودة في بعض كتب التفسير.

ضرورة الإيمان بما في القرآن في حدود ما تبيّنه آياته

إن علينا أن نؤمن إجمالاً بما جاء في القرآن الكريم، وما أشار إليه دون ما لم يشر إليه، أي أن الله تبارك وتعالى سوف لن يسألني عن اسم كلب أهل الكهف، كما فعل أحد المفسّرين حينما كتب صفحات وصفحات يتساءل فيها عن اسمه. إن هذا الكلام ليس له موجب أبداً، ولا ضرورة له، وليس هو ضمن نطاق تكليف

---

(١) أسباب نزول الآيات: ٢٦٥.

الإنسان حتى يمكن أن يقول: إن الله تبارك وتعالى سوف يحاسبني عليه غداً.

إذن فعلى المؤمن أن يؤمن بما هو موجود في القرآن الكريم على نحو الإجمال الذي ذكره القرآن الكريم نفسه، فيؤمن بوجود النعيم وبالوعد الذي بشّر الله تبارك وتعالى به الطائعين، وبوجود الجحيم والوعيد على المعاصي، وعلى فاعليها من العصاة والجاحدين والكفار.

ثم إن في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ إشارةً إلى أن القرآن الكريم وما فيه كله علم ينبغي ألّا يتجاوز، وأن الكتابات والبحوث التي تتناول تفسيره أو تحليله أو بيان مضامينه ينبغي أن تكون علمية أيضاً، ومستمدة من أهل القرآن وليست تفاسير مبتنية على آراء شخصيّة. لكننا ـ ونقول هذا ببالغ الأسف ـ حينما نرجع إلى كتب التفسير لا نجد أنها مصطبغة بصبغة أكاديمية، ولا تأخذ صفة العلم.

وصفة العلم المأخوذة في القرآن هنا ينبغي أن تكون ملموسة على كل مساحات التفسير؛ لأنها هي التي يمكن أن تؤدّي إلى تغيير المجتمعات، ولو أنّ صفة العلم هذه موجودة لتغيّرت مجتمعاتنا كلها. ونحن نرى أن مسألة التطوّر التي حصلت عند الأمم الأُخرى التي شقّت غبار العلم أرضاً وبحراً وجواً، وأصبحت في الحال التي هي عليه من التطوّر والازدهار لم تكن مسألة عفوية، وإنما وصلت إلى هذا الحدّ عن طريق المنهج العلمي الذي اتّبعته فقط. ففي الحين الذي راحت تستفيد فيه هذه الأُمم من كل طاقاتها، رحنا نحن نجترّ تركتنا القديمة، وما خلّفه لنا البعض من أسلافنا من آراء لا صلة لها بالعلم في أي حال من الأحوال مطلقاً؛ لنحاول أن نزمّر له ونطبّل. أما أُولئك فكان نصيبهم أن اتّبعوا المناهج الأكاديميّة التي أوصلتهم إلى قمّة التطور والازدهار، وتسخير موارد الأرض جميعها، بل

حتى تلك الموارد التي أودعها الله تبارك وتعالى في الفضاء لخدمة الإنسان ولتوفير راحته.

إذن فالآية الكريمة تسمي القرآن علماً؛ لأنها تريد من الإنسان بشكل عامّ، والمسلم بشكل خاصّ أن ينتهج الطريق العلمي والأكاديمي في حياته؛ كي يتطوّر، وكي يتمكّن من تسخير الطبيعة ومواردها لخدمته ولصالحه.

المبحث الرابع: لوازم القضاء

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وهنا نقطة تشير إليها الآية، وهي نقطة هامّة وحسّاسة جداً، وهو ما سنبيّنه إن شاء الله.

لماذا يكون القضاء في الآخرة؟

ولأحد هنا أن يتساءل فيقول: لماذا يكون القضاء بين هؤلاء يوم القيامة، وليس في الدنيا؟

والجواب على هذا أن نقول: بدايةً إننا ينبغي أن نتنبّه إلى أن القضاء في واقعه مرتبة من أعظم المراتب؛ لأنها وظيفة تُسترجع بها الحقوق، ويُحقق فيها العدل بين الرعيّة، يقول أمير المؤمنين ﷺ لشريح القاضي: «**يا شريح قد جلست مجلساً لا يجلسه إلّا نبيّ أو وصيّ نبيّ، أو شقيّ**»[1]. وهي كلمة عظيمة تدلّ على عظم الموصوف؛ لأنه لا يجلس فيه إلّا نبي أو وصيّه.

وهكذا فإن القاضي يجب أن يكون على علم وعلى دراية فيما يريد أن يحكم به وعلى قابلية لتوظيف كل مدارك القضاء فيما يقضي به، وكذلك يجب أن يكون على ورع وتقوىً ونزاهة حتى يقضي بالحقّ، ولا يميل إلى جانب ضدّ جانب

---

(١) الكافي ٧: ٤٠٦ / ٢، الفقيه ٣: ٥ / ٣٢٢٣.

لاعتبارات أُخرى غير الحقّ، كاعتبارات القرابة وما إلى ذلك[١]. والقاضي ما لم يكن نبهاً عارفاً بحيثيات الدعوى التي يحكم فيها، فإنه سوف لن يحكم بالحقّ، بل بالباطل، وسوف يضلّ ويظلم.

ولهذا فإننا نقول: إن منصب القضاء هو منصب هام جدّاً وغير عادي، بل إنه منصب إلهي؛ لأن الله تبارك وتعالى قد جعله للأنبياء وللأئمة عليهم السلام. كما أنه منصب جليل؟ لأنه يفصل بين الناس فيما يتعلّق بالحقوق وبالدماء والأموال، وبالمقدّسات، وما إلى ذلك. وما دام يقضي بينهم بمثل هذه الأُمور العظيمة سيما فيما يتعلّق بالدماء والمقدسات، فإنه ـ أي القاضي ـ يجب أن يكون جليل القدر، واسع الاطّلاع، عادلاً منصفاً؛ كيلا يظلم أحداً ممّن يتقاضى عنده، وكيلا يجور عليه؛ فلذلك كان القضاء أمراً جليلاً في نظر الإسلام.

القضاء روح الأمّة

إننا ـ لما للقاضي من صفات، ولما للقضاء من ميزات ذكرناها ـ يمكن أن نطلق عليهما روح الأُمّة؛ لما يشكّلانه معاً على حدّ سواء من أهميّة في مصداقيّة الإسلام، وحياة المسلمين؛ لأن القاضي عادة يكون بيده المزاج الشرعي الذي يحاول تسريته وتمريره إلى أبعاد المجتمع. وهكذا فإن من يتصدَّ للقضاء يجب عليه أن يكون ممّن يفهم الدليل، ويستوعب المدرك الصحيح لهذا الحكم، وأن تكون عنده القدرة على أن يجتهد بحيث إنه يعمل على إن يكون اجتهاده ضمن القواعد العامّة للإسلام فيما لو عرضت عليه دعوىً معينة، وضمن قواعد الاجتهاد

(١) قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «لسان القاضي بين جمرتين من نار، حتى يقضي بين الناس؛ فإمّا إلى الجنّة، وإمّا إلى النار». تهذيب الأحكام ٦: ١٥ / ٨٠٨، الجامع الصغير ٢: ٤٠٣ / ٧٢٣٧، كنز العمّال ٦: ٩٤ / ١٤٩٩٢.

التي قرّرتها حيثيات الشرع، وذكرها علماء الفن في مدوّناتهم، وبخلافه فإنه سوف يعرقل الحياة ويسمّمها؛ إذ لم يحكم بما أنزل الله تبارك وتعالى، ولم يحكم بالعدل بين المتقاضيين..

أقسام القضاء

وهكذا فإننا نجد أن أهمية القضاء كبيرة جداً، وهي أهمية نابعة من دوره الذي يقوم به في المجتمع. ولأهميته هذه نجد أن الإسلام قد تسامح في موارده التي يمكن للقاضي أن يعمل بها وعن طريقها، واعتبرها موارد شرعيّة له. وهذه الموارد يمكن إرجاعها إلى قسمين، هما:

الأول: القضاء عن علم

وهذا هو الأصل فيه؛ حيث إن القضاء يجب ألّا يكون إلّا عن علم وعن قطع بالعنوان الأولي، أي أن القاضي يجب عليه أن يقضي بما هو يقين عنده، وبما يقطع به هو نفسه.

الثاني: القضاء عن ظنّ معتبر

لكن في كثير من الحالات يتعذّر تحصيل اليقين أو القطع في مورد الدعوى، كما هو الحال في بعض الأحيان، حيث يتعذّر تحصيل الجنبة القطعية في المسألة، ولذا فإن الشارع المقدّس هنا يعطي القاضي حينئذٍ صلاحيّة العمل بنوع معيّن من الظن الذي سوّغ له أن يحكم به، حيث خوّله أن يحكم وفق ذلك. وأسمى هذا الظنّ بالظنّ المقبول أو المعتبر. أي أن الشارع قد رضي للقاضي أن يحكم به بين الناس، مع أنه ليس بقطع.

ثم إنه لو أن الشارع المقدس أهمل هذا الظن ولم يعتبره، ولم يعطِه صفة العلم،

فإنه حينئذٍ سوف يحكم بفساد باب القضاء كله؛ لأنه باب قائم على أساس الأُمور الظنية، وليس الأُمور اليقينية؛ لأن من يتولّى القضاء في غالب الأحيان والأزمان هو إنسان غير معصوم وغير مسدّد، أي أن السماء لم تسدّده؛ ولذا وجب المصير إلى القول بجواز أخذ الظن المعتبر هذا في كثير من موارد الحياة عند الإنسان، ومنها باب القضاء الذي نحن في صدد الحديث عنه وبيان صحّة ما نحن فيه، وتطرّقنا إليه عن طريقه.

والظن المعتبر في الشرع له مظاهر وموارد كثيرة متعدّدة، نذكر منها:

الظن الأول: أمارة اليد

وكمثال على هذا الظن المعتبر والمقبول شرعاً مسألة اليد، فالإنسان حينما يرتدي ثوباً فإن ارتداءه إيّاه يعني أنه أمارة على ملكيته له. وبهذا فإنه لو جاءه أحد وادّعى بأن هذه الثياب ليست له، وأنه لا يملكها، فإنه حينئذٍ يمكن أن يجيبه بأنها ملكه وفق قاعدة اليد التي جعلها الشارع أمارة على الملكية، مع أن هذه الأمارة أمارة ظنّية وليست قطعية. وهكذا فإن القضاء لو وصلت إليه المسألة فسوف يحكم بهذه الثياب لمن يده عليها. وهذا حكم بالظنّ الذي نزّله الشارع منزلة اليقين، وليس هو بيقين قطعاً، ولا حكماً به؛ لأن من الممكن أن تكون هذه الثياب في واقع الحال ليست له، وإنما ربما يكون هو قد اغتصبها مثلاً أو سرقها أو حصل عليها من طريق غير شرعي.

فالقضاء هنا يردّ على من يدّعي أن هذه الثياب ليست لمن يده عليها، ويقول له: إنك مدّعٍ، والمدّعي ينبغي عليه أن يجيء ببرهان وبيّنة يثبت بهما عدم ملكيّة صاحب اليد لهذه الثياب. فإن تجئ ببينة، فإنها حينئذٍ يمكن أن تؤخذ منه وتنتزع من ملكيته، وبخلافه فإنها تظلّ على ملكيته لأن الشارع أعطاه مسوّغاً شرعياً

لامتلاكها، وهي أمارة اليد.

أمارة اليد في قضية فدك

ومن هنا يتساءل بعض المؤرّخين فيقولون: لماذا طُلب من السيدة الزهراء عليها السلام البينة على فدك، والحال أن فدكاً كانت بيدها تتصرّف فيها، واليد أمارة على الملكية؟ إن التاريخ يذكر أن السيدة الزهراء عليها السلام كانت تتصرف بفدك، وكل الفلاحين الموجودين فيها قد وظّفتهم الزهراء للعمل على زراعتها واستصلاحها، وهذه أمارة على الملكية. وإذا كان الأمر كذلك فالحال أن من يدّعي خلافه، ومن يدّعِ أن الزهراء عليها السلام لا تملك فدكاً، فعليه هو أن يأتي بالبينة، وليس على السيدة الزهراء عليها السلام ذلك؛ لأن اليد حجة وأمارة على الملكية.

وهذا بطبيعة الحال بغض النظر عن أن السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام معصومة، وأنها من أصحاب الكساء، وأنها من أفراد آية التطهير. ومعلوم أن من كانت كذلك فإنها لا تغتصب شيئاً ليس من حقّها أو ليس هو حقاً لها. ثم لنتنازل ولنفرض أنها عليها السلام امرأة عادية، ويدها في الوقت الحاضر على فدك، فما معنى حينئذٍ أن تطالب بالشهود وهي صاحبة أمارة شرعية على الملكية؟

وعلى أية حال فاليد إذن تعتبر أمارة على الملكية في التشريع الإسلامي، وهي أمارة ظنية كما ذكرنا، ولا تفيد القطع. وهذا الظن قد اعتبره الشارع المقدس، وأعطاه وظيفة اليقين والقطع؛ فيحكم على ضوئه بملكية من يده على شيء له بما أعطاه من صفة النفوذية، فهو ظن نافذ في مؤدّاه؛ وبالتالي يحكم بملكية الشيء لمن يده عليه [1].

---

(١) لقد تناول المحاضر ﷺ مسألة فدك في كثير من محاضراته القيّمة؛ منها ما مرّ في الأجزاء

الظن الثاني: خبر الواحد وتخصيص القرآن به

ومن هذا أيضاً حال خبر الواحد، فخبر الواحد ـ وهو الخبر الذي لم يصل إلى حدّ التواتر ـ لا يفيد علماً، بل إنه يفيد الظن، ومع ذلك فإننا مضطرّون إلى الأخذ به في جلّ أحكامنا الشرعية بعد أن نزله الشارع المقدّس منزلة اليقين؛ ولهذا فإننا نخصّص به كثيراً من عمومات القرآن الكريم، ونقيّد به كذلك كثيراً من اطلاقاته. كما أننا كذلك نخصّص عمومات السنة النبويّة الشريفة، ونقيّد إطلاقاتها بخبر الواحد.

وفي إعطاء الرخصة لنا بتخصيص عمومات القرآن الكريم، والسنة النبويّة الشريفة، وتقييد إطلاقاتهما، وتبيين مجملاتهما بخبر الواحد وفي سائر الأدلّة التشريعية الأُخرى دلالةٌ على أن الشارع المقدس قد اعتبر هذا الظن، وأنه قد أعطاه صفة العلم ووظيفته، وجعله نافذاً؛ لأنه ليس من الظن المذموم الذي ذكرته بعض الآيات الاخرى، والتي ذمّته، وذمّت العمل به، ومن يعمل به كذلك، فهذا الظن ممدوح؛ لأنه قائم على أساس الدليل، وليس ظناً اعتباطياً.

الظن الثالث: الإقرار

فالإقرار باب قضائي قد جعله الشارع المقدس حجةً على صاحبه، مع أنه في واقع الأمر بالنسبة إلينا ظن؛ لأننا لا نعلم بحقيقة الحال، فحينما يأتي شخص أمام القاضي فيقرّ على نفسه بأنه قد قام بالعمل الكذائي، أو قد فعل الشيء الكذائي،

السابقة من هذا الكتاب، ومنها ما هو في هذا المجلّد عينه منه، كما سيأتي في محاضرة (فريضة طلب العلم في الإسلام) حيث تناولهاﷺ بشيء من التفصيل، وأضفنا نحن عليها بعض التعليقات والردود على المنكرين لها، ممّا له علاقة بالمقام، ولم يسع المحاضرﷺ الوقت لذكره وبيانه.

فإن هذا الإقرار يعتبره الشرع حجّة عليه، وبهذا فإنه يرتّب عليه جميع الآثار القانونيّة التي تختصّ بحيثيات تلك المسألة. وبترتيب الآثار عليه، وتطبيقها في حقّه نستنتج أن هذا الظن قد أُخرج مخرج العلم، مع أننا نفهم ونعي وندرك أن الإقرار لا يفيد العلم، وإنما يفيد الظن.

لماذا القضاء بعلم؟

ولو أن سائلاً يسأل فيقول: لماذا أراد الله تبارك وتعالى للقاضي أن يكون عنده علم كي يقضي بين الناس؟

فالجواب على هذا واضح؛ لأن الله تبارك وتعالى حينما كلّفنا، فإنما كلّفنا بعلم، ولكي يخرج الإنسان من عهدة التكليف فإنه يجب عليه أن يكون عنده علم مثله، ويجب عليه أن يخرج بدليل مقبول عند الشارع؛ لأن الله عزّ وجلّ قد وضع في ذمة هذا القاضي، وفي ذمّة غيره التكليف، ولا يمكن أن يُخرج من هذه العهدة ومن هذه الذمّة إلّا بالطرق التي رسمها الله تبارك وتعالى للناس. ولهذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يقول: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنـزَلَ اللهُ فَـأُوْلَئِكَ هُـمُ الْكَـافِرُونَ**﴾[(١)]، و ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[(٢)]، و ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[(٣)].

وبهذا فإن الواجب على الإنسان الموضوعي أن يتّبع الدليل الذي رسمه الله تبارك وتعالى، وهي عماد القضاء، وإن كانت أدلّة ظنية، لكن الشارع المقدّس كما ذكرنا قد نزلها منزلة العلم، وإلّا فإن القضاء يجب أن يكون بعلم في الدرجة الأُولى.

---

(١) المائدة: ٤٤. (٢) المائدة: ٤٥.
(٣) المائدة: ٤٧.

لماذا لا يحكم القاضي بعلمه؟

وهنا قد يسأل سائل فيقول: إذا كان الأمر على هذه الشاكلة، فلماذا إذن يقول الفقهاء: إن القاضي ليس له الحق في أن يقضي بعلمه؟ وهذا كما لو أن شخصاً ادّعى عند قاضٍ على آخر بأن هذه الأموال هي له، وأنه قد اغتصبها منه، وكان القاضي يعلم بهذا الأمر يقيناً؛ لأنه قد رآه مثلاً، أو بطريق آخر من طرق العلم بحيث إن القاضي وحده يعلم بهذه الحقيقة، فهل يجوز لهذا القاضي حينئذٍ أن يحكم بهذا المال لصاحبه، أو أنه لا يجوز له أن يحكم بذلك ما لم تتوفّر عنده الأمارات الظنّية المعتبرة التي أمره باتّباعها الشارع المقدس؟

والجواب على هذا التساؤل هو النفي، ذلك أن هذا الأمر إنما جعله الشارع بهذه الكيفيّة ليحتاط للحقوق والأموال، فإذا ما أغلق هذا الباب فإننا نكون قد حافظنا على الأموال والحقوق التي ترتبط بالآخرين؛ لأنه بفتح هذا الباب فسوف يأتي كلّ قاضٍ ليحكم في القضايا المعروضة عليه ربما بغير وجه حق بدعوى أنه يعلم أن الحقّ في هذه الدعوى لفلان، سيما إذا علمنا أن هناك البعض من الفقهاء ممّن عنده استعداد كامل لبيع كلّ مقدساته أمام بضعة من الدنانير، أو حفنة من الأموال التي يوعد بها.

نعم يمكن للقاضي أن يصبح شاهداً في القضية موضع الدعوى والنظر، أي أن يُعين قاضٍ آخر للقضاء فيها وجعله هو شاهداً فيها. فهنا من حقّه أن يصبح شاهداً في هذه القضية لصالح طرف من طرفي الدعوى. وحينها يمكن له أن يقول: إنني أشهد بأني أعرف أن هذه الأموال له؛ لأن الله تبارك وتعالى أمرنا بألّا نتحرّك إلّا وفق الضوابط العلمية والمنهجيّة الأكاديميّة، أي أن يكون تحرّكنا علمياً ومدروساً، يقول الله تبارك وتعالى: **﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ**

﴿وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[1]؛ وبناء على هذا فإننا نقول: إن القضاء ينبغي أن يأخذ صفة العلم.

المبحث الخامس: الدنيا دار عمل والآخرة دار حساب وجزاء

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

لماذا يتولّى الله القضاء يوم القيامة؟

وهنا لنا أن نسأل: لماذا يقضي الله تبارك وتعالى بين الناس يوم القيامة، وليس في الدنيا؟ والجواب على هذا السؤال يكون من أربعة وجوه:

الوجه الأول: أن القاضي عرضة للخطأ

فكما هو معلوم أن القضاء سيكون بواسطة القضاة الذين يفسّرون النصّ، ويتولّون تطبيقه، وهم الذين يحكمون بين الناس وفق قناعاتهم وما تؤدّي إليه استنتاجاتهم ومداركهم. لكن هؤلاء القضاة الذين يقضون في الدنيا معرّضون إلى كثير من المشاكل؛ فقد يخطئ أحد القضاة في تطبيق القاعدة على مصداقها، وهنا سوف يضيّع حقاً.

الوجه الثاني: أن القاضي عرضة للنسيان

فالقاضي من الممكن أن يقع عرضة لطارئ النسيان، وهو مدعاة لضياع الحقوق كذلك.

الوجه الثالث: طول أمد الدعاوى

ثم إن الدعوى قد تأخذ زمناً طويلاً ربما يستغرق عمر الإنسان، فيموت دون

---

(١) الإسراء: ٣٦.

أن يبتّ في دعواه، وأن ينطق بالحكم فيها، أي دون أن يأخذ حقّه، ودون أن تقرّ عينه بأن يرى حقّه قد رجع إليه.

الوجه الرابع: أن القاضي عرضة للعوامل الجانبيّة

فالقاضي في هذه الحياة يمكن أن يقع تحت تأثير كثير من العوامل والمؤثّرات الجانبيّة والخارجيّة؛ كالعلائق الشخصيّة، والمنافع الدنيويّة، وضغط السلطات، وما إلى ذلك.

إن هذا كلّه ممكن الحصول في الحياة الدنيا وبنسبة كبيرة جدّاً، أما في الآخرة فهذه الأشياء كلها غير موجودة، لأن الله تبارك وتعالى لا يخطئ ولا ينسى [1]، كما أنه تعالى عنده من القدرة على إصدار الأحكام في لحظات؛ لأنه سبحانه وتعالى يقضي بين الناس في تلك اللحظة وفق العدل والعلم الالهيّين، بعيداً عن المؤثّرات الجانبية أو الخارجية التي عادة وفي غالب الأحيان يكون لها وجود واضح وملموس في القضاء في الدنيا، أو لا أقلّ من أن تكون حاضرة في ذهن القاضي وهو يحكم بين الناس.

ونحن نعرف أن هناك في تاريخنا العملي الكثير من القضايا التي ضيّعت فيها الحقوق، والتي ظلم فيها بنو الإنسان، أو صودرت حقوقهم وحرياتهم.

إذن فالله تبارك وتعالى يقول في خصوص القضاء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، حيث لا مؤثرات خارجية، ولا رغبات، ولا ميول أو اتجاهات إلى جانب دون آخر، ولا يأخذ القضاء أو النظر في الأُمور وفي الدعاوى زمناً طويلاً بحيث إن صاحب الحق ييأس من حقّه، وصاحب الباطل يتمادى في غيّه وفي باطله، ويطمع في حقوق الآخرين. كما أن القاضي ـ كما أسلفنا ـ لا يُخطئ

---

(١) قال تعالى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ طه: ٥٢.

ولا ينسى شيئاً من حيثيات الدعاوى التي ترفع إليه فيقضي بها. فهنالك القضاء العدل الذي يعبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾[1].

ونلاحظ من خلال هذا النصّ القرآني الشريف أن القرآن الكريم يعبّر عن ذلك اليوم بكونه ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾، وهو ميقات لا سبيل إلى تأخيره أبداً.. ميقات لابدّ من حصوله، ولابدّ من إقامة العدل فيه بين الخلائق، ولابدّ من إرجاع الحقوق إلى أصحابها حيث يحشر الناس بين يدي حاكم عدل حفيظ لا يغفل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أقسام الخصومات يوم القيامة

والخصومات في يوم الفصل عادة تكون على نوعين:

النوع الأول: ما كانت الخصومة فيه بين العبد وربه

أي أن الشخص يخرج من الدنيا وعنده تقصير في حقوق الله تبارك وتعالى عليه، وتهاون في أدائها وامتثالها. فهو مقصّر ما بينه وبين ربه، ومن موارد هذا التقصير:

أولاً: الاستخفاف في العبادة

فالإنسان ربما يكون مقصراً في صلاته أو في صيامه، أو في عباداته الاُخرى من جهة عدم الاهتمام بها، يروى عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «بينا رسول الله صلى الله عليه وآله جالس في المسجد إذ دخل رجل فقام يصلي، فلم يتمّ ركوعه ولا سجوده، فقال صلى الله عليه وآله: نقر كنقر الغراب، لئن مات هذا وهكذا

---

(١) النبأ: ١٧ ـ ١٨.

صلاته ليموتن على غير ديني »[١].

ثانياً: عدم الخشوع فيها

كما أن الإنسان يمكن أن يقف للصلاة، لكنه لا يشعر أنه يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى، فيتحرك بحركات كثيرة تقلّل من خشوعه وخضوعه لله تبارك وتعالى، أو أنه لا يراعي جانب الحضور القلبي عنده وهو في الصلاة، يروى أن النبي الأكرمﷺ نظر إلى رجل يصلي وهو يعبث بلحيته، فقال: « أما إنه لو خشع قلبه، لخشعت جوارحه »[٢].

ثالثاً: التهاون فيها

ومن موارد التقصير في العبادات أن يتهاون الإنسان بركعة من صلاة، أو بركن منها أو من أركان الصيام، أو بشيء آخر من العبادات التي فرضها الله سبحانه وتعالى عليه وطالبه بالامتثال لها.

لكننا نرجع ونقول: إن الله عزّ وجلّ يمكن أن يعفو عن كلّ هذا وذاك؛ لأنه أرحم الراحمين، كما أن رحمته تسبق غضبه دائماً، سيما مع توبة الإنسان وعزمه على ترك ذلك، والانقطاع في صلاته إلى الله تبارك وتعالى.

النوع الثاني: الخصومة التي بين الإنسان وأخيه الإنسان

وفي مثل هذه الحالة فإن الله تبارك وتعالى سوف لن يسامح الإنسان العاصي،

---

(١) الكافي ٣: ٦ / ٢٦٨، وفي التمهيد ١٩: ٥، نيل الأوطارج ٢: ٢٦٠، ٣: ١٦٨ أنهﷺ رأى رجلاً يصلي، فلم يتمّ ركوعه وسجوده، فقالﷺ له: «ارجع فصلِّ؛ فإنك لم تصلّ». وقالﷺ: «لا ينظر الله عز وجل إلى من لا يقيم صلبه في ركوعه وسجوده».

(٢) دعائم الإسلام ١: ١٧٤، مستدرك وسائل الشيعة ٥: ٤١٧ / ٦٢٣٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٢: ١٩٠ / ٧، كنز العمّال ٨: ١٩٧ / ٢٢٥٣٠.

ولن يعفوَ عنه ما لم يرضَ عنه صاحب الحقّ. وهذا لا سبيل لفضّ النزاع في خصوماته مع غيره من الناس إلّا بإيصال الحقوق التي اغتصبها منهم إليهم، وإرجاع الحق إلى مستحقّيه. فالله تبارك وتعالى عدل، وآلى على نفسه ألّا يظلم أحداً شيئاً. وعليه لابدّ هنا من أخذ الحقّ وإرجاعه إلى أصحابه، أو أن يعفو أصحابه عمّن ظلمهم واغتصبهم حقّهم؛ حتى يمكن أن يعفو الله تبارك وتعالى عن الغاصب أو الظالم.

إن ذلك اليوم لا يضيع فيه حقّ، بل إن الحقوق جميعها تستردّ لأصحابها، فيأتي كل صاحب ظلامة وهو يحمل ظلامته دون أن يتخلّف أحد عن ذلك، ودون أن يمنع أحد عنه، بخلاف ماهو معروف في الدنيا؛ حيث إن كثيراً من الناس لا يتمكّنون من رفع ظلاماتهم إلى الولاة أو إلى القضاة. إن باب الله تبارك وتعالى مفتوح يوم القيامة على مصراعيه للمستضعفين والمظلومين؛ فلا تمنع ظلامة أحد، ولا يحول دون صوته حائل من أن يصل أو يرتفع، ولا يحول دونه ودون أخذه حقّه حاجب أو بوّاب، ولا يمنعه حرسي أو غيره.

كما أننا ذكرنا أنه ليس هنالك من مؤثرات خارجية في ذلك اليوم من الممكن أن تعطي الحق لغير صاحبه، بل إن الناس في ذلك اليوم كلّهم متساوون؛ فالآية الكريمة تقول: **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾**[1].

وينبغي هنا أن نلتفت إلى دقة التعبير القرآني في قوله تعالى: **﴿وَبَرَزُوا﴾**، وهو يعني أن هؤلاء قد انكشفوا، دون أن يغطّيهم شيء أبداً. فالحقّ إذا كان قد غطّاه التزوير في الدنيا، فإن يوم القيامة لا يحجب فيه حقّ عن الله سبحانه، ولا عن

---

(١) إبراهيم: ٤٨.

صاحبه. وإذا كانت المؤثرات الخارجية وكتمان حقوق الناس في الدنيا تغطّي تلك الحقوق، فإنها لا تغطّيها في الآخرة؛ لأنها حينئذٍ سوف تكون صفات غير موجودة؛ فلا كتمان، ولا مؤثّرات أُخرى يمكن أن تميل بالقاضي يميناً أو شمالاً، أو تستهويه إلى جانب دون جانب.

فالله تبارك وتعالى يعلم بهواجس نفس كل إنسان: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1]، وهكذا فإن الظلامات سوف تعرض يوم القيامة على الله سبحانه وتعالى بعد أن يبرز الناس أمامه، وسوف يكون هنالك القضاء الفصل بالحق؛ لأنه تبارك وتعالى لا يشاركه أحد، ولا يتأثّر بشيء من المؤثّرات الإخرى أبداً، فهو تعالى وحده الحاكم العدل الذي يحقّق العدل بين عباده حينما يبرز إليه الناس، فترفع جميع الظلامات عن عباده، فكل من عنده ظلامة يرفعها إليه فيؤخذ بحقه له ممن ظلمه.

السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام تعرض ظلامتها يوم القيامة

إن من ضمن من يرفع ظلامته يوم القيامة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، تقول بعض الروايات: إن فاطمة الزهراء عليها السلام تأتي يوم القيامة وعندها ظلامة، ثم ترفع بيدها شيئاً يجسّد تلك الظلامة التي تريد أن تنتصف لها عند الله تبارك وتعالى وبين يديه، لكن ما هو ذلك الشيء؟ إنه قميص الإمام الحسين أبي عبد الله عليه السلام المخضّب بالدماء.

ولعله هو القميص الذي يروي رواة واقعة الطف أنه عندما رجع آخر مرّة إلى الخيمة دعا بهذا الدعاء: «**اللهم أمسك عنهم قطر السماء، وامنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم**

---

(١) ق: ١٦.

أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا». ثم لما بقيعليه السلام في ثلاثة رهط أو أربعة، نادى أُخته الحوراء زينبعليها السلام، فقالت: «لبيك يابن أم». فطلب منها لباساً عاديّاً، فجاءته بتبّان، فقالعليه السلام: «ذلك ثوب مذلّة، ولا ينبغي لي أن ألبسه». ثم دعا بسراويل يلمع فيها البصر، ففزّرها، ونكثها؛ لكيلا يُسلبها، لكنهعليه السلام لما قتل أقبل بحر بن كعب، فسلبه إياها، وتركه مجرّداً[1].

والتبّان هو نوع من الثياب العادية التي لا قيمة لها تذكر، وقد رفضهعليه السلام؛ لأنه لباس الذلّ والمسكنة، لكن الأعداء الطغاة سلبوه حتى ذاك الثوب الذي خرّقه ومزّقه. وحينما أخرجت الحوراء زينبعليها السلام ذلك الثوب إلى الإمام الحسينعليه السلام وأعطته اياه لمح في عينيها دمعة، فمدّ يده إلى منديله، ومسح به دموعها ثم قال لها: «أُخيّة تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان، اعلمي أن أهل السماء لا يبقون، وأهل الأرض يموتون ولي ولكلّ مسلم برسول اللهصلى الله عليه وآله أُسوة حسنة. أُخيّة تمسّكي بحبائل الصبر»[2].

ثم أمرها بأن تحضر إليه عيالاته ليودّعهم، وقالعليه السلام لها: «عليّ بالعيال لكي أُودّعهم». فتوجّهت السيدة زينبعليها السلام نحو عائلته؛ لتخبرهم بما يريد الإمام الحسينعليه السلام منهم:

قوموا إلى التوديع إن أخي دعا	بجواده إن الفراق طويلُ
فبرزن ربّات الحجال حواسراً	وغدا لها حول الحسين عويلُ
الله ما حال العليل وقد رأى	تلك المدامع للوداع تسيلُ

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، العوالم والإمام الحسين: ٢٨٥، تاريخ الطبري ٥: ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩، البداية والنهاية ٨: ١٩٢.

﴿٢٣٥﴾

التقوى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الإيمان بالله ودوره الإيجابي في الحياة

هذه الآية المباركة نزلت في الدفعة الأُولى من المهاجرين الذين هاجروا إلى الحبشة، وهم جعفر بن أبي طالب عليه السلام والرعيل الروّاد الأوائل من المهاجرين الذين اضطروا إلى الهجرة بعد أن ضيّقت عليهم قريش الخناق. وبعد أن شدّدت عليهم في أُمور دينهم. تقول الآية الكريمة: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وفي هذا المقطع الشريف منها نلج أجواء أول المضامين العالية لها، فالآية الكريمة نعتت هؤلاء بأنهم عباد الله تبارك وتعالى، ومن لا يتنبه إلى هذا الاصطلاح فإنه ربما يظنه أمراً ليس ذا بال أو أهمية، وأعني به كلمة «عباد»؛ ذلك أن عندنا في اللغة

---

(١) الزمر: ١٠.

العربية كلمتين هما «عباد» و«عبيد»، فالعبيد هم المماليك الذين يكونون تحت سلطة مالكهم.

وبطبيعة الحال فإن الله تبارك وتعالى هو الخالق وهو المالك، وهو يملك الأشياء ملكية لا تنتهي أبداً، بل هي ملكية مستديمة بخلاف الأشخاص المخلوقين الذين سوف تنتهي ملكيتهم في يوم من الأيام، بموت، أو بخسارة، أو ما إلى ذلك.

وعليه فالتعبير بكلمة «عبيد» يعني أُولئك المملوكين الذين يتصرف فيهم المالك لهم؛ سواء كان مالكاً بالملكية الحقيقية، أو بالملكية التخويلية والاعتبارية. وبهذا فإنهم في النتيجة المخلوقون الذين يملكهم الله عزّ وجلّ ويملك بيده ضرهم ونفعهم. أما كلمة «عباد»، فهي تأخذ منحىً آخر بعيداً عن منحى كلمة «عبيد»، وبُعداً لغوياً غير ذلك الذي تتخذه هذه الكلمة. فالعباد كلمة مشتقة من العبادة، أي أنهم المخلوقون الذين تعبّدوا بأوامر الله تعالى وبأقواله، والتزموا بمنهجه، ومشوا على ما رسمه تبارك وتعالى لهم.

وهذا معنى «عباد»، وهو معنىً ينبئ عن منزلة كبيرة، ونحن نلاحظ أننا عندما نتشهد في الصلاة فإننا نقدّم أولاً في مقام الشهادة مقام العبودية على مقام النبوة فنقول: **«وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله»**. وفي هذا التقديم مرتبة عظيمة لا ينالها إلّا من يلتفت إليها، ومن هذا ما يروى من أن أمير المؤمنين عليه السلام قد سُئل: أيّهما أفضل لك؛ الجلسة في الجامع، أم الجلسة في الجنة؟ فقال عليه السلام: **«الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة؛ لأن الجنة فيها رضا نفسي، والجامع فيه رضا ربي»**[1]. فرضا الربّ تبارك وتعالى خير من رضا النفس وأولى منه.

---

(١) إرشاد القلوب: ٢١٨، وسائل الشيعة ٥: ١٩٩/ ٦٣٢٥.

فالإنسان حينما يدخل إلى الجنة فإنه إنما يـدخل إرضـاء لرغـباته النـفسية ولمشتهياته، أما دخوله إلى المسجد ففيه رضا الله تبارك وتعالى؛ لأنه جو عبادي تتوجه فيه الجوارح إلى الله جل وعلا بكل خشوع، فتعبده. وهذا هو ما يُتحصل به رضا الله تبارك وتعالى؛ ولذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام يقول بأن رضا الله يجب أن يقدم على رضا النفس.

وما نحن فيه من هذا الصدد، فإننا حينما نـقول: عـبيد الله، فـإننا نـعني بـها المملوكين له، الغارقين بنعمته وعطائه، أما حينما نقول: عباد الله، فإننا نعني أُولئك بها المتمحّضين لعبادته، الملتزمين بأوامره، بل إنهم يلتذون بـتلك العـبادة وذلك الالتزام بالأوامر، فكل وجودهم وكيانهم صلة مع الله تبارك وتعالى.

وبعد أن عرفنا الفرق بين العباد والعبيد نرجع إلى هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة الذي ينعت هؤلاء بأنهم عباد الله تبارك وتعالى، وهي صفة تشريفية، ذلك أن هؤلاء قد هاجروا من مكة إلى الحبشة، فما هي مناسبة تسميتهم بالعباد لأجل تلك الهجرة؟ إن المناسبة بينهما واضحة، فليس هنالك من شيء أعز عند الإنسان ولا أوقع في نفسه من وطنه.. التراب الذي درج عليه وتربى في مغانيه، والهواء الذي تنفسه؛ وبهذا فإن بلده أو وطنه يكون عزيزاً عليه بـغضّ النـظر عـن نـوع التراب الذي يعيش عليه؛ ذلك أنه مرتبط به بشكل وثيق لا يمكن أن يُفصم مادام موطناً له.

وبهذا فلو أن الإنسان انتقل أو نُقل إلى أحسن الأمكنة والبقاع فإنه يظل يحن إلى وطنه وإلى تربته وإلى أرضه حتى وإن كانت تلك التربة وتلك الأرض صحراء جرداء مجدبة. فالأرض التي يولد عليها الإنسان هي التي تـصافح عـينيه كـل صباح، وهو يستيقظ من نومه ليراها وهو يسير على ترابها.

إذن فحينما يأمر الله تبارك وتعالى الإنسان بأن يترك هذه التربة ويهاجر إلى تربة أُخرى، فهذا يعني أن هذا الإنسان سوف يصارع عواطفه ويغالبها، وسوف يغالب حبّه لبلده، ويقهر روحه ويجبرها على هجر وطنه؛ طاعة لله تبارك وتعالى. وهذه التربة هي في واقع الأمر ليست مجرد حفنة من التراب يمشي الإنسان عليها أو ينام فوقها، وإنما هي عبارة عن عشيرة له يعيش بينها؛ فيها له رفيق صبا، وأُسرة، وأهداف وعواطف، وأحزان وآلام وآمال، وما إلى ذلك. وكل هذه الأشياء أواصر تشدّ الإنسان إلى تلك الأرض، وتجعلها تعيش في كيانه، وهي عواطف ومشاعر وحنين، وتجمعها كلّها كلمة وطن.

إذن فالوطن في الواقع هو الحياة، وعندما يجبر الإنسان على الخروج من وطنه فإنه عادة يُجبر على ذلك لسبب شديد جداً؛ ولهذا فإن هؤلاء نعتوا بأنهم عباد الله تبارك وتعالى؛ لأنهم تغلبوا على كل تلك العواطف والمشاعر، وعلى كل تلك الحيثيات التي تشدهم إلى الأوطان، وفضّلوا تركها وهجرها والانتقال إلى وطن آخر امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى وإطاعةً له وتفضيلاً لمبادئهم وعقائدهم عليه. فهؤلاء أطاعوا الله عزّ وجلّ في هذه الهجرة.

ولو أننا رجعنا إلى كتب الفقه عند المسلمين، لوجدنا فيها أن الإنسان إذا لم يتمكن من أن يمارس عباداته وطاعاته وطقوسه الدينية في بلده بأمان وحريّة، وإذا مارس عليه أهل ذلك البلد أو السلطة فيه ضغوطاً من أجل منعه من تلك العبادة ومن أداء طاعات الله تبارك وتعالى، فإنه حينئذٍ يحرّم عليه البقاء في ذلك البلد، وعليه أن يهاجر إلى بلد آخر فراراً بدينه؛ لأن الدين أهم من الوطن.

فصحيح أن الوطن يربّي عند الإنسان بعض المشاعر النبيلة، لكنه مع هذا لا

يصل إلى مستوى الأهمية التي تُعطاها المشاعر الدينية، أو العقيدة مصاحَبة بتلك الأهمية والتي تبعثها في الإنسان أو في المجتمع. إن دين الإنسان أهم من أي شيء آخر، وإذا كان كذلك فإنه يتعين على ذلك الإنسان الهجرة والفرار بدينه من وطنه؛ كي يمارس شعائر ذلك الدين وطقوسه بحرية وأمن دون أن يخشى من أي ضغط يمكن أن يوجه إليه، فيمنعه عن ممارسة تلك الطقوس، أو عن تحقيق حريته وإرادته في العبادة.

وهذا هو الذي تعرض له الرواد الأوائل من المسلمين. فقد كانت قريش تلاحقهم ملاحقة شديدة، وتنعت من ينتمي إلى دين النبي الأكرم ﷺ أي إلى دين الإسلام بأنه قد صبأ إلى دين محمد، وإلى دين الساحر أو الكذاب. وهكذا راحوا يلاحقون هذه الثلة المؤمنة المستضعفة ملاحقة قاسية؛ بحيث إن الإنسان يمكن أن ينهار معها أحياناً؛ ذلك أن الحال قد وصلت مع هؤلاء إلى أن يلقوا الإنسان المؤمن أو المسلم على الأرض، ويُرفع ظهره عن مستواها، ثم يوقدوا النار من تحته.

فهل هناك ماهو أكثر قسوة وإجراماً من هذا؟ وإن كانت وسائل التعذيب واستخلاص المعلومات من المؤمنين التي ابتدعها أبناء القرن العشرين هي ألعن وأشدّ من تلك الوسائل في واقع الأمر، لكن على أية حال فإن أُولئك الرواد الأوائل قد تعرّضوا إلى شتى أنواع التعذيب الجسدي أو النفسي الذي كان يمارس ضدهم، وإلى مختلف صنوف الإرهاب من أجل أن يتركوا عقائدهم ودينهم الجديد الذي اتبعوه، ومارسوا معهم منتهى الشدة من أجل تحقيق ذلك الأمر الذي يريده عتاة قريش وطغاتها. وحينما وصل الأمر إلى هذه المرحلة أمرهم الله سبحانه وتعالى بالهجرة.

المبحث الثاني: أخلاقيات الهجرة والتزام المهاجر

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، فلماذا أُمروا بـالتقوى هـنا؟ وما المراد منها في هذا المقام؟ وماهو النظم بينها وبين المقطع السابق مـن هـذه الآية الكريمة؟ إن المراد من التقوى هنا: هو أن الله تبارك وتعالى يقول لهم: إنكم ستذهبون إلى بلد آخر غريب عنكم من حيث عاداتكم ومعتقداتكم، وعليه فلا تشوّهوا الإسلام هناك بأن تخالفوا قوانينه الأخلاقية؛ بـحجّة أن تـلك البـلاد لا تعيش أخلاقيات الإسلام، بل عليكم أن تحرصوا على إظهاره بصورته الحقيقية التي وضعها الله تبارك وتعالى له، وهي الصورة التي تـحمل الطـابع الإنسـاني، ومبادئ تحرير الإنسان من عبوديته.. عبودية نفسه، وعبوديته للدنيا، وعبوديته للآخرين.

وظائف الأنبياء عليهم السلام

وليعلم أن للأنبياء عليهم السلام عدّة وظائف أناطها الله تـعالى بـهم، ووكّـلهم بأدائـها وتبليغها للناس وهم يؤدّون رسالاتهم ويبلّغونها، نذكر منها:

الأولى: تحرير الإنسان من عبادة ما سوى الله

إن أهمّ وظيفة للأنبياء عليهم السلام وهم يقومون بدور التبليغ وإيصال رسالة السماء إلى الناس هي وظيفة تغيير مسار عبادة الإنسان من عبادة الأصنام والأوثان وكل ما سوى الله تبارك وتعالى، وتحويلها إلى عبادة الله تبارك وتعالى.

الثانية: تحريره من العبودية

فالوظيفة الثانية لهم عليهم السلام هي تحرير الإنسان من عبوديته لنفسه، ومن عبوديته لغيره، ومن عبوديته لهواه وشهواته، وللدنيا، وما إلى ذلك من أشكـال العـبودية

المعروفة التي يمكن أن يقع الإنسان تحت سيطرتها.

إذن فالقرآن الكريم يخاطب هؤلاء المسلمين ويقول لهم: إن عليكم حينما تذهبون إلى بلد غريب ألّا تشوّهوا صورة هذا الدين الجديد الذي أنتم عليه، بل إن عليكم أن تظهروه بأجمل صورة رسمها الله تبارك وتعالى له.

وفي هذه التوصية إشارة إلى ما يمكن أن يحصل من بلاء غالباً حينما تحصل مثل هذه الهجرة، فالإنسان حينما يهاجر إلى بلد آخر بعنوان أنه مسلم نجده يجلب معه كل نقائصه إلى ذلك البلد، وبهذا فإنه سوف يشوّه صورة الدين الذي جاء باسمه وهو دين الإسلام، مع أن عليه أن يحفظ وجه الإسلام وكيانه وسمعته في ذلك البلد الذي سوف يذهب إليه، وعليه أن يظهر الإسلام بأرقى صورة لأبناء ذلك البلد، حتى يكون داعياً للإسلام بهذا الخلق العظيم[1]، وعليه فإذا ما هاجر هذا الإنسان إلى بلد آخر، وهو يحمل الهوية الإسلامية والعنوان الإسلامي على أوراقه، فإن عليه أن يُحسن التصرف والسلوك، وأن يعكس الخلق الإسلامي الراقي والنبيل، بالشكل الصحيح الذي أراده الله تبارك وتعالى، والذي أراد من المسلم أن يتخلّق به، والذي حثّ الرسول الأكرمﷺ على احتذائه، وعلى العمل به، والتخلق بضوابطه؛ كي يعكس الإسلام بأحسن صورة إلى أبناء ذلك البلد.

فإذا ما خالف ولم يفعل، بل إنه فعل ماهو مضاد لذلك بأن تخلّق بأخلاق سيئة

---

(١) قال الإمام الصادقعليه السلام: «أُوصيكم...وأن تكونوا دعاة لنا صامتين» قالوا: وكيف ذلك يابن رسول الله؟ قال: «تعملون بما أمرناكم به من طاعة الله، وتنتهون عما نهيناكم عنه من معاصيه، فإذا رأى الناس ما أنتم عليه علموا فضل ما عندنا فسارعوا إليه. أشهد لقد سمعت أبيعليه السلام يقول: شيعتنا فيما مضى خير من كان؛ إن كان إمام مسجد في الحي كان منهم، وإن كان مؤذن في القبيلة كان منهم، وإن كان موضع وديعة وأمانة كان منهم، وإن كان عالم يقصد إليه الناس لدينهم، ومصالح أُمورهم كان منهم. فكونوا أنتم كذلك، حبّبونا إلى الناس، ولا تبغّضونا إليهم». دعائم الإسلام ١: ٥٧، وانظر شرح الأخبار ٣: ٥٠٦ / ١٤٥١، ١٤٥٢.

غير حسنة، فإنه حينئذٍ سوف يُظهر الإسلام للآخرين على أنه دين ليس فيه أخلاق. وهذا في حقيقة الأمر طعن بالإسلام يمقت الله عليه صاحبه، ولا يرتضي له عملاً معه.

وربما يعترض معترض فيقول: إننا إنما نأخذ الإسلام من رجال الدين الذين يحملون الدين كما هو معروف ومألوف في المجتمع، فإذا كان بعض رجال الدين مخرّفين، ويشوهون صورة الإسلام، فماذا يمكن أن نفعل نحن؟ ومن أين يمكن أن نستقي مصادر الإسلام وموارده وأخلاقياته كي نعمل بها؟ وكيف لنا أن نميّز بين أن يكون تصرف هذا الرجل الديني تصرفاً صحيحاً، وبين أن يكون تصرف ذلك الرجل الديني تصرفاً غير صحيح ما زال كل واحد منهما رجل دين، ويدّعي أنه يحمل الإسلام؟

والحقيقة أن الإنسان أمام هذا السؤال يحير في الجواب؛ ذلك أن البلاء يكمن هنا وينشأ من هنا، مع أننا نقول: إن هذا الكلام غير مقبول البتة؛ لأننا بحمد الله عندنا رجال دين يحملون الإسلام بشرف، بل إنهم هم الشرف بنفسه، وهو متجسّد بهم.. رجال دين كلهم علم وتقوى وإيمان وهدى، وهؤلاء رجال يعيدون في كل تصرفاتهم وكتاباتهم ومعالجاتهم لمشاكل الحياة ومشاكل المسلمين وتعقيدات الحياة العصرية روح الإسلام وحملته بعيداً عن الخرافات والأساطير. كما أنهم معروفون لكل من أراد أن يصل إليهم. ومثال هذا أن الإنسان حينما يعطش ويريد أن يشرب ماء فإنه يبحث عن نبع ماء نظيفٍ وصافٍ ليشرب منه، ويبتعد عن منابع المياه الملوّثة أو الكدرة أو القذرة.

إذن فلماذا يلجأ البعض في مثل هذه الأُمور الدينية إلى أن يقصد منابع المياه الكدرة والملوثة ليأخذ منها؟ إن على هذا أن يبتعد عن المصادر التي ستلوث له

أفكاره، وتسمّم عقله، وتحرفه عن الدين بما تحمل من أساطير وخرافات تحاول أن تنفثها في المجتمع بعيداً عن أهداف الدين الإسلامي الواضحة التي يسعى الإسلام إلى خلق الإنسان المؤمن والتقي والواعي من خلالها.

إذن فالآية الكريمة تخاطب هؤلاء المهاجرين وتقول لهم: إنكم مهاجرون إلى بلد آخر لا يعرف عن الإسلام شيئاً، وعليه فيجب أن ترفعوا اسم الإسلام عالياً، وأن ترفعوا علمه خفّاقاً؛ حتى لا يروا من الإسلام إلّا صورته الحقيقية الناصعة ووجهه الأبيض الذي يمكن أن يستقطب الآخرين إلى الدخول فيه. يقول الإمام الصادقعليه‌السلام للشقراني ـ وكان من ولد شقران مولى رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، وقد خرج العطاء أيام أبي جعفر، فلم يصله منه شيء؛ لأنه لم يكن له شفيع، وبقي على بابه متحيراً، وإذا هو بالإمام الصادقعليه‌السلام فقام إليه وقال له: جعلني الله فداك، أنا مولاك الشقران. ثم ذكر له حاجته، فرحب به، ونزل ودخل ثم خرج وعطاء الشقراني في كمّه فأعطاه إيّاه ـ: **«يا شقران، إن الحسن من كل أحد حسن وإنه منك أحسن؛ لمكانك منّا، وإن القبيح من كل أحد قبيح وإنه منك أقبح؛ لمكانك منّا»**[1].

إن هذا هو الواقع؛ فإن الإنسان إذا ما كان محسوباً على الدين فإنه حينما يُخطئ في تصرّف معيّن فإن الناس لا يقولون: إن هذا الرجل هو الذي أخطأ، بل إنهم ينسبون الخطأ إلى الدين نفسه الذي يمثله هو. وهذا هو الذي يحصل في كل المجتمعات؛ ولذا فإننا نجد أن الآية الكريمة تخاطب هؤلاء المهاجرين الذين

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٦٢، شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٠٥، قال ابن أبي الحديد: قالوا: فانظر كيف أحسن السعي في استنجاز طلبته، وكيف رحب به وأكرمه مع معرفته بحاله، وكيف وعظه ونهاه عن المنكر على وجه التعريض. قال الزمخشري: وما هو إلّا من أخلاق الأنبياء.

قصدوا الحبشة بقولها: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، أي ارفعوا اسم الإسلام عالياً، ولتجعلوا من علمه خفّاقاً مرفرفاً في البلاد التي تقصدونها بما تحملون من أخلاق فاضلة ومن صفات نبيلة يمكن أن تعكس نبل هذا الدين وأخلاقه الحقيقية التي أمر الله تبارك وتعالى بها.

وهكذا فإن على المسلم حينما يحل في بلد آخر أن يرفع العقيدة الطيبة الصحيحة، وأن يمشي وفق ما رسمه الله تبارك وتعالى له ووفق ما أمر به القرآن الكريم بعيداً عن الانحرافات والخرافات، بل على المسلم أن يرمي كل تلك السلبيات وراء ظهره دون أن يعلقها على عاتق الإسلام، فيشوه بها صورته. فالمسلمون الذين أرادوا أن يهاجروا يتوجّه إليهم الخطاب القرآني ويقول لهم: انتم الآن بصدد القيام بهذا العمل العظيم.. العمل الجهادي الذي سوف يرفعكم، وأنتم الآن سفراء الإسلام وممثّلوه؛ ولذا فإن عليكم أن تكونوا أهلاً لحمل هذه المسؤولية التي وُكلت إليكم، فلا تخلّوا بها، ولا بأهداف الهجرة الشريفة التي أنتم مقدمون عليها.

ثم إننا نعلم أن الهجرة لها جنبتان بالنسبة إلى المسلم عامة وإلى المهاجر خاصة؛ وهما:

١ـ الجنبة النظرية.

٢ـ الجنبة العملية.

أي أن الإنسان حينما ينطق بالشهادتين ويعترف ويقر بتعاليم الإسلام وبأولياته ومعتقداته فإنه نظرياً يعتبر مسلماً، لكن على مستوى المعاملة إذا كان هذا المسلم لا يطبّق تعاليم الدين؛ فيكذب، ويتعامل بالغش مع الآخرين وبالسوء، فيسيء إلى هذا، ولا يحسن معاملة هذا، فإن هذا الشخص لا يمكن له أن يمثل

الإسلام بحال من الأحوال، بل إنه يكون على مستوى التطبيق أو على مستوى العمل بعيداً بعداً شاسعاً جداً عن الإسلام الحنيف الذي يرفض كل هذه التصرفات وهذه الأخلاقيات وما يترتّب عليها من ممارسات، وهذا النمط من التعامل مع الآخرين. سُئل النبي الأكرمﷺ عن الدين، فقال: «**الدين المعاملة**»[1].

وهكذا فإننا لا نعرف الإنسان فيما إذا كان متديناً أم لا إلّا إذا تعامل الناس معه حتى يروا طبيعة تعامله معهم، وردة فعله إزاء تعاملهم معه، والا فإن من السهل على كل واحد من الناس أن يجلس في المحراب فترة وجيزة من الزمن، ويتباكى أمام الناس مظهراً نفسه بمظهر أهل الورع والصلاح والخوف من الله تبارك وتعالى، لكن مثل هذا الشخص الذي يتظاهر بهذا ويرائي به ليس من السهل عليه بحال من الأحوال أن يستقيم في تعامله، وفي حياته، وفي سيرته، وفي علاقاته مع الآخرين، فيتعامل معهم على ضوء نظرية الإسلام الأخلاقية التي تعتمد الاستقامة محوراً هاماً في كل تصرفات الإنسان المسلم. وهكذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يخاطب النبي الأكرمﷺ بقوله: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾[2]. ومن هذا فإننا نعرف أن الاستقامة هي التي تحدد مكانة الإنسان في المجتمع، وهي التي تظهر التزامه بالدين أو عدم التزامه به.

المبحث الثالث: جزاء الهجرة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ**﴾، وهذا المقطع الشريف من هذه الآية الكريمة كأنما يخاطب الذين هاجروا فيقول لهم:

---

(١) لم نعثر عليه في المصادر الحديثيّة، والظاهر أنه من مصاديق «رب مشهور لا أصل له»، وقد أورده بهذه النسبة السيد حسن القبنجي والجبرتي، انظر: شرح رسالة الحقوق: ٥٨٦، عجائب الآثار ٣: ١٠٣.

(٢) هود: ١١٢، الشورى: ١٥.

إنكم قد هاجرتم في سبيل الله، وتركتم أوطانكم وبيوتكم وعوائلكم وعشيراتكم من أجل رضا الله تبارك وتعالى، وطلباً لمغفرته؛ وعليه فإن الله تبارك وتعالى قد كتب على نفسه مقابل هجرتكم هذه التي تركتم من أجلها كل عزيز عليكم أن يجعل لكم حسنة. لكن ماهي الحسنة هنا؟ وما المراد منها؟ للمفسرين في معنى الحسنة هنا رأيان:

الرأي الأول: أنها الحسنة في الدنيا

ذلك أن الذي يهاجر في هذه الدنيا سوف يتعرف على أخلاق وطباع وحضارات جديدة هي تلك التي عند أبناء البلد الذي سوف يهاجر إليه، كما أنه سوف يستفيد من تجربة السفر؛ فالسفر عادة فيه فوائد عدة للمسافر[1].

معنى السفر وفائدته

والسفر مأخوذ من السفْر، أي الكشف، فيقولون مثلاً: أسفر الصبح، أي انقشع الظلام عن الوجود، وانكشفت الأشياء وأصبحت تحت مرمى نظر الإنسان وفي دائرة رؤيته. وهكذا فإن السفر يكون فرصة للمسافر في أن تنكشف أمامه عادات تلك البلاد التي سوف يسافر إليها وتقاليدهم، فيتعرف على أشياء كثيرة عندهم. وبعبارة أُخرى فإنه سوف يكون بين يديه كتاب تكويني مفتوح يصف فيه كل أحداثيات الحياة في تلك البلاد، والخريطة الواقعيّة لأخلاق أهله وصفاتهم وطرق

(١) قال ابن وكيع التنيسي:

تغرب على اسم الله والتمس الغنا ... وسافر ففي الأسفار خمس فوائدِ
تفرّج نفس والتماس معيشة ... وعلم وآداب ورفعة ماجدِ
فإن قيل في الأسفار ذلّ وغربة ... وتشتيت شمل وارتكاب شدائدِ
فلَلموت خير للفتى من مقامه ... بدار هوان بين ضدّ وحاسدِ

يتيمة الدهر ٥: ٤٠.

معايشهم وتعاملاتهم والكيفية التي تمر بها وتتمّ تلك العلاقات والتبادلات، فيقرأ كل ما في تلك البلاد بما فيها من جمال وعظمة، وما إلى ذلك، فتنكشف أمامه حقائق كثيرة حولها وحول قاطنيها وما يتعلق بمعتقداتهم وعاداتهم وما يرتبط بحياتهم بشكل مباشر أو غير مباشر.

كما أن هذا الإنسان المسافر ربما يحصل على مكسب مالي، أو أي مكسب آخر يتضمن خيرات الدنيا؛ وبهذا فإنه يتثقف ويتعلم، ويكتشف أشياء جديدة، ويربح ربحاً دنيوياً. وكل هذه حسنات إن كانت بالطريق الشرعي الصحيح الذي شرعه الله تبارك وتعالى.

إذن فالرأي الأول في المقام هو الحسنة الدنيوية أو المنافع الدنيوية التي يمكن أن يحصل عليها الإنسان خلال تجواله في البلاد.

الرأي الثاني: أنه عطاء الله في الآخرة

ويذهب أصحاب هذا الرأي والمتبنون له إلى أن المراد من الحسنة في هذه الآية هو ما أعد الله تبارك وتعالى للمهاجرين من عطاء ومن جزاء في يوم القيامة. ونحن نعلم أن أفضل حسنة وأعظم كسب يمكن أن يكتسبه الإنسان هو رضا الله تبارك وتعالى، كما أن هؤلاء المهاجرين قد اكتسبوا أفضل حسنة إذ هاجروا حينما نشروا الإسلام في تلك البقاع والأصقاع.

طرق انتشار الإسلام

ونحن نعلم من خلال استقصائنا لمجريات الأحداث التاريخية أن الإسلام قد انتشر عن أحد طريقين:

الأول: الجهاد في سبيل الله

الثاني: الهجرة، أي عن طريق المهاجرين

فربما يخرج شخص من بلده إلى بلد آخر متاجراً، أو لأجل مكسب تجاري معين، فإذا ما اقتنع أهل ذلك البلد باستقامة هذا الرجل وبدينه؛ فإنهم بالتأكيد سوف يتعلمون منه أشياء كثيرة عن دينه؛ وبهذا فإنه سيكون داعية للإسلام.

والحقيقة أن الإسلام انتقل إلى أغلب بقاع الأرض عن هذا الطريق، فزحف إلى تلك البلاد كما تزحف النار في الهشيم. وهكذا كان للتجار والمسافرين الذين حملوا عقائدهم معهم، فتعلم الناس منهم تلك العقائد دور كبير في هذا المجال؛ حيث إنهم حملوا معهم دينهم الشريف، وروجوا له، فكانوا بذلك دعاةً له. غير أنه ـ ونقول هذا ببالغ الأسف ـ قد جاء بعد ذلك ثلة قلّصوا انتشار الإسلام بين تلك الأُمم عن طريق تصرفاتهم غير المتزنة وغير المسؤولة وغير الشرعية التي كانوا يتصرفون بها مع أبناء تلك البلاد الذين يذهبون إليها، وهي تصرفات لا تتماشى مع روح الشرع ومع تعاليم السماء، بل إنها تنفر الناس من الإسلام وتبعدهم عنه؛ لأنها تصرفّات شوّهت الإسلام في نظر الآخرين من غير أتباعه، ومسخت صورته الجميلة والزاهرة عندهم. وكمثال على هذا ما يروى من أحد الأسرى أُدخل على الأمير أسره، فقال له: أتقرأ شيئاً من القرآن؟ قال: نعم. قال: فاقرأ شيئاً منه. فقرأ: (إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجا). فاستغرب منه الأمير هذه القراءة، وقال له: ما الذي تقرؤه؟ إنها ليست كذلك، بل هي ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً﴾[1]. فقال: أيها الأمير، إن هذا صحيح، لكنه قبل

---

(١) النصر: ٢.

ولايتك، أمّا الآن فهم يخرجون منه بسببك[١].

ونظير هذه القصّة ما يروى من أنّ المنصور كان في زيارة إلى مدينة الموصل ومعه شخص من أهلها وكانت البلاد حينها قد اجتاحها وباء الطاعون، فكان المنصور يرى أهلها يسقطون كل يوم صرعى بأعداد هائلة، وبعد فترة قال لصاحبه الموصلي: كيف أصبح البلد؟ قال الحمد لله؛ فقد ذهب الطاعون عنّا. فقال له المنصور: هل انتهى هذا الداء من البلد بشكل كامل؟ فقال له صاحبه: الله أعدل من أن يجمع علينا طاعونين في يوم واحد. يريد طاعون الخلافة، وطاعون المرض.

وهكذا فإننا نجد أن بعض هؤلاء الحكام وباء على الدنيا، بل هم ألعن من وباء الطاعون وغيره، وبهذا فإنهم يشوّهون صورة الإسلام الحسنة، ويبعدون الناس عنه، ويخرجونهم من هذا الدين الحنيف.

إذن فأفضل حسنة وأعظم حسنة حصل عليها المهاجرون هي نشر الإسلام الذي خرجوا مهاجرين من أجله، وفراراً به للمحافظة عليه من أن تمتدّ إليه أيدي عتاة قريش فيسلبونه منهم بالقوة والإكراه، أو بمنعهم من اللحاق بالرسول الاكرمﷺ في بقاع الأرض كلها، وهكذا أصبحت جميع هذه البقاع مدينة للمسلمين الذين هاجروا، والذين نشروا الإسلام بهجرتهم عن طريق أخلاقهم وتصرفاتهم وحسن تعاملهم مع غيرهم، فحملوا دينهم ونشروه في تلك البلاد يقصدون به وجه الله تبارك وتعالى.

وهكذا فإن المسلم المتقيد بآداب الإسلام، والمتسلّح بعقيدة الإسلام إذا ما حلّ ببلد فإنه سوف يترك بصماته وأثره عليه تماماً، وسوف ترى آثار ذلك الإنسان

---

(١) مثلها بين الحجاج ورجل أعرابي. انظر مواقف الشيعة ٣: ٢٦٥ ـ ٢٦٦ / ٨٨٢ عن زهر الربيع: ٩٠.

المتخلّق بأخلاق الإنسان الحرّ، والملتزم بأخلاق الإيمان والإسلام، والإنسان الذي يعي كل ذلك على نفسيات ومشاعر أبناء ذلك البلد؛ لأن الدنيا كلها ليس فيها عقيدة سليمة كعقيدة الإسلام. وإنّي إذ أقول: «كعقيدة الإسلام»، فأنا إنما أتكلم عن العقيدة الصحيحة التي تمثّل الإسلام الصحيح، والمستقاة من الطرق والقنوات السليمة والنظيفة التي تمثل الإسلام السليم من أي شائبة، أما الزوائد والملحقات والشوائب التي شابت هذه العقائد هنا وهناك، فهي ليست من الدين في شيء.

وبعبارة أُخرى فإنني أتكلم عن الدين الإسلامي المتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وبالممارسات النظيفة لممثّلي الدين وخط الرسالة، وهي الممارسات النابعة من الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة. فهذا هو الدين، وأما ماهو خلاف ذلك، فليس من الدين في شيء أبداً.

وهنا فإننا نؤكد على حقيقة هي أنه ليس هنالك من فكر صافٍ وسليم لا تشوبه شائبة، ولا يكدره شيء كنبع الإسلام الصافي؛ لأن الله تبارك وتعالى قد ختم به الأديان، وما سوى ذلك فهو ليس من الإسلام في شيء والإسلام منه بريء.

وإن كنا لا نملك طريقة للقضاء على بعض الممارسات، وبعض الأفكار، لكن المسألة تبقى ليست في نطاق المسائل السهلة أبداً، بل إنها مسألة تنضوي تحت مجموعة من الأُمور التي يصعب ـ إن لم نقل: يستحيل ـ تغييرها، أو القضاء عليها. وهذا هو السبب الذي يؤدي ببعض الناس إلى أن يسألوا: لماذا لا تقوم المراكز الدينية بإصلاح بعض الأوضاع الشاذّة في المجتمع؟ والحقيقة التي ينبغي عدم إغفالها هي أن المراكز الدينية التي تنتشر في بعض البلاد الإسلامية ليست لديها

قوّة تنفيذية تقوم بدور الرادع. وحتى لو كان عندها تلك القوة فإن بعض الناس لا يمكن أن يرتدع بحالٍ من الأحوال.

ولتقريب المعنى أكثر نضرب مثلاً مشهوراً بين عامّة الناس وهو أنّ شخصين كانا يمشيان معاً، فرأيا طير حبارى، وكان لا يقوى على الطيران؛ إذ كان يطير ويقع، فقال أحدهما: هذا طائر كسير الجناح ولا يقوى على الطيران. فردّ الآخر عليه وقال له: لا هذا ليس بطائر وإنما هو حيوان برّي. فقال له الأول: إنّه طائر، ألا تراه، وعنده جناحان وهو يحاول أن يطير بهما؟ فردّ الآخر عليه ثانية، وبإصرار أكبر: لا إنه حيوان برّي وإن طار، بل إنه لو طار ألف مرة، فإنّي لا أقول: إنه طير، وإنما أُصرّ على أنّه حيوان بري.

إن هذا المثال على بساطته يعني بضعة أُمور، منها:

الأول: أن الإنسان لا يمكنه بشكل فرديّ، أو حتى بشكل جماعي كما في المراكز الدينية أن يُصلح كل الأخطاء التي تمارسها فئات معيّنة من أبناء المجتمع.

الثاني: أنه لا يمكن لإنسان مهما أُوتي من قوّة أن يحجر على أفهام الناس، وعلى أفكارهم، فكثير من الناس يظنّون أن ما يحملونه من آراء ومعتقدات أنهم إنّما أخذوها من القرآن الكريم، أو من نصّ من السنّة النبوية الشريفة. مع أنها في الواقع أفكار ومعتقدات وآراء ليس لها نصيب من الصحة، وليست كذلك ـ أي ليست من القرآن ولا من السنة ـ لأنها ربما تكون معتقدات تنطوي على أشياء باطلة. وحينئذٍ يكون الخطأ من صاحبها وليس من الإسلام الذي يجب أن ينزّه عن نسبة أمثال هذه الأشياء إليه.

هذا مضافاً الى أن صاحبها يمكن أن يتّصف بضعف الإدراك، أو عدم القابلية على الاجتهاد، لكنه يصرّ على الادّعاء بأنه كذلك، وأنه إنما اجتهد فيها، مع أنّه

ليس له نصيب من هذا الفن، بل لا يمكنه إصلاح ذلك، ويظلّ متمسكاً بها، سيّما ما يتعلّق بمسألة العقائد، فيرفض كلّ محاولة تغيير فيها. وجميعنا يعلم أن مسألة العقائد متجذّرة في النفوس، وليس من السهل التخلّي عنها، أو الخروج من عهدتها.

إذن فأجر نشر رسالة الإسلام هو الحسنة؛ لأن الله تبارك وتعالى ما أنزل للدنيا نبعاً كريماً صافياً رائقاً كنبع الإسلام، ولا عقيدة خالية من الخرافات كالإسلام؛ فلا أجراس ولا مهرجانات ولا بهرجة ولا ما إلى ذلك؛ حيث إن أي أعرابي ولو كان يعيش في قلب الصحراء فإنه بإمكانه أن يتوجه إلى الله تبارك وتعالى ويخاطبه، لأنه يعتقد بأنه تعالى ربّ العباد، ويقول له كما ورد في كتب العرب:

رَبَّ العباد ما لَنَا وما لَكَا ... قد كُنْتَ تَسْقِينا فما بَدَا لَكَا

أنزِلْ عَلَينا الغَيثَ لا أبَا لَكَا[1]

هكذا، وبهذه البساطة الملحوظة دون أن تكون هنالك حاجة إلى تعقيد في طريقة الخطاب، أو إلى وسيلة يخاطب بها الإنسان ربه تبارك وتعالى كما هو حاصل في الأديان الاخرى، حيث ينصّب رجال الدين فيها أنفسهم وسطاء بين الله والناس، فلا يتّصل الناس بالله تعالى إلّا عن طريقهم.

وفعلاً فإنه تبارك وتعالى لا أبا له: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[2]، وفي ظنّي أن هذه العقيدة حتماً سوف تأخذ طريقها إلى النفوس أما الإضافات فتُسلط عليها الأضواء. وكما ذكرت من قبل فإن بعض هذه الإضافات لا يقدر أي أحد على أن

---

(١) الشفا ٢: ٢٤٦، مجمع الأمثال ١: ١٣٣، خزانة الأدب ٤: ٩٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٣، ٦: ١٣٤، النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ١٩ ـ أبا.

(٢) الإخلاص: ٣.

يزيلها؛ لأنها حينئذٍ تكون قد ارتبطت بالنفوس أو بالمصالح المتعلقة بأصحاب تلك النفوس. وكمثال على هذا نضربه هنا هو قول ابن حجر في كتابه (الصواعق المحرقة) من أن البعض سألوا مروان عن موقف عليعليه السلام من الخليفة الثالث، وهل إنه فعلاً شرك في دمه، وساهم في قتله؟ فقال: والله، إنه لأبرأ الناس من دمه، وبراءته من ذلك كبراءة الذئب من دم يوسف. فقيل له: فلم تنسبون إليه تهمةً في عثمان، وتأمرون شعراءكم وكتّابكم في أن يتّهموه في ذلك؟ قال: لأن أمرنا لا يستقيم إلّا بذلك[١].

وهذا الشيء عينه يحدث اليوم؛ فالبعض من الناس يعرف تماماً أن الرأي الذي هو عليه غير صائب البتة، لكنه لا يستطيع أن يعدل عنه؛ إما لعصبية، أو لمصلحة يقتضيها وضعه، بحيث إنه إذا ما عدل عن ذلك الرأي فإنه يكون قد فرّط في تلك المصلحة أو تركها، وهو لا يريد ذلك، ثم يعمد إلى وعظ الآخرين دون أن يتقبّل هو وعظ غيره[٢]. ومن هذا أن القاضي على رأي

---

(١) الصواعق المحرقة ١: ١٦٣.

(٢) يروى أن عالماً من العلماء كان مؤثر الكلام قوي التصرف في القلوب، وكان كثيراً ما يموت من أهل مجلسه أثناء وعظه من شدة تأثير ذلك الوعظ وكان في بلده التي يعظ فيها امرأة عجوز لها ابن صالح رقيق القلب سريع الانفعال، فكانت تحترز عليه وتمنعه من حضور مجلس الواعظ خشية عليه من الموت؛ لأنها كانت تعلم بأنه إن حضره فإنه سيموت بمجرد أن يسمع وعظه، لكنه استطاع في يوم من الأيام أن يحضر ذلك المجلس على حين غفلة من أُمّه، فما إن سمع بكلام الواعظ حتى صعق ومات في مكانه. وكان أن اشتدّ ألم العجوز على ابنها؛ لأنه كان وحيدها، فمرت في يوم من الأيام فوجدت الواعظ في الطريق، فاستوقفته ثم خاطبته قائلة:

لتهدي الأنام ولا تهتدي   ألا إن ذلك لا ينفعُ
فيا حجر الشحذ حتى متى   تسنّ الحديد ولا تُقطعُ

فلما سمع الواعظ منها ذلك شهق شهقة خرّ معها من فرسه إلى الأرض، فحُمل إلى بيته، فلمّا

البعض[1] مثلاً يقبل كلام السكران في طلاقه ويعتبر زوجته طالقاً، فيهدم عائلة كاملة حرص الإسلام على بنائها، والحال أن هذا السكران لا عقل له حينها، وعليه فإن التكليف ساقط عنه؛ لأنه لا يعي ما يقول، فإذا ما طلّق فإنه يطلّق وهو لا يعي ما يقول؛ وبهذا فإن طلاقه باطل.

إن العقل مناط التكليف، وما دام العقل غير حاضر أو مغيّباً لا يستطيع أن يؤدي وظيفته فإن التكليف حينئذٍ يسقط عن الإنسان وتسقط معه تصرّفاته وأقواله وأفعاله كافّة.

وحينما نسأل هذا الشخص أو هذا القاضي فنقول له: ما دام العقل هو ملاك التكليف ومناطه، فلماذا إذن تقبل شهادة السكران أو تطليقه وقد فقد عقله حينها؟ فإنه سوف يجيب بالقول: لأن قواعد المذهب الحنفي هكذا، وعليه فإنني يجب أن أتّبع هذه القواعد، وأمشي على ضوئها وهداها. فهذه المادة التي ينص عليها هذا المذهب يجب على أن ألتزمها وأن أُطبقها.

وهنا أرى ضرورة أن نتوقف عند هذا اللون من التفكير، وأن نتأمل هذا النمط من التعامل مع المادة الفقهية ومع الواقع الاجتماعي والأُسروي، ونسأل: هل إن دورنا هو أن نبني مذاهب متعددة، أم إن دورنا أن نبني كلمة الله تبارك وتعالى؟

إذن فالمسألة تتوقف عند هذا المستوى من التفكير، وعند هذا النمط من الآراء حيث يعتنقها أصحابها؛ إما عن عصبية وهوى، أو عن واقع.

أوصلوه إليه توفي؛. فعلمت هذه العجوز أن واعظ المدينة كان رجلاً مؤمناً واعظاً ومتعظاً، يتحدث بإخلاص وحق، فإذا كانت موعظته قد أودت بحياة ولدها، فإن موعظتها قد أودت بحياته. تفسير أبي السعود ١: ٩٨، وفيات الأعيان ٥: ٥٤، تاريخ الإسلام ٣٦: ١٢١، الوافي بالوفيات ٣: ٢٦١.

(١) مختصر المزني: ١٩٤، عن الشافعي، روضة الطالبين ٦: ٢٣، فتح الوهاب ٢: ١٢٤.

المبحث الرابع: الملكية الحقيقية لله وحده

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ﴾، وهذا الخطاب موجّه إلى المهاجرين، حيث إننا نلاحظ فيه أنه يخصص ملكية الأرض بالله تبارك وتعالى وحده؛ لأن البعض يقول مثلاً: هذه أرضي، ونحن حينما نرجع إلى القرآن الكريم فربما نجد فيه مؤيداً لمثل هذا الادّعاء كما في قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾[1].

نظرة الإسلام إلى الحدود الجغرافية

ولهذا فإننا نجد أن فقهاء المسلمين يقسمون الأرض إلى قسمين: دار إيمان، ودار كفر أو شرك. ونستخلص من هذا أن الإسلام لا يعترف بالحواجز التي وضعها الإنسان أبداً، أي أنه يتعامل مع هذه الأرض على أنها أرض إسلامية بغض النظر عن الحدود الجغرافية والفواصل السياسية التي تفصل بين السكّان الذين يقطنونها، ويتعامل مع الأرض الأُخرى على أنها أرض الكفّار أو المشركين بغضّ النظر عن الحواجز التي تفصل بين سكانها. فهذه الحدود لا يعترف بها الإسلام أبداً؛ لأنه يرى أن الأرض كلّها للناطقين بـ«**لا إله إلّا الله، محمد رسول الله**» جميعاً، دون فرق بينهم، أو دون أن يكون لأحد نصيب منها دون آخر.

ثلاث جنبات أخلاقية في آية المقام

والقرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَأَرْضُ اللهِ﴾؛ فإنه إنما يرمي إلى ثلاث جنبات يريد أن يحثّ عليها من خلال هذه الآية المباركة، وأن يعلّمنا إيّاها، هي:

الأولى: أنها تريد أن يهذّب المسلمين

فالقرآن الكريم ككتاب تشريعي وأخلاقي يريد أن يهذّب المسلمين،

---

(١) الرحمن: ١٠.

ويعلّمهم ألّا يتصوّروا أو يظنّوا بأن هذه الأرض هي لهم، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا الذي يدّعي بأن هذه الأرض له هل يتمكّن من البقاء عليها إلى الأمد الذي يريده؟ وهل يمكن أن يبقي هذه الأرض على ملكيته دون أن ينازعه أحد فيها، أو يأخذها أحد منه، أم لا؟ وهل إنه سيظل مالكها أم إنه سيصير في ملكيتها هي؟ إن الإنسان سوف يصبح يوماً ما ملكاً لهذه الأرض، فبعد حلول أجله ـ **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾**[1] ـ سوف يؤتى به إلى حفرة من حفر هذه الأرض فيودع فيها، حيث تتصرّف فيه ديدانها وهوامّها وذرّاتها، حتى تحيله إلى ما تحيله[2].

إذن فهذه الأرض هي التي تملكه واقعاً؛ عاجلاً أم آجلاً، وسوف ينتهي به المطاف معها إلى القبر. وهذا هو الذي نراه كلّ يوم حينما نشهد دفن الناس بعد موتهم. وبناء على هذا فالأرض ليست لأحد، وإنما هي أرض الله سبحانه وتعالى، وهو الذي يتفرّد بملكيّتها؛ فهو مالك الملك، بل المالك المطلق.

الثانية: أنها تريد أن يدفع الناس إلى مسيرة الكرامة

أي أن هذا الخطاب القرآني حينما يعبّر عن أرض الله بأنها واسعة، فإنه إنما يريد أن يدفع الناس ليعيشوا الكرامة التي أرادها لهم؛ ولذا فإنه يقول للمؤمن: إن هذا الوطن التي تقطنه والذي تعيش في ربوعه إذا لم يوفر لك كرامتك، ولم يمنحك حريتك فإنه لا يعدل شيئاً ذا قيمة أبداً؛ لأن كرامة الإنسان يجب أن تحفظ

---

(١) آل عمران: ١٨٤، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧.

(٢) قال كعب بن زهير:

كلّ ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ

الدرجات الرفيعة: ٥٣٩، المستدرك على الصحيحين ٣: ٥٨١، تاريخ الإسلام ٢: ٦٢٠، البداية والنهاية ٤: ٤٢٦.

في وطنه، واذ لم يحصل هذا فإن على الإنسان أن يبحث عن وطن آخر أو مكان آخر يحفظ له كرامته.. أن يبحث عن كرامته في ديار أُخرى؛ كي يشعر بأنه إنسان حر وليس إنساناً مستعبداً.

إذن فالإسلام يحثّ حثّاً شديداً ويؤكّد تأكيداً كبيراً على ضرورة حفظ كرامة الإنسان، ويعتبر الإنسان أشدّ حرمة عند الله تبارك وتعالى حتى من بعض المناطق المقدسة التي أمر الله تبارك وتعالى بتقديسها، قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: **«يا أيها الناس، أي يوم هذا؟»**. قالوا: أعظم الأيام. فقال: **«يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟»**. قالوا: أعظم الشهور. فقال: **«أيها الناس، أي بلد هذا؟»**. قالوا: أعظم البلدان. ثم قال: **«وأي بيت هذا؟»**. قالوا: أعظم البيوت. قال: **«إن حرمة المؤمن أعظم عند الله من بيتكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا»**[1].

فحرمة المؤمن حرمة عظيمة ليس هناك حرمة أعظم منها، بل إنها لا يمكن أن تضاهيها حرمة أبداً، فإذا ما هتكت هذه الحرمة وسحقت تلك الكرامة، فإن هذا البلد ينبغي ألّا يعدل شيئاً عند من سحقت كرامته فيه، وأكثر من هذا فإننا نجد أن الواجب الشرعي يدفع من يوضع في مثل هذه الظروف إلى ضرورة البحث عن

---

(١) سبق أن أشرنا إلى أننا لم نعثر على هذا الحديث بنصّه، وأن الذي وجدناه أنه ﷺ قال: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟». قالوا: يوم حرام. ثم قال: «يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟». قالوا: شهر حرام. قال: «أيها الناس، أي بلد هذا؟». قالوا: بلد حرام. قال: «فإن الله عزّ وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه». الخصال: ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١/١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، صحيح ابن خزيمة ٤:٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢، مجمع الزوائد ٣: ٢٠.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: أنه قال: «إن حرمة المؤمن أعظم من حرمة هذه البنيّة». الاختصاص: ٣٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

موطن آخر يحفظ له تلك الكرامة. وبتعبير آخر فإن هذا النص القرآني يريد أن يقول لهم: إنكم تخضعون في هذا الوطن إلى التعذيب وانتهاك الحقوق، وهو بلد مشرّف ومقدّس، لكن أهله لم يحفظوا لكم حرمتكم، ولم يرعوا لكم حقوقكم؛ ولذا فإن عليكم أن تهاجروا إلى بلد آخر يوفر لكم كل ذلك.

إن التاريخ يحدثنا عن أن عتاة مكة كانوا ينتهكون حرمة المؤمنين الذين اتبعوا الرسول الأكرم ﷺ؛ فأبو جهل مثلاً كان يعمد إلى المؤمن بعد أن يُكبَّل فيطرحه أرضاً ثم يضع قدمه على عنقه زيادة في إهانته وسلب كرامته. وهو يحدثنا كذلك عن المصرع الذي قيّضه الله له، والذي يستحقه حينما وقع في المعركة، وفتح عينيه ورأى عبد الله بن مسعود جاثياً على صدره يريد أن يحتزّ رأسه، وكان عبد الله بن مسعود راعي أغنام، فقال له أبو جهل: يا رويعي الغنم، لقد أرتقيت مرتقى صعباً: فقال ابن مسعود: اسكت يا لكع، إن الله قد أعزّني بالإسلام وأذّلك بالشرك. فقال أبو جهل: ما صنعت قريش؟ قال: هُزمت. قال: ومحمّد؟ قال: غلب وانتصر. قال أبو جهل: عجّل إذن بقطع رأسي وارفعه على رمح طويل وطف به في العسكر حتى تعلم قريش أني متّ على دين الصنم. فقطع رأسه، وجاء برأسه يجرّه على الأرض [1].

الثالثة: وجوب البحث عن أرض صالحة لغرس هذه النبتة الجديدة

ففي هذا المقطع أمر بضرورة تحقيق هذا الأمر، وهذا حق طبيعي لكل إنسان،

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٣، بحار الأنوار ١٩: ٢٥٨، ٢٨٣، تاريخ الطبري ٢: ١٥٥، الفائق في غريب الحديث ١: ٤٠٥، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٤٢، تفسير البغوي ٢: ٢٣٩، التفسير الكبير ٣٢: ٢٤، الثقات ١: ١٧٢، شرح السير الكبير ٢: ٦٠٠، الكامل في التاريخ ٢: ١٢٧: تاريخ الإسلام ٢: ٦٢، عمدة القاري ١٧: ٨٦.

فالفلّاح حينما يريد أن يزرع بعض الفواكه أو الخضار أو الأشجار، ويجد الأرض التي يريد أن يزرعها أرضاً غير صالحة للزراعة كأن تكون مالحة أو ما شاكل فإن من حقه أن يبحث عن أرض أُخرى صالحة للزراعة؛ كي يبذر فيها بذوره. وكذلك الحال مع طلائع المسلمين، والرواد الأوائل منهم، الذين وجدوا أرض مكة غير صالحة لبذر بذرة الإسلام فيها؛ ولذا كان من حقهم أن يبحثوا عن أرض جديدة صالحة لتلك الزراعة؛ كي يبذروا فيها بذرة الإسلام. فأجواء مكة، ونفوس أصحابها، والظروف الأُخرى التي كانت عليها تضافرت كلها من أجل مقاومة بذرة الإسلام، والوقوف بوجه إنباتها ونموها وترعرعها؛ ولذا فإن الدعوة قد تلكأت في مكة بادئ الأمر؛ لأنها كانت مكاناً غير صالح وغير ملائم لنمو هذه النبتة، وهو الأمر الذي اضطر الرسول الأكرمﷺ إلى أن أمر جماعته بأن يبحثوا عن مكان آخر لينشروا فيه الدعوة الإسلامية.

وهكذا خرج المسلمون مهاجرين، وكان من خرج إلى الحبشة مهاجراً ثم بعد ذلك من خرج إلى المدينة مهاجراً إليها أيضاً قد تركوا آثارهم وبصماتهم وأثر هجرتهم في الناس. فالمجتمع الديني والمدني لم يقم إلّا في المدينة؛ ولهذا فإن الآية الكريمة تقول لهم: ﴿وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ﴾.

معوّقات الهجرة

وربما يقول قائل: لنفترض أن هذا الكلام كله، صحيح لكن ما الذي يمكن أن يفعله المؤمن إذا لم يتمكن من السفر والهجرة إلى دار أفضل من الدار التي هو فيها؟ وما الذي يتوجّب عليه حينها؟

والجواب: أن هذا ربما يكون صحيحاً من وجهة نظر معينة، فالإنسان يمكن أن تعترضه جملة مشاكل تعيقه عن تحقيق هذه السبيل، وتحول دونه ودونها،

ومن هذه المشاكل:

الأولى: مشكلة عدم امتلاك جواز سفر

فعدم امتلاك الإنسان جواز سفره يشكّل عقبة وعائقاً دون سفره وهجرته من أجل الهرب بدينه ومعتقده، وحمايتهما في وقتنا الحالي كما هو شأن الكثير من البلاد.

الثانية: المشاكل التي يسببها الوافدون إلى بلاد الهجرة

كما أن هناك عقبات وعوائق أُخرى وُضعت دون السفر؛ لتقليل حجم العمالة الوافدة إلى بعض البلاد التي تستقبل تلك العمالة؛ لأن هؤلاء يسببون لتلك البلاد مشاكل اقتصادية، وأُخرى اجتماعية، بل ويتعدى بعضها إلى عالم الجريمة حيث يلجه بعضهم؛ مما يؤدي إلى الإضرار بأهل ذلك البلد.

الثالثة: مشكلة التجانس العرقي

وهذا عائق ثالث، ومشكلة أُخرى تحول دون تشجّع البعض وإقدامهم على الهجرة. فمسألة التجانس العرقي ـ وهو ما نسمعه كل يوم في نشرات الأخبار، حيث التفجيرات في الأحياء التي يسكنها الوافدون هناك ـ تقضي على الرغبة عند البعض في السفر إلى تلك البلاد؛ لأنهم يشعرون بأن بعض أبناء تلك البلاد يرفضون وجودهم؛ ذلك أنهم يرون أن هؤلاء الوافدين أبناء حضارات أدنى مرتبة من حضارتهم التي ينتمون إليها. فهم يخشون أن ينقل أبناء هذه الحضارات الأدنى إليهم أفكارهم ومعتقداتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، وهي أفكار وعادات وتقاليد يفترضون مسبقاً أنها أدنى من تلك التي عندهم؛ لأن أصحابها من حضارة أدنى من حضارتهم.

موقف الإسلام من النظرية العرقية

وهذه نظرية عرقية يرفضها الإسلام بشدة، ويعارضها معارضة كبيرة، بل إنه حاربها كثيراً؛ لأن التعامل بين الناس ينبغي ألّا يكون وفق التعامل العرقي، بل وفق مستوياتهم العلمية، وتقواهم، والتزامهم بآداب وأخلاق وقوانين قد شرعتها السماء. كان أمير المؤمنين عليه السلام في يوم من الأيام جالساً في مسجد الكوفة عند بيت المال، فدخلت عليه امرأتان إحداهما مولاة مملوكة، والأُخرىٰ عربيّة حرّة، تسألانه العطاء، فأمر لكل واحدة منهما بكرّ من طعام وأربعين درهماً، فأخذت المولاة العطاء الذي أُعطيت وذهبت، أمّا العربيّة فقالت: يا أمير المؤمنين، تعطيني مثل الذي أعطيت هذه، وأنا عربية وهي مولاة؟ فحمل أمير المؤمنين عليه السلام قبضتين من التراب وقال: «**والله، إني لا أرىٰ فرقاً بين هذه وبين هذه، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[١]، **إني نظرت في كتاب الله عزّ وجلّ، فلم أرَ فيه فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحاق**»[٢].

وهذا هو التطبيق الأمثل للإسلام، بل هو التطبيق الوحيد الذي يمثّل تعاليم الإسلام الصحيحة. وهذا يعني أن الإسلام قد حارب النظرية العنصرية محاربةً شديدة؛ لأنها نظرية تعني الكفر بالإنسانية وبالناس من أبناء آدم، وظلمهم وإقصاءهم عن مراتبهم التي رُتّبوا فيها.

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أن خطاباته المقدّسة كلها تقول: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ**﴾[٣] أي أنكم جميعكم إلى عرق واحد، وترجعون إلى أصل واحد، وتنتمون

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) انظر السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ٣٤٩، كنز العمّال ٦: ٦١٠ ـ ٦١١ / ١٧٠٩٥. وفي الكافي ٨: ٦٩ / ٢٦ قريب منه.

(٣) الأعراف: ٢٦، ٣١، ٣٥، يس: ٦٠.

إلى جذر واحد، أما أن يتفاخر أحد على غيره بأنه من عرق أسمى وأعلى، ومن دم يختلف عن بقية الدماء، أو أن يتفاخر على الآخرين لأن عنده بضعة أحجار قد مرّت عليها سنوات عديدة، فهذا خلاف النظرية الإنسانية التي تنصّ على أن الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره.

الفرق بين الحضارة والمدنيّة

ثم إنه ليس هناك من بلد ليس فيه حضارة، فكل البلاد لها حضارات، ولها تاريخ وإن تفاوتت أهمية وقيمة وعمقاً وجنبةً تاريخية؛ لأن الحضارة ماهي إلّا مجموعة من الأفكار والنظريات والتقاليد التي كان عليها أسلاف الإنسان في أي نقطة من الأرض كان وفي أي بقعة من بقاعها. وبعبارة أُخرى أنها ـ أي الأفكار والعادات ـ عبارة عن الجانب الفكري من الحضارة. فالعقائد والأساطير والأديان والأمثال كل هذه الأشياء تدخل في باب الحضارة، وتتّحد مع بعضها لتشكّل حيثياتها عند الإنسان. أما ما يتعلق بالآثار الماديّة كالأبنية والقبور ودور العبادة وما إلى ذلك مما هو داخل في إطار الماديات فإنه لا يسمى حضارة وإنما يطلق عليه لفظ المدنية.

فالجانب المدني يشمل كل تلك الأشياء التي ذكرنا، وهي عادة تكون أشياء قديمة كما لو زار إنساناً متحفاً فوجد فيه سيارة قديمة تعود مثلاً إلى عصر بدايات صنع السيارة، أو أن يجد باب بيت من البيوت القديمة التي تمثل عصراً من العصور، وهكذا. وبناء على هذا فإنه ليس هنالك من بلد إلّا وفيه من هذه الأشياء، فكل الناس متساوون من هذه الجنبة، كما أنهم متساوون من جهة انتمائهم لآدم عليه السلام.

وبهذا فإننا نقول: إن النظرية العرقية هي التي سببت كل تلك الحواجز بين

الإنسان وأخيه الإنسان، والعوائق التي تحول دون اتّصالهما معاً. وإلّا فإن الله تبارك وتعالى لا يعتبر هذه الحواجز الجغرافية التي وضعها الإنسان؛ لأنها ليست من وضع السماء، بل إنها من وضع الإنسان، أما عند الله تبارك وتعالى فالأرض واحدة، وهي ملكه تبارك وتعالى، وإن قسمها الفقهاء إلى دار إيمان ودار كفر.

ثم إن الإنسان مقهور لما هو خارج إرادته، وهو ما يعني نفي وجه المفاخرة به، وعدم صحة التفاضل بين المخلوقين على أساسه. ومما هو خارج إرادته هذه العوائق التي ذكرناها والتي تقف حائلاً دون تطبيق قوله تعالى: ﴿**وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ**﴾.

المبحث الخامس: الإمام الحسين عليه السلام وأجر الصابرين

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾، وهذا المقطع الشريف يخاطب المؤمنين فيقول لهم: اصبروا لأنكم سوف تتعرضون إلى الذل، وإلى المضايقات والآلام، لكن مع ذلك فعليكم أن تصبروا؛ لأن الله عزّ وجلّ قد وعد الصابرين بأن يعطيهم أجراً عظيماً لا يمكن أن يحسبه أحد ولا أن يعدّه؛ فهو أجر: ﴿**بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾. يروي المفسّرون عن الإمام الحسين عليه السلام في خصوص المقام رواية يقول عليه السلام فيها عن جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن في الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى، يؤتى بأهل البلاء يوم القيامة، فلا يرفع لهم ديوان، ولا ينصب لهم ميزان، يصبّ عليهم الأجر صبّاً**». ثم قرأ عليه السلام: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾...[1].

---

(١) تفسير الثعلبي ٨: ٢٢٦، الجامع لأحكام القرآن ١٥: ٢٤١، الدرّ المنثور ٥: ٣٢٣، وانظر: مسكن الفؤاد: ٤٨ ـ ٤٩، بحار الأنوار ٧٩: ١٣٧ ـ ١٣٨، المعجم الكبير ٣: ٩٢ ـ ٩٣ / ٢٧٦٠، كتاب الدعاء (الطبراني): ٣٤٧ / ١١٣٨، كنز العمّال ٣: ٣٣٦ / ٦٨٢٤.

وأقول له: سيدي أبا الشهداء إن نصيبك من هذه الشجرة هو النصيب الأوفى، وحظّك هو الأكبر؛ لأنك صبرت في ذات الله بعد أن أُوذيت في ذات الله، وسُفكت دماؤك ودماء أهل بيتك وأصحابك في ذات الله، وسُبيت حرمك وهنّ حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذات الله كذلك؛ ولهذا كان نصيبك أوفى الأنصبة وأكبرها. ورحم الله السيد حيدراً الحلي حيث يقول:

له الله مفطوراً من الصبر قلبه ... ولو كان من صُمّ الصفا لتفطّرا

ومنعطفاً أهوى لتقبيل طفله ... فقبّل منه قبله السهمُ منحرا[1]

فهل يمكن لأحد أن يتصور كيف مر هذا اليوم على الإمام الحسين عليه السلام وعلى عائلته؟ لا أحد يمكن أن يتصور كيف كان ذلك اليوم بالنسبة له عليه السلام، وبالنسبة لأصحابه وعياله؛ لقد كان يوماً شديداً مُنع فيه أطفاله ونساؤه وأصحابه من شرب الماء وهم تحدق بهم عساكر يزيد تريد أن تجتث امتداد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الأرض. لقد استقبل عليه السلام صباح ذلك اليوم بالصبر، فقد رفع عليه السلام رأسه في صبيحته وقال: «اللهم أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدّة، كم كرب يضعف منه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدوّ، أنزلته بك وشكوته إليك؛ رغبة مني فيه إليك عمن سواك، ففرّجته وكشفته وكفيته! فأنت ولي كلّ نعمة، وصاحب كلّ حسنة، ومنتهى كلّ رغبة»[2]، إلى اخر دعائه عليه السلام.

ثم بعد ذلك راح عليه السلام يجسّد هذا الصبر في مواقفه كلها.. مواقفه الإنسانية

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلّي ١: ٧٨.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٦، مصباح المتهجّد: ٥٧٠ - ٥٧١ / ٦٧٨، تهذيب الأحكام ٣: ٨٤ ٢٣٩، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٢٢.

ومواقفه البطولية، فالتاريخ يحدثنا عنه عليه السلام أنه كان عليه السلام يحمل شهداء آل بيت محمد وصحابة رسول الله وصحابة أمير المؤمنين عليه السلام الواحد تلو الآخر.. يحملهم على يديه الكريميتن، والدماء تسيل عليهما، فيضعهم مع القتلى، ثم يرجع إلى المعركة.

وآخر شيء ضحى عليه السلام به كان نفسه الطاهرة حيث قدمها قرباناً إلى الله تبارك وتعالى وهو ينظر إلى مخيمه تلتهب فيه النار، كل هذا في لحظاته الأخيرة عندما أوقد الجيش الأُموي النار في المخيم وهجموا عليه، وهنا صاح عليه السلام: «امنعوا عتاتكم عن التعرّض لحرمي ما دمت حيّاً». وحينما انتهت المعركة، وجن الليل كان للحوراء زينب موقف من أشجى المواقف وأصعبها، فلله هذه المرأة العظيمة:

ولقد رأيتكِ والمصائبُ والأسىٰ — حِممٌ وحقدُ الظالمين يعربدُ
تتوكّفين حصافةً وصلابةً — وتحذّرين اليومَ ما يأتي الغدُ

كل ذلك نظرته زينب عليها السلام حيث وقفت في هذا الليل بعد أن جمعت شتات العائلة والأطفال، فقد كانت تخلص طفلاً من تحت حوافر الخيل، وتطفئ ناراً عن ثياب امرأة، أو تسكت يتيماً يدعو عمته أن تأخذه إلى أبيه. مرت عليها كل هذه الساعات الحرجة التي لا يمكن أن يتصورها إنسان دون أن ينهار أمامها إلى أن جن عليها الليل، وهدأت الأصوات، وهدأ بعض العيال والأطفال، فخرجت عليها السلام وخرج معها بعض الخواصّ من أخواتها، حتى جئن إلى جسد أبي عبد الله عليه السلام ورحن يطفن حوله، ثم وقفن عنده:

فواحدة تحنو عليه تضمه — وأُخرى عليه بالرداء تظلّلهٔ
وأُخرى بفيض النحر تصبغ شعرها — وأُخرى تفدّيه وأُخرى تقبّلهٔ

ثم رمت زينب عليها السلام نفسها عليه واحتضنته، وراحت تشمّه وتقبّله:

أنــاديك مـــا يشـجيلك انـداي ولا تســـمع اعـــتابي ونــخواي

المـــن بـــعد يـحسين مـنواي ظـني انگـطع وانگـطع رجـواي

شـتهيّس يـروحي بـونتك هـاي يگـلها ضـهدني السـهم بـحشاي

وعــادة المـصوَّب ينْسگه المـاي المـــاي ويـــنه بـــولية اعــداي

* * *

أحـمى الضـائعات بـعدك ضـعنا فــي يـدِ النـائبات حسـرىٰ بـوادِ[1]

---

(١) وفيات الأئمّة عليهم السلام : ١٦٢.

﴿٢٣٦﴾

الطاعة الخالصة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: إشكالية خطاب المؤمن بالطاعة

قد يستغرب البعض حينما يستمع إلى هذه الآية الكريمة وهي تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ حيث إنها توجّه خطابها إلى الذين آمنوا مطالبة إياهم بأن يطيعوا الله ويطيعوا الرسول، مع أن المفروض الذي ينبغي أن يكون هو أن هؤلاء لم يصبحوا من الذين آمنو إلّا بعد أن أطاعوا الله وأطاعوا الرسول. فالقرآن الكريم ينعتهم بأنهم مؤمنون، وكما ذكرنا فإن المؤمن هو من يطيع الله ويطيع الرسول، وبخلافه فإنه لا معنى للإيمان أبداً. وهنا نقول: إن الإيمان ليس مجرد اعتقاد بشيء دون أن يكون هناك تطبيق لقواعد ذلك الشيء؛ فالإيمان هو عقيدة وتطبيق؛ لأن ثمرة العقيدة هي التطبيق وليس غيره.

(١) محمد: ٣٣.

وعليه فإذا ما اعتقد الإنسان بشيء ولم يطبقه، فحينئذٍ ليس هناك من فائدة تُذكر لهذه العقيدة التي اعتقدها؛ لأنها لم تُؤتِ ثمرتها ولا أُكلها. إننا جميعاً نعرف أن الدنيا تقوم على مبدأ التطبيق العملي للنظريات التي يعتقد بها الإنسان، فلو فرضنا أن الجهاد مثلاً عمل بطولي ومقدّس، واعتقد الناس بذلك، لكن لا أحد يجاهد أو يطبّق هذا المبدأ، فما فائدة اعتقاد الناس بقدسية هذا المبدأ، أو هذا العمل البطولي؟

وهكذا فإن المفروض الذي ينبغي أن ينزل إلى حيّز التطبيق هو أن يوقن الإنسان بأن العقيدة تحتاج إلى عمل، بل إنها تحمل المعتقِد بها على أن يطبق وأن يعمل وفق هذا المفهوم الذي يعتقد به؛ لكي يصبح لعقيدته تلك معنىً ووجود. ومثل هذا أيضاً ما لو اعتقد المؤمن اعتقاداً صحيحاً بفرض الزكاة ووجوبه، وبالفائدة التي يثمرها إخراجها، لكنه لا يطبّق هذا القانون، فلا يزكّي أمواله مع أنه يؤمن بعدم صحة تصرّفه هذا، فما فائدة هذا الاعتقاد بوجوب الزكاة، ثم لا يزكّي؟ وما فائدته حينما يعتقد بحرمة عدم إخراجها وهو لا يخرجها ولا يمتنع عن فعل الحرام هذا؟

فالحقيقة أن العقيدة تقتضي تطبيق المفاهيم التي تشتمل عليها، وهكذا فإننا نجد أن الإيمان لا يكون إيماناً حقيقياً ما لم يأخذ طريقه إلى التطبيق الفعلي، وما لم يدخل حيّز العمل. ولهذا فإننا نجد القرآن الكريم وهو يحاول أن ينقل الإنسان من هذه المرحلة ـ وهي مرحلة الإيمان بالاعتقاد فقط.. مرحلة يكون فيها الإيمان عند الإنسان مجرد فكرة ـ إلى مرحلة التطبيق العملي لمفردات ذلك الإيمان ولحيثياتها؛ لأن الأُمة التي يكون الإيمان عندها مجرد لون من ألوان التفكير، أو مجرد فكرة خالية من التطبيق أو العمل فإنها سوف

لن تحقّق هدفها في الحياة، ولن تصل إلى تحقيق أحلامها وتطلّعاتها إلى المستقبل.

إن سرّ عظمة المسلمين في الأيام الأُولى من الدولة الإسلامية التي أسسها الرسول الأكرمﷺ يعود إلى إيمانهم المشفوع بالتطبيق، أي أنهم لم يكونوا يؤمنون بالإسلام كفكرة فقط، بل إنهم اعتنقوه وآمنوا به فكراً وعقيدةً وعملاً وتطبيقاً، فكانوا حينما ينزلون إلى أرض الواقع نجد أنهم يحملون إسلامهم وإيمانهم معهم، فيطبقونه على جميع مفردات حياتهم. وهكذا فإننا نجد أن الإسلام كان يُطبّق من خلال الحياة العملية للمسلمين.

وهذا هو الأمر الذي يكتشفه الإنسان وهو يقرأ التطبيق العملي للمسلمين في تلك المرحلة من الدولة الإسلامية الفتيّة، فكانوا كلّما نزلوا إلى ميدان من ميادين الحياة نزل الإسلام معهم قانوناً ودستوراً، فنراه ينظّم لهم حياتهم وأعمالهم، وكل ما اعتقدوا به من عقائد الإسلام نجدهم يطبّقونه حرفياً من خلال حياتهم اليومية، ومزاولة أعمالهم الحياتية.

وبهذا فإننا نجد أن الإيمان قد أخذ طريقه إلى التطبيق من خلال الممارسات اليومية لمفردات الحياة عند المسلمين الأوائل، وهذا هو سرّ عظمة المسلمين وانتصاراتهم؛ ولذا فإننا حينما تخلّفنا عن مرحلة التطبيق إلى مرحلة الإيمان فقط دخلنا في متاهات الضياع، وقد اجتزنا نقطة الابتعاد عن الدين. وهذا ناشئ من أن الإيمان مطلقاً يلعب دوراً هاماً في جميع مقامات الحياة.. مقام الحرب، ومقام السلم والعمل وممارسة النشاطات اليوميّة، فإذا كان الإنسان يملك إيماناً واعياً فإنه لا شكّ سيكون صاحب إرادة فاعلة في تحقيق أهداف ذلك الإيمان في مستوى الاعتقاد وفي مستوى التطبيق.

المبحث الثاني: الإيمان على ضوء المقاييس القرآنية

وبعد أن بيّنا أهمية التطبيق العملي للإيمان والاعتقاد في المبحث السابق سوف ننتقل إلى مفردات الآية الكريمة حيث إنها تقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾. وحول هذا المقطع الشريف إثارة لابدّ من المرور بها، إن البعض ربما يقول: إننا مسلمون، ونريد أن نفهم مضامين القرآن الكريم عندما يقول: ﴿**أَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾[1]، فكيف يمكن أن نصلي؟ إن المسلمين يختلفون في عملية تطبيق الصلاة، فلكل مذهب نظريته في كيفية الصلاة وشروطها وواجباتها وأجزائها وما إلى ذلك، فكيف لنا أن نعرف صاحب الحق منهم؟

وللجواب على هذا التساؤل نقول: إن ما هو مراد من المسلم هو أن يوسّع أُفقه؛ لأن الخلافات الحاصلة بين المذاهب الإسلامية يُراد منها تمزيق الصف الإسلامي وتفريق وحدة المسلمين وإن كنّا لا نملك حقّ الادّعاء بأن جميع الخلافات هي كذلك بل إن بعضها خلافات ناتجة من الاختلاف في فهم الدليل. وسوف تمرّ بنا إن شاء الله بعض المسائل التي تتعلق في هذا المقام من خلال هذا المبحث أو المباحث القادمة.

من موارد الخلاف المبتنية على الدليل

إن هذا يعني أن هناك خلافاً ينشأ من فهم الدليل الشرعي، وهو خلاف شريف أكاديمي؛ لأنه ليس خلافاً من أجل الخلاف، أو مبتنياً على سوء نيّة، بل هو خلاف من أجل الوصول إلى الحقيقة.. خلاف ليس حباً فيه، بل إنه لله وناشئ من فهم الدليل الشرعي كما ذكرنا أو من مادته، ومن ذكر هذه الموارد نذكر:

---

(١) البقرة: ٤٣، ٨٣، ١١٠، وغيرها كثير.

الأوّل: الخلاف في التكفير في الصلاة

وهنا ربما يقول قائل: إني قد بلغني بالدليل أن النبيﷺ كان يضع يده على الأُخرى عندما يصلي من باب الخشوع والخضوع إلى الله تعالى[1]، في حين أن آخرين يقولون ـ وهم المالكية[2] ـ: إن هذه الرواية التي اعتمد عليها الآخرون حول وضع النبي الأكرمﷺ يده على الأُخرى في الصلاة لم تثبت عندنا؛ لأنها ضعيفة أو مقطوعة أو مرسلة أو ما إلى ذلك من أسباب توهين الروايات، كأن يكون في سندها رجال ضعفاء. وعليه فيجب أن نبقى على الأصل وهو عدم وضع اليد على الأُخرى أثناء الصلاة.

ومن جهة أُخرى فإن الخشوع لا يكون باليد، بل إن الخشوع المراد في الصلاة يجب أن يكون في القلب. ومن هذا يتبين أن الخلاف إذا كان من هذا النوع ـ أي أنه ناشئ من الاختلاف في فهم الدليل ـ فإنه خلاف علمي أكاديمي لا شائبة عليه؛ لأن صاحبه يريد أن يصل إلى الحقيقة عبره.

الثاني: الاختلاف في الوضوء؛

إن البعض يقول: إن الآية الكريمة الواردة في خصوص الوضوء[3] هي لتحديد المغسول، ويقول آخر: إنما هي لتحديد الغسل، وبهذا نشأ خلاف حول اتجاه غسل اليد أثناء الوضوء. وهذا اختلاف ناشئ من الاختلاف في فهم الدليل أيضاً،

---

(١) المعجم الكبير ٢٢: ٢٥.

(٢) قريب منه ما في فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (أحمد بن عبد الرزاق الدويش) ٦: ٣٨٢ حيث قال: وكرّه مالك ذلك في الفريضة للاعتماد، وأجازه في النافلة. فربما كانت الكراهة لضعف السند، وكان جوازه في النافلة للتسامح.

(٣) قال عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ المائدة: ٦.

وهو غير معيب كما ذكرنا.

الثالث: الاختلاف في وقت صلاة المغرب

فإن بعض المسلمين يصلي بمجرد سقوط قرص الشمس، في حين أن البعض الآخر لا يصلي بمجرد سقوطه وغيابه، بل إنه ينتظر وقت المغرب، أي غياب الحمرة المشرقية. وهذا الاختلاف ناشئ أيضاً من اختلاف الآراء في أن النهار هل يبدأ من طلوع الشمس وينتهي بغروبها، أو أنه يبدأ بطلوع الفجر وينتهي بوقت المغرب. والرأي الأول حول تحديد النهار يذهب إليه أهل السنة، وبعض من فقهائنا نحن أيضاً، فالسيد محسن الحكيم ﷺ كان هذا رأيه في المسألة[1].

نعم إن عندنا روايات تقول بذهاب الحمرة المشرقية.

والقصد من كل هذا أن كل طرف عنده دليل يعتمده في الوصول إلى الحكم الشرعي. ومن يبحث عن الدليل العلمي فعلاً فإنه حتماً سوف يجده، لكن المشكلة تكمن في أن البعض من الناس لا يهمه الحق، وإنما يجعل كل همه أن يدعّم رأيه بأي شكل من الأشكال حتى لو كان رأيه مخطوءاً أو باطلاً. وهؤلاء لا يعنون لنا في واقع الأمر شيئاً؛ لأننا لا نخاطبهم، بل إننا نخاطب من يبحث عن الدليل العلمي الأكاديمي.. من يبحث عن الله تبارك وتعالى ليصل إليه وليعبده.

إذن فالآية الكريمة حينما تقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا**

---

(١) لم نعثر على رسالته العمليّة، غير أن عباراته في مستمسك العروة الوثقى ٥: ٧٢ ـ ٧٢ توحي بذلك. وإلى هذا الرأي يذهب السيّد محمد سعيد الحكيم، قال: «المغرب عبارة عن غروب الشمس، وسقوط قرصها وغيابه في الأُفق». منهاج الصالحين ١ ١٦٠ / المسألة ١٢. والمنهاج في الأصل هو رسالة السيد محسن الحكيم، والعلماء إنما استعاروا اسمها وتبويبها تبرّكاً بها.

الرَّسُولَ ﴾، فإنها ترشد إلى إن بإمكان أي إنسان أن يذهب إلى أي عالم مجتهد يوصله إلى طاعة الله، غير أنه يُشترط هنا أن يكون من أهل الفن المختصين بعملية الاستنباط والقادرين عليه، لا أن يكون من عامة الناس أو من المتفيقهين. فاستنباط الأحكام الشرعية مسؤولية إلهية كبرى منوطة بعنق صاحبها، فإن لم يكن قادراً عليها فإنه سوف يتحمل وزرها وإثمها.

ومن هذا المنطلق فإننا نقول: إن أهل هذا الفن يشترطون في الشخص الذي يريد أن يتصدى للإفتاء وإصدار الأحكام الشرعية أن يكون قادراً على ذلك، بأن يكون مجتهداً وداخلاً ضمن أهل هذا الفن. ذلك أن أغلب الناس بسطاء لا يعرفون من بلغ رتبة الاجتهاد والقدرة على استنباط الأحكام الشرعية من غيره، كما أنهم لا يملكون ضوابط أو قوانين تمكنهم من تحديد من يريد أن يتمدد أكثر من حجمه، فإذا ما ادّعى أحد الاجتهاد، ثم راح يصدر الفتاوى والأحكام الشرعية جزافاً فانهم سوف يصدّقونه لاعتقادهم أنه من أهل هذا الفن فعلاً، وليس دخيلاً عليهم.

النظام أساس كلّ شيء

وهكذا فإننا بحاجة إلى معرفة مثل تلك الضوابط التي تحدد لنا حجم الشخص الحقيقي وقابليته وكفاءته، وكونه من أهل هذا الفن أو ليس منه؛ لأن كل شيء في هذا الوجود منوط وجوده بنظام معيّن، وهو يقوم على أساس منظومة من القوانين التي تحكم وجوده ذلك؛ فالسماوات مثلاً لم تقم إلّا على نظام معيّن ثابت لا يتغير، فإن تغيّر اختلّ الوجود كله. كما أنه ينبغي لنا أن نعلم أن الفوضى لا تؤدي إلى نتيجة محمودة العقبى، بل إنها سوف تعطي نتيجة سلبية تؤثر بشكل مريع على هذا النظام الذي أراده الله تبارك وتعالى.

ونحن بحمد الله تبارك وتعالى نمتلك ساحة غنية برجالات العلم والمعرفة الذين يشار إليهم بالبنان في مجال هذا الفن الذي نتكلم عنه. وهؤلاء هم أهل علم وتقوىً وأخلاق تؤهلهم لأن يكونوا على مستوى هذه المسؤولية الشرعية بحيث إنهم حينما يفتون لا يخالفون دينهم ولا ضميرهم ولا أخلاقيّات الإسلام التي هم عليها. يقول الإمام عليه السلام: **«أخوك دينك، فاحتط لدينك»**[1].

أي أن علينا أن نتأكد من أن هذا الحكم الذي نأخذه من أحد هو حكم الله عزّ وجلّ، ولا يمكن التأكد من ذلك إلّا إذا عرفنا أن هذا الشخص الذي نأخذ منه حكم الله تبارك وتعالى هو من أهل هذا الفن، والمتمكنين من الاستنباط، وإرجاع الحكم الشرعي إلى مصادره ومداركه الشرعية المقررة. فعلى المسلم المخلص أن يطيع الله دون هواه، وأن يتأكد بأنه إنما يأخذ الحكم الشرعي من شخص متمكّن قادر على استنباطه؛ كي يلاقي الله تبارك وتعالى يوم القيامة وهو مطمئن إلى أنه إنما عمل وفق السبل الشرعية التي وضعها الله سبحانه وتعالى لنا في مثل هذه الأزمنة.

ولتوضيح هذا الأمر نضرب هذا المثال وهو أنه لو أنّ شخصاً أُصيب بمرض ما فالتجأ إلى أحدهم ليعالجه، فوصف له علاجاً فتناوله، فتدهورت حالته الصحية أكثر، ولم تتحسن، ولم يتماثل إلى الشفاء، فإنه حينئذٍ يقع اللوم هنا على ذلك الشخص الذي وصف العلاج إن كان طبيباً بالفعل، فإن لم يكن طبيباً وكان إنساناً عادياً فإن اللوم حينئذٍ ينتقل منه ليتوجّه إلى الشخص الذي لجأ إليه؛ لأنه لجأ إلى غير أهل معرفة، وإلى غير ذي اختصاص بهذا الفن.

(١) الأمالي (المفيد): ٢٨٣، الأمالي (الطوسي): ١١٠ / ١٦٨، بحار الأنوار ٢: ٢٥٨ / ٤.

إذن ففي مثل هذه الحال سوف يلام هذا الشخص لأنه يأخذ علاجه ممن لا يمتلك القابلية على وصف العلاج الصحيح لحالته المرضية. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن هذا الشخص المريض ينبغي عليه ألّا يلجأ إلى ذلك الشخص الذي لا يتمكن من وصف العلاج المناسب للمرض حينما يصاب بسوء أو داء مرّة ثانية مثلاً؛ لأنه سوف يقع في المشكلة ذاتها، وربما يؤدي به إلى الهلكة، ولأن عقله يمنعه من أن يسلك ذلك الطريق إليه، بل يحتاط له ويأمره بأن يذهب إلى شخص آخر من أهل هذا الفن ليصف له العلاج المناسب. وهكذا الحال التي نحن بصدد التطرق إلى الكلام عنها، وهي استنباط الأحكام الشرعية، فكل فن له اختصاص، وله مختصون به يقومون بعملية وصف المسار الصحيح لهم، والعلاج الصحيح سواء كان علاجاً بدنياً أو روحياً.

وعلى العموم فالقرآن الكريم يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ**﴾، وطاعة الله تبارك وتعالى لا يمكن تحصيلها بشكل عشوائي؛ لأنه ليس كل إنسان مجتهداً؛ وبهذا فإنه يجب أخذ هذه الأحكام الشرعية لتحقيق تلك الطاعة من أهل هذا الفن، وهو الرجوع إلى أهل الذكر: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[1].

السيرة العقلائية

إن السيرة العقلائية في هذه الازمنة تقضي بأن يرجع الإنسان في كل حاجة عنده إلى أهل الاختصاص الذين يفهمون في مثل تلك الحاجة التي يريد أن يرجع بها إلى غيره، فلكل موضع حاجة جماعة مختصّون يقومون بمتابعتها، وهذا هو ما تبانت عليه سيرة العقلاء في كل زمان. فحول كل شيء يريد أن يفعله الإنسان لابدّ له من أن يرجع إلى أهل الاختصاص؛ فمن أراد بناء بيت مثلاً فعليه أن يقصد

---

(١) النحل: ٤٣.

مهندساً ليضع له تصميم ذلك البيت ويتكفّل بعملية إنشائه وبنائه، ومن يمرض فعليه أن يذهب إلى طبيب يقوم بتطبيبه ومعالجته من دائه. وهكذا فإن على من يحتاج إلى حكم شرعي، أو فهم مسألة شرعية، أو تطبيق عبادة من العبادات التي فرضها الله تبارك وتعالى علينا بالشكل الصحيح أن يقصد العلماء المتمكنين من فهم الأحكام الشرعية واستنباطها.

وفي هذا جواب على سؤال هو: كيف نطيع الله تبارك وتعالى؟ ومن أي طريق يمكن أن نصل إلى طاعته وأن نعمل بها؟ فالله تبارك وتعالى قد خاطبنا في قرآنه الكريم، وهنا يتعين علينا إطاعة القرآن الكريم، شريطة أن نأخذه من معدنه، وممّن سبر غوره، واطّلع على خفاياه. وهذا يعني أن تكون تطبيقاته تطبيقات سليمة وفق المقاييس العلمية والشرعية وليس وفق مقاييس الهوى والرغبات، أو توجيه القرآن وفق المذاهب والمعتقدات. ذلك أننا بهذا سوف يُصبح مثلنا مثل ذلك الشخص الذي سُئل عن سبب عدم صلاته على حصير، فقال: إن الصلاة لا تجوز عليه؛ لأن سائلاً سأل عائشة فقال لها: هل صلّى رسول الله ﷺ على الحصير، وقد سمعت قول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً**﴾[1]؟ فقالت له: لا[2]. فهذا استنباط أجوف لا معنى له ولا قيمة.

الغطاء الشرعي للطاعة

إذن فالله تبارك وتعالى يأمرنا بأن نطيعه، وهو عزّ وجلّ حينما يأمرنا بطاعته فإنه قطعاً سوف يضع لنا غطاء شرعياً يستوعب تحركاتنا وسكناتنا كافّة؛ كي نتمكن من تحقيق تلك الطاعة بالشكل الأكمل وبالوجه الصحيح الذي ينبغي أن

---

(١) الإسراء: ٨.
(٢) المبسوط (السرخسي) ١: ٢٠٦، فتح الباري ١: ٤١٣.

تكون عليه. إن القرآن الكريم دستور حي يحمل لنا القواعد العامة للحياة الدنيا في مجالاتها كافة؛ فهو يغطّي جميع أبعاد هذه الحياة، ويستوعب حاجاتنا كلها ويتناولها بأن تكون تحت قوانينه ومقاييسه، فلا نحتاج إلى مصدر آخر أو إضافي غيره سوى السنّة المطهّرة التي تفسره.

وهذا يعني أننا لسنا بحاجة إلى أنماط أُخرى من المقاييس الجديدة التي يضعها البعض، كالقياس، أو الاستحسان، أو المصالح المرسلة، وما إلى ذلك. يروى أنه دخل رجل على الإمام الباقرعليه السلام فقال له: سيّدي، إن لم أجد الحكم الشرعي في القرآن الكريم فأين أجده، وأنا أبحث عنه؟ فقالعليه السلام: «تجده في السنّة النبويّة». أي في قول النبيصلى الله عليه وآله أو فعله أو تقريره، فقال: فإن لم أجده؟ قالعليه السلام: «**لا يوجد هناك شيء ليس في الكتاب والسنّة، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾**[1]».

إذن أول شيء ينبغي مراعاته، وأهم الأشياء التي ينبغي تحقيقها على الوجه الأكمل والصحيح هو إطاعة الله تبارك وتعالى عن طريق إطاعة القرآن الكريم عبر تنفيذ ما أمر به، وأخذ الأحكام منه أو من أهله (القرآن الكريم) الذين أمرنا الله تعالى بالرجوع إليهم.

المبحث الثالث: العمل بالسنّة الشريفة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾، أي عن طريق العمل بالسنة النبوية المطهّرة.

---

(١) المائدة: ٣.

وظيفة السنّة النبوية

وهنا من الممكن أن نطرح سؤالاً هو: ماهي وظيفة السنة النبوية بالنسبة إلى القرآن الكريم؟

وفي مقام الجواب نقول: إن السنة إما أن تكون جهة تشريع ما لم يشرّع في القرآن الكريم، أو أنها تقوم بتقييد مطلقات القرآن الكريم وتخصيص عموماته وتبيين مجملاته. فنحن هنا إزاء فرضين هما:

الفرض الأول: أن السنة جهة تشريع

وهذا يعني أنها تتناول ما لم يكن مشرّعاً في القرآن الكريم، فتضع له التشريعات المناسبة. ومن هنا فإنها تُضيف بعض الأحكام الشرعية الجديدة، وتتناولها إذ لم يتناولها القرآن الكريم. وبعبارة أُخرى فإن السنة هي قرآن آخر، ذلك أن القرآن الكريم قرآن مباشر والسنة النبوية قرآن غير مباشر، أي بتوسط النبي ﷺ، فهي تأتينا عن الله تبارك وتعالى عن طريق رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى. ومن هنا فإننا نجد أنه لا يسعنا أن نستغني عن السنة النبوية الشريفة؛ لأنها هنا تُشرّع ابتداء ما لم يشرّع في القرآن الكريم كما ذكرنا.

الفرض الثاني: أنها تقوم بدور المبيّن والمقيّد والمخصّص

وهذا يعني أنها تقوم بتقيد وتخصيص وتبيين مطلقات القرآن الكريم وعموماته ومجملاته. ومن هذا مثلاً أن القرآن الكريم يقول: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ**﴾[1]، والمقطع الشريف ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ**﴾ من هذه الآية الكريمة فيه عموم، فهل إن كلّ صيد البحر حلال كما هو المفهوم من هذه الآية

---

(١) المائدة: ٩٦.

الكريمة، أم لا؟ فبعض المذاهب الإسلامية عندهم أن كلّ صيد البحر حلال. ومن يرغب في أن يعرف المزيد عن ذلك فليقرأ ما كتبه الدميري في (حياة الحيوان) في باب سمك حيث يقول: «السمك بجميع أنواعه حلال بغير ذبح، سواء مات بسبب ظاهر، كضغطة أو صدمة حجر أو انحسار ماء أو ضرب من صياد، أو مات حتف أنفه لعموم ما تقدم من قوله ﷺ: «**أُحلّت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال**».

واختلف العلماء في الحيوان الذي في البحر سوى الحوت، فقال بعضهم: يؤكل جميع ما في البحر سوى الضفدع ولو كان على صورة إنسان وإلى هذا ذهب أبو علي الطيبي من قدماء أصحابنا، قال في (شرح القنية): قيل له: أرأيت لو كان على صورة بني آدم؟ قال: «**وإن تكلم بالعربية، وقال: أنا فلان بن فلان، فإنه لا يصدق**» انتهى. وهذا ضعيف شاذ وقال آخرون: يؤكل الجميع إلا ما كان على صورة الكلب والخنزير والضفدع.

وقيل: كل ما أكل في البر مذبوحاً، يؤكل مثله في البحر مذبوحاً، وغير مذبوح على الأصح. وقيل: لابدّ من ذبحه واختاره الصيدلاني، فعلى هذا لا يحل كلب الماء ولا خنزيره ولا حمار البحر وإن كان له شبه في البر حلال، وهو الحمار الوحشي لأن له شبهاً في البرّ حرام وهو الحمار الأهلي تغليباً للتحريم، كذا قاله في (الروضة) و(شرح المهذب). قلت: (المهذب) المفتى به حلّ الجميع إلّا السرطان والضفدع والتمساح؛ سواء كانت على صورة كلب، أو خنزير، أو إنسان، أم لا»[١].

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ١: ٥٦٩ ـ ٥٧٠، وانظر: مختصر المزني: ٢٨٣، بدائع الصنائع ٥: ٥٠، المغني ١١: ٨٥، كشّاف القناع ٦: ٢٤٥.

صيد البحر؛ ذكاته وحلاله وحرامه

فهؤلاء يستفيدون من هذه الآية الكريمة العموم؛ لأن القرآن الكريم يقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾. ونحن نقول هنا: إن هذا العموم مخصّص، وقد خصصته روايات واردة عن النبي ﷺ، وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وحليّته ـ كما تقول هذه الروايات ـ مشروطة بأن يكون له قشر، فعن حماد بن عثمان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك، الحيتان ما يؤكل منها؟ فقال: «**ما كان له قشر**». قلت: جعلت فداك، ما تقول في الكنعت؟ فقال عليه السلام: «**لا بأس بأكله**». فقلت له: فإنه ليس له قشر. فقال عليه السلام لي: «**بلى، ولكنها سمكة سيّئة الخلق، تحتك بكل شيء. وإذا نظرت في أصل أُذنها وجدت لها قشراً**»[1].

وهذه الرواية بطبيعة الحال تشير إلى وجود أُناس من نمط يتدخّل في السؤال في كلّ شيء، ويتشدّد فيه[2].

وعلى أية حال فالسمك الذي عنده فلس هو السمك المباح من حيوانات البحر. وذكاته أن تخرجه من الماء حياً دون فرق بين أن يكون صائده مسلماً أو كافراً؛ لأن المهم في البين هو أن يموت السمك خارج الماء. وبوجود مثل هذه

---

(١) الكافي ٦: ٢١٩ / ٢، الفقيه ٣: ٣٤١ / ٤٢٠٧.

(٢) مع أنه روي عن نبيّنا الأكرم ﷺ أنه قال: «لا تشدّدوا على أنفسكم، فيشدّد الله عليكم؛ فإن قوماً شدّدوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات ﴿رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا﴾ [الحديد: ٢٧]». مسند أبي يعلى ٦: ٣٦٥، تفسير القرآن الكريم ٤: ٣٣٩.

وعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «إن بني إسرائيل شدّدوا فشدّد الله عليهم، قال لهم موسى عليه السلام اذبحوا بقرة. قالوا: ﴿مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩]، فلم يزالوا يشدّدون حتى ذبحوا بقرة يملء جلدها ذهباً». قصص الأنبياء (الراوندي): ١٦٣ / الرقم: ١٧٦، بحار الأنوار ٧٥: ٣٤٥ / ٣.

الروايات فإن الآية الكريمة لم تبقَ على عمومها، وإنما أصبحت آية عامة قد خصّصتها السنة النبوية الشريفة.

العمومات في السنة المطهّرة

إن عندنا الكثير من العمومات التي توجد في السنة النبوية، ومثلها المجملات والمطلقات، فليس ذلك مختصاً بالقرآن الكريم أو منحصراً به.

حديث «من أحيا أرضاً» وشرطه

فنحن مثلاً نقرأ في السنة النبوية المطهرة قول النبي ﷺ: «من أحيا أرضاً مواتاً فهي له»[1]. ولسان الرواية الشريفة هنا فيه عموم أو إطلاق، مع أن هناك شروطاً تُقيّد هذا الحديث الشريف أو تخصصه، ومن هذه الشروط:

الأول: ألا يكون لأحد عليها يد

لأنه لو كان لأحد يد عليها أو أنه قد وضع يده عليها، وإن لم يشرع بإحيائها فإنه لا يجوز الاستيلاء عليها؛ لأن اليد أمارة على الملكية، إلّا إذا كان في عدم إحيائها واستثمارها ضرر فحينئذٍ تختلف المسألة بالعنوان الثانوي.

ولهذا فإن المشكلة التي حدثت في صدر الإسلام بين الخليفة وبين السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام حول قضية فدك تعدّ موضع استغراب، حيث يستغرب الفقهاء والعلماء كالسيد المرتضى في كتابه (الشافي) من ترك أمارة اليد الدّالة على الملكية، ومن مطالبتها بالبينة، حيث يقول: «نحن نبتدئ فندلّ على أن فاطمة عليها السلام ما ادعت من نحلة فدك إلّا ما كانت مصيبة فيه، وأن مانعها ومطالبها بالبينة متعنّت

---

(١) تهذيب الأحكام ٧: ١٥٢ / ٦٧٣، فتح الباري ٥: ١٤، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من أحيا أرضاً فهي له». تهذيب الأحكام ٤: ١٤٥ / ٤٠٤.

عادل عن الصواب؛ لأنها لا تحتاج إلى شهادة ولا بينة... أما الذي يدل على ما ذكرناه [فهو] أنها عليها السلام كانت معصومة من الغلط، مأموناً منها فعل القبيح، ومَن هذه صفته لا يحتاج فيما يدعيه إلى شهادة ولا بينة.

فإن قيل: دللوا على الأمرين.

قلنا: أما الذي يدل على عصمتها فقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[1]، وقد بينا فيما سلف من هذا الكتاب أن هذه الآية تتناول جماعة منهم فاطمة عليها السلام بما تواترت الأخبار في ذلك، وأنها تدلّ على عصمة من تناولته وطهارته... ويدل أيضاً على عصمتها قوله ﷺ: «**فاطمة بضعة مني فمن أذى فاطمة فقد آذاني من آذاني فقد آذى الله عز وجل**»[2].

وهذا يدل على عصمتها؛ لأنها لو كانت ممن يقارف الذنوب لم يكن من يؤذيها مؤذياً له ﷺ على كل حال... وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين؛ لأن أحداً لا يشك أنها عليها السلام لم تدّعِ ما ادّعته كاذبة، وليس بعد ألّا تكون كاذبة إلّا أن تكون صادقة»[3].

ذلك أن الزهراء (سلام الله عليها) كانت يدها على هذه الأرض خمس سنوات أيام النبي الأكرم ﷺ وسنة واحدة بعدها، فكانت تأخذ واردها واليد أمارة الملكية عند الفقهاء؛ وهذا هو مدعاة استغرابهم ومثاره في مثل هذه الظاهرة.

على أية حال فمن يُرد أن يحيي الأرض يجب ألّا يكون هناك مانع من إحيائها كأن تكون عليها يد لشخص آخر.

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) انظر: مسند أحمد ٤: ٥، صحيح البخاري ٤: ٢١٠، ٢١٢، ٢١٩، ٦: ١٥٨، صحيح مسلم ٧: ١٤١، الشفا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالي أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودّة ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠، نظم درر السمطين: ١٧٦.

(٣) الشافي في الإمامة ٤: ٩٤ ـ ٩٥.

الثاني: ألّا تكون هذه الأرض حريماً لعامر

أي أنه في حال لا يمكن الانتفاع بذلك العامر إلّا بهذه الأرض.

الثالث: ألّا تكون محلاً للعبادة والنسك

فلا يجوز أن يأتي شخص مثلاً إلى منى أو إلى عرفات ويقول: أُريد أن أُحيي هذه الأرض. فهذا ما لا يجوز؛ لأن هذه الأرض هي محلّ للعبادة، ولنسك من مناسك الحج والتهجّد.

إذن فهناك شروط بالنسبة للإحياء، وعليه فلا يمكن أن يُحمل هذا الحديث الشريف على عمومه أو على إطلاقه. ولهذا فإننا نجد أن هناك عبارة معروفة عند الفقهاء وهي: «ما من عامّ إلّا وقد خُصّص»؛ ومن هنا فإنه يتوجّب على الفقيه أن يبحث عن مخصّص للآية أو الرواية إذا مرّ بهما في عموم البحث الذي هو بصدده.

ملاك الملكية

وهنا أود أن أُشير إلى نقطة هامّة هي لو أن إنساناً أحيا أرضاً ثم تركها بعد ذلك، فهل تخرج عن ملكيته، أم لا؟ القليل من الفقهاء يقول: بأن هذه الأرض تبقى على ملكيته، غير أن أغلب الفقهاء يقول بعكس ذلك، فيذهب إلى عدم بقائها على ملكيته؛ لأن ملاك الملكية هو الإصلاح، أي أن هذا الشخص إنما ملكها لأنه عمرها واستصلحها وانتفع بها، فإن تركها دون إصلاح فقد انتهت دواعي ملكيته لها ورجعت إلى أصل الإباحة والمشاع. وهذا ما يذهب إليه الشهيد الثاني في كتاب المكاسب[1].

---

(١) الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقيّة ٧: ١٣٩، مسالك الأفهام ١٢: ٣٩٧، فقد قيّده رحمه الله بما لو كان ملكها بالإحياء، لا بدواعي الملكيّة الأُخرى، وهو مايريده المحاضر رحمه الله.

المهم أن ما أردت التنبيه له هو أن في القرآن الكريم عمومات تخصصها السنة الشريفة، بل وحتى في السنة الشريفة عمومات تعترضها روايات أُخرى تخصصها، أو إطلاقات تقيّدها.

من موارد الإجمال في القرآن الكريم

وهكذا فإننا نجد أن السنة أحياناً تقوم بدور المشرع وأحياناً تقوم بدور المقيد أو المخصّص أو المبين لعموم القرآن أو لإطلاقه أو لمجمله ومن موارد الاجمال في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾[1]، فهذه الآية الكريمة تشير إلى وجوب التوجه إلى الحج لأداء هذه الفريضة المقدسة، لكنها لم توضّح كيف؟ ومتى؟ وماذا على الإنسان أن يفعل وأن يطبّق من مناسك؟ لكننا بالرجوع إلى السنة النبوية المشرفة فإننا سنجد الإجابة الشافية الوافية على هذه الأسئلة. ولهذا فإن السنة النبوية تعتبر هنا في مقام بيان إجمال هذه الآية من حيث إن من يجب عليه الحج هو من يستطيع إلى ذلك سبيلاً بأن يمتلك الزاد والنفقة له ولعياله فترة ذهابه إلى الحج، وما إلى ذلك من شروط ومقدمات يجب تحصيلها قبل تنجّز الحجّ في حقه ودخوله في دائرة الوجوب والامتثال لهذه الشعيرة المقدسة.

خلاصة المبحث

وبعد هذه التوطئة فإننا لابدّ أن نلتفت هنا إلى خطورة قول من يدّعي بأن القرآن فيه كل شيء على نحو الوضوح الكامل فلا إجمال ولا عمومات ولا مطلقات، فلا حاجة للمسلمين حينئذٍ إلى السنة النبوية أو إلى ما يكتبه النبي لهم، أو

---

(١) آل عمران: ٩٧.

إلى تدوين هذه السنة. وهذه بطبيعة الحال دعوى غير صحيحة؛ حيث إنه مما ذكرنا قبل قليل يتضح لنا أن القرآن لا يمكن أن يستغني عن السنة أبداً، فلابدّ من وجود السنة معه بأي شكل أو حال من الأحوال؛ ذلك أن السنة النبوية تعتبر أمراً متمماً ومكملاً للقرآن الكريم، وإن تنزلنا فلمعظم الأحكام الموجودة فيه.

المبحث الرابع: في محبطات الأعمال

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، وهنا ثلاث مسائل ينبغي التنبيه إليها من خلال قراءة واقع هذا المقطع الشريف، واستقراء ما ينطوي عليه من آثار نفسيّة قيّمة، وهما:

المسألة الأولى: في بيان ما يبطل به العمل

إننا نلاحظ هنا أن الآية الكريمة قد أخذت بالتدخّل في توضيح العامل النفسي عند الإنسان، حيث إنها تريد أن تشير إلى أن هناك جملة من محبطات الأعمال، يمكن أن تكون هي المرادة من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، أي أن هناك جملة آراء في معنى إبطال الأعمال، منها:

الرأي الأول: أنه الرياء

فالقرآن الكريم يشير إلى أنه لو كان من وراء طاعة الإنسان رياء في عمله أو في عبادته فإنه يخبرنا بأنه تبارك وتعالى لن يخفى عليه شيء من هذا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1]. إذن فعلى الإنسان الواعي أن يجعل عمله خالصاً لله تبارك وتعالى، وليكن قصده التقرب إليه جلّ شأنه، والعبودية له، والخضوع والطاعة، وعليه ألّا يبطله بالرياء؛

---

(١) ق: ١٦.

لأن الرياء يحبط العمل ويقتل الحسنات.

متعلق الرياء

ثم إن لنا أن نسأل هنا: إن من يرائي المرائي من أجله هل هو إلّا إنسان مخلوق ومحتاج مثله؟ وما دام هو كذلك، ويتّصف بهذه الصفات التي ذكرناها، فلماذا إذن يُغضب الله تبارك وتعالى من أجله؟ ولماذا يحبط عمله لأجله وهو يعلم أنه نفسه ربما يكون أفضل منه، أيّ ممّن راءى لأجله؟ إذن على الإنسان أن ينقطع إلى تلك القدرة الخالدة والإله الواحد، وهو الله تبارك وتعالى، وليس إلى إنسان مثله لا يملك له ضرّاً ولا نفعاً، ولا يستطيع أن يقدّم في أجله أو يؤخّره.

إذن فالآية الكريمة في هذا المقطع الشريف تؤكد على أن على الإنسان ألّا يعمد إلى أن يُبطل عمله بهذا الفعل؛ لأنه لا شيء يستحقّ أن يكون قبالة غضب الله تبارك وتعالى حتى يفعله من أجله. فليبتعد عنه كيلا يحبط ذلك العمل الذي يبذله، وربما يكون بذل مال، أو القيام بعمل عبادي متعب كالحج مثلاً أو الصيام أو أداء الصلاة المستحبة، وما إلى ذلك. ولذا فقد ورد في الروايات الشريفة أنه ينادى المرائي يوم القيامة: «**يا كافر يا فاجر، يا غادر يا خاسر، حبط عملك، وبطل أجرك، ولا خلاق لك، فالتمس أجرك ممّن كنت تعمل له**»[1].

الرأي الثاني: أنه بترك أوامر الرسول ﷺ

وأصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن على المسلم ألّا يبطل عمله بمخالفة قول الرسول ﷺ؛ ذلك أنه ربما يوجد من يقول من الناس مثلاً: نحن نؤمن بالقرآن الكريم ولا نؤمن بقول الرسول ﷺ. وهذا غير مقبول؛ لأن التفوّه بمثل هذا الكلام

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٦٧٧ ـ ٦٧٨ / ٩٢١، الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٠.

سوف يبطل عمل الإنسان ويحبطه؛ ضرورة أنه يقتضي الاعتقاد بما يخالف النمط الصحيح في هذا المجال وهو أن القرآن الكريم يحتاج إلى ما يبينه وهو السنة النبوية المطهّرة.

فالقرآن الكريم لا يمكن أن يُكتفى به في هذا المجال؛ لأن أغلبه مجمل أو عام أو مطلق كما ذكرنا، وهذا الأمر يستلزم الرجوع إلى ما يوضّح تلك العمومات أو المطلقات أو المجملات لمن يريد أن يعمل بأحكام الشريعة.. الرجوع إلى السنة النبوية المطهرة التي هي في مقام بيان غامض القرآن الكريم. والقرآن الكريم مثلاً حينما يقول لنا: ﴿**فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً**﴾[١]، فإن هذا المقطع من الآية الشريفة صريح في وجوب طاعة الوالدين وعدم التقليل من احترامهما وعدم انتهارهما.

لكن يرد هنا سؤال هو: لو أنّ هذين الأبوين كانا كافرين فهل تجب حينئذٍ طاعتهما؟ إن مثل هذا التساؤل لم يبيّنه القرآن الكريم بأكثر ممّا قال: ﴿**وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً**﴾[٢]، غير أنّ السنة النبوية الشريفة قد بيّنت ذلك كما في الرواية الواردة عن النبي ﷺ والتي تقول: إن أسماء بنت عميس دخلت على رسولنا الأكرم ﷺ، وقالت له: يا رسول الله، إن أُمّي جاءت تزورني، وهي مشركة، فهل تأمرني ببرّها؟ فقال ﷺ: «**نعم، برّيها**».

وهذا يعني أنّه لا علاقة للحكم في حال كون الأبوين مشركين أو مسلمين في موضوع المقام أبداً؛ لأن الحكم لا علاقة له بالعقيدة، بل بالأُبوّة والأُمومة.

---

(١) الإسراء: ٢٣. (٢) لقمان: ١٥.

إذن فالقول بأنه يمكن الاكتفاء بالقرآن الكريم دون أن تكون هناك حاجة إلى السنة النبوية قول باطل؛ لأنه يستلزم بطلان العمل؛ ذلك أنّ الإنسان من غير السنة النبوية لن يكون قادراً على أخذ الحيثيات الأُخرى المحيطة بالواقعة موضوع الفتوى، فإن هذا لن يتم إلّا عن طريق السنة النبوية المقدسة ومن خلالها.

الرأي الثالث: أنه الغرور

فأصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن معنى هذا المقطع الشريف من الآية هو: لا تبطلوا أعمالكم بالاغترار بها، وبما تؤدّونه، ظانّين أنه شيء كبير وذو قيمة. عن أبي عبد الله ﷺ قال: «**أتى عالم عابداً، فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يسأل عن صلاته، وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا؟ قال: فكيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتى تجري دموعي. فقال له العالم: فإن ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وأنت مدلّ، إن المدلّ لا يصعد من عمله شيء**»[1].

فعلى الإنسان أن يحافظ على عمله بالتواضع، وأن يبقى عارفاً بقدر نفسه وقدر عمله، وعليه ألّا يضع نفسه موضع الغرور، ويجعلها عرضة له، فيأخذه إلى أن يسحته، حيث يوصله إلى مرحلة إحباط العمل وإبطاله. ومثل الغرور التكبّر؛ فكلاهما يحبطان العمل.

المسألة الثانية: أن الخلق إنما تكون قيمتهم بالعبادة

إن مما يجري على ألسنة بعض أصحاب الشأن في هذا المجال ما يروى من أنّ عالماً وفاسقاً دخلا بيتاً من بيوت الله تبارك وتعالى، وبعد ذلك خرجا؛ وليس للعالم أجر ولا ثواب، أما الفاسق فخرج وهو راشد مأجور؛ وذلك أن العالم حينما

---

(١) الكافي ٢: ٣١٣ / ٥، جامع السعادات ١: ٢٨٥.

دخل ورأى نفسه بين الناس محاطاً بالتبجيل والتقدير، واهتمام الناس به، وتوجه أنظارهم إليه، أخذه العُجب والرياء، فكان أن حبط عمله بهذا، أما الفاسق فحينما دخل إلى بيت الله تبارك وتعالى، أخذته قشعريرة الخوف منه سبحانه، وانفتح قلبه على الأجواء الإيمانية داخل المسجد، فمنّ الله تبارك وتعالى عليه بالتوبة، فكان أن تاب؛ ولذا فإنه خرج بأجر عظيم.

وهذه القصة ربما ليست حقيقية، لكنها فيها إيحاءات واضحة تؤشّر إلى ما نحن بصدد الإشارة إليه والكلام عنه.

المسألة الثالثة: ما يستفاد من هذا المقطع الشريف

إن ممّا يستفاد من هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة هو عدم جواز التحلّل من العمل العبادي بعد الدخول فيه، فالفقهاء يستدلّون من خلال هذا المقطع الشريف على صحة عدم التحلل من أي عمل ديني عبادي يدخل فيه المكلف من غير ضرورة. وهم يستندون إلى هذا المقطع في رفد هذه الفتوى. فلو أنّ إنساناً دخل في الصلاة، فهل يصح له أن يخرج منها، أي أن يقطعها؟ يذهب الشافعي إلى عدم جوازه في الواجبات أما في النوافل فيذهب إلى جوازه؛ معلّلاً ذلك بأن الإنسان مخيّر في النوافل، والتخيير ينبسط على كل جزء من أجزاء العمل العبادي، أي أنه يذهب إلى أنّ الإنسان له أن يتم هذا العمل العبادي، وله ألّا يتمّه، أما العمل العبادي الواجب فيمنع ذلك فيه، ولا يجيزه.

موارد جواز قطع العبادة عند الإمامية

أما الإمامية فيذهبون إلى أنه لا يجوز للمكلّف أن يقطع صلاته إلّا لسببين:

الأول: السبب الدنيوي

ولهذا السبب تطبيقات كثيرة نذكر منها ما يلي:

أولاً: خوف فوت الغريم

فلو أنّ إنساناً قد أقرض غيره مالاً فامتنع عليه وأبى سداده له، وهرب به، ثمّ رآه الدائن وهو يصلي، فإذا كان يخشى عليه الفوت، وأنه لا يستطيع الإمساك به لاستنقاذ حقّه وماله، فإن له أن يقطع الصلاة ويلحق به ليستوفي منه ذلك المال الذي أقرضه اياه.

ثانياً: خوف هرب الدابّة

فلو أنّ مصلّياً ربط دابّة له، ثم شرع في الصلاة، وأثناء صلاته انفلتت الدابة من زمامها فهربت، ففي مثل هذه الحال له أن يقطع صلاته ويلحق بالدابة قبل أن تبتعد وتضلّ.

ثالثاً: الخوف من الحريق

وكذلك هناك تطبيق آخر في هذا المجال هو لو أنّ المصلي قد شرع في صلاته ثم اندلعت النيران في بيته فإن له في مثل الحالة أن يقطع الصلاة؛ كي يُنقذ ما يستطيع إنقاذه من ثمين ما يملك، أو كي يعمل على إطفاء هذه النيران.

إن مثل هذه الأُمور تسمى دفع الضرر في الأُمور الدنيوية.

الثاني: السبب الديني

وهو كما لو أن المصلي رأى أثناء صلاته نجاسة في المسجد ـ والمعروف عند الفقهاء أنه يجب المبادرة إلى رفع النجاسة من المسجد وتطهير محلّها ـ فإذا ما رأى فيه نجاسة أثناء صلاته، فإن للفقهاء رأيين في مثل هذه الحال حيال الإفتاء بما يجب عليه، هما:

الرأي الأول: أنّ هذا المصلي له أن يتم صلاته، فإذا ما فرغ منها بادر إلى رفع النجاسة دون تماهل أو تأخير.

الرأي الثاني: أنه يجب عليه أن يقطع صلاته، ويزيل النجاسة، ثم بعد ذلك يستأنف تلك الصلاة.

إذن فقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ يعني وفق هذا الرأي أنّ على الإنسان إذا ما تلبّس بعمل عبادي فعليه ألّا يتركه ولا يقطعه أو يخرج منه.

دور العامل النفسي في مسألة المقام

وكما رأينا فإن هناك عاملاً نفسيّاً يحكم الواقع في المسألة هذه، ذلك أن كل عمل من الأعمال؛ سواء كان في ساحة حرب أو في ساحة سلم، إذا كان مشروعاً فإن التراجع عنه يعدّ نقصاناً بالهمّة عند صاحبه، أي أن صاحبه يعد قليل الهمة قصيرها، أو ليس ذا همة تدفعه إلى المضي في الأمر الذي دخل فيه أو الذي بدأه؛ لأنه يكون قد أحسّ بعجز عن إتمامه مثلاً، أو بتعب فيه، أو بألم، أو عدم تأقلم معه، أو ما إلى ذلك.

ومن هذا لو أن إنساناً آمن بضرورة الدفاع عن حمى المسلمين، ثم خرج لهذا الغرض مدافعاً عنه، وفي هذه الأثناء حصلت مثبّطات أمامه، فكان أن ترك ذلك العمل، فإن هذا الأمر يعدّ خلاف مقتضيات الرجولة، وقصراً في الهمّة؛ لأن هذه المثبّطات يجب ألّا تمنع الإنسان عن المضي في شأنه أو إلى الهدف والغاية التي هو يريدها. فالجهاد عمل كريم، وكذلك الأعمال الأُخرى الخيّرة التي يمكن أن يقوم بها الإنسان لمصلحة نفسه أو لمصلحة مجتمعه أو بلده.

ولهذا فإن التراجع عن الجهاد أو عن أي عمل من هذه الأعمال المشار إليها يعد خلاف الرجولة وخلاف العزم، وخلاف عقد الإرادة على القيام بعمل ما وإتمامه. فالعمل الكريم إذا ما لم يُتمّم نتيجة بعض المؤثرات التي تؤثر على صاحبه أشعر بأنّ هناك قصوراً في همة ذلك العامل؛ ولذا كان اللازم أو الذي ينبغي

هو عدم التراجع عن أداء ذلك العمل وعن إتمامه حتى ولو أدى إلى التضحية بالنفس أو بالمال أو ما إلى ذلك، بغض النظر عن كونه حكماً شرعياً أو غير شرعي، فنحن نتكلم الآن في مرتبة خلقية يجب على الإنسان أن يراعيها؛ كي يدخل في دائرة المتمسكين بقواعد الأخلاق الحميدة التي يجب أن يتربى عليها الإنسان.

العامل النفسي عند أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام

برز عمار بن ياسر ﷺ في معركة صفّين، وكان شيخا كبيراً، وقد أخذ الحربة بيده وهو يقول: والذي نفسي بيده، لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات، وهذه الرابعة، والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى بلغوا بنا سعيفات هجر، لعرفت أننا على الحقّ وأنهم على الباطل[1].

وهكذا نجد أنّ هذه المواقف الكريمة، وهذه العزيمة النبيلة والقاطعة قد زرعت لنا بدايات مشرّفة في تاريخ الإسلام، وفي حياة المسلمين.. زرعت لنا بدايات تعتبر علامات مضيئة في مسيرتنا وفي طريقنا إلى تحصيل رضا الله تبارك وتعالى؛ لأنّ هؤلاء الروّاد قد عبّدوا لنا الطريق، وأوضحوا لنا المحجّة، وأناروا لنا السبل ونحن نسير وننطلق في رحلة طلب مرضاة الله تبارك وتعالى وإعلاء كلمته ونشر دينه.

العامل النفسي عند أصحاب الإمام الحسين عليه السلام

ومثل عمار بن ياسر (رضوان الله تعالى عليه) أصحاب الإمام الحسين عليه السلام،

---

(١) الاختصاص: ١٤، الأمالي (الطوسي): ١٤٣، مجمع الزوائد ٧: ٢٤٢ ـ ٢٤٣، قال: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الله بن سلمة، وهو ثقة، ٧: ٢٤٣، قال: رواه الطبراني ورجاله ثقات، ٩: ٢٩٨، قال: رواه الطبراني وإسناده حسن، مسند أبي داود الطيالسي: ٨٩، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٧٢٢ / ٣، ٧٢٥ ـ ٧٢٦ / ٣٠، ٧٢٧ / ٣٦، صحيح ابن حبّان ١٥: ٥٥٥ ـ ٥٥٦.

هؤلاء الرجال العظام، والنجباء الذين لم يحدث التاريخ عن مثلهم؛ فقد بلغ بهم الإصرار والعزيمة إلى حد لا يمكن أن يتصوره إنسان على أنه شيء طبيعي أو اعتادي. والأغرب من هذا أن مثل تلك المواقف لم تكن مقتصرة على الرجال فقط، بل إنها تعدّت إلى النساء، ومن هذا أن الإمام الحسين عليه السلام حينما كان في ليلة العاشر من المحرم وقف وقال: «**ألا ومن كان في رحله امرأة، فلينصرف بها إلى بني أسد**».

فقام علي بن مظاهر (أخو حبيب) وقال: ولماذا يا سيدي؟ فقال عليه السلام: «**إن نسائي تسبى بعد قتلي، وأخاف على نسائكم من السبي**».

يقول علي بن مظاهر الأسدي: رجعت إلى خيمتي فوجدت زوجتي واقفة على باب الخباء، فقالت لي: يابن مظاهر، إني سمعت غريب فاطمة خطب فيكم، وسمعت في آخرها همهمة ودمدمة، فما علمت ما يقول. فقلت لها: يا هذه إن الحسين عليه السلام قال لنا: «**ألا ومن كان في رحله امرأة، فلينصرف بها إلى بني أسد**»؛ لأنه غداً يقتل وتسبى نساؤه. فقالت: وما أنت صانع؟ قلت: قومي حتى أُلحقك ببني عمك بني أسد.

يقول علي: فقامت وضربت رأسها في عمود الخيمة وقالت: والله ما أنصفتني يابن مظاهر، هل رأيتني لم أُحسن إليك يوماً؟ قال: لا. فقالت: لماذا إذن تذهب إلى الجنّة وترجعني إلى النار؟ أيسرّك أن تسبى بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا آمنة من السبي؟ أيسرك أن تسلب زينب إزارها من رأسها وأنا أستتر بإزاري؟ أيسرك أن تذهب من بنات الزهراء أقراطها وأنا أتزيّن بقرطيّ؟ أيسرك أن يبيضّ وجهك عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويسودّ وجهي عند فاطمة الزهراء عليها السلام؟ والله أنتم تواسون الرجال ونحن نواسي النساء.

وهنا رجع علي بن مظاهر إلى الحسين﵇ وهو يبكي، فقال له الحسين﵇: **«ما يبكيك؟»**. فقال: سيدي أبت الأسدية إلّا مواساتكم. فبكى الحسين﵇ وقال: **«جزيتم عنا خيراً»**[١].

وهذا موقف مشرّف من هذه المرأة العظيمة التي أبت إلّا أن تشارك حرم رسول الله ﷺ مصابهم وأيام بُؤسهم ورحلتهم المعنّاة من الطف إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى الشام. كما أن الرجال من أصحاب الإمام الحسين﵇ قد أثبتوا للتاريخ أنهم بعيدو الهمم، ثابتو العزم، يتسمون بالحسم والحزم، والشجاعة البالغة، والنبل الذي ليس بعده نبل؛ فقد صُرّعوا جميعاً من أجل مبدئهم مع أنهم يعلمون أن القتل سوف يكون مصيرهم، وأن الموت بانتظارهم، وأنه نهايتهم المحتومة، كما أنبأهم بذلك سيدهم ومولاهم سيد شباب الجنة الإمام الحسين﵇[٢]، لقد مر بهم الإمام الحسين﵇ وهم صرعى المبادئ والعقيدة والإيمان فقال: **«اللهم إن كنت حبست عنا النصر عاجلاً، فاجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً في مستقرّ رحمتك، واجمع بيننا وبينهم تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلّك»**[٣].

وبعد أن قُتل هؤلاء نُكّل بجثثهم الطاهرة التي بقيت في العراء من غير دفن إلى مثل هذه الليلة، وإلى صبيحة اليوم الثالث عشر من المحرّم عندما رجع الإمام زين

---

(١) معالي السبطين ١: ٢٤٠.

(٢) بل إن بعض صحابة الإمام الحسين﵇ ذهبوا إلى أكثر من ذلك حينما أخبروا الإمام الحسين﵇ بأنهم لو قتلوا ثم نشروا ثم قتلوا ثم نشروا سبعين مرة أو أكثر لما تركوا مناصرته ومولاته والدفاع عنه. انظر: الإرشاد ٢: ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

(٣) انظر: الإرشاد ٢: ١٠٨، مثير الأحزان ٥٢، تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، البداية والنهاية ٨: ٢٠٣.

العابدين عليه السلام. فقد أمر عمر بن سعد بجمع القتلى من جيوشهم، وترك عائلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقتلى آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابهم على الأرض ثلاثة أيام، تتعاوى العقبان والكواسر على أجسادهم، حتى جاءت نسوة من بني أسد لنقل الماء من المسنّاة، فرأين الطيور صاعدة ونازلة، فقلن: ما هناك؟ ثم هرولن إلى المكان فرأين الأجساد صرعى على الأرض تسفي عليها الذاريات، فرجعن إلى أزواجهن، فأعلمنهم بما رأين.

فأقبل الرجال إلى أن وصلوا، فرأوا الأجساد المصرّعة على الأرض، فأرعبهم الأمر، وما الذي يصنعونه، وهنا أطلّ عليهم راكب، وقال: «**مالي أراكم وقوفاً؟**». قالوا: نحن نتفرج على هذه الجثث. قال: «**لا، أخبروني بالذي انطوت عليه ضمائركم، وأضمرته سرائركم**». قالوا: أو نحن في أمان؟ قال: «**في أمان**». قالوا: يا هذا، إنا جئنا لندفن هؤلاء القتلى من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. قال: «**إذن مالذي يمنعكم؟**». قالوا: إن القوم أجساد بلا رؤوس، وسوف تصبح القبور غير معروفة أصحابها. قال: «**اتبعوني**».

وكان هذا القادم الإمام السجّاد عليه السلام، فأقبل كهيئة المنحني إلى أن وصل إلى جسد أبيه الحسين، فألقى بنفسه على الجسد واحتضنه وقال: «**أبتاه، أما الدنيا بعدك مظلمة، وأمّا الآخرة فبنور وجهك مشرقة. أما حزني فسرمد. وأمّا ليلي فمسهد، حتى يختار الله لي الدار التي أنت فيها مقيم**». ثم استدعى بحصير ووضع الجسد عليه ولما أراد أن ينزله إلى القبر، قالوا له: دعنا نعِنك. قال: «**لا، فإنّ معي من يعينني**». فأنزل أباه إلى القبر.

ثم التقط شيئاً من التراب، فإذا هو إصبع الحسين عليه السلام المقطوع، فحمله وأنزله إلى القبر.

لهفي علـى تـلك الأنـامل قـطّعت ولوَ انها اتّصلت لكانت أبـحرا[1]

ثم راح الإمام السجاد بعد ذلك يبحث عن شيء قبل أن يواري جثة أبـيه عليه السلام التراب، وذلك بوصية من أبيه حيث أوصاه قائلاً: «بني علي، وسّد رضـيعي إلى جنبي». وأقبل بجسد الرضيع وواراه جنب أبيه الحسين عليه السلام وأهال التراب عليهما، ثم حفر حفيرة وارى بها الشهداء من آل محمّد، وحفر حفيرة ووارى بها الشهداء من الصحابة، ثم أخذ يقلّب طرفه ويقول: «هل بقي أحـد؟». قالوا: نعم، لقد بقي على المسنّاة بطل، كلّما حملنا منه عضواً سقط العـضو الآخـر. قـال: «واعـمّاه واعبّاساه». وأقبل إليه واحتفر حفيرة عنده، ثم جلس عند القبور ليـبلّها بـدموع عينيه، غير أن الحوراء زينب عليها السلام لم تكن تعرف أصحاب هذه القبور، ولمن هـذا القبر ولمن ذاك حينما رجعت من السبي إلى كربلاء؛ ولذا فإن الإمام زين العابدين كان دليلها إلى تلك القبور، فأقبل بها إلى قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام فألقت بنفسها على ثرى القبر:

على كبر السبط ذبت نفسها تون بهداي ماينسمع حسـها

* * *

أأخـيّ مـن يـحمي بـنات مـحمدٍ إن صرن يسترحمن من لا يرحـمُ

---

(١) ديوان ابن معتوق: ٢١٣.

﴿٢٣٧﴾

فريضة طلب العلم في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: نظرة إلى العلم والعمل والعامل به

إن الآية الكريمة موضوع المقام تعتبر من وجهة نظر علميّة أصلاً من أُصول طلب العلم، وكأنّ القرآن الكريم في منهجيته الأكاديمية يقسّم أبناء المجتمعات إلى قسمين:

الأول: ذوو المهارات العملية

فهؤلاء يدفعهم القرآن الكريم إلى طلب المعاش عبر ممارسة المهارات العملية ومزاولتها، كالزراعة والصناعة وما إلى ذلك فيما يدور في هذا المجال.

---

(١) التوبة: ١٢٢.

الثاني: ذوو المهارات العلمية

وأبناء هذا القسم يحثّهم القرآن الكريم على طلب العلم والمعرفة، ويدفعهم إلى تحصيلهما. والقرآن الكريم إنما يدفع الناس وفق هذا التقسيم بناء على حرصه على أن يكون المجتمع مجتمعاً متكاملاً كما يريد له، فيجمع بين كون الإنسان مؤهّلاً علمياً لكي تكون تطبيقاته تطبيقات صادرة عن علم، وبين كونه عملياً. فيسدّ النقص أو الخلل الذي يمكن أن يقع في الجانب الآخر لو لم يتوجه جماعة من أبناء هذا المجتمع إلى ملء ذلك الفراغ.

إذن فجميع تطبيقات القرآن الكريم صادرة عن علم الله تعالى بطبيعة الناس وبرغبته في أن يعلّمنا وفق منهجه الذي يريد أن يسمو عبره بهذا الإنسان، وأن يرفعه إلى حيث يستحق أن يكون وهو يؤدي الوظيفة التي أناطها الله تعالى به، والوظيفة التي وظّفه من أجلها، يقول القرآن الكريم: **﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾**[1].

وجوب تتبّع الأشياء عن علم

وهذا يعني أنّ على الإنسان ألّا يقفو أي شيء ولا يتبعه إلّا مع العلم، فعليه أن يتسلح بالعلم أولاً ثم بعد ذلك يستطيع أن يلج الميادين الحياتية كافة. فكل تحرّك يتحركه الإنسان يجب أن يكون مدروساً وخاضعاً للعلم، ومطبوعاً بطابعه؛ لأن الأُمّة إذا ما تحركت تحركاً علمياً فلا شك أنها سوف تأخذ حيزاً كبيراً في دنيا الوجود والعلم والحياة بسبلها كافة، وبالعكس من ذلك فإن تحرّك الأُمم إذا كان عشوائياً غير صادر عن علم أو معرفة فإنها سوف تضيع وتندثر ولن يبقى لها أي أثر أبداً.

---

(١) الإسراء: ٣٦.

وهذه هي سنة الحياة وسنة الكون؛ فالطبيب مثلاً إنما يعالج الناس من أمراضهم وعللهم عن علم وعن دراسة، والنجّار كذلك إنما يصنع الأشياء عن خبرة ومعرفة وعلم ومهارة. وهكذا فإننا حتماً سوف نصل إلى نتيجة مؤداها أنّ الحياة إذا كان القيام بالأشياء فيها عن علم فإن الأُمور حينئذٍ سوف تتّسق وتتّسم بالسمة العلمية الصحيحة، وسوف تسير على ما يرام لها أن تسير عليه. وأخطر شيء عند كل أُمّة هو أنها حينما لا يتصرّف أبناؤها وأفرادها عن دافع من العلم، أو أنها تـصرّفات لا يكون منشؤها العلم.

ولهذه الأسباب نلاحظ أن الآية الكريمة تُعتبر أصلاً من أُصول طلب العلم، فهي تريد أن تقول: ليس على جميع الناس أن يتوجهوا لطلب العلم، كما أنه ليس عليهم جميعاً أن يتركوا العلم ويتوجهوا إلى العمل والمتاجرة والزراعة وجني المال على حساب التعلّم، بل إنه لابدّ أن يتوجّه جماعة من الناس لطلب العلم بمقدار يسدّ كل حاجة وكل اختصاص. أي أن كل اختصاص علمي يجب أن يتوجه إليه جماعة من أفراد المجتمع لا أقل من أن تكون فيهم الكفاية لسدّ الفـراغ الذي يـمكن أن يخلّفه عدم ذهاب الناس إلى طلب ذلك الفرع من العلوم.

التنوّع الوظيفي أساس التكامل الاجتماعي

وفي مقابل هذا ومن قولنا: إنّه لا ينبغي على جميع الناس أن يتوجهوا لطلب العلم تتحصّل معادلة ضرورية للمجتمع وفي الحياة؛ وهي أنّه كما أنّ طلب العلم ضرورة، وتحصيله أمر مهم وواجب في بعض الأحيان فكذلك التوجّه إلى ميادين العمل الأُخرى؛ فالتوجه إلى الزراعة أمر ضروري جداً للمجتمع لا ينبغي تركه، وكذلك التوجّه إلى الصناعة في المعامل، والتوجّه إلى القيام بالأعمال الحرفية أو المهنية الأُخرى. كل ذلك ينبغي ألّا يُترك؛ كـي تـتحقق المـعادلة والاتـزان فـي

المجتمع، وكي يعيش المجتمع متكاملاً دون أن ينقصه شيء.

فبالمقدار الذي تكون فيه حاجة المجتمع إلى طالب علم يدرس الطبّ مثلاً أو الهندسة أو التعليم تكون حاجته إلى وجود المزارع في أرضه ليزرعها، ووجود العامل في مصنعه ليقوم بصنع الأشياء الضرورية لسدّ احتياجات المجتمع. وليس الكلام على العامل وهو في معمله أو مصنعه، بل على العامل في ميادين الحياة العملية المختلفة، أي كلما كانت هناك حاجة في مجال معيّن من الأعمال وجب أن يكون هناك عامل يسدّ تلك الحاجة؛ كي تستقيم أُمور المجتمع، وتتسق الحياة وتنتظم؛ وبالتالي فإنّ أفراد المجتمع يعيشون مكتفين ذاتياً دون أن يكونوا بحاجة إلى غيرهم أو من يعولهم في مثل هذه المجالات.

من هو العامل في نظر الإسلام؟

إنّ الإسلام الحنيف يعدّ كل شخص يعيش داخل مجتمع ما عضواً عاملاً في الهيئة البشرية، فكل فرد في المجتمع يعتبره الإسلام عاملاً ينبغي عليه ألّا يفوّت هذه الصفة التي وصفه الإسلام بها.

ثمّ إن صفة العمل التي يصف الإسلام بها كل فرد من أفراد المجتمع واضح أنها لا تقتصر على من يعمل بيديه فقط، وإنما هي صفة تتسع لتشمل كل عامل سواء كان يعمل بيديه، أو بعقله وفكره كعالم الرياضيات أو عالم الكيمياء اللذين يمارسان عملهما على المعادلات الرياضية أو الكيميائية التي تضع قواعد وحلولاً لكثير من المشاكل التي تعترض الرقي بالمجتمع أو تطوره. وكذلك الحال مع عالم الاجتماع الذي يعمل بفكره فيضع نظريات اجتماعية تسهّل من عملية وضع حلول لمشاكل المجتمع، وتشخيص أمراضه، ووصف العلاج المناسب لها. فهؤلاء كلهم عاملون من وجهة نظر الإسلام: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ

وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

فكل من يعمل في أي بعد من الأبعاد فهو عامل بغض النظر عن نوع ذلك البعد وماهيته، وعن الكيفية التي يؤدّىٰ فيها ذلك العمل، أما من يأكل من غير عمله فإنّ المشرّع الإسلامي الأقدس يعتبره عائلاً على المجتمع ونشازاً فيه، بل إنّه يعتبره ضريبةً على المجتمع. فالمفروض بالإنسان أن يكون له دور إيجابي في هذه الحياة، فلا يأكل إلّا من عمله. ونحن نلاحظ أن هذا المعنى موجود حتى في المجتمعات التي هي أدنى من الإنسان رتبة، كمجتمعات النحل والنمل، ففي مثل هذه المجتمعات يكون للذكر وظيفة معيّنة، أما إذا انتهت وظيفة الذكر في مجتمع النحل فإنه سوف يُقتل لأنه حينئذٍ سوف يبقى يستهلك دون أن يقدّم أي إنتاج يذكر إلى مجتمع النحل.

وهذا يعني أنّ كل فرد يجب أن يعمل وأن يقدم شيئاً للمجتمع؛ حتى يصبح هذا العمل مصحّحاً لوجوده ولعيشه ضمن هذا المجتمع. وهذه الصورة التي يعطينا إياها مجتمع النحل هي صورة فيها عبرة واضحة، ذلك أنّه لا يجب أن يكون هناك عضو في المجتمع غير فاعل، فلا يعمل ولا يمارس أي وظيفة يقوم بها كما هو شأن غيره. إنّ هذا الذي يطبقه مجتمع النحل هو مثال راقٍ للحثّ على العمل ولبيان أهميته وقيمته. ونحن نتمنى أن يكون هذا التطبيق في مجتمعنا، فيتخلص المجتمع من كل من يكون كذلك، فيعيش عبئاً على الناس، ويبتزّ قوتهم وطعامهم وحقوقهم دون أن يقدّم لهم شيئاً إزاء كل ذلك.

كما أننا نأمل أن تكون في المجتمعات البشرية مناعة كتلك المناعة الموجودة في مجتمعات النحل وغيرها، فتتخلص من هذه الطفيليات التي تعيث في المجتمع

---

(١) التوبة: ١٠٥.

فساداً، والتي تمتص دماء المجتمع وتأكل ما ينتجه بكدّه وعرقه.

المبحث الثاني: أن طلب العلم واجب كفائي

تقول الآية الكريمة: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً**﴾، ومعنى هذا المقطع الشريف منها أنه ليس من المعقول أن نكلّف الناس جميعهم بطلب العلم؛ ذلك أن المجتمع يحتاج إلى من يدير شؤونه على الأصعدة كافة، فهو يحتاج إلى البنّاء ويحتاج إلى المزارع ويحتاج إلى الصانع ويحتاج إلى من يسدّ جميع الثغرات التي يمكن أن يخلّفها أو يتركها تخلف الناس عن ممارسة التنويع في العمل ضمن المجتمع، فقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً**﴾ كأنما يريد أن يلفت أنظارنا إلى نقطة هامة هي أنّ العمل يتضمّن معنى العبادة أيضاً وإن كان علماء المسلمين يقسمون الفقه إلى عبادات ومعاملات في كتبهم، لكن حتى المعاملات هي أُمور فيها المعنى العبادي بيّن وواضح.

وهكذا فإن من يخرج من بيته ليكتسب رزقه بالحلال دون أن يغشّ ويسرق في البيع أو في التسعير فإن عمله هذا يعد عبادة، بل وأكبر أنواع العبادة. وكذلك من يخرج من بيته بنيّة أن يبني بيتاً لغيره لمصلحة الامّة، فيجعل نيّته خالصة لله تبارك وتعالى، فإنه في هذه الحالة يكون عمله عبادياً.

هذا يعني أن العبادة لا يمكن أن تقتصر على الصلاة والصوم وممارسة بعض أنواع الشعائر الأُخرى فقط، بل إن الدنيا كلها مع النية الصالحة الخالصة لله تبارك وتعالى تتحول إلى ميدان عبادة، وإلى محراب يمارس فيه الإنسان العبادة وفق العمل الذي يزاوله أو يقوم به.

إذا عرفنا هذا فإننا نقول: إنّ كل عمل يمكن أن يعود بالنفع على المجتمع يعتبر تحصيله واجباً فيما لو انحصر بمجموعة هم الوحيدون القادرون على القيام بها

دون غيرهم؛ فطلب العلم الديني أو طلب العلوم الأُخرى، أو ممارسة صناعة معيّنة أو عمل آخر كالزراعة ونحوها إذا انحصرت بمجموعة لا يستطيع غيرهم القيام بها كان ذلك واجباً عليهم تعلّمه وعمله وأداؤه والقيام به. فالمجتمع حينما يكون بحاجة إلى أربعة فقهاء مثلاً ولا يوجد غير أربعة من أبنائه عندهم القابلية على أن يصبحوا فقهاء مجتهدين، فإنّ طلب هذا العلم وتحقيقه حينئذٍ ينحصر بهم ويُصبح واجباً متعيّناً عليهم، ومع أنّه واجب كفائي إذا قام به البعض سقط عن الآخرين لكن في مثل هذه الحالة إذا انحصر بهؤلاء فإنه يصبح واجباً عينياً عليهم فيأثمون بالتخلف عنه وعدم تحقيقه.

وهذا الأمر يسري حتى مع الصناعات وغيرها، ومع الزراعة وما إلى ذلك، فلو فرضنا أن عندنا مستشفيات تحتاج إلى عدد معيّن من الأطباء ليديروها وليعالجوا أبناء المجتمع من الأمراض التي يمكن أن تصيبه، فإنّ أبناء المجتمع لو طلب منهم ألف شخص علم الطب، فإنه يصبح واجباً كفائياً عليهم حيث إنّهم قد تقدموا إلى طلب هذه العلم بما يزيد على حاجة المجتمع من الأطباء، لكن لو أنّهم لم يتقدم منهم إلى طلب هذا العلم إلّا بمقدار ذلك العدد من الأطباء الضروري لمعالجة أبناء المجتمع في تلك المنطقة فإنه حينئذٍ ينحصر بهم ويصبحون هم الذين يحتاج إليهم المجتمع بعينه. فهنا يُصبح طلب علم الطب واجباً عينياً عليهم ومتعيناً بهم؛ لأنهم الوحيدون الذين يملكون القابلية على دراسة هذا العلم دون غيرهم، فهم الذين يحتاجهم البلد أو أبناء المجتمع.

وبما أنه من الواجب أن نسد حاجة المجتمع من هذه الناحية؛ فإن هذا الأمر يصبح واجباً متعيناً على هذه المجموعة التي يتحقق بها القدر الأدنى من عدد الأطباء الذين يمكن أن يشتغلوا بهذا العلم في معالجة أبناء المجتمع.

عبادة الحضر وعبادة السفر

إنّ الشارع المقدس يقسم العبادات باعتبار مكان تعلّقها ووجوبها إلى قسمين، هما:

القسم الأول: عبادات الحضر

وهي عبادات معروفة يمكن أن يمارسها الإنسان في بيته أو في بلده.

القسم الثاني: عبادات السفر

وهي عبادات كثيرة نذكر منها:

الأولى: الهجرة

فمن يهاجر فراراً بدينه من المجتمع الذي يعيش فيه؛ لأنه يصده عن ممارسة تلك العبادة، أو لأن السلطات تحول بينه وبين ممارسته شعائره وعباداته فإنه حيئنذٍ يعدّ ممارساً لعبادة مفروضة؛ لأنه يجب عليه أن يهاجر فاراً بدينه؛ كي يحفظ دينه، وكي يتمكن من ممارسة شعائره بشكل كامل دون أن يكون هنالك ضغط من غيره عليه يمنعه عن أداء هذه الشعائر، أو ممارسة هذه العبادات.

إننا نعرف أن الدين ليس مجرّد نظريات تعيش في أدمغة الناس أو في أفكارهم، بل إنه ممارسات عملية يقوم بها الإنسان على أصعدة حياته كافة؛ الشخصية منها، والاجتماعية، وغيرها.

وهذه الممارسات العملية يجب على الإنسان أن يؤديها بالشكل الأكمل والصحيح الذي فرضها الله تبارك وتعالى به كالصلاة والصوم والحج والعبادات المالية وغيرها. فكل هذه عبادات من الدين، وحينما تكون هناك مساحة من الحريّة يستطيع أن يمارس عبرها الإنسان أداء هذه العبادات والقيام بهذه الممارسات العبادية والطقوس الدينية، فإن هذه الحالة تعدّ نعمة من النعم على ذلك

الإنسان؛ لأنه يمارس ما يريد أن يمارسه بحرية دون خوف أو دون ضغط من المجتمع أو السلطات أو دون تخوف من أن يتعرض إلى الأذى أو إلى الضرر جراء ممارسة ذلك.

حدود الحرية في ممارسة العبادة

لكن يحسن بهذا الفرد المسلم الذي يمارس عباداته وطاعاته أن يحسن استغلال الحرية الممنوحة له والمتاحة، ولا يسيء استخدامها أو استعمالها؛ لأنّ حفظ النظام في كل بلد يعتبر من الأُمور المحبوبة إلى الله عزّ وجلّ، والمحبوبة إلى العقل والدين. فالإنسان المسلم أو المؤمن الذي يريد أن يمارس عباداته بحرية عليه أن يعي أنه في الوقت الذي يملك به حرية التعبير عن عقيدته وعباداته وممارساتها بشكل كامل عليه أن يحترم حرية الآخرين وألّا يسيء إليها وألّا يستغلها لإلحاق الأذى والضرر بالآخرين؛ فإنّ هذا ليس من خلق الإسلام وليس مما يرتضيه الإسلام أو الرسول الأكرم ﷺ.

ولتقريب المعنى نذكر هنا رواية هي أن أعرابيّاً قام إلى الصلاة خلف رسولنا الأكرم ﷺ، فقال: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً. فلما سلم رسول الله ﷺ قال للأعرابي: «**لقد حجّرت واسعاً**». يريد (صلوات الله عليه وعلى آله) رحمة الله تبارك وتعالى [1].

الشعارات المذهبية والإساءة إلى الآخرين

والواقع أنّه يوجد من هذا الأُنموذج الكثير في مجتمعاتنا حيث يحاول البعض

---

(١) صحيح البخاري ٧: ٧٧، سنن أبي داود ١: ٩٤ / ٣٨٠، ٢٠٢ / ٨٨٢، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ١: ٩٩ / ١٤٧، السنن الكبرى (النسائي) ٣: ١٤، مسند الشاميّين ٤: ١٧٤ / ٣٠٣٥، الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٣٢.

أن يرفع شعاراً معيّناً لكنه يشتم الآخرين من خلال ذلك الشعار، وهذا خلاف خلق الإسلام، والمفروض بالإنسان المسلم أن يكون سلوكه سلوكاً متحضّراً، وأن تكون تصرّفاته حضارية. وعليه فإنه حينما يرى أنّ أحد الشعارات التي يرفعها تسبب له نوعاً من الأذى، أو تُلحق الضرر والإهانة لغيره ولم يكن ذلك الشعار واجباً، فحينئذٍ عليه أن يعي أنه لا داعي إلى أن يرفعه أو يعلنه بين الناس؛ لأنه سوف تنقلب فائدته إلى ضرر، وسوف لن يؤدي النتيجة التي يراد له أن يؤديها: «**رحم الله امرأ جب الغيبة عن نفسه**»[1].

إنّ بعض الشعارات والعبارات التي تُرفع في بعض الأحيان، أو التي يتفوه بها تُعطي إيحاء مخطوءاً للآخرين، وتُلمح إلى شيء آخر غير الذي يظهر منها، ثم يعمد البعض إلى ترتيب آثار معينة على تلك الشعارات المرفوعة والعبارات المتفوه بها؛ مما يؤدّي إلى الإضرار بالآخرين، وإلحاق الأذى بهم. وهذا الشعار في حد ذاته غير واجب رفعه، ولا تلك العبارة واجب قولها وإعلانها، ففي مثل هذه الحالة ينبغي ألّا ترفع تلك الشعارات، وألّا يتفوه بأمثال تلك العبارات؛ لأنها تؤدي إلى ما لا يحمد عقباه.

ثم إنه ما زالت تلك الشعارات غير واجبة، فما الداعي حينئذٍ إلى الإصرار عليها مع ما فيها من ضرر محتمل، بل يقيني؟ إن على الإنسان في الواقع أن يأخذ بنظر الاعتبار كل ظروفه وظروف الآخرين التي يعيشون فيها قبل أن يقدم على فعل أي شيء، فالبعض يظن أن في مثل هذا التصرف بطولة ودفاعاً عن مبدئه ودينه مع أنه خلاف ذلك.

وعلى أية حال فإنه حينما تكون هناك مساحة للحرية يستطيع من خلالها

---

(١) كشف الخفاء ١: ٤٢٦ / ١٣٦٧.

الإنسان أن يمارس شعائر دينه وعباداته فبها ونعمت، أما إذا لم يكن كذلك ـ أي لم يكن يملك تلك المساحة من الحرية ليعبّر عن حريته في عباداته وممارستها، فلم يكن يستطيع أن يقوم بأي عمل ديني، أو أن يؤدي أي شعيرة إسلامية أو دينية كالصوم والصلاة والحج ـ فإنّه في هذه الحالة يتعيّن عليه أن يهاجر إلى حيث يمكن له أن يمارس تلك العبادات بشكل صحيح وكامل، ودون ضغط أو دون خوف أو تخوّف أو حذر.

الهجرة والجهاد

سألني أحد الإخوة فقال: إذا كان الأمر كذلك، فهل ننصح الإخوة الفلسطينيين بالسفر والهجرة من فلسطين؟ فقلت له: لا، نحن لا نتكلم عن البلد الذي يحكمه محتلّ يريد أن يقضي على معتقداته وعلى دينه، ففي مثل هذه الحال يجب على أبناء ذلك البلد أن يبقوا فيه لمقارعة ذلك المحتل والانتصار لدينهم، لكننا نتكلم عن البلد الذي يحكمه جماعة من أبنائه، ثمّ تعمد تلك الجماعة الحاكمة إلى منع الناس من أداء شعائرهم ومعتقداتهم وعباداتهم، ففي مثل هذه الحال تتعيّن الهجرة من ذلك البلد؛ لأنّ الأمر حينئذٍ يدور بين أمرين: إما أن يقيم الإنسان بوطنه ويفقد دينه ويترك ممارساته العبادية، أو أن يخرج من ذلك الوطن، ويحتفظ بدينه، ويمارس عباداته بشكل كامل دون أي مؤثر خارجي، أو دون خوف، أو رقابة من أحد.

وبطبيعة الحال ـ وهو أمر مقطوع به ـ أنّ الدين أهم من البلد؛ ولذا فإننا قلنا بوجوب السفر هنا، ووجوب الهجرة؛ حفاظاً على الدين وعلى ممارسته بشكل صحيح وكامل بعيداً عن التعسّف والقهر والقسر والإكراه على تركه.

الثانية: طلب العلم

كما أن الإنسان في بعض الأحيان قد يُضطر إلى طلب العلم خارج وطنه،

وحينما يلبّي نداء العلم هذا، ويهاجر من بلده قاصداً بلاداً أُخرى يطلب فيها علماً يكون غرضه منه وجه الله تعالى فإنّ سفره هذا يكون سفراً عبادياً؛ لأنـه خـرج امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى في طلب العلم وتحصيله. فمسألة التفقّه في الدين واجبة على من يتمكّن من أن يتفقّه فيه، فإن لم تكن في بلده مؤسسة علمية توفّر له ذلك العلم وتحصيله فإنّه سوف يضطر هنا إلى السفر والهجرة من أجل طـلب الدين والتفقّه فيه، أو العلوم الأُخرى. وهذا بُعد من الأبعاد الإسلامية التـي حثّ عليها؛ ولهذا فإننا قلنا: إنه من عبادات السفر.

فضيلة طلب العلم وأفضليّته على العبادة

والفترة التي يقضيها الإنسان بعيداً عن وطنه طلباً للعلم تعتبر فترة عبادية؛ لأنه سافر في عبادة الله وامتثالاً لأمره سبحانه وتعالى. يروى عن أبي أُمامة الباهلي أنه قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**». ثم قال: «**إن الله تعالى وملائكته وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلّون على معلّمي الناس الخير**»[١].

ذلك أن العابد إنما يعبد لنفسه، لكنّ العالم حينما يعلّم غيره فإنه يـعمل عـلى تهذيب الناس وتطوير المجتمع وإصلاحه وإصلاح دنياه وآخرته، فلا شك كان هو الأفضل. يقول الحديث الشريف: «**من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك اللّٰه به طريقاً إلىٰ الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به. وإنّه ليستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتىٰ الحوت في البحر، وفضل العالم**

---

(١) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٤ ـ ٢٤٥، رياض الصالحين: ٥٥٠ / ١٣٨٧، وانظر: بحار الأنوار ٦٧: ١٣٩، منية المريد: ١٠١، سنن الدارمي ١: ٨٨، المعجم الكبير ٨: ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر النجوم ليلة البدر، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء»[1].

فطالب العلم يطأ على أجنحة الملائكة لشرفه.

وفي مورد آخر من الأحاديث الشريفة أنهﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدين»[2].

شدّ الرحال لطلب العلم

وهناك عبادات كثيرة أُخرى ينصّ عليها الفقهاء كعبادات للسفر، لكن الذي يهمنا في المقام هو عبادة طلب العلم المشار إليه في آية المقام الكريمة، ففي عصر النبي الأكرمﷺ كان الناس يقصدونهﷺ لطلب العلم فيأتونهﷺ من كلّ صوب وفج قاصدين بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الوحي الشريف؛ لأخذ العلم منه باعتبار أن ما عند رسولنا الأكرمﷺ هو المنبع الرئيس والصافي الذي لم تشبه شائبة.

وهكذا فإن مسجد النبيﷺ كان عامراً بعبادة طلب العلم والتفقّه في الدين، فكان يجلس فيه الصحابة الخلّص من أصحاب المعرفة وأهل البيتعليهم السلام، وكان الناس يأتون ليسألوا النبيﷺ أو ليستفيدوا ويستمعوا من هؤلاء، وربما قطعوا آلاف الأميال من أجل مسألة يريدون أن يحصّلوا على الحكم الشرعي فيها، أو من أجل حفظ حديث واحد يرويه مصدر موثوق عن النبيﷺ أو من أجل سماعه من فم النبي الأكرمﷺ نفسه.

وخلاصة ما نريد قوله هنا هو أن طلب العلم أمر هامّ جداً بحيث إنّ المسلمين

---

(١) الجامع الصحيح (سنن الترمذيّ) ٥: ٤٨ ـ ٤٩ / ٢٦٨٢.

(٢) دعائم الإسلام ١: ٨١، النوادر: ١٥٧، عوالي اللآلي ١: ٨١ / ١، ١٩١ / ٢٧٨، ٤: ٧٩ / ٧٦، مسند أحمد ١: ٣٠٦، وغيرها كثير، سنن الدارمي ١: ٧٤، ٢: ٢٩٧.

في ذلك الوقت كانوا يقصدون النبيﷺ والمراكز العلمية ولو بعدت آلاف الأميال من أجل طلبه. وبمقارنة ذلك الوضع مع الواقع المعاصر الذي نعيشه فإننا نجد أنّ الإنسان في هذه الأيام قد أُزيلت أمامه جميع العقبات التي يمكن أن تعترض سبيله لطلب العلم، فمصادر العلم مبثوثة في كل مكان، ومنابعه موجودة في كل وسيلة من تلك الوسائل التي يستطيع بسهولة أن يصل إليها. فكل شيء متيسر له من كتب ووسائل حديثة أُخرى تستطيع إيصال المعلومة إليه بسرعة كبيرة، ومع كل هذا فإننا نجد أن هذا الإنسان ليس لديه إقبال على طلب العلم أو على الكتاب أبداً.

وهذا ببالغ الأسف ما جعلنا نصبح أُمّة غير واعية، أو أُمّة غير متقدمة أو متحضّرة من الناحية العلمية.. أُمّة لا تقرأ ولا تشتغل في طلب العلم. والحال أنه ينبغي علينا أن نثقّف أنفسنا، وأن نقرأ، وأن نتعلم؛ لأن القراءة تغذّي فكر الإنسان وعقله وحياته وروحه. فكما أن معدة الإنسان لا تستطيع أن تستغني عن الطعام والشراب فكذلك روح الإنسان وفكره لا يستطيعان أن يستغنيا عن الكتاب وعن المطالعة وطلب العلم وفق العمر العقلي للفرد.

وبهذا فيجب على الإنسان أن يقرأ في أي عمر كان بما يناسب عمره العقلي؛ ليوسّع مداركه؛ ذلك أن الكتاب وسيلة معرفة وتغذية وتوسيع مدارك لا يمكن أن يُستغنى عنه بحال من الأحوال. وفي هذا المجال نستذكر قول أبي الطيّب المتنبي؛ حيث يقول:

أعزّ مكان في الدنا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتابُ[1]

---

(١) شرح ديوان المتنبّي ١: ٣٣٩، الصحيح المنبي عن حيثيّة المتنبّي ١: ٩٧، ١٠١، ١١٥، الوساطة بين المتنبّي وخصومه ١: ٤٥، زهر الآداب وثمر الألباب ١: ٥٨، العمدة في مجالس الشعر وآدابه ١: ٧٨، يتيمة الدهر ١: ٤٩، ٥٣.

فالواقع أن الكتاب رفيق رائع تأنس به الروح، ويلتذّ به العقل، وتسامره النفس، وعندما يأخذ الإنسان منه ما يأخذ ثم يقوم عنه فإنه يظل خير صديق؛ لأنه لا يستغيبه ولا يسبه ولا يقع في ذكره، بل إنّه محض علم ومعرفة. إننا أُمّة كانت أُمّة علم تقرأ وتعلّم وتستفيد مما تقرأ حتى وصلت في ذلك الزمان إلى القمة، لكنها في هذا الوقت ببالغ الأسف قد أصبحت أُمّة مستهلكة، فقد تركت القراءة والتعلّم، وراحت تعيش عائلاً على الآخرين، وعلى علومهم وتطورهم، وعلى تصنيعهم.

لقد كان علماؤنا الأوائل يجاهدون المسائل العلمية العويصة مجاهدة حتى يتمكنوا من حلها، ومما يروى في هذا المجال أن أحد علمائنا في النجف الأشرف كان قد أشكلت عليه مسألة، ولما حاول حلها مرات عديدة عجز عن إيجاد حل لها، فيئس منها وتركها، وفي يوم من الأيام خرج إلى ظهر الكوفة فرأى دلواً يسحبه حيوان ليسقي الزرع، ورأى أثر الحبل على الصخرة واضحاً لكثرة حركته عليها ذهاباً واياباً، فقال في نفسه: إنّ هذا الحبل قد أثّر في الصخرة الصمّاء لكثرة وروده عليها، فهل يعقل أن يكون قلبي أقسى من هذه الصخرة حتى يعجز عن إيجاد حل لتلك المسألة بعد أن أُحاول أن أجد حلاًّ لها؟ وفعلاً رجع وبقي سهران تلك الليلة إلى أن وجد حلاًّ لها.

وكان بعض العلماء حينما يجد حلاً لمسألة عويصة قد أعيته يصرخ بأعلى صوته منادياً: أين أبناء الملوك عن هذه اللذة؟ أي أنّ أمر طلب العلم بالنسبة للإنسان غذاء روحي ولذة روحية عظيمة، وهما غذاء ولذة يظلّان خالدين أبداً دون أن يتماهيا أو يفنيا كما هو شأن غذاء البدن المادّي.

الحوزات العلميّة ودورها قديماً وحديثاً

إذن كان المسلمون في ذلك الزمان يأتون إلى مسجد النبي ﷺ لطلب العلم، أو

لفهم مسألة فقهية، أو لحفظ حديث عنه (صلوات الله عليه)، ثم أخذت المساجد بعد ذلك تلعب هذا الدور نفسه فيما بعد، فأصبحت مؤسسات عبادية ومؤسسات علمية على حد سواء، تتساوق فيها هاتان العبادتان؛ فكان الداخل إلى المسجد يجد المصلي ويجد قارئ القرآن، ويجد حلقة العلم التي يتباحث أصحابها في علوم الفقه أو التفسير أو الحديث أو ما إلى ذلك. فقبل أن تُنشأ الجامعات، وقبل أن تبنى كانت جامعاتنا هي المساجد، وكانت مساجدنا هي الجامعات، فكانت المساجد الإسلامية كمسجد النبيﷺ، ومسجد الكوفة، ومساجد بغداد والقاهرة والمغرب والبلاد الإسلامية الأُخرى تلعب دوراً تاريخياً وكبيراً في حياة المسلمين آنذاك من حيث طلب العلم ونشره بين الناس.

وخلاصة الأمر أن كل مسجد كان يمثّل حاضرة علمية، ومؤسسة تثقيفية وتعليمية، إضافة إلى كونه مؤسَّسة عبادية.

دعوة إلى إعادة بناء الحوزات

ولا نستغرب حينما نجد العلماء في تلك الفترة كانوا يدرّسون بالإضافة إلى العلوم الإسلامية علوم الطب والفلك والهندسة والطبيعة والاجتماع وما إلى ذلك؛ وكل ذلك حبّاً في طلب العلم، وهو الأمر الذي ينبئ عن ضرورة معرفة الإنسان بجميع أصناف العلوم وألوانها، وعدم الاقتصار على العلوم الفقهية أو علم الأُصول والتفسير والعقيدة وغيرها ممّا يدور في هذا الفلك من علوم. أما في وقتنا الحاضر فقد أصبحت حوزاتنا العلمية مختصة بالعلوم الدينية فقط، فتقوقعت على نفسها، واقتصرت على علوم تسد احتياجات الإنسان الروحية والعبادية، وتركت تلك العلوم التي تتناول حياة الإنسان والجانب البدني فيها، حتى التوسع في دراسات اللغة كالأدب والنحو والبلاغة قد تُرك أيضاً.

وهكذا أصبح الآن من يتخرّج في كل سنة من كلّ حوزة من حوزاتنا الشريفة ما يقارب المئة بالفقه والأُصول، لكن ما الذي يمكن أن نفعله بهذا العدد في التخصص في هذين المجالين؟ إننا بحاجة إلى توسيع الدراسات الحوزوية لتشمل الآداب والتاريخ وعلوم الاجتماع والفلسفة وما إلى ذلك، كما كانت في تلك الأزمنة.

فالحوزات حينما تركت تلك الدراسات وعادت لتتقوقع على دراسات علم الفقه والأُصول أوجدت فيها ثغرات كثيرة نحن بحاجة إلى أقلام واعية لتسد هذه الثغرات؛ فنحن بحاجة إلى قلم واعٍ يكتب التاريخ بوعي وإلمام ومعرفة، كما أننا بحاجة أيضاً إلى قلم واعٍ يكتب في علم الاجتماع وأقلام أُخرى واعية تكتب في الموارد العلمية الأُخرى؛ فهنالك علوم متنوّعة كثيرة نريد لها تخصّصات، ونريد أن نخرّج لها علماء يكتبون فيها وفق المنهج العلمي الأكاديمي الصحيح كعلوم البيئة وغيرها، والإسلام ثري جداً بمعلومات البيئة، وفي العلوم الزراعية، ونحن بحاجة إلى من يكتب فيها وهو يراعي الله تبارك وتعالى في كتاباته.

ونحن في الحقيقة لا نريد مهندساً زراعياً فقط، وإنما نريد مهندساً زراعياً مسلماً ملتزماً واعياً، أو مهندساً كيميائياً مسلماً ملتزماً واعياً، يعني أنهما يتقيدان بتعاليم الإسلام ويراعيان قوانين الإسلام ونظمه وهما يمارسان مجال تخصّصهما، فلا يتركان القيود الإسلاميّة أو الظروف التي ينبغي لحاظها من الجهة الشرعية أو القانون التشريعي الإسلامي فيما يزاولانه من مجال علمي تخصصي. وكذلك الحال مع بقية التخصصات الأُخرى، فنحن نريد معلّماً مسلماً واعياً ونريد طبيباً كذلك، ونريد عالماً كيميائياً وعالماً فيزيائياً كذلك؛ حتى نبقى ملتصقين بالإسلام قريبين منه ومن تشريعاته، ولا نبتعد عنه أبداً في كلّ حركاتنا أو سكناتنا.

لقد كانت حوزاتنا في ذلك الوقت غنية وثرية في متابعة تلك العلوم وتدريسها، فنحن نسمع مثلاً عن أبي بكر الرازي وابن سينا والكندي، وهؤلاء كانت عندهم تخصصات متنوعة، ولهذا فنحن نسأل الله تبارك وتعالى أن يعيد لنا تلك الحوزات بأمجادها التي كانت تُغني مختلف أبعاد فكرنا، وتسدّ جميع مشاكلنا والثغرات الموجودة في حياتنا، فتخرّج لنا أشخاصاً متخصّصين في جميع الأبعاد؛ كيلا نبقى عالة على المجتمعات الاُخرى التي ربما تكون متحضّرة ومتطوّرة من الناحية العلمية، لكنها فقيرة فقراً مدقعاً من الناحية الأخلاقية.

إذن فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ يحثّ المسلمين على أن ينفر منهم جماعة يتخصصون في طلب العلم، ويأتون إلى المراكز العلمية لطلبه وتعلّمه، وتعليمه والإفادة منه.

موقف السلف من المدرسة الإمامية

وببالغ الأسف نقول: إنّ هناك في تاريخنا تشنجات كثيرة ضد المدرسة الشيعية ومراكز العلم التي تنتمي إلى الطائفة الشيعية أو الجعفرية؛ فقد تعرّضت ولا تزال إلى ضغوط كبيرة لا حدود لها، وإلى حصار عجيب حاول بشتى الوسائل أن يقضي على ما فيها من فكر ومن علم ومن تفتّح. مع أنّ المفروض أنّها مدرسة تنتمي إلى فكر النبي ﷺ.. مدرسة تمثّل فكر الرسالة وفكر النبوة، كما أنها فكرٌ يمتد على مساحة واسعة من الرسالة الإسلامية ليشمل أبعادها كافّة. وحصار فكر النبي ﷺ أمر عجيب يثير شديد الاستغراب، والكثير من التساؤلات التي تحتاج إلى أجوبة حول هذا الموقف الذي يقفه هؤلاء من هذا الفكر الذي يعدّ امتداداً لفكر الرسالة الإسلامية كما ذكرنا.

إننا نجد من خلال تتبّعنا لتاريخنا أن كلّ نظرية تنتمي إلى مدرسة السماء

والحقّ.. مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وتتّصل بفكرهم، وتتماشى مع آرائهم وتتّسم بها، وتصطبغ بصبغتها فإنّهم يختمون عليها محاولين ألّا تخرج إلى الوجود، وألّا ترى النور أبدّاً. وهذا هو مدعاة العجب والاستغراب؛ لأنّ هذه القناة هي قناة صافية، تأخذ مدادها من الرسالة وبيت الرسالة، ومن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم نفسه مباشرة من غير واسطة.

وفي حقيقة الأمر فإنني أُسمي مثل هذه التصرفات سوء توفيق للأُمّة الإسلامية كلّها؛ لأنها قد حرمت من أخذ هذا المعين الطاهر من ذلك النبع الصافي الرائق غير الكدر، والذي لا تشوبه شائبة أبداً. فهنا ـ كما قرّرنا ـ مكمن الاستغراب وموضع التعجب؛ لأن هذا العدول إنما هو عدول عن النبع الصافي.. نبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتركه مع أنّه بعينه نبع الكتاب والسنّة، وهو النبع المأمون الذي لا يُخشى معه أو يُتخوف من أن يكون ما يأتي عبره قد أثّرت فيه أيدي المعتدين أو المدلّسين أو المزوّرين.

وهكذا فإننا نجد أن الإمام الصادق عليه السلام يقول وقد سئل عن الحديث يرسله ولا يسنده: «إذا حدثتكم بالحديث فلم أسنده، فسندي فيه: أبي عن جدي عن أبيه عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن جبرئيل عن الله تعالى»[1].

ولهذا فإننا نعتبر أئمتنا عليهم السلام هم نقلة العلم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهم حفظة الوحي، وهم خزّان علم الإسلام وقنواته.

رمتني بدائها وانسلّت

وإذا كان هناك عندنا بعض الآراء التي نذهب إليها والتي يشنّع علينا من أجلها

---

(١) كشف الغمة ٢: ٣٣٩.

أو يعتبرها بعض أهل السنّة مؤاخذة ضدّنا، فإننا نقول: إنّ مثل هذه الأُمور ليست عندنا فقط بل هي موجودة عندنا وعند الطرف المقابل. ومن هذه الأُمور أنّنا مثلاً نعتقد بأن الإمامعليه السلام ـ أي إمام ـ محدَّث، أي أن الملائكةعليهم السلام يحدّثونه. ومثل هذا الأمر يجب ألّا يكون مورد تشنيع علينا أو مؤاخذةً يظنها الطرف المقابل نقطة إيراد يمكن أن يساء إلينا عبرها؛ لأنّه في المقابل توجد عنده روايات تنصّ على حصول مثل هذا المعنى عند بعض صحابة الرسولصلى الله عليه وآله وسلم، فالمذاهب الأُخرى عندهم مثل هذا المذهب، أو مثل هذا الرأي، فيعتبرون عمران بن الحصين محدَّثاً، أي أنه كانت تحدثه الملائكة[1]، وعمر بن الخطاب[2] وعمر بن عبد العزيز[3] محدَّثين كذلك.

إذن فأيمتناعليهم السلام إنّما يحدّثون ويفتون ويعلّمون عن القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة، وضمن مجالهما وحدودهما دون أن يتعدوا تلك الحدود أو يعتدوها، وهكذا فإنهم إنّما يصدرون عنهما دون أن يحيدوا قيد شعرة عن كتاب الله تبارك وتعالى والسنّة الصحيحة لرسوله الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم، فلا يخرجون عنهما ولا يمرقون.

تساؤل مشروع

وبعد كل هذا لسنا ندري لماذا يُضرب مثل هذا الحصار على فكرهمعليهم السلام، وعلى مدرستهم وعلى متبنياتهم الكلامية أو العقيدية أو الفقهية أو الفكرية بشكل عام،

---

(١) سنن أبي داود ٢: ٢٢١ / ٣٨٦٥.

(٢) حتى قال فيه النبي الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم كما يروون عنه: «قد كان في الأُمم السابقة قبلكم محدّثون، فإن يكن في أمتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب». انظر: صحيح البخاري ٤: ١٤٩، صحيح مسلم ٧: ١١٥، مسند الحميدي ١: ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٣١٧.

(٣) تهذيب التهذيب ٧: ٤١٩ / ٧٩١.

إضافةً إلى المتبنيات الأخلاقية التي رسموها لأُمّة جدّهم ﷺ، وهي متبنيا ته ﷺ نفسه.

إنّ الذي أعتقده ـ وهو الحق والواقع الذي لا ينكره أحد على مر التاريخ الإسلامي ـ هو أن الفكر الإمامي منذ ولادته كان مسماراً في نعش العروش الظالمة أو الطاغية، فكان يكافح تلك العروش ويواجهها بجرأة وشجاعة منقطعي النظير.. شجاعة وجرأة لم يكونا معهودين أو مألوفين عند غيره من الأفكار التي كانت تمارس في الساحة الإسلامية.

واستمرت هذه المكافحة وهذا الوقوف بوجه هذه العروش الطاغية وأصحابها الظلمة منذ ولادة هذا الفكر مع ولادة الرسالة المحمدية (على صاحبها وآله أفضل الصلاة وأتمّ السلام والتحيّة) وإلى يومنا هذا، بل إنّهما يزدادان قوةً وجرأة يوماً بعد يوم مع استمرارهما في هذه الحياة ومعايشة الظروف التي وضعت هذا الفكر أمام عروش الطغاة والجبابرة، وأمام تحديات تلك الظروف ومواجهة قسوة أصحابها وإلّا فليس هنالك من سبب آخر معقول يبرّر كل هذا الوقوف وكل هذه الهجمات بوجه هذا الفكر سوى ما ذكرنا.

المبحث الثالث: ثمرة التفقّه في الدين

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ**﴾، وهذا يعطي معنى أن على هؤلاء الذين يُنتدبون أو يَنتدبون هم إلى طلب العلم، وبعد أن يتموا شوطهم في طلبه ورحلتهم في تحصيله، ويصبحوا من أهل الاختصاص وذوي الفن الممارسين له، ويعدون حينئذٍ فقهاء فإنّ عليهم أن يرجعوا إلى قومهم ـ أي إلى الناس ـ لينذروهم وليعلّموهم، وليفقّهوهم في أُمور دينهم. وهذا الأمر ضروري جداً، وواجب تحصيله وإيجاده؛

لأنّه إنّما يحدّد الهدف والغاية اللذين يسعى إليهما طالب هذه العلوم، ومن يُنفق وقته في سبيل تحصيلها.

أنموذجان ممّن فوّت ثمرة التفقّه في الدين

غير أن هناك من لم يحقّق هذه الثمرة المرادة للشارع المقدّس، وفوّت الفائدة المترتّبة عليها، ومن هؤلاء نذكر بعض النماذج، منها:

الأنموذج الأول: الزمخشري ومسألة الصلاة على الآل

إذن فعلى طلّاب العلم ومحصّليه أن يدعوا الناس إلى طريق الحق، وأن يبينوا لهم الشكل الصحيح للحياة، والوجه السليم لممارستها وممارسة الأُمور الحياتية لكل فرد وللمجتمع فيها. وهذا هو الغرض من طلب العلم كما ذكرنا، أي أنه حمل الناس على جادة الحق وطريق الصواب؛ ليختطوه في حياتهم منهجاً ووسيلة وطريقاً يوصلهم إلى غايتهم، وهي الحق، ومعرفة الحق، وعبادة الحق تبارك وتعالى.

هذا من الوجهة النظرية لهذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة، أما من الناحية التطبيقية والعملية فلنا أن نسأل ونقول: هل إنّ كل من درس الفقه، وشغل نفسه ووقته بتحصيله قد أدى واجبه، وأعطى هذه الوظيفة حقّها؟ ونقول ببالغ الأسف: إنّ الجواب هو النفي.

وأنا حينما أُقرّر أن الجواب بهذه الصورة لا أُريد أن أقول: إنه ليس هنالك على الإطلاق مَن أدّى هذه الوظيفة الشرعية على وجهها الأكمل والأتم، فالحمد لله أن عندنا عدداً كبيراً من العلماء ممّن قاموا بهذا الدور، وأدّوا وظيفتهم على الوجه الأكمل. لكن في مقابل هذا عندنا عدد آخر لم يقوموا بوظيفتهم على النحو المراد

منهم، بل إنهم لم يكتفوا بهذا، وإنما عمدوا إلى تسخير العلم لأهدافهم الرخيصة.

فالزمخشري مثلاً وهو عالم معتزلي ومفسِّر وذو فكر، وعنده قابلية كبيرة على الأداء، كما أنه ذو أفكار غنيّة؛ وبالتالي فهو رجل عالم وليس إنساناً عادياً أو مدعياً العلم، لكنه مع هذا لم ينفعه علمه حينما يصل إلى آل النبيﷺ، فهو مثلاً حينما يتناول مسألة الصلاة على النبيﷺ فإنه يقرّر أننا إذا أشركنا الآل مع النبيﷺ في الصلاة فلا بأس بذلك أما إذا أفردناهم، كأن نقول: في الحسين: (صلى الله عليه) فإن هذا لا يجوز.

يقول: «القياس جواز الصلاة على كل مؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ**﴾[2]، وقولهﷺ: «**اللهم صلِّ على آل أبي أوفى**». ولكن للعلماء تفصيلاً في ذلك، هو أنها إن كانت على سبيل التبع كقولك: «صلى الله على النبي وآله» فلا كلام فيها، وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد هو، فمكروه؛ لان ذلك صار شعاراً لذكر رسول اللهﷺ، ولأنه يؤدّي إلى الاتّهام بالرفض، وقال رسول اللهﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التهم**»...»[3].

---

(١) الأحزاب: ٤٣. (٢) التوبة: ١٠٣.

(٣) الكشّاف ٣: ٢٧٣. ولنا هنا مؤاخذة على كلامه نستفيدها من كلامه هو، وكما يقال: من فمك أدينك. فقوله: «إن كانت على سبيل التبع كقولك: «صلى الله على النبي وآله، فلا كلام فيها، وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد هو فمكروه»، مناقض بل منقوض بما استشهد به هو نفسه آية ورواية؛ لأنه ليس فيما استشهد به على صحّة الصلاة على غير رسولنا الأكرمﷺ ما يؤيّد كلامه؛ إذ ليس فيه ضميمة الصلاة على النبي الأكرمﷺ حتى يقال: إن هذا هو مراد الآيات الشريفة ومراد النبي الأكرمﷺ؛ لأنه لوكان مراداً لهما لذكراه، وإذ ليس فليس. إلا أن يقول بعدم صحة المراد هنا، وحينئذٍ ينقض بنفسه كلامه من أساسه.

مبرّرات الزمخشري لما يذهب إليه

لقد لاحظنا أن الزمخشري هنا يحاول أن يدعّم رأيه وأن يعزّز قوله هذا بذكر سببين يرتئي أنهما مسوّغان للذهاب إلى مثل هذا المذهب، أو للإفتاء بمثل هذه الفتوى، والقول بهذا الرأي بحقّ أهل البيت ﵈. أما السببان، فهما:

الأول: أنها بدعة

إن الزمخشري يرى أن هذه الصلاة بدعة في الدين، أي أنها صلاة لم يأمر بها النبي ﷺ، فيصرّح بأنها مكروهة، وكل بدعة ضلالة تؤدّي إلى النار؛ وعليه فإنه لا يجوز القول بهذا.

الثاني: أنها تجعل صاحبها موضع تهمة بالرفض

كما أنّ مثل هذه الصلاة على الآل من وجهة نظر الزمخشري تجعل من صاحبها موضع تهمة بالرفض، أي أنّ من يصلي على الحسين أو على أحد من آل البيت ﵈ سوف يتهم بالرفض، في حين أنّ النبي الأكرم ﷺ قال: من وضع نفسه موضع التهمة فلا يلومنّ من أساء به الظنّ.

إذن فهو يقرر بأن الصلاة هذه مدعاة للاتهام بالرفض، والاتهام بالرفض هنا وضع للنفس في موضع من مواضع التهمة؛ ولذا فإن على المسلم أن يترك هذا الأمر تحصيلاً لترك البدعة، وامتثالاً لأمر النبي ﷺ بعدم وضع النفس في موضع تهمة.

الرد على رأي الزمخشري

إنّ مثل هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن عالم؛ لأنّ الحسين ﵇ أو أي أحد من أهل بيت النبوة ﵈ لا يمكن أن يقال بحقه مثل هذا الكلام. ونقول في المقام: إن هذا الكلام يمكن الردّ عليه من وجهين:

الوجه الأول: في معنى الصلاة على الإنسان من الإنسان

ثم إنّ معنى الصلاة على الإنسان الدعاء له برفع المنزلة، فحينما نقول: «صلى الله عليه وآله»، نريد: رفع الله منزلته ومنزلة آله، أو اللهم ارفع منزلته ومنزلة آله.

إذن فما الضير في مثل هذا الدعاء؟ إنّ هؤلاء الذين يرفضون مثل هذا المعنى نجد عندهم ماهو أشد من ذلك وأكثر فيمن هو أقل من الحسين بدرجات لا تحصى، بل إنّ بينه وبين الحسين هو ما بين السماء والأرض، فنجدهم مثلاً يدعون لخلفاء بني عثمان بقولهم: اللهم احفظ لنا السلطان ابن السلطان، الخاقان ابن الخاقان، ظل الله الأعظم، دريئة الله في الأرض. وكل هذه الأدعية وهناك ماهو أكثر منها ليس فيه بأس عند هؤلاء، لكن حينما يتعلق الأمر في أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومنتهى العلم ومهبط الوحي والتنزيل، فإنه يصبح أمراً غير مقبول وغير مشروع.

إننا نجد عند هؤلاء أن الدعاء للخلفاء الظلمة لا بأس به، أما حينما يكون لسيّد شباب أهل الجنةعليه السلام، أو لغيره من أيمّة أهل البيتعليهم السلام، فإن الأمر يصبح عندهم موضع تهمة، ويمثّل الرفض. فهل هذا فكر محترم؟ إنّ هؤلاء إنّما يسخرون علمهم لأجل سلاطين الجور، ولجماعة من النواصب الذين يبغضون أهل البيتعليهم السلام.

الوجه الثاني: من هم آل محمد؟

ثم إنّ هؤلاء حينما يقررون بأنّ الصلاة التي هي بمعنى الدعاء هنا لرفع المنزلة حينما تكون لآل بيت محمدصلى الله عليه وآله وسلم تكون تهمة تضع صاحبها في موضعها، فإنّ لنا أن نسأل رداً عليهم: من هم آل بيت محمدصلى الله عليه وآله وسلم؟ إنّ آل بيت محمدصلى الله عليه وآله وسلم هم ملك للمسلمين كافة؛ فهم مثال يحتذى، وأُنموذج يُطلب لكل مسلم يقول: «لا إله إلّا الله محمد رسول الله». ثم إنّ الحسين عليه السلام هو حبيب قلوب كل المسلمين، وهو غير

محسوب على فئة خاصة من فئات المسلمين حتى يقال في حقه مثل هذا الكلام.

وخلاصة القول في المقام هي أنّ مثل هذه الفتاوى أو مثل هذه الكتابات إنّما هي في حقيقتها تسخير للعلم بهذا الأُسلوب الرخيص الذي تأنف منه الإنسانية ويأنف منه المنهج العلمي الذي ينبغي أن يُتّبع [١].

الأُنموذج الثاني: فقهاء السلطة العباسية والدولة الفاطمية

وكمثال آخر على ذلك نضرب ما حصل للخلفاء الفاطميين في مصر من مواقف وقفها ضدهم العباسيون ومن تابعهم من فقهاء السلطة الذين ساروا بركبهم، والذين باعوا علمهم وفكرهم لهم بثمن بخس طلباً لرضا السلطان أو لعطائه ونواله. فالفاطميون هم الذين بنوا القاهرة وأسسوا الأزهر الشريف، وهم الذين وقفوا ذلك الموقف الرائع في تعضيد الحضارة الإسلامية وتمتينها؛ حيث استقطبوا العلماء إليهم، وحاولوا جهد إمكانهم نشر العلم ودفع دفّته إلى الأمام. ومن يحب أن يطّلع على هذا الأمر فليرجع إلى ما كتبه عنهم المرحوم عباس محمود العقّاد الذي تناول تاريخهم ودولتهم في كتاباته، وهي كتابات في غاية الروعة، وفي غاية المنهجية والموضوعية؛ حيث إنّه تناول تاريخهم بمنهج علمي وموضوعي دون أن يكون تحت تأثير الأغراض الأُخرى، أو تأثير السلطات الذي كان وما زال يعتبر العامل الأول في تحريف التاريخ وتزويره.

على أية حال فهؤلاء الفاطميون مع ما لهم من مواقف في سبيل الإسلام وخدمة الإسلام نجد أنهم حينما اختلفوا مع الخلفاء العباسيين في بغداد، عمد العباسيون

---

(١) مع أنّ القرآن الكريم قد صرّح بشكل واضح وبيّن أن الله تبارك وتعالى يصلّي على المؤمنين، قال عزّ من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ البقرة: ١٥٧، وغيرها ممّا ذكر الزمخشري في طرحه.

إلى تسخير فقهاء السلطات من أجل محاربتهم، فأرسلوا خلف مجموعة منهم، وأحضروهم، وطلبوا منهم أن يفتوا بأن الفاطميين أُناس بعيدون عن الإسلام، وليسوا هم من الإسلام في شيء، ولا ينتمون بأي شكل من أشكال العلاقة إلى النبي ﷺ ولا صلة لهم به؛ فهم ليسوا من السادات، بل إنهم ليسوا من الإسلام في شيء؛ وبهذا فإنّ على الناس أن يخذلوهم ويتركوهم ولا يطيعوهم، بل إن عليهم أن يخلعوهم من الحكم ولا يناصروهم؛ لأنهم دخلاء على الدين، ولا صلة لهم به، أو بالنبي الأكرم ﷺ(١).

---

(١) وهذا ما صرّح به السيوطي وغيره، قال السيوطي في كتابه (تاريخ الخلفاء) في معرض كلامه عن السبب في عدم ذكره الفاطميّين ما نصّه: «منها أنهم غير قريشيين، وإنما سمتهم بالفاطميين جهلة العوام، وإلّا فجدّهم مجوسي. قال القاضي عبد الجبار البصري: اسم جد الخلفاء المصريين سعيد، وكان أبوه يهوديّاً حدّاداً نشابة. وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: القدّاح جد عبيد الله الذي يسمي علماء النسب، وسمّاهم جهلة الناس الفاطميين...ومنها: أن أكثرهم زنادقة خارجون عن الإسلام، ومنهم من أظهر سبّ الأنبياء، ومنهم من أباح الخمر، ومنهم من أمر بالسجود له، والخيّر منهم رافضي خبيث لئيم يأمر بسبّ الصحابة».
إلى آخر ما ورد فيه من نعوت شنيعة لا تليق بهذا الكتاب، كما أنها لا تليق بإنسان محترم أن يذكرها أو يتفوّه بها؛ لأن كتابنا هذا كتاب محترم نربأ به عن أن ينزل إلى هذا المستوى الذي أوصل إليه السيوطي كتابه؛ ففيه من السبّ والقدح ما لا يحسن ذكره هنا.
ومثل هذا يذكّرنا بمواقف بابوات روما وما كانوا يفعلونه بملوك أوروبّا حينما كان البابوات يحكمون أوروبّا والعالم المسيحي حكماً حقيقياً، فكانوا يعزلون أي ملك يعارض رغباتهم بحجّة أنه كافر ومارق عن العقيدة، وقد كان سلاح حرمان أي شخص من بركة الكنيسة، ومن بقعة في الجنة فعّالاً بيد المؤسسة الكنسية، وسيفاً مسلّطاً على رقاب الملوك والأُمراء، كما حصل مع هنري الرابع إمبراطور المانيا الذي ما إن اختلف مع البابا غريغوريوس حتّى حرمه البابا، وألّب عليه كلّ أُمراء المانيا، فاضطره الخوف من المؤامرات التي صارت تحاك ضدّه للفوز بكرسي الإمبراطورية من الأُمراء الطامعين إلى أن يخرج ساعياً إلى البابا على قدميه حتى روما؛ ليطلب مغفرته، ووقف على باب قصر البابا ثلاثة أيام في لباس الرهبان حافي القدمين حاسر الرأس، على الرغم من قساوة الطقس الذي كان مثلجاً شديد البرودة،

وفعلاً انصاع هؤلاء الذين باعوا أنفسهم وعلومهم والذين سخروا فكرهم لخدمة السلطات ولخدمة ما يدر عليهم ذلك من مال، فأصدروا فتوىً في ذلك الشأن تبيّن بأنّ هؤلاء الفاطميين هم غريبون عن الإسلام، وأنّه لا يجب اتّباعهم بل لابدّ من خلعهم. وراحوا يروّجون إلى أن هذا أمر واجب على كل المسلمين، وراح الشعراء وغيرهم ممن اشترت السلطات ذممهم وألسنتهم وأقلامهم يطبّلون لهذا الأمر ويعلنونه. ولم يقف موقفاً مشرّفاً معاضداً لهم ومناصراً سوى الشريف الرضي (طيب الله ثراه) حيث كان يقول:

ما مقامي على الهوان وعندي ... مقول صارم وأنف حميّ
أحمل الضيم في بلاد الأعادي ... وبمصر الخليفة العلويّ
وإباء محلّق بي عن الضيـ ... ـم كما طار طائر وحشيّ
من أبوه أبي ومن جده جدّ ... ي إذا ضامني البعيد القصيّ
لف عرقي بعرقه سيدا النا ... س جميعاً محمد وعليّ
إن ذلّي بذلك الجوّ عزّ ... وأوامي بذلك الصقع ريّ
قد يذلّ العزيز ما لم يشمّر ... لانطلاق وقد يضام الأبيّ [1]

وهكذا فإنّ الشريف الرضي ﷺ قد أظهر رأيه بصراحة، وأعرب عن اعتقاده فيهم، وهو موقف جريء وشجاع، يندر أن يقف مثله واقف، أو شخص آخر أمام

فأقر بخطئه وأعلن ندمه وتوبته بصوت عالٍ، حتى قبل البابا توبته، وأعاده الى كنف المسيحية مرة أُخرى، وإلى كرسي الحكم. وكما حصل أيضاً مع ملك انكلترا يوحنا الذي اختلف مع البابا فلم يكتفِ الأخير بحرمانه، بل شجع ملك فرنسا على غزو انكلترا، بمباركة منه، فاضطر الملك لأن يقرّ بخطيئته، ويطلب الغفران من البابا الذي صفح عنه بعد أن أظهر الملك من الذلّ العلني ما تعتبره الدولة الإنكليزية أكبر خزي لحق بالملكية البريطانية.

(١) الدرجات الرفيعة، ٤٦٩، عمدة الطالب: ٢٣٥، شرح نهج البلاغة ١: ٣٧ ـ ٣٨، الكامل في التاريخ ٨: ٢٤ ـ ٢٥.

عتوّ السلطات وجبروتها وطغيانها وظلمها وجورها، وأمام تعسّف الحكّام ومحاربتهم للأفكار الحرّة التي تحاول أن تنير الدنيا، وطريق الناس؛ لتوصلهم إلى ساحل الأمان وبرّ السلامة.

إذن فالأمر المهم الذي ينبغي تحصيله وتحقيقه هو أن العلم يجب ألّا يسخّر لمصالح خاصة أو لأهداف رخيصة ودنيئة، بل إنّ على الإنسان أن يرتفع بعلمه، وأن يسمو به، وأن يلحق به بعيداً فوق الرغبات والأهواء وقناعات السلطات وإراداتهم ورغباتهم، وألّا يسخّر العلم من أجل خدمة هؤلاء وخدمة مصالحهم، فيمسخ بذلك شخصيّته، ويمسخ العلم ووظيفته، ويجعله أمراً ليس ذا فائدة أو ليس ذا قيمة ترتجى منه، بل إنه يجعله عبارة عن مسخ منتن تزكم الأُنوف رائحته، وتأنف منه أنظار أصحاب المواقف الشريفة، وتشمئز من أن تشم تلك الرائحة.

الأنموذج الثالث: غياث بن إبراهيم وفتوى السبق بالريش

لقد كان غياث بن إبراهيم هذا ممن يألف بلاط المهدي العباسي، وممن يسخّر ما عنده من علم لمصالحه الخاصة، أو لإرضاء الخليفة العباسي، وكان المهدي يحب الطيور واللعب بها، فكان غياث هذا يحاول أن يُرضي هذا الخليفة العباسي بأن يوجد له مخرجاً شرعياً يصحّح له اهتمامه بالطيور، وأخذ الرهان على المسابقة لأيها يطير أسرع ولو كان ذلك على حساب الحقيقة أو ولو كان ذلك يقتضي الكذب على النبي الأكرم ﷺ.

إنّ في فقه المسلمين عامة ضرورة تعلّم السبق والرماية، يعني أنّ على المسلم أن يربي أبناءه على الفروسية وعلى الرمي وعلى المسابقة في الخيل أو في الرماية، بحيث يجوز أخذ الرهن على هاتين المسألتين لمن يفوز فيهما. وفي ذلك حثّ واضح وبيّن من الإسلام على تعلّم هاتين الصفتين لما لهما من دور واضح في

إعداد المقاتل المسلم وتدريبه على الحرب، حتى إذا ما دخل المسلمون في حرب كان أبناؤهم أو كانوا هم كمقاتلين على دراية بالرمي، وعلى دراية باستعمال الكر والفر، وطراد الخيل، وما إلى ذلك.

على أية حال فغياث هذا أراد أن يصحّح تصرف المهدي العباسي، فاعتمد على ما ورد في أحاديث المسلمين وفقههم من أنه قد وردت أحاديث تعبدتنا بضرورة تعلم السبق والرماية، فحاول أن يسخر مثل هذه الفتاوى وهذه الأحاديث مضيفاً إليها ما يصحّح تصرف المهدي، فكان يروي له قول النبي ﷺ: «**لا سبق إلّا في خف أو حافر أو نصل**»[1]. مضيفاً إليه عبارة: «أو ريش»، أي أنه أضاف تلك العبارة إلى الحديث الشريف. هكذا مع أنّ أصل الحديث ليس فيه إضافة كلمة ريش كما هو وارد في المدوّنات الحديثية والفقهية وغيرها، لكن غياثاً هذا أراد أن يرضي المهدي، وأن يصحح سلوكه حتى لو كان على حساب الحقّ والحقيقة، وعلى حساب المحافظة على قدسيّة رسولنا الأكرم ﷺ، وقدسيّة أحاديثه، حتى إنّ المهدي نفسه حينما خرج غياث هذا تبسّم وقال: لم يكن في الحديث كلمة «ريش»، لكنه أتىٰ بها ليرضيني[2].

فغياث هذا مع أنه كان يعرف أنّه إنّما زوّر في أحاديث رسول الله ﷺ، وأنّ هذا ليس فيه نصيب من الصحة، وأنه يستلزم غضب الله تبارك وتعالى وغضب رسوله الأكرم ﷺ، لكنه مع كل ذلك لم تردعه معرفته هذه عن مثل هذا التصرف. ومثل هذا يذكّرني بما يروى من أنه كان هناك شخص يكثر من حديث الزور والكذب على النبي ﷺ، والإضافة على أحاديثه ﷺ والدسّ فيها، فكان يقول:

---

(١) الكافي ٥: ٤٩ / ٦. مسند أحمد ٢: ٤٧٤.

(٢) تاريخ الخلفاء (السيوطي): ٢٧٥.

روي عن رسول الله ﷺ كذا وكذا، وهذه الرواية موجودة في المعجم الحديثي الفلاني. وكان الناس عندما يذهبون إلى المصدر الذي ذكره لا يجدون مثل هذه الروايات، فقال لهم أحدهم: إنك تكذب على رسول الله ﷺ، أفما سمعت قول النبي ﷺ: «**أيها الناس قد كثرت علي الكذابة، فمن كذب علي متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار**»[1]؟ فأجابه قائلاً: بلى، إنه ﷺ قال: «**من كذب عليّ**»، لكني لا أكذب عليه وإنما أكذب له.

فالخلاصة التي ينبغي أن نصل لها، وأن نصير إلى القول بها هي أن العلم أمر له قدسيته وكرامته، ويجب على الإنسان العالم العارف بحقيقة العلم ألّا يلوّث كرامة العلم وقدسيته بمثل هذه التصرفات التي لا تليق بالإنسان العالم؛ فالعلم جوهرة قد أتحف الله عزّ وجلّ بها العقول؛ ولهذا فإن على الإنسان ألّا يلوّث تلك الجوهرة، ولا يلوّث شرف العلم وكرامته بتصرفات لا تتناسب مع ما يريده العلم من منهجية وموضوعية.

موقف مواسٍ لأبي حنيفة

وفي مقابل هذه المواقف الدنيئة التي باعت العلم وانتفعت به نجد أن هناك مواقفَ عظيمة ومشرفة وقفها بعض العلماء بكلّ صلابة ورسوخ في الرأي، بحيث إنّهم لم يخضعوا لتهديد السلطات، أو لمحاولاتهم استدراجهم إلى فخاخهم عبر إغراقهم بالمال والهبات والعطايا، أو بالجاه والمراكز العلميّة أو الاجتماعية أو السياسيّة، وما إلى ذلك. فهؤلاء لم تؤثر عليهم كراسي

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٢١، الكافي ١: ٦٢ / ١، مسند أحمد ١: ٧٨، وغيرها كثير، سنن الدارمي ١: ٧٦.

الحكم، ولا مراكز السلطة أبداً.

ومن هؤلاء أبو حنيفة الذي وقف موقفاً شجاعاً مع محمد وإبراهيم ابني الحسن وأنصارهما، ونصرهما ونصر حركتهما، بل إنه أفتى بوجوب الجهاد معهما، حتى تحمل في سبيل ذلك ومن أجله ما أدّى به إلى أن يلاقي حتفه نتيجة تصرّف السلطات وتعاملها معه.

وهذا موقف يشكر عليه، ونحن نشكره له ولكلّ عالم وقف مثل هذا الموقف في سبيل الدفاع عن العلم، وفي سبيل الدفاع عن الحق، وهو يحترم علمه ويجلّه عن أن ينزل إلى مرتبة مداراة السلطة، ومرحلة مصانعتها ومسايستها، وعلى أن يكون أداة بيدها تسخّر به عقول الناس لصالحها على حساب مكانته وعلمه. إن أمثال هذه المواقف يرفع بها صاحبها مكانة علمه، ولم يحوّله إلى أداة من الأدوات الرخيصة التي ينتفع بها، أو يتستّر الحكّام بها على تصرفاتهم، بل إنّهم صدعوا بآرائهم معلنين إيّاها دون أن يخافوا من جور الجائرين، أو انتقام السلاطين الطغاة والظالمين.

المبحث الرابع: في حجية خبر الواحد

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، إن آية المقام المباركة بعد أن بيّنت بأنه يجب على بعض المسلمين أن يتفقّهوا ليرجعوا إلى قومهم ولينذروهم عقّبت على ذلك بقولها: ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي بعد أن يرجعوا إلى قومهم ويدعوهم إلى الصلاح، وإلى ضرورة اتّباع تعاليم الإسلام واتّباع أحكام الدين وقوانينه. لكن ما الذي يستفيده الفقهاء من قوله تعالى: ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾؟ إنهم يستفيدون من هذا المقطع الشريف حجية خبر الواحد؛ ذلك أن علماء الدراية يقسمون الخبر

إلى أقسام ومن جملة تقسيماته:

الأوّل: الخبر المتواتر

وهو الخبر الذي يرويه جماعة عن جماعة، وطبقة عن طبقة بحيث يتعذّر اجتماع هؤلاء في كل طبقة من هذه الطبقات على الكذب وتواطؤهم عليه. ومن الأحاديث المتواترة قوله ﷺ: «**إنّما الأعمال بالنيّات**»[1]. ثم إنّ عندنا أن التواتر ينقسم إلى قسمين:

أولاً: التواتر اللفظي.

ثانياً: التواتر المعنوي.

وهذا الحديث الشريف هو من الأحاديث المتواترة تواتراً معنوياً، حيث إنّه رواه في كل جيل وفي كل طبقة جماعة من الناس الثقات الذين يستحيل أن يتواطؤوا على الكذب في وضع هذا الحديث أو أن يتفقوا على وضعه. وهكذا فإننا حينما نرى مثل هذا فإننا نرى أن من المستحيل أن يجتمع كل هؤلاء أو كل تلك المجاميع على الكذب، بحيث إنّهم يضعون هذا الحديث؛ وبالتالي فإننا نحكم بصحة هذا الحديث عن طريق التواتر.

الثاني: الخبر المستفيض[2]

---

(١) تهذيب الأحكام ١: ٨٣ / ٢١٨، ٤: ١٨٦ / ٥١٨ ـ ٥١٩، صحيح البخاري ١: ٢.

(٢) قال الشهيد الأول: «ضبط كثير من الأصحاب الاستفاضة بما يتاخم العلم. وبعضهم بمحصل العلم. وهذه مأخوذة من الخبر المستفيض عند الأُصوليين، وهو المشهور بحيث يزيد نقلته عن ثلاثة». القواعد والفوائد ١: ٢٢١ / القاعدة ٥٦.

ونقل هذه العبارة بنصّها المقداد السيوري في نضد القواعد الفقهية: ٤٩٥.

وفي القاموس الفقهي (الدكتور سعدي أبو حبيب): ١١١ ـ ١١٢: «الخبر المستفيض عند المالكية: هو المحصّل للعلم؛ لصدوره ممّن لا يمكن تواطؤهم على باطل، لبلوغهم عدد التواتر، وهو المحصّل للعلم أو الظن وإن لم يبلغ الذين أخبروا به عدد التواتر. وعند الشافعية:

الثالث: الخبر المشهور [١]

الرابع: خبر الآحاد

وهو الخبر الذي لا يصل إلى حد التواتر وإن رواه جماعة من المسلمين الثقات، لكن العلماء مع ذلك يعتمدون عليه في استنباط الأحكام الشرعية، وفي الاستناد إليه كمدرك للفتاوى، شريطة أن يكون المخبر به عدلاً أو ثقةً ؛ لأن خبر الواحد مما يصحّ عند بعض المسلمين أن يكون مقيّداً لإطلاقات القرآن الكريم أو مخصصاً لعموماته أو مبيّناً لمجملاته، وما دام كذلك بحيث إننا نجعله مقدّماً من جهة العمل به على الآيات الكريمة فإنه لابدّ أن يكون خبراً صحيحاً أو موثوقاً أو حسناً حتى يمكن العمل به، أي لابدّ من أن يكون المخبر به عدلاً أو ثقة حتى يُطمأن إلى صحة صدوره عن النبي ﷺ أو عن المعصوم عليه السلام.

ومن هذا ما يروى من الخلاف الذي حصل بين الصحابة في زمن الخليفة أبي بكر، فهؤلاء اختلفوا واشتبه عليهم الأمر في أنه هل إن الجد يُعطى حصة الأب كاملة وهي الثلث، أم السدس، وكذلك الحال مع الجدة، وهل تُعطى حصة الأُمّ كاملة، أم لا؟ حيث تقول الرواية: جاءت الجدة أُمّ الأُم أو أُم الأب إلى أبي بكر، فقالت: إن ابن ابني أو إن ابن ابنتي مات، وقد أُخبرت أن لي في الكتاب حقّاً، فقال أبو بكر: ما أجد لك في الكتاب من حقّ، وما سمعت من رسول الله ﷺ قضى لك

هو الذي لم ينتهِ إلى التواتر، بل أفاد الأمن من التواطؤ على الكذب».
وقال علي أكبر غفاري: «الأظهر أن الخبر المستفيض من الأخبار الآحاد، وهو الذي صرّح به ثاني الشهيدين في البداية، وهو مقتضى مقابلة الأصحاب بينه وبين المتواتر في كتب الاستدلال تارة، وترقّيهم عنه إلى المتواتر أخرى. دراسات في علم الدراية: ٢٤.

(١) الخبر المشهور في ألسنة الفقهاء: المتلقّى بالقبول بحيث يغني عن ملاحظة سنده. الموسوعة الفقهية الميسرة (الشيخ محمد علي الأنصاري) ٣: ٢٨٤.

بشيء، وسأسأل الناس.

فلما صلى الظهر أقبل على الناس فقال: إن الجدة أتتني تسألني ميراثها من ابن ابنها، أو ابن ابنتها، وإني لم أجد لها في الكتاب شيئاً، ولم أسمع النبي ﷺ يقضي لها بشيء، فهل سمع أحد منكم من رسول الله ﷺ فيها شيئاً؟ فقام المغيرة بن شعبة فشهد أن رسول الله ﷺ قد أعطاها السدس. فقال أبو بكر: ومن سمع ذلك معك؟ قال: محمد بن مسلمة. فأعطاها السدس.

ثم جاءت الجدّة الأُخرى التي تخالفها إلى عمر، فقال: إن اجتمعتما فهو لكما، وأيتكما انفردت به فهو لها[1].

وهكذا فإنه بالرجوع إلى قول المغيرة، وتحكيم قوله، وجعله مبيّناً لمجمل القرآن الكريم، فإن البعض يذهب إلى أنه يجوز جعل خبر الواحد كذلك.

خبر الواحد ومسلّمة فدك

ومع أنّ تباني المسلمين عامة من المذاهب الإسلامية الأُخرى على أن خبر الواحد لا يخصص القرآن، إلّا إنني وجدت أنهم قد خصّصوه به في مطلب واحد، أي أنّهم طبّقوا هذه القاعدة (عدم تخصيص القرآن بخبر الواحد) في كل الموارد فلم تخصّص به آية واحدة إلّا في قضية فدك فإنهم أجمعوا على جواز تخصيص عمومات القرآن: بخبر الواحد. وهذا أمر مستغرب، ويثير علامات استفهام كثيرة؛ حيث إنّهم قد رفضوا توريث الزهراء (سلام الله عليها)، وإعطاءها حقّها من ميراث أبيها، مع تصريح القرآن الكريم بأن الابن يرث أباه، متذرّعين بما يُنسب إليه ﷺ من قول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث، ماتركناه صدقة»[2].

---

(١) الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٢٨٣ ـ ٢٨٤ / ٢١٨٢، المصنف (الصنعاني) ١٠: ٢٧٤ ـ ٢٧٥ / ١٩٠٨٣، وانظر المجموع شرح المهذّب ١٦: ٧٥.

(٢) انظر: المسترشد: ٥٠٧ / ١٧٠، بحار الأنوار ٢٩: ١٣٤، صحيح البخاري ٨: ٣، ٥، مسند

فهذا الحديث هو خبر واحد، لكنهم سوّغوا في مثل هذه الحالة اعتباره مخصصاً للقرآن وحاكماً عليه، بحيث إنّهم دفعوا حكماً شرعياً نص عليه القرآن بصريح القول وواضح العبارة، ورتّبوا عليه أثراً، فلم يعطوا الزهراء ميراثها من أبيها ﷺ. فالقرآن الكريم يصرّح بأن الإنسان عامة سواء كان نبيّاً أو غير نبي إذا ما مات فإن لأبنائه أن يرثوه.

إذن فالزهراء عليها السلام تستحق ميراثها كاملاً من رسول الله ﷺ وهي ترث كل ما تركه ﷺ؛ لأنها الوحيدة الباقية من أبنائه (صلوات الله عليه وعلى آله)، مع اختلاف في هذه المسألة بيننا وبين بعض أبناء المذاهب الإسلامية الذين يرون أنّ الفتاة إذا كانت واحدة ولم يكن معها وارث آخر فإنها تأخذ نصف الميراث والنصف الآخر يُعطى إلى عصبة الميّت[1]، أما نحن وبعض آخرون من أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرى، فلا نذهب إلى هذا، بل إننا نعطي الفتاة في مثل هذا الحال التركة كاملة؛ حيث إنها تأخذ نصفها بالفرض، والنصف الآخر بالرد[2]: و«**الأقربون أولى بالمعروف**»[3].

أحمد ١: ٤٧، ٤٨، ٦: ١٤٥، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٤: ٦٤ / ٦٣٠٨، وغيرها.

(١) بدائع الصنائع ٤: ١٦٣الإنصاف ٧: ٣١٤المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢: ١٤٢تفسير ابن كثير ١: ٦٠٧.

(٢) الخلاف ٤: ٦، الوسيلة: ٣٨٦، المغني ٦: ٤٥٣، الشرح الكبير ٦: ٥٣٨، ٧: ٢٠١، كشّاف القناع ٤: ٤٦٦، الإنصاف ٧: ٣٧٨.

(٣) لم نعثر عليه على أنه حديث، وفي العهود المحمدية: ٥٣٠ قوله: على قاعدة حديث: «الأقربون أولى بالمعروف»، وفي كشف الخفاء ١: ١٦١ / ٤٨٦ قوله: قال السخاوي: ما علمته بهذا اللفظ، ولكن قال النبي ﷺ لأبي طلحة: «أرى أن تجعلها في الأقربين». إلى أن قال: وفي (أسنى المطالب): اشتهر على الألسنة: «الأقربون أولى بالمعروف»، وليس بحديث، خلافاً لمن زعمه، لكن يشهد له قصّة أبي طلحة.

لأنه ليس هنالك من هو أقرب منها إلى الميّت حتى يُعطى إلى غيرها: ﴿وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾[1]، فليس هنالك من هو أولى بالرجل من ابنته، فيما لو لم يكن له ابن آخر غيرها.

وهذه المسألة دفعت بجماعة كثيرين إلى التحوّل إلى المذهب الجعفري؛ لأنه يعطي الفتاة حقّها كاملاً دون أن ينقصها منه شيئاً. فآيات القرآن الكريم واضحة في أن كل شخص سواء كان نبياً أو غير نبي فيما لو توفي فإن لوارثه أن يرثه، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾[2]، ويقول جلّ شأنه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾[3]، ويقول عزّ من قائل: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[4]، فكل هذه الآيات فيها عموم لجميع الناس، بحيث إنه لا يمكن أن يتخلّف عنها أحد نبياً كان أو غير نبي. فإذا ما مات أحد من الناس فإنّ لورثته أن يأخذوا تركته بعنوان أنّها ميراث شرعي لهم.

ثم إنّ لنا أن نسأل هنا فنقول: ما هو الفرق بين الأنبياء عليهم السلام، وبين غيرهم من سائر الناس حتى يُميّزوا بهذه الميزة الجائرة، فيُورّث أبناء هؤلاء، ويُحرم أبناؤهم عليهم السلام من الميراث؟

إن الوضع الطبيعي ينصّ على أنّهم كغيرهم من الناس فيما يعرض لهم من أُمور الدنيا، ومن طبيعة النفس البشرية، فإذا ماتوا ورّثوا ما يملكون إلى أبنائهم كغيرهم[5].

خلاصة الموقف

إن هذا يعني أن أبا بكر قد خصّص عموم القرآن بهذا الحديث، وهي الحالة

---

(١) الأنفال: ٧٥، الأحزاب: ٦.
(٢) النساء: ١١.
(٣) النمل: ١٦.
(٤) مريم: ٦.
(٥) قال عزّ من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ الكهف: ١١٠.

الوحيدة فقط كما ذكرنا التي خُصص فيها القرآن بخبر الواحد. وهنا قالت عليها السلام له: «**يابن أبي قحافة، أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟**»[1]. فقال لها: ما أصنع، وقد سمعت أباك صلى الله عليه وآله يقول: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث، ماتركناه صدقة**»؟ أي أنه خصّص عموم القرآن الكريم بهذه الرواية التي هي خبر آحاد، وهو تخصيص استعمل في هذا الموضع فقط[2].

---

(١) الاحتجاج ١: ١٣٨، تاريخ اليعقوبي ٢: ١٢٧، بلاغات النساء: ١٤.

(٢) قال الآلوسي في تفسيره في معرض الرد على كون حديث «لا نورث» ليس من الحديث الداخل في قسم خبر الآحاد، وإنما هو من الحديث المتواتر: «والجواب أن هذا الخبر قد رواه أيضا حذيفة بن اليمان والزبير بن العوام وأبو الدرداء وأبو هريرة والعباس وعلي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص. وقد أخرج البخاري عن مالك بن أوس بن الحدثان أن عمر بن الخطاب قال بمحضر من الصحابة فيهم علي والعباس وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا نورث، ما تركناه صدقة»؟ قالوا: اللهم نعم. ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله تعالى، هل تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال ذلك؟ قالا: «اللهم نعم». فالقول بأن الخبر لم يروِه إلّا أبو بكر لا يلتفت إليه. وفي كتب الشيعة ما يؤيده؛ فقد روى الكليني في (الكافي) عن أبي البختري عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء؛ وذلك أن الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورّثوا أحاديث، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ بحظّ وافر». [الكافي ١: ٣٢ / ٢]، وكلمة «إنما» مفيدة للحصر قطعاً باعتراف الشيعة؛ فيعلم أن الأنبياء لا يورثون غير العلم والأحاديث». تفسير الآلوسي ٤: ٢١٧ ـ ٢١٨، وقريب منه في ج ١٦: ٦٤.

ولنا جملة مؤاخذات على هذا الادّعاء، نذكر منها:

الأُولى: أن هذا الحديث لو كان متواتراً أو مستفيضاً فعلاً، للزم أن تعلم به السيّدة الزهراء عليها السلام، شأنها في ذلك شأن غيرها. واللازم منتفٍ، فالملزوم مثله.

الثانية: أن أمير المؤمنين عليه السلام لو كان يعلم ذلك من رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله، وأنه قد قاله، فكيف تسوّغ له تقواه ويجيز له ورعه أن يدع السيّدة الزهراء عليها السلام تطالب به، وهو باطل؟ إن هذا إلّا حثّ على الباطل، ودفع إليه، وابتعاد عن حكم الله تبارك وتعالى، تنزّه عليه السلام عنه. مع أن هذا يجري مع الزهراء عليها السلام تماماً؛ فهي عليها السلام لها الورع عينه، والتقوى نفسها، وهما يأبيان لها أن

تطالب بما هو ليس حقاً لها. وهكذا فنحن نأبى إلصاق هذه الفرية بهعليه السلام؛ لما تستلزمه من نسبة ولوج طريق الباطل إليهعليه السلام، فناصع سيرته المشرّفة في كتب القوم ترباً به عن مثل هذا.
الثالثة: أن خبر الواحد لا يعني ضرورة أنه يرويه شخص واحد، بل هو كل خبر لم يصل حد التواتر وإن رواه جماعة، أي أكثر من واحد. وهذا هو حال حديث المقام في إطار ما ادّعى الآلوسي له. قال الشرواني نقلاً عن بعضهم حول مناقشة رأيي البيهقي والشافعي: «قوله: فاندفع قول بعض الحنفية إلى آخره. فيه بحث؛ لأن مجرد روايته عن العدد المذكور من الصحابة لا يحقّق تواتره؛ لما استقرّ من أنه يعتبر فيه وجود عدد التواتر في سائر الطباق، فليتأمّل...» إلى أن قال: «لما عرف بالاستقراء أن خبر الواحد يرويه عن الصحابي الواحد عدد من التابعين أو غيرهم من الصدر الأول، بل الظاهر أن ما يبلغ نحو البيهقي عن هذا العدد من الصحابة مع تراخي زمنه عنهم يبلغ الشافعي عن عدد أكثر منهم لقربه من زمنهم ولجلالته المقررة في هذا العلم كغيره فتأمل. حواشي الشرواني ١٠: ٢٥١.
وقال الدسوقي: وقوله: وقبل خبر الواحد. إنما نصّ على الواحد؛ لأنه أقل من يتأتّى منه الإخبار، وإلّا فمثل الواحد الاثنان فما زاد، ولو بلغ المخبرون عدد التواتر كما في حاشية شيخنا. حاشية الدسوقي ١: ٤٧.
وقال السرخسي: فلو لم يكن خبر الواحد ملزماً لما اكتفى [يريد الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم] ببعث الواحد، وبعث علياً ومعاذاً (رضي الله تعالى عنهما) إلى اليمن. المبسوط ١٠: ١٦٢.
فأمير المؤمنينعليه السلام ومعاذ اثنان، لكنه حكم على قولهما بكونه خبر آحاد.
الرابعة: أن الحصر في قول الصادقعليه السلام في الحديث الذي أورده، وهو قولهعليه السلام: وإنما ورثوا أحاديث» لا يعني أنهمعليهم السلام لا يورّثون غير الأحاديث؛ لأن الحصر هنا إضافي، كما أن الكلام هنا في مقام بيان منزلة الأنبياءعليهم السلام؛ لأنهم هم وحدهم من يورّث العلم والنبوّة والتقوى والإيمان وغيرها من الفضائل دون غيرهم، وهذا واضح.
الخامسة: أن قوله: «وكلمة «إنما» مفيدة للحصر قطعاً باعتراف الشيعة» مردود، وسيأتي ردّه خلال مناقشة الإمام الخمينيقدس سره لهذا الحديث.
السادسة: أن هذه الرواية ضعيفة السند كما سيصرّح به الإمام الخمينيقدس سره عند مناقشته لها، وهو ما سنذكره لاحقاً.
السابعة: أن المذهب الجعفري كلّه قائم على مبدأ التوريث الحقيقي في الأموال وغيرها عند الناس جميعاً، ومنهم الأنبياءعليهم السلام، ولو لم يكن كذلك لما كان الخلاف على فدك جارياً حتى الآن، ولما شغلت هذه المسألة كل هذه المساحة الكبيرة من كتبهم الفقهية والتفسيرية

فقالت له فاطمة الزهراء عليها السلام: «ما كان أبي رسول الله صلى الله عليه وآله عن كتاب الله صادفاً».

فقال لها: يا ابنة رسول الله، والله ما خلق الله خلقا أحبّ إلي من رسول الله صلى الله عليه وآله

والعقيدية. وهذا بناء على ما عندهم من روايات وأحاديث عن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله، وعن أيمّة أهل البيت عليهم السلام. وعليه فليس من المعقول أن يكون هناك حديث خلاف ذلك، أو أن يكون مراد أحد أيمّتنا عليهم السلام خلافه، ولو وجد ما يوهم مثل هذا كما في حديث المقام ـ مع ضعفه كما سيأتي بيانه ـ وجب توجيهه الوجهة الصحيحة المرادة لهم عليهم السلام؛ فلكلامهم عليهم السلام سبعون وجهاً كما ورد عنهم (صلوات الله وسلامه على جدّهم وعليهم). انظر الكافي ٨: ١٠٠ / ٧٠، بصائر الدرجات ٣٤٨ / ب ٩، معاني الأخبار: ٢. وهذا ما سنلتمسه من خلال شرح علمين من أعلام المذهب هما:
الأول: المولى محمد صالح المازندراني، قال في شرحه على الكافي: «وذاك أن الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً»، هذا ينافي ظاهراً ما دلّ من الآيات والروايات على إيراثهم. والجواب: أن الأنبياء عليهم السلام لم يكن من شأنهم وعاداتهم جمع الأموال والأسباب كما هو شأن أبناء الدنيا، وهذا لا ينافي إيراثهم ما كان في أيديهم من الضروريات كالمساكن والمركوب والملبوس ونحوها. أو المراد أن الأنبياء من حيث إنهم أنبياء لم يورثوا ذلك، يعني أن إيراث النبوّة ومقتضاها ليس ذلك. شرح أصول الكافي ٢: ٢٦.
الثاني: الإمام الخميني رحمه الله في تقريرات السبحاني على بحثه، قال: ما رواه الكليني بسند ضعيف عن البختري قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء...». إن مقتضى حذف المتعلّق في قوله: «العلماء ورثة الأنبياء» كونهم وارثين عنهم في عامّة شؤونهم، ومنها الحكومة والقضاء إلّا ما دلّ الدليل على كونه من خصائصهم عليهم السلام، فلا يصح هذا الإخبار على النحو المفيد للعموم، إلّا إذا جعل لهم الولاية والقضاء قبل هذا الإخبار.
لا يقال: إن تذييل الروايتين [بشير رحمه الله إلى رواية أُخرى أوردها معها لاشتراكها معها في المضمون] بقوله: «ولكن ورثوا العلم»، وقوله: «إنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم»، قرينة على أن المراد من التوارث هو التوارث في العلم والحديث لا في كل الأُمور، فلا ينعقد الإطلاق للصدر مع الاحتفاف بما يصلح للقرينية.
لأنا نقول: إذ هو إنما يصلح لصرف الإطلاق لو كان الحصر حقيقيّاً لا إضافيّاً، وليس كذلك، فإن الحصر في الجملتين إضافي في مقابل الدرهم والدينار كما هو لائح منهما عند الإمعان. على أنه لا يصحّ الحمل على الحصر الحقيقي؛ لأنهم عليهم السلام لم يورّثوا العلم والحديث فقط، بل أورثوا أُموراً غيرهما من الزهد والتقوى، كما أورثوا الولاية والقضاء. تهذيب الأصول ٣: ١٥١ ـ ١٥٢.

أبيك، ولوددت أن السماء وقعت على الأرض يوم مات أبوك. والله لأن تفتقر عائشة أحبّ إلي من أن تفتقري، أتراني أُعطي الأحمر والأبيض حقّه وأظلمك حقك، وأنت بنت رسول الله ﷺ؟ إن هذا المال لم يكن للنبي ﷺ، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبي به الرجال، وينفقه في سبيل الله، فلمّا توفّي رسول الله ﷺ وليتُه كما كان يليه[1].

فرجعت (صلوات الله وسلامه عليها) تعثر بأذيال الخيبة، وتجرّ خيوط الألم؛ ذلك أنها عليها السلام لم تكن تتوقع بأن سوف تُقابل بهذا الموقف وسوف تجابه بهذه المجابهة وهي فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﷺ وحبيبته وبضعته التي يؤذيه ما يؤذيها.. الزهراء التي كما تقول الروايات كانت إذا دخلت إلى المسجد قام لها النبي ﷺ وأمسك بيدها وأجلسها إلى جانبه حينما كانت صغيرة. وكان ﷺ يُعبّر عنها عليها السلام بأنها ريحانته، وكان ﷺ يقبّل رأسها ويقول: «**أشمّ منها رائحة الجنّة**»[2].

وهكذا كانت حبيبة رسول الله ﷺ وابنته المقرّبة، حيث الجأها المسلمون إلى أن تطالب بحقّها، بل ببلغة لأطفالها من حقها دون أن يجاب طلبها، ودون أن تُعطى ما تريد.

وهكذا انتهت بها الدنيا عند هذا الحدّ حيث هُضمت حقوقها، ووُقف منها هذا الموقف الذي يبتعد جملة وتفصيلاً عن روح الإسلام وعن تطبيق وصايا القرآن ووصايا الرسول الأكرم ﷺ بذوي قرباه. فرجعت إلى بيتها وجعلت طريق رجوعها على قبر أبيها ﷺ، فجلست عنده، وراحت تشكو إليه ما عندها من آلام، فسكبت حزنها وألمها على ثرى ذلك الضريح الطاهر والتراب الذي ضمّ

---

(١) السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٤، الاحتجاج ١: ١٤١.
(٢) علل الشرائع ١: ١٨٣ / ١، بحار الأنوار ٤٣: ٥ / ٤.

وجه أبيهاﷺ وهو تراب لم يجفّ بعد.. التراب الذي ملك ذلك الحنان، وتلك الشفاه الطاهرة التي كانت تقبّل رأسها وتنطق بفضائلها وتوصي بها. وهكذا فإنهاعليها السلام جلست عنده، أرخت لعينيها العنان، وراحت تخاطب أباهاﷺ قائلة:

ماذا على من شمّ تربة أحمد ألّا يشمّ مدى الزمان غواليا

صُبّت عليّ مصائب لو أنها صُبّت على الأيّام صرن لياليا[1]

وهكذا سكبت ما عندها من هموم وآلام، ثم قامت وهي مهمومة والألم يعتصر قلبها، فذهبت وقصدت دارها، فوقع بصرها على أمير المؤمنينعليه السلام فراحت تخاطبه: «يابن أبي طالب، اشتملت مشيمة الجنين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل، فخانك ريش الأعزل. هذا ابن أبي قحافة قد ابتزّني نُحيلة أبي وبُليغة ابنيّ، والله لقد أجدّ في ظلامتي، ولقد أجهد في خصامي، وألفيته ألدّ في كلامي». فقال لها أمير المؤمنينعليه السلام: «لا ويل لك، بل الويل لشانئك، نهنهي من غربك، يا بنت الصفوة، وبقية النبوّة. فوالله، ما ونيت في ديني، ولا أخطأت مقدوري، فإن كنت ترزئين البلغة فرزقك مضمون، ولعيلتك مأمون، وما أُعد لك خير مما قطع عنك، فاحتسبي». فقالت: «حسبي الله ونعم الوكيل»[2].

وهكذا تركت أمير المؤمنين عليه السلام يقوم ويقعد، وفي هذه اللحظات انبعث صوت الأذان من المسجد حتى وصل المؤذن إلى قوله: «أشهد أن محمداً رسول الله».

---

(١) المغني (ابن قدامة) ٢: ٤١١، نظم درر السمطين: ١٨١، سبل الهدىٰ والرشاد ١٢: ٢٨٩، ٣٣٧، مغني المحتاج ١: ٣٥٦.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٦٨٣ ـ ٦٨٤ / ١٤٥٥، ولم يذكر قولهاعليها السلام: «وألفيته ألدّ في كلامي»، الاحتجاج ١: ١٤٥.

فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام: «فاطمة، أتسمعين هذا الصوت؟». قالت: «نعم». فقال عليه السلام: «إن وضعت يدي على قائم سيفي فسوف لن تسمعي هذا الصوت مرة ثانية، والله لأسالمن ما سلمت أُمور المسلمين»[1]. فقالت عليها السلام: «إنّي أعلم ذلك، فاصبر».

ثم التفتت إلى الحسنين عليهما السلام وقالت لهما: «تعلّقا بأبيكما». فكان أميرالمؤمنين عليه السلام إذا رجع إلى الدار نظر إليها فوجدها معصوبة الرأس حزينة مطأطئة، ودموعها جارية على خديها. ولهذا فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان غالباً ما يخرج من الدار حتى يبتعد عن هذا المنظر المؤلم الذي يعتصر قلبه وهو يرى الزهراء عليها السلام على تلك الحال الذي بقيت عليه حتى وافتها منيّتها، فخرجت من الدنيا وأمير المؤمنين عليه السلام خارج المنزل. يقول المؤرخون: عندما رجع عليه السلام إلى الدار قصد مكان الزهراء (سلام الله عليها) فوجده خالياً، فلم يهدأ له بال، وعرف أنها قد لحقت بربها الكريم، فوقف في وسط الدار والألم يعتصر قلبه:

إن قبرَ الحبيبِ دارٌ وداراً ... ليس فيها الحبيبُ قبرٌ كئيبُ

فراح يجول في تلك الدار، لا يهدأ له بال، ولا يقرّ له قرار؛ لما كان من وقع مصيبة الزهراء (سلام الله عليها) عليه:

صد وضاكت بعينه الوسيعه ... نادى يا رسول الله الوديعه

ردت ليك والمهله سريعه

* * *

(١) وردت هذه العبارة: «والله لأُسالمن ما سلمت أُمور المسلمين»، في نهج البلاغة / الكلام: ٧٤، ضمن كلام له عليه السلام يصف فيه حاله مع المسلمين.

يــا دار نــاغيني ونــاغيچ چانت بدور وتزهز عـليچ

والسا غراب البين ناعيچ

وأقول له: سيدي، إنّ مكان الزهراء ﵄ وهو خالٍ جعلك لا تهدأ ولا يقر لك قرار حتى الصباح، وهو مكان واحد فما حـالك لو رأيت ديـار آل مـحمد ﷺ عندما رجعت إليها بناتك من بعد واقعة الطف وهي بأجمعها خالية ليس فـيها إلّا الأرامل واليتامى:

بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا وخـلّفوا فـي سـويدا القـلب نـيرانـا

نـذر عـلي لئن عـادوا وإن رجـعوا لأمـلأن طـريقَ الطـفّ ريـحانا[1]

---

(١) شجرة طوبى ١: ٩١.

﴿٢٣٨﴾

اجتراح السيّئات ومضاعفاتها الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: القضاء والقدر ومسيرة الإنسان

تقول الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ وهذا المقطع الشريف منها يتناول جانبين مهمين هما في حقيقة الأمر يتعاملان مع طبيعة النفس البشرية وأهوائها وحالاتها، وهما:

الجانب الأول: تعليق الأخطاء على عاتق القضاء والقدر

فالإنسان قد اعتاد على أن يُلقي ما ينبغي إلقاؤه على عاتقه على عاتق القضاء والقدر، أي أنه إذا ما ارتكب إنسان ما سيئة أو خطيئة، فإنه حينئذٍ يقول: هذا ما كتبه الله علي، وهو أمر خارج عن إرادتي.

---

(١) يونس: ٢٧.

نفي نسبة الخطبة الشقشقية إلى أمير المؤمنين﵇

والغريب أنّ هذا المعنى الذي نحن بصدد الحديث فيه لم يكن على مستوى الناس العوامّ، بل إنّه ينسحب على أغلب طبقات الناس وأنواعهم وأصنافهم، بل حتى المفكّرين منهم ومن هذا أنّه حينما يتناول أحد هؤلاء الخطبة الشقشقية، وهي خطبة الإمام علي﵇ التي خطبها ليبيّن فيها مدى تضييع حقه، فإنّه ينفي نسبتها إلى الإمام علي﵇.

وهذا الشخص ليس إنساناً عادياً بل إنه إنسان عالم وهو صاحب الرد على محاضرات الخضر، وقد ألّف كتاباً قيّماً لكنه مع ذلك فيه هفوات غريبة عجيبة، ومنها هذه الهفوة التي ينفي فيها صحة نسبة الخطبة الشقشقية إلى الإمام علي﵇ متذرعاً بأنّها تصف الإمام﵇ بأنه متأذٍّ ممّن غصبه حقه، وهو الخلافة، ثم يقرر أن الخلافة التي غُصبت من الإمام﵇ والذي سبقه إليها خلفاء آخرون إنما كانت بقضاء الله وقدره، وإذا كانت كذلك، فليس من المعقول أنّ الإمام﵇ لا يقبل بقضاء الله وقدره أو يعترض عليه؛ لأنّ في هذه الخطبة اعتراضاً عليه، وبالتالي فإنه لا يجوز في حق الإمام﵇.

فهذه الخطبة تُظهر أنّ الإمام﵇ إنّما هو ساخط على قضاء الله وقدره، وعليه فلا يمكن أن تكون له.

تبعة تعليق الأخطاء على عاتق القدر

وبناء على هذا المذهب فإننا حينئذٍ لا ينبغي أن نحاسب كل مسيء على إساءته؛ فلا يُحاسب شارب الخمر على شربه إياها، ولا يحاسب القاتل على قتله النفس المحترمة، ولا يُحاسب كل عاصٍ؛ لأنهم إنّما فعلوا ذلك بقضاء من الله وقدر. فعلى هذا المقياس يجب أن نعلّق جميع أحكام الله تبارك وتعالى ولا نطبّقها، ولا

نشجب فعل العصاة أو المذنبين أو الخطاة، ولا أصحاب هذه الخطايا والذنوب؛ لأنهم حينئذٍ يكونون قد فعلوها بقضاء من الله وبقدر.

وهذا في الواقع تصور وفكر لا يمكن أن يقبله حتى الإنسان الضحل التفكير، لا على مستوى أصحاب العقول الكبيرة النيّرة، أو أصحاب الفكر.

هكذا فإن القرآن الكريم في هذه الآية يبيّن لنا بوضوح شديد أنّ الإنسان هو الذي يكتسب السيئة بإرادته، وهو الذي يتحمّل مسؤولية اكتسابها وتبعته؛ فبوسع الإنسان أن يذهب إلى المسجد ليصلي، أو أن يذهب إلى حانة ليشرب الخمر. صحيح أن الله تبارك وتعالى قد خلق الأُصول ـ أي أنه تعالى قد خلق القدرة على الحركة، فهي منه عزّ وجلّ، وخلق الأشياء التي يمكن أن يُصنع منها ما يُعصى به كشجرة العنب التي يمكن أن يصنع منها الخمر، أو ما إلى ذلك مما هو كثير في هذا الوجود ـ لكن الإنسان بطبيعته عبثي، بل إنّه عبثي بمحض اختياره، فالإرادة التي يمتلكها الإنسان دون تدخل من غيره هي التي توجّهه وتوجّه هذه الأُصول التي خلقها الله تبارك وتعالى لأنْ تستعمل فيما لا يرضيه، أو فيما يعصيه به.

فالإرادة هي التي توجهها، وبوسع الإنسان أن يعمل الحرام، وأن يعمل الحلال وفق هذه الإرادة التي منحه الله تبارك وتعالى إياها، والتي جعلها ملاك حسابه وعقابه، وإثابته ومناطهما. وعليه فإنه يجب ألّا نُحمّل القضاء والقدر تبعات أعمالنا؛ لأن ذلك يعني تعطيل الحياة كلها.

ونحن حينما نقول: إنّ القول بهذا والاعتقاد به يؤدي إلى تعطّل الحياة أو تعطيلها فلأنه حينما نحاول أن نغيّر واقعاً فاسداً فإنّه لا يمكن تغييره ولا يمكن مواجهته ولا يمكن وضعه في المسار الصحيح ما دام هو بقضاء من الله وقدر كما يذهب إليه أصحاب هذه الفرضية؛ وبالتالي تبطل الأديان وإرسال الرسل. بل أكثر

من هذا فإن علينا أن نشكر الله على أن ولّى على المسلمين الحجّاج؛ لأنه نعمة من نعم الله عزّ وجلّ وفق هذه النظرية.

لماذا استهدف فكر أهل البيت عليهم السلام؟

وهذا غير صحيح البتة لأنّ فيه جموداً وعدم انسيابية أو حركة، وهو خلاف ما عليه فكر أهل البيت عليهم السلام الذي يعتبر فكراً متحركاً، أي إنّ فيه ديناميكية كما يُقال، وهذا هو السبب الذي من أجله كان فكراً مستهدفاً مطارداً على مر التاريخ وعلى امتداد حركته، بل واستهداف أصحابه عليهم السلام ومن جاء من بعدهم ليكمّل لهم ذلك الخط. فهو لما فيه من هذه الجنبة الحركية القابلة للتطبع مع المجتمع، والتكيف مع الحياة وظروف تحركها وتطوّرها، ولأنه حاول دكّ عروش الطغاة ووقف بوجوههم وحاربهم، واتخذ منهم موقفاً صلباً لا تراجع فيه ولا تقهقر، فإنهم قد بذلوا كلّ ما بوسعهم من أجل محاربته والقضاء عليه؛ ولهذا فإنه لم يكن من السهل على الكثير من الناس قبوله.

إذن فالآية الكريمة حينما تقول: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ فإنها صريحة بأن الإنسان هو الذي يكتسب السيئات أو الخطيئات بإرادته وبتخطيطه وبتصميمه، وأنّه ليس هناك من تدخل للقضاء والقدر في ذلك، فالعبد هو الذي يفكّر ويخطّط ويصمم ثم يفعل؛ سواء كان فعلاً سيئاً أو فعلاً حسناً. فهذه هي النقطة المرادة من هذا المقطع الشريف، وهي بيان أن الله سبحانه وتعالى لا يجبر عبده على فعل السيئات أو لا يقدّر له ذلك، أو يقضيه، أو يحكم عليه به.

الجانب الثاني: أنّ السيئات كناية عن الفعل القبيح

فالآية الكريمة إذ تقول: ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ فإنّ في هذا التعبير كناية عن كل فعل قبيح غير مقبول وغير مرضي، فكل ما كان كذلك يقال له سيئة. ولتوضيح الأمر

أكثر نقول: إنّ أي إنسان حينما يُسأل: هل إن الكذب سيئة أم حسنة؟ فإنه سوف يبادر إلى القول بغير تردد أو تروٍّ أو تأنٍّ: إنّه سيئة. وهذا واضح؛ ذلك أن العقلاء قد اتفقوا على تسميته سيئة؛ لأنه صفة مذمومة تـدمّر العلاقات داخـل المـجتمع، وتقضي على الوحدة فيه، وتهدم التكاتف والتكافل بين أفراده. فهو من الصفات الرديئة التي لا يمكن لأي إنسان عاقل أن يقبل بها، وإذا كان كذلك فـهو سـيئة، وحينئذٍ فلا يحتاج إلى أن يسميه الله عزّ وجلّ بأنه سيئة.

صفات الأفعال ذاتية أم شرعية

إنّ هناك صراعاً فكرياً بين المدارس الفكرية الإسلامية أو المدارس الكلامية حول هوية هذه الأفعال، ويتحدّد بأنه هل إنّ لهذه الأفعال صـفات ذاتـية أم أنّ الشارع المقدس قد وصفها كذلك؟ وبتعبير آخر إنّ هذا الذي نسميه سيئة هل أصبح سيئة لأنه هو سيئة بنفسه وبطبعه، أم لأن الله تبارك وتعالى قد سماه سيئة عبر هذا التشريع؟ وهذا يعني أنه لو لم ينهَ الله تعالى عن شرب الخمرة فهل لنا أن نشربها، أم ليس لنا ذلك لأن خبثها أمر ذاتي وليس شرعياً؟

أما نحن ـ الطائفة الإمامية ـ فنقول: إنّ الذي يشرب الخمر إنّما يعمل على أن يُفقد نفسه وظيفة هذه الجوهرة التي منحه الله تبارك وتعالى إيـاها لتـوجهه فـي حياته، فإذا ما فقدها فإنه حينئذٍ يتحوّل إلى كيان ضـارّ يُسـبب الضـرر والأذى للآخرين، ويتحول بذلك عن صفته الإنسانية إلى الصفة الحيوانية أو البهيمية؛ لأنّ الإنسان قوامه العقل، والإنسان هو العقل، فإذا ذهب العقل ذهبت الجنبة الإنسانية منه، ولم يبقَ عنده إلّا الجنبة الحيوانية. ثم إنّ الخمرة فيها أضرار كثيرة للـجسم وللنفس وللعقل وللاقتصاد أيضاً.

وعلى العموم فإنّ هذا الكلام فيه بحث طويل سوف أتطرق إليه لاحقاً إن شاء

الله تعالى. وخلاصة ما أردنا قوله هنا هو أنّ هذه الأفعال لها حسن وقبح ذاتيّان، وليسا شرعيّين، أي أنها إذا كانت قبيحة، فلأنها قبيحة بنظر العقلاء قبل أن يقبّحها الشارع. فالعقلاء يؤمنون بأن الكذب أمر سيّئ وغير مبرر، حتى قبل أن يقرّر الله تبارك وتعالى أنّ الكذب حرام. وكذلك الخمر الذي يُفقد الإنسان عقله واتّزانه داخل المجتمع، ويهدم كيانه، ويفقده مكانته وهيبته منه، فإنه بنظر العقلاء أمر قبيح، قبل أن يحرمه الله تبارك وتعالى. وهذا يعني أن هذه الأفعال تتصف بتلك الصفات ذاتياً وليس شرعياً.

المبحث الثاني: قانون العدل

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا**﴾ إنّ هذا المقطع الشريف من الآية يمكن أن نسميه «قانون العدل»، أو أن نطلق عليه تلك التسمية، وقانون العقل يقول: إنّ العقاب يجب أن يكون بقدر الجريمة. وبإزاء هذا القانون هناك قانون آخر اسمه «قانون التكرّم»، وهو القانون الذي يشير إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾[1].

وهذا يعني أنّه على الإنسان ما أمكنه ألّا يجازي السيئة بمثلها. فهذه الآية الكريمة تُصنّف في «قانون الأخلاق»، أما آية المقام الكريمة فتُصنّف ضمن آيات «قانون الجزاء».

من مصاديق قانون التكرّم

إذن ليس هناك أي تعارض أو تقاطع بين هاتين الآيتين الكريمتين، ومن

---

(١) فصلت: ٣٤.

باب التمثيل والتوثيق سوف أنقل هنا مصداقين لتطبيق قانون الأخلاق في الإسلام، هما:

المصداق الأول: محمد بن زيد بن علي عليه السلام ومحمد بن هشام بن عبد الملك

إن من مصاديق قانون الأخلاق ما يروى من أن المنصور الدوانيقي حجّ سنة، وكان في مجلسه مرّة، فجاءه رجل وعرض عليه جواهر فاخرة، وقال له: أصلح الله الخليفة، إني رجل منقطع، وقد نفد مالي، ولم يبقَ لي سوى هذه الجواهر، وهممت أن أبيعها، لكني أبيت أن أبيعها إلّا لمن يقدّر قيمتها وثمنها، وهم الخلفاء والأُمراء، وقد جئتك بها إن كنت ترغب بشرائها.

والمعروف عن المنصور الدوانيقي أنه كان ذكياً وكان يعرف أنّ هذه الأحجار هي للعائلة الأُموية فقد كان رآها في خزانة هشام بن عبد الملك، وهذه الأحجار من مدّخرات البلاط الأُموي. وهنا راح يُعمل فكره ليتوصّل إلى الكيفية التي وصلت بها هذه الأحجار إلى هذا الرجل، وراح يفكر كيف يمكن أن يتوصّل إلى العلة التي وصلت إليه، أو كيف يمكن له أن يستفيده من هذا، أو أن يستدل به أو عن طريقه إلى هدف آخر؛ حيث إنّ السلطات في ذلك الوقت كانت تبحث عن محمد بن هشام بن عبد الملك، ولذا فإنه عرفه وقال في نفسه: هذا جوهر كان لهشام بن عبد الملك، وقد بلغني أنه عند محمد ابنه، ولم يبقَ منهم غيره.

فأراد المنصور أن ينتظر حتى يجتمع الناس في الكعبة، حيث قال للربيع: إذا كان الغد، وصليت بالناس في المسجد الحرام فأغلق الأبواب كلّها ووكّل بها ثقاتك، ثم افتح باباً واحداً وقف عليه ولا تخرج إلّا من تعرفه إما شخصياً، أو بشهود. ففعل الربيع ذلك، وكان ابن هشام في الكعبة، فعرف أنه هو المطلوب، فذعر وخاف، واضطرب أيما اضطراب، وتحير، وهنا أقبل محمد بن زيد بن علي

ابن الحسين عليه السلام، فرآه متحيّراً، وهو لا يعرفه، فقال له: يا هذا أراك متحيّراً، فمن أنت؟ قال: ولي الأمان؟ قال: ولك الأمان في ذمّتي حتى أُخلّصك. قال: أنا محمد ابن هشام بن عبد الملك، فمن أنت؟ قال: أنا محمد بن زيد بن علي. فقال: عند الله أحتسب نفسي إذن.

ذلك أن أباه كان قد قتل زيد بن علي، فكان يظنّ أن محمد بن زيد هذا سوف يسعى به ويقدمه للقتل؛ طلباً لثأر أبيه زيد بن علي عليه السلام، ولذا فإنه راح يردّد: وا لهفاه، لقد ذهب دمي هدراً.

وهنا طمأنه محمد بن زيد وقال: لا بأس عليك، فإنك لست بقاتل زيد، ولا في قتلك درك لثأره، الآن خلاصك أولى مني بتسليمك لهم، ولكني سأتّخذ بعض الإجراءات ضدّك في سبيل خلاصك من هذا المأزق فلا تعارضني بها، واعذرني في كلّ مكروه سوف أتناولك به، وقبيح أخاطبك به يكون فيه خلاصك؟ فقال: أنت وذاك.

فوضع رداءه على رأسه ووجهه، وأقبل يجرّه، فلما أقبل على الربيع، فلطمه لطمات وقال: يا أبا الفضل، إن الخبيث جمّال من أهل الكوفة، أكراني جماله ذاهباً وراجعاً، وقد هرب مني في هذا الوقت، وأكرى لغيري من بعض القوّاد الخراسانيين، ولي عليه بذلك بينة، فأعطني رجلين يحرسانه حتى يؤدي إليّ حقي. فأعطاه الربيع شرطيين، فمضيا معه، فلما بعد عن المسجد، قال له محمد بن زيد: يا خبيث تؤدّي إليّ حقي؟ فقال الأموي: نعم يابن رسول الله.

فقال للحارسين: انطلقا عنه. ثم أطلقه، فقبل الأموي رأسه، وقال: بأبي أنت وأمي، ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]، ثم أخرج جواهر ودفعها إليه، وقال:

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

أرجو أن تشرّفني بقبولها. قال: نحن أهل بيت لا نقبل على المعروف ثمناً، وقد تركت لك أعظم من هذا، وهو دم أبي زيد الذي قتله أبوك هشام، فانصرف ووارِ شخصك، حتى يرجع هذا الرجل؛ فإنه مجدّ في طلبك[1]:

وحسبكمُ هذا التفاوتُ بيننا وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ[2]

على أية حال فهذا هو قانون التكرّم، وإلّا فإنّ محمد بن زيد كان يمكنه أن يسلّمه للسلطات، عملاً بقانون ﴿**جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا**﴾، فهذا الرجل مطلوب إلى السلطة، ومحمد بن زيد هذا طالب؛ لأن له دماً على هذا وعلى آبائه، غير أنّ المسألة كانت أكبر من الحقد؛ لأنها كانت تتعلق بقانون التكرّم وبروح العفو. وهذه في واقع الأمر هي روح السماء التي يريد الله عزّ وجلّ أن نتخلق بها.

المصداق الثاني: التعامل الإلهي مع المخلوقين

إننا نقرأ في الدعاء الشريف: «**خيرك إلينا نازل، وشرنا إليك صاعد**»[3]؛ ذلك أنّنا كل يوم نبارز الله تبارك وتعالى بالمعصية، وهي مبارزة تصل إلى حد كفر نعم الله تبارك وتعالى علينا. وهذا يعني أننا لا نقابل البارئ جل وعلا بما يليق به أو يناسبه، بل إننا نقابله بالعصيان مع أننا نتقوّى على معصيته برزقه. ومع هذا فإننا نجد أن قانون التكرّم سارٍ هنا؛ حيث إنه تبارك وتعالى مع ما يصدر منّا من سيئات ومن معصية ومن ابتعاد عنه لا يبتعد عنّا ولا يقطع عنّا فيوضاته ولا رزقه ولا عطاءه؛ فقانون التكرم شيء وقانون الجزاء شيء آخر.

---

(١) عمدة الطالب ٢٩٨ ـ ٢٩٩، الشيعة في الميزان ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) البيت لابن الصيفي. شرح الأخبار ٣: ١٢٩، جواهر المطالب ٢: ٣١٤، شجرة طوبى ٢: ٣٠٤.

(٣) الصحيفة السجادية: ٢٢٠ / الدعاء: ١١٦، مصباح المتهجد: ٥٨٦.

وعليه فالآية الكريمة حينما تقول: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ فهي إنما تتحدث عن مجرى القانون الجزائي الذي ينص على أنّ من يرتكب جريمة من الناس فعليه أن يتحمل وزرها والعقوبة المترتبة عليها، كما أنّها تشير أيضاً إلى أن الجزاء يجب أن يكون من سنخ المخالفة ومن مماثلها. وإنما اشتُرط شرط المماثلة؛ لكيلا يخرج من يطبّق القانون الجزائي عن مجريات قانون العدل.

إني مخيّركم واحدة من ثلاث

وفي هذا إشارة إلى أنّ كثيراً من الناس كانوا لا يعملون بشرط المماثلة بين الجريمة والعقوبة، أو الجريمة والجزاء. بل إنهم كانوا إذا ما قُتل لهم أحد فإنهم لا يكتفون بقتل واحد من تلك القبيلة التي قتل أحد أفرادها ذلك الشخص منهم، أو لا يكتفون بقتل قاتله فقط، وإنما كانوا يعمدون إلى إحداث مجزرة أو معركة تزهق فيها الأنفس والأرواح، وتراق بها الدماء؛ لكي يأخذوا بثأر قتيلهم؛ ومن هذا ما يروى من أن أحد رؤساء بني تميم قُتل ابنه، فجاء إليه على العادة مجموعة من رؤساء العرب وشيوخ قبائلهم فدخلوا عليه ليدفعوا له الدية ويطلبوا الصلح، فقال: أنا أُخيّركم واحدةً من ثلاث: أن تعيدوا لي ولدي حيّاً. فقالوا: إن هذا غير ممكن. فقال: إذن عليكم أن تُنزلوا لي نجماً من السماء. فقالوا: وهذا غير ممكن كذلك ولا نقوى عليه. فقال: إذن أُبيدكم عن آخركم.

وهذا لون من التعطّش إلى الدماء والقتل الذريع، وإزهاق الأرواح والأنفس تأباه السماء؛ ولذا حاولت أن تضع حلاًّ وعلاجاً له عن طريق إجبار الناس على تطبيق قانون المماثلة أو قانون العدل، فتصرفاتهم كانت تنأى بعيداً عن قانون العدل، ولهذا فإنّ السماء عالجته بضرورة تطبيق قانون المثلية في الجزاء؛ حتى يتحقق العدل الذي تنشده السماء بين الناس.

قانون المماثلة وحالات التخلف القهري

إنّ هناك بعض الحالات التي يمكن أن نُرجعها إلى حالتين رئيستين يتخلف فيها قانون العدل والمماثلة، ولا يمكن تطبيقه، وذلك لظروف قهرية خارجة عن إرادة الإنسان، ولأسباب ليست ضمن مجال تطبيقه أو اختياره. وهي مؤشر إلى أنه حتى في عدم تطبيق قانون المثلية هنا فإنّه في مقام التطبيق لها ولقانون العدل. وهاتان الحالتان هما:

الحالة الأولى: احتمال أن تكون المقاصّة أكبر من الجريمة

وفي مثل هذه الحال لا يمكن اللجوء إلى القصاص؛ لأنه إن حدث وحصل أنّ القصاص سوف يؤدي إلى أمر أكبر من الجريمة، أو إلى حصول ضرر أكبر من الضرر الذي أحدثته الجريمة، فإننا هنا نكون قد ابتعدنا عن قانون المثلية والعدل. فقانون المثلية والعدل يقتضي أن يكون هناك بديل يُلجأ إليه في مثل هذه الحالات حتى لا نبتعد عنه. ومثال هذا ما لو أن شخصاً ضرب آخر على رأسه فشجّه في منطقة قرب أُذنه أو قرب النخاع، فإننا في مثل هذه الحالة لا يمكن أن نلجأ إلى قانون المماثلة والمقاصّة؛ ذلك أنّه في مثل هذه المواضع يمكن أن يحدث أو يحصل ضرر أكبر؛ فمعلوم أنّ هذه المواضع إذا ما ضُرب فيها الإنسان فإنّ من الممكن أن تؤدي به إلى الموت أو إلى فقدان العقل.

وعليه فإنّ المضروب الذي حصلت له شجّة في أُذنه ولم يحصل له شيء من هذا القبيل الذي ذكرناه من فقدان حياة أو فقدان عقل لا يمكن أن يضمن هو، ولا أن نضمن نحن أنه حينما يقتصّ من الجاني بأن يضربه في تلك المنطقة بأنّه سوف لن يؤدّي به إلى الموت أو إلى الجنون. وبما أنّ أحد هذين الأمرين محتمل فإن قانون المثلية يلغى هنا، ويُلجأ إلى القانون البديل وهو أخذ الأرش أو أخذ

الدية من القاتل وفق نوع الجريمة، ووفق ما أدّت إليه من إلحاق الضرر في جسم الإنسان أو في عضو من أعضائه كذلك وفق اختلاف آراء الفقهاء في مسألة الباب، وما يمكن أن يكون هو ذلك الحلّ البديل.

ففي مثل هذه الحالة لا يمكن أن يحصل قانون المثلية لسبب قهري خارج عن إرادة الإنسان، ولظرف قسري بعيد عن اختياره. وهذا السبب سبب عقلي أو شرعي؛ لأن الشارع المقدس يعتبره ويقرّه؛ فإننا لا يمكن أن نأخذ الجزاء بمثله من شخص يمكن أن يكون ذلك الجزاء أكبر من الجريمة فيما لو أدّى إلى ما ذكرنا من الموت أو الجنون.

الحالة الثانية: فيما لو كان المجني عليه أمّة بكاملها

وفي مثل هذه الحالة أيضاً ـ وهي حالة قسرية خارجة عن إرادة الإنسان ـ لا يمكن أن نطبّق قانون المماثلة إلّا من حيث أخذ القصاص، وهو ﴿**النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**﴾[1] كما في حالة القتل. ولهذه الحالة مصاديق عدة نذكر منها:

المصداق الأول: أمير المؤمنين عليه السلام وابن ملجم

ومن ذلك قتْل عبد الرحمن بن ملجم الإمامَ أمير المؤمنين عليه السلام، فإنه في واقع الأمر لا يمكن أن يُعدل عبد الرحمن هذا بأمير المؤمنين عليه السلام، بل لا يمكن أن يُعدل الآلاف منه ومن أمثاله بذرّة واحدة من كيان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ذلك الكيان الذي ملأ الوجود ألقاً وشموخاً، وأنار الكون وأفعمه بالرحمة والعاطفة والعدل. غير أنّ القانون الإسلامي يقول: إن القصاص منه بقانون ﴿**النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**﴾. وعليه فلابد أن نقتل ابن ملجم دون سواه من متعلّقيه.

مع أنّه ربما يقول قائل: إننا حينما نقتل ابن ملجم بعلي بن أبي طالب عليه السلام فإننا لا

(١) المائدة: ٤٥.

نحقق المماثلة؛ ذلك أن هذا المجرم لم يكد يُعرف إلّا بقتله أمير المؤمنينعليه السلام هذه الشخصية العظيمة والكيان الضخم والهيكل الشامخ الذي أنار حيثيات الوجود كله، فكيف يمكن أن تتحقق المماثلة هنا؟

ونقول: صحيح أنّنا حينما نرجع إلى تاريخنا فإننا نجد أنّ مثل هذه المقاييس موجودةً عند الناس ومعمول بها؛ ولهذا فإننا نجد في هذا التاريخ أن علي بن أبي طالبعليه السلام يوصف بأنه صحابي والمغيرة بن شعبة يوصف بأنه صحابي، وكذلك نجد أن الإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام مدرسة علمية وفقهية، وكذلك يوصف في مقابله شخص كل ثروته العلمية أنه حفظ بضعة أحاديث عن النبيصلى الله عليه وآله، ثم مع ذلك يعطيه أيضاً صفة كونه مدرسةً فقهيةً لها وجودها الذي يضعه في موازاة مدرسة الإمام الصادقعليه السلام، لكن هذا الأمر واقع مفروض علينا، وبهذا فإنه ينبغي التعامل معه شئنا أم أبينا.

المصداق الثاني: المتنبّي وقاتله

وكذلك الحال مع المتنبي الذي يُعدّ قيثارة الدهر وثروةً من المعاني الضخمة التي لا نضوب لها، والذي لا زال حتى الآن ألقاً وأدباً وشعراً يملأ الزمان، لكنه قتله أعرابي لا يفقه مما حوله شيئاً، ولم يكد يُعرف إلّا بقتله المتنبي، فهل يعني هذا أننا حينما نقتل الأعرابي بالمتنبي نكون قد حققنا قانون العدل؟ يقول أحد أُدبائنا والحسرة تملؤه:

بلاءٌ ليس يشبهه بلاءُ	عداوة غير ذي حسب ودينِ
يبيحك منه عِرضاً لم يصنه	ويرتع منك في عِرض مصونِ[1]

---

(١) البيتان لعلي بن الجهم، الغدير ٣: ٣٠٢، طبقات الشعراء: ٣٩٢، الأغاني ١٢: ١٠٢، جمهرة الأمثال ٢: ٥٥.

المصداق الثالث: أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية

وكذلك الحال في مسألة سب الإمام علي عليه السلام، فنحن حينما نسب تلك النكرة التي شرعت سبّ أمير المؤمنين علي عليه السلام.. النكرة التي لم يكن لها من هم سوى علفها وتقمّمها[١]، فهل يعني هذا أننا نحقّق قانون العدل والمثليّة في هذا التطبيق ونحن نسبّه؟ يقول أحد الأدباء:

ألم تـرَ أن السـيفَ يـزري بـحدّه ... مقالةُ أن السيفَ أمضى من العصا[٢]

إذن فهذا القانون قد تخلف هنا أيضاً لعامل قهري خارج عن إرادة الإنسان واختياره، ولظرف ليس في مقدور الإنسان الالتفاف حوله، لكن تبقى قضية القصاص أو مسألته ـ وهي ﴿**النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**﴾ ـ مسألة شرعية قائمة لابدّ من تطبيقها؛ ولهذا فإننا قتلنا ابن ملجم بعلي بن أبي طالب عليه السلام مع شدة ما بينهما من تباعد؛ فابن ملجم نكرة لم يكد يعرفه التاريخ إلّا حينما قتل أمير المؤمنين عليه السلام، ذلك العلم الذي أغنى الوجود كلّه، وأفاض عليه من نوره ورحمته وعدله، ودافع عن الإسلام، ونذر نفسه رخيصة في سبيله وسبيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إذن فالقانون الإسلامي وهو قانون الشرع ينص على أنه «**لا يـجني الجـاني علىٰ أكثر من نفسه**»[٣]. وعليه فلابدّ من تطبيقه، فيقتل القاتل فقط وإن لم تتحقّق المثليّة فيه. وبناء على هذا فإنه يُقتل القاتل نفسه دون أن يُعدّى هذا الحكم إلى

---

(١) وخير دليل على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه ـ وقد دعا به ليكتب بأمره بين يديه، فدافع بأمره واعتلّ بطعامه ـ: «لا أشبع الله بطنه». فبقي لا يشبع ويقول: والله ما أُنزل الطعام شبعاً، ولكن أعيا. تاريخ الطبري ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣.

(٢) بيت من جملة أبيات استظهر البعض نسبتها إلى الإمام المهدي عليه السلام. انظر: بحار الأنوار ١٠٥: ١١٧، المناظرات في الإمامة: ٣٤٥.

(٣) تهذيب الأحكام ١٠: ٧١٢ / ١٨٢، الاستبصار ٤: ١٠٠٨ / ٢٦٧.

غيره من إخوانه أو أبناء عمومته أو أبناء عشيرته وإن لم تكن له مماثلة مع المجني عليه.

وبهذا فإننا نعرف أنّ القانون الإسلامي في مثل هذه الحالة يسعى إلى تحقيق أقل درجات العدل المطلوبة. وكما ذكرنا فإنّه كم من قاتل لا يعدل ذرةً من كيان المقتول، وكم من سابّ لا يقوم مقام التراب الذي يقف عليه ذلك الشخص الذي سبه، لكنه مع ذلك يبقى هو القانون الذي يطبّق أدنى درجات العدل المطلوبة كما ذكرنا. ولعل هذا هو السبب الذي أوقع الحسرة في قلب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام حيث يقول: «**أنزلني الدهر حتىٰ قيل: معاوية وعلي**»[1].

وعليه فالمثلية إنّما تتحقق في الأُمور التي تكون داخلة في نطاق القدرة الإنسانية، وكما هو معروف فإن الاستطاعة هي ملاك التكليف، أي أن الله تبارك وتعالى لا يكلّف نفساً إلّا وسعها، فلا يجوز أن تُقتل جماعة بواحد، بل إنّ الواحد يُقتل بواحد حتى يتحقق قانون العدل.

الحالة الثالثة: أن السيّد لا يقتل بالعبد

وهنا ربما يسأل سائل فيقول: إذن لماذا لا يُقتل السيد بعبده حيث إنّ عندكم في الشرع أنّ السيد إذا قتل عبداً له مملوكاً فإنّ الشرع يمنع من قتل هذا السيد بهذا العبد، فأليس هذا خلاف العدل؟

والجواب على هذا الاعتراض بما هو اعتراض يكون من جهتين:

الأولى: أنّ هذا الرأي ـ وهو أنّ السيّد لا يُقتل بعبده ـ ليس على إطلاقه؛ ذلك أنّ

---

(١) الإمام جعفر الصادقعليه السلام: ٤٥.

البعض من أبناء المذاهب الإسلامية يذهب إلى عموم قوله تعالى: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾، وبناء على هذا فإنه يذهب إلى جواز قتل السيد بالعبد[1].

الثانية: أخذ جنبة الفارق الأدبي بالاعتبار، فإنّه حتّى مع كون هذا المذهب المذكور في الحالة السابقة لا يصمد أمام النقد والدليل المخالف؛ فإنّ هنالك في المسألة فارقاً هو الفارق الأدبي، وهذا يعني إنّ ولاة أمر العبد إذا كانوا مستعدين لدفع باقي الديّة لأهل السيّد فإنّ لهم الحق في قتل السيد.

وهذا الفارق الأدبي يرتبط ارتباطاً وثيقاً ومباشراً بالبنية الإسلامية، ذلك أنّ الإسلام إنّما يعتبر هذا العبد عبداً حينما يخرج في جيش مقاتلاً لهذا الدين الجديد

---

(١) الأحكام (الإمام يحيى بن الحسين) ٢: ٢٩٣، المغني ٩: ٣٤٩، ٣٥٠، الشرح الكبير ٩: ٣٦٣، بداية المجتهد ٢: ٣٩١، حلية العلماء ٧: ٤٥١، المجموع شرح المهذّب ١٨: ٣٥٧، نيل الأوطار ٧: ١٥٨.

ونسبه المحقّق الحلي﵀ إلى التضعيف، مقيّداً إيّاه بما لو كان متعوّداً على القتل، معلّلاً إياه بأنه حسم للجرأة، أي قطع لاجترائه على القتل واعتياده إياه، قال: «ولا يقتل حر بعبد ولا أمة، وقيل: إن اعتاد قتل العبيد، قتل حسما للجرأة». شرائع الإسلام ٤: ٩٨٠.

وإليه ذهب السيد الخوئي﵀ حيث قال: «لو قتل المولى عبده متعمّداً، فإن كان غير معروف بالقتل، ضرب مئة ضربة شديدة، وحبس وأُخذت منه قيمته يتصدق بها، أو تدفع إلى بيت مال المسلمين، وإن كان متعوّداً على القتل قتل به. ولا فرق في ذلك بين العبد والأمة، كما أنه لا فرق بين القن والمدبّر والمكاتب؛ سواء أكان مشروطاً أم مطلقاً لم يؤدِّ من مال كتابته شيئاً». مباني تكملة المنهاج ٢: ٤٠ ـ ٤٢ / المسألة: ٤٥.

وربما يقال: ليس في هذا خرق لقانون العدل؛ للفارق الأدبي الذي سيذكره المحاضر في النقطة الثانية، وله شبيه في الشرع، قال المحقق الحلي: ولا يقتصّ للعبد من الحرّ، كما لا يقتص له في النفس، وللتساوي في السلامة، فلا تقطع اليد الصحيحة بالشلّاء ولو بذلها الجاني. شرائع الإسلام ٤: ١٠٠٧، وانظر: الخلاف ٥: ١٩٣ / المسألة: ٥٩، المهذّب (القاضي ابن البرّاج) ٢: ٤٨١، الوسيلة: ٤٤٦، تحرير الأحكام ٥: ٥٠٦، المجموع شرح المهذّب ١٨: ٤٠٩، ٤٣٣، ٢٦: ١٣١، المبسوط (السرخسي) ٢٦: ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، تحفة الفقهاء ٣: ١٠٤.

وهو الدين الإسلامي، فإذا خرج وقاتل المسلمين ثم ظفروا به وجاؤوا به أسيراً فإنه حينئذٍ يستعبد؛ لإجرامه ولوقوفه بوجه هذا الدين الجديد. فهذا الإنسان كأنّما الإجرام متأصل في نفسه، والعداوة مستوثقة فيها لهذا الدين الجديد. وحينما يستعبده الإسلام فإنه يُبقي عليه فترة كذلك، ثم يعتقه بعدة طُرق وضعها لمعالجة قضية الرق، وقد أشرنا إليها في بعض محاضراتنا ولا مجال لذكرها في المقام لعدم اتّساعه لمثلها.

إذن فهذا الشخص إنما هو إنسان منحرف، وحينما يكون منحرفاً فإنّ للإسلام أن يأخذه ويعاقبه على انحرافه وإجرامه، وأن يستعبده لمحاربته له، وأن يتعامل معه على أنّه دون مستوى المسلم لما تنطوي عليه نفسه مما ذكرنا. وهكذا فإن الجانب الأدبي يرتبط بالجنبة التربوية، وهو لا يعدو أن يكون طريقة تأديبية لهذا العبد.

الحالة الرابعة: مسألة الزنا

وكما ذكرنا فإنّ هذا القانون لا يمكن تطبيقه في جميع الحالات، بل إنّ هناك حالات لا يمكن إلّا العدول فيها عن تطبيق هذا القانون، ومنها ما لو أنّ رجلاً زنى بامرأة، فهل حينئذٍ يُجزى بالمثل، أي أن يُزنى بامرأته؟ إنّ هذا لا يجوز، فهذا قد انحرف وارتكب هذه الجريمة، فلا يمكن حينئذٍ تحقيق المثلية؛ لأنها تعني انحرافاً ثانياً، وارتكاب جريمة أُخرى.

إذن فالمثلية هنا متعذرة لأسباب كثيرة، وهنا كان لابد من الرجوع إلى البديل الذي وضعه الشارع المقدس في هذا المقام وهو مسألة الجلد أو الرجم وُفق ما إذا كان الزاني محصناً أو غير محصن.

رأي أبي يوسف فيمن تزوّج ممّن زنى بها

ومسألة الزنا شأنها شأن غيرها من الجرائم وإن كان فيها حقّ شخصي، لكنها تبقى من حقّ البارئ تبارك وتعالى وله فيها الحق الأول وهو الحق العام، ولذا فإنه لابدّ من إيقاع العقوبة على مرتكبها جزاء ما ارتكب، وتساوقاً مع قانون الحق العام. ومن الغريب أنّنا نجد عند بعض الفقهاء ومنهم أبو يوسف ما هو خلاف هذا؛ حيث يقول: لو أنّ شخصاً زنى بامرأة ثم عقد عليها، فإنّ هذا العقد سيمكنه من الانتفاع بمنافعها ومنها البضع، ذلك إنّ هذا العقد يورث شبهة وهي شبهة القدرة على الانتفاع بمنافعها فيسقط عنه الحدّ حينئذٍ[1].

مناقشة رأي أبي يوسف القاضي

وهنا نقول له: إنّ مثل هذا الكلام مردود من جهات، منها:

الأولى: أنّ أركان الجريمة قد وقعت قبل الزواج كاملة، وبناء على هذا فإنّ أيّ فتوى أُخرى خلاف ما هو مقرّر لمثل هذه الجريمة في الشرع يعتبر خلافاً لأوامر الشرع.

الثانية: أنّ في مثل هذه الفتوى هدراً للحق العام؛ لأنه كما هو معلوم فإنّ الشخص حينما يزني فهو يُخطئ خطأين: خطأ فردياً بحقّ المرأة التي اعتدى عليها، وخطأ عاماً، أو هو الحقّ العامّ؛ لأنه أخطأ بحقّ المجتمع كلّه، وبحقّ الإنسانيّة؛ لأن هذا العمل يهدّد المجموعة، ويهدّد الإنسانيّة، ويهدر كرامتها ووحدتها. فمعروف إنّ هذا الوباء هو وباء اجتماعي وأخلاقي ينتشر بسرعة بين

---

(١) قريب منه في البحر الرائق ٥: ١٣ ـ ٣٢، حيث قال: «قوله: «ومن زنى بأمة فقتلها لزمه الحدّ والقيمة»، معناه قتلها بفعل الزنا؛ لأنه جنى جنايتين، فيوفر على كل واحدة منهما حكمها. وعن أبي يوسف أنه لا يحدّ لأنه تقرر ضمان القيمة سبب لملك الأمة، وصار كما إذا اشتراها بعدما زنى بها وهو على هذا الخلاف».

المجتمع إذا ما تُرك دون عقوبة، كما إنّ له آثاراً تترتّب عليه سيما إذا ما تكوّنت ثمرة من ذلك الاعتداء، وهي ثمرة غير شرعية كما هو معروف لدى الجميع.

إذن فهذا العمل هو في حقيقته إفساد لأعراض الناس، وهو بالنتيجة يؤدي إلى فساد المجتمع وإلى سقوطه في هاوية الجريمة والبؤرة غير الأخلاقية.

رأي محمد بهجت في المتزوّجة تزني برضا زوجها

ولهذا فإننا نستغرب أن تصدر مثل هذه الفتوى من فقيه إسلامي كأبي يوسف، وكذلك من بعض الباحثين الإسلاميين في القرن العشرين كما فعل محمد بهجت حيث يقول: إنّ المرأة إذا كانت متزوجة وأقبلت على الزنا، فرضي زوجها بذلك وعاشرها بعد، فإنّها تسقط عنها العقوبة والحد، أي أنها إذا رضي عنها زوجها سقط عنها الحدّ قانوناً[1].

وهذا الكاتب يبحث فيما يعتبره مبادئ للفقه الجنائي الإسلامي، ولسنا ندري من أين جاء بمثل هذه النظريات الغريبة عن مذاق الإسلام ومذاق تشريعاته، والتي يعتبرها مبادئ له. إنّ الله عزّ وجلّ يبغض الديّوث، وهذا التصرّف من الرجل يوحي بأنه يتّصف بهذه الصفة الذميمة.

وعلى أية حال فإنّ تطبيق قانون المثلية أو العدل في القضايا الجنائية يكون متعذّراً في بعض الموارد ولهذا فإن قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ ليس على إطلاقه، بل هو قانون ذو استثناءات، ولا يمكن تطبيقه عندها.

المبحث الثالث: الأثر الوضعي لاقتراف السيئات

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، ووفق هذا المقطع الشريف

---

(١) مبادئ الفقه الإسلامي الجنائي: ٢١٦، ط ١٩٧٨ (منه ﷺ).

من آية المقام الكريمة نرى أنها تصف الشخص الذي يقترف السيئة بأنه يعيش ذليلاً ويظل كذلك.

وهذا في واقع الأمر هو الشأن الذي عليه بنو البشريّة بشكل عامّ، حيث إن أحدهم حينما يقارف المعصية فإنه يعيش لحظات الخزي والذلة وهو يرتكب الخطيئة أو الإثم، سيّما إذا كان إنساناً يمتلك روحاً إنسانية، ويمتلك حسّاً دينياً ووعياً ووازعاً أخلاقياً. أما إذا أُخذ على رؤوس الأشهاد بالجرم المشهود ثم أُقيم عليه الحدّ أمام أعينهم وتحت أنظارهم ـ أي أنه يُخضع للقانون الجنائي وتطبيقه، وإنزال الحدّ أو العقوبة به علناً، وهو خضوع لقانون الجزاء الإسلامي ـ فإنه دون شك سوف يشعر بتلك الذلة والإهانة والخزي حتى لو لم يكن يمتلك ذلك الحسّ الإسلامي أو الوازع الأخلاقي أو الضمير الذي يؤنّبه أو يعنّفه فيما إذا ارتكب جرماً ولم يكتشفه أحد، أو لم يفتضح أمره.

إن هذا الجاني حينما يُقبض عليه متلبّساً بجريمته، ويُراد أن يُقام عليه الحد، وأن تُطبّق عليه القوانين الجزائية الإسلامية فإنه وُفق نظرية التشريع الإسلامي يُؤتى به أمام المجتمع ويقام عليه الحدّ؛ كي يكون عبرة لغيره، وكي يتّعظ به الآخرون، وكيلا يحاولوا أن يعمدوا إلى فعل ما فعل؛ لأنهم حينئذٍ سوف يستشعرون أن هناك رقابة وقانوناً يحاصرانهم ويتابعانهم، ويعاقبانهم ويقتصّان منهم، ويفضحانهم أمام المجتمع فيما لو أنهم أقدموا على مثل هذه الخطيئة؛ فإذا كان الجاني قد جنى جناية الزنا، وهو مُحصن رُجم، وإن كان غير محصن جُلد.

ومثل هذا حتماً حينما يُقدّم إلى الجلد أو الرجم سوف يرهقه خوف وترهقه ذلّة. طبعاً كل ذلك يجب أن يكون مشروطاً باتّخاذ الطرق الشرعية والقانونية الإسلامية في عملية إنزال العقوبة به، أما إذا كان خلاف ذلك فإنّه ليس من الإسلام

في شيء؛ لأن الجريمة سوف تضيع هنا، كما لو أنّ هذا قد ارتكب جـريمته ثـم رُكنت قضيّته في الأرشيف لمدّة خمسة عشر عاماً أو أكثر من ذلك، فبهذا اللون من التعامل مع الجريمة سوف تضيع الحقوق وتذوب، وسوف تشعر المسألة حينئذٍ بأنّ مشاعر الناس وعواطفهم هي قيد الاستخفاف، ودون أن تُؤخذ بنظر الاعتبار في معالجة هذه الجريمة، ودون أن تُحترم أو تراعى.

إذن فالذلّة ترهق هذا الإنسان إذا ما أُقيم عليه الجزاء في ظرف قـريب مـن ظرف وقوع الجريمة.

الهدف من إيقاع العقوبة في نظر الفقه الجنائي الإسلامي

إنّ قانون الفقه الجنائي الإسلامي حينما يعمد إلى إيقاع العقوبة أو الحدّ عـلى مرتكب الجريمة فإنه إنما يلاحظ هدفين رئيسين في المقام، هما:

الأول: حماية المجتمع.

الثاني: ترويض هذا المـجرم وتأهـيله، وإعـادة إصـلاحه قـبل إرجـاعه إلى المجتمع مرة ثانية، وهذا فيما لو لم تكن العقوبة الإسلامية حيال الجـريمة هـي الموت. فهذا الذي يوقع عليه العقاب هو إنسان خارج عن القـانون وعـن إرادة السماء وعن إرادة المجتمع، وهو كيان يُشكّل نقطة انطلاقة خطرة على المـجتمع ككل، وعلى أفراده واحداً واحداً، كما أنه يُسبّب نقطة حرج للمجتمعات التي تريد أن تحيا بسلام بعيداً عن المشاكل وعن الجريمة. لكل هذا كان الواجب أن يُؤخذ بنظر الاعتبار أمر تأهيل هذا الإنسان المارق أو الخارج عن القانون قبل أن يُعاد إلى المجتمع؛ كي يعود وهو عنصر صالح وليس عنصراً طالحاً يمكن أن يُفسد مرة ثانية.

إذن هدف العقوبة في القانون الإسلامي هو الإصلاح وإعـادة بـناء شـخصية

المجرم، وإعادة تأهيله بما يتناسب مع أخلاقيات المجتمع الذي يجب أن يكون فيه، وليس هو هدف انتقام.

وببالغ الأسف نقول: إنّه في بعض البلاد الإسلامية حينما يُعمد إلى تطبيق العقوبة على الجاني فإنه لا يُنظر إليه على أنه إنسان قد ارتكب جناية أو جُنحة أو جريمة يجب أن يُعاقب عليها ليُؤدب أو ليُؤهّل، بل إنه يُنظر عليه على أنه إنسان مجرم يجب الانتقام منه.

والدليل على هذا أنه في كثير من الجرائم تتجاوز العقوبة الموقعة عليه حدّ العقاب الموضوع إزاء جريمته في القوانين التشريعيّة الإسلاميّة وهي تطبّق علىٰ ذلك الإنسان المجرم، في حين ظنّ الإسلام يأبى أن يتعدّى العقاب حدّه، أو أن يصل إلى غيره من أبناء عائلته أو أُسرته. فما ذنب الأب والأُمّ أو الإخوة أو أفراد القبيلة أو العشيرة حينما يرتكب أحد أبناء هذه الأُسرة جريمة ما حتى يؤخذوا هم بجريرته؟

وهكذا فإننا يجب أن نعرف بأنّ مجتمعاتنا إنّما تُسمى مجتمعات إسلامية من باب التسامح والتساهل في إطلاق التسمية، وإلّا فمجتمعاتنا وممارساتها شيء وما يريده الإسلام والسماء شيء آخر. إن علينا أن نعي بأن القرآن الكريم يريد أن يُنبّه الناس إلى ضرورة ألّا يكون هناك اعتداء على الضوابط التي هي في حقيقتها تأهيل للمجرم قبل إعادته إلى المجتمع كي يُحمى المجتمع منه ومن مغبّة تصرفاته، فيما لو لم يراعِ تلك الضوابط وذلك التأهيل.

المبحث الرابع: إذا سرق الشريف تركوه

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾، وهذا المقطع الشريف يشير إلى لونٍ من المفارقات الكثيرة التي يعيشها الإنسان سيما غير

الملتزم، وفيما يتعلق في المقام فإن المجرم إذا أجرم جريمة ما فإنه سوف يجد له عاصماً يحول دونه ودون تطبيق القانون عليه، أي أنه يجد من يحميه من أن يُطبّق عليه القانون غالباً.

أنموذجان من الانحراف في عدم تطبيق الحكم الشرعي

وسوف نذكر هنا ما يتّسع له المقام من أمثلة على هذا؛ فهو أمر موجود كثيراً في تاريخنا:

الأنموذج الأول: الوليد بن عقبة وعثمان بن عفّان

فالوليد بن عقبة مثلاً كان يرقى منبر الكوفة وهو منبر منطقة تُعدّ من أهم المناطق الإسلامية، ولأهميتها جُعلت بعد ذلك حاضرةً للدولة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عليه السلام. على أية حال يصعد الوليد هذا على منبر المسلمين وهو سكران، ثم ينزل فيصلي بالناس، وحدث أن صلّى بهم الصبح مرة أربعاً، ثم التفت إليهم، وقال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم.

وكان بدلاً من أن يقنت بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1] يقنت بقول الشاعر:

علق القلبُ الربابا بعدما شابت وشابا

ومن ثم يتقيّأ في محرابه، وحينما شوهد على هذه الحال أخذه أهل الكوفة، فشخصوا به إلى عثمان فأخبروه بخبره، وشهدوا عليه بشرب الخمر، فأتى به، فأمر رجلاً من المسلمين أن يضربه الحدّ، فلمّا دنا منه قال: نشدتك الله وقرابتي من أمير المؤمنين! فتركه، فخاف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أن يعطّل الحدّ، فقام

---

(١) البقرة: ٢٠١.

إليه ليحدّه بيده، فقال الوليد: نشدتك الله والقرابة. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أُسكت أبا وهب، فإنما هلك بنو إسرائيل لتعطيلهم الحدود». فلما ضربه وفرغ منه قال عليه السلام: «لتدعونّي قريش بعدها جلّاداً»[1].

فالوليد هذا بعد ارتكابه هذا الجرم لم يجرؤ أحد على إقامة الحدّ عليه لأنه أخو الخليفة سوى أمير المؤمنين عليه السلام.

الأنموذج الثاني: أبو جعفر المنصور وابن هرمة

وهذه الحادثة تذكرني بحادثة ثانية احتيل فيها من أجل عدم تطبيق الحكم الإلهي والحدّ الشرعي على ابن هرمة الشاعر؛ الذي كان شاعراً وصديقاً للمنصور، فقد وفد على المنصور فسأله: ألك حاجة؟ قال: نعم، حاجتي أن توعز إلى الوالي ألّا يلاحقني في الخمرة بأن يقيم عليّ الحدّ فيها؛ فإني لا أصبر عنها. فقال المنصور: لا أستطيع أن أفعل ذلك أمام الناس وأُعطل حدّاً من حدود اللّه، ولكن سوف أحتال لك.

ثم بعث المنصور إلى الوالي فقال له: إذا جاءك من يشهد أن ابن هرمة شرب الخمر، فاجلد ابن هرمة الحدّ ثمانين سوطاً، واجلد من شهد عليه مئة سوط. فراح ابن هرمة يسكر في الشارع ويصيح: من يشتري مئة بثمانين؟ فلم يتجرّأ عليه أحد[2].

وهكذا لم يعد يقترب منه أحد؛ لأنه لا يريد أن يُضرب مئة سوط إزاء ثمانين سوطاً يُضربها ابن هرمة. وهذا احتيال واضح وتلاعب بالأحكام الشرعية فاضح

(١) مسند أحمد ١: ٨٢، ١٤٠، مروج الذهب ٢: ٣٤٤ ـ ٣٤٦، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٣٠.
(٢) جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٣١١، تاريخ مدينة دمشق ٧: ٧٣.

عمد إليه أصحاب الحلّ والربط، ومن يدّعون أنهم قادة الأُمّة فـي ذلك الزمـان. وهذا خلاف ما كان عليه الإمام عليعليه السلام الذي لم يشأ أن تعطّل الحدود والأحكام الشرعية وإن كان من سيقام عليه الحدّ أخا الخليفة نفسه؛ ولذا فإنهعليه السلام عمد مبادراً إلى جلد الوليد بن عقبة، وهو يعلم أنه سوف يُبغض وسوف يُنعت بأشدّ النعوت، وهو قولهعليه السلام: «لتدعونّي قريش بعدها جلّاداً»، وكذلك نجدهعليه السلام يقول: «ما ترك لي الحقّ من صديق»[1].

موقف أمير المؤمنينعليه السلام من أخته أمّ هانئ

أمّا أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام فلم يكن يرعَ أحداً في سبيل الحق، فإذا ما تطلّب الأمر إقامة الحدّ الشرعي على شخص عمد إلى فعله دون أن يحسب حساب أحد، ودون أن يخشى من أحد، ودون أن يرقب أحداً وإن كان ذا قرابة منه. وهذا ما فعله مع أُخته أُم هانئ فاختة بنت أبي طـالبعليها السلام حـينما أجـارت أخوي زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وكانا ضمن من هرب عند الفتح، فدخلا بيت أُمّ هاني واستجارا بها، فأجارتهما.

فقصدعليه السلام نحو دارها مقنّعاً بالحديد، تقول فاختة: بينا أنا كذلك إذ نادى منادٍ: «أخرجوا من آويتم». قالت: فجعلوا يذرقون ـ والله ـ كما تذرق الحبارى خوفاً منه. فخرجت أم هانئ وهي لا تعرفه، فقالت: يا عبد الله، أنا أُمّ هانئ بنت عـم رسول الله، وأُخت علي بن أبي طالب، انصرف عن داري. فقال أمير المؤمنينعليه السلام: «أخرجوهم». فقالت: والله لأشكونك إلى رسـول اللـهصلى الله عليه وآله. فـنزععليه السلام المـغفر عن رأسه فعرفته، وقالت: إنهما حمواي اسـتجارا بـي. فـقال: «وتـجيرين عـلى

---

(١) لم نعثر عليه عنهعليه السلام إلّا في كتاب لقد شيعني الحسينعليه السلام: ٢٣٨.

رسول الله ﷺ؟».

ثم وضع يده على قائم سيفه، ودنا منهما، تقول أُم هانئ: فوضعت عليهما ثوباً، وقلت له: والله لا تصل إليهما. فخرج ولم يكَد، فقلت: لأشكونه إلىٰ رسول الله ﷺ. فجئت خباء النبي ﷺ، وهو في قبة يغتسل، وفاطمة ؏ تستره بثوب، فلما سمع رسول الله ﷺ كلامي قال: «**مرحباً بك يا أُم هانئ وأهلاً**». قلت: بأبي أنت وأمي، أشكو إليك ما لقيت من علي اليوم. ثم ذكرت له ﷺ ما جرى له معها، فقال رسول الله ﷺ: «**قد أجرت من أجرت**». فقالت فاطمة ؏: «**إنما جئت يا أُمّ هانئ تشتكين علياً في أنه أخاف أعداء الله وأعداء رسوله؟**». تقول أُمّ هاني: فكانت فاطمة ؏ أشدّ عليّ من زوجها، فقال رسول الله ﷺ: «**قد شكر الله لعلي سعيه، وأجرت من أجارت أُمّ هانئ؛ لمكانها من علي بن أبي طالب**»[1].

وهذان اللذان أجارتهما كانا من ضمن جماعة من المجرمين الذين ملؤوا تاريخ الإسلام دماً ولوعةً وحرباً وتشنيعاً على الإسلام ورسول الإسلام ﷺ، لكنهم حينما فتح الرسول ﷺ مكة تهاربوا منه يميناً وشمالاً، وهنا نجد روعة الإسلام ورحمة الإسلام الكريم ونبيّه العظيم حينما جاء منادي رسول الله ﷺ وهو ينادي: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن أغلق على نفسه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**». وعهد إلى أُمرائه ﷺ من المسلمين إذا دخلوا مكة ألّا يقاتلوا إلّا من قاتلهم إلّا نفراً سمّاهم، وكان أبو سفيان قد نهض بهذا الأمان إلى مكّة، ونادى به.

---

(١) الإرشاد ١: ١٣٧ ـ ١٣٨، مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٦، وانظر: الموطأ ١: ١٥٢، مسند أحمد ٦: ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٤٢٣، ٤٢٤، ٥٢٥، وفي بعضها أنها آوت ناساً من بني مخزوم، منهم الحارث بن هشام، وقيس بن السائب.

ثم بعد ذلك جاء رسول الله ﷺ، فدخل مكة وطاف بها، ثم خطب خطبة أسقط فيها كلّ دم ومأثرة، ونهى عن تعظيم الآباء والتفاخر بهم، وكان بعض صناديد قريش قد دخلوا الكعبة وهم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم، فقال ﷺ: «**ألا لبئس جيران النبي كنتم، لقد كذبتم وطردتم، ثم ما رضيتم حتى جئتموني في بلادي تقاتلونني! يا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم؟**». قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، ملكت فاصفح، وظفرت فاسجح. فقال ﷺ: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**». فأعتقهم ﷺ [1].

وهنا أقول له ﷺ: يا رسول الله، يا قلباً ينبض بالرحمة، يا نبي الله، يا من وسعت الدنيا عفواً ورحمة وعدلاً، يا من وسعت رحمتك حتى ألدّ أعدائك، ليتك ترى بيوت أهلك في العاشر من المحرم وهي تتناهبها النيران، وليتك ترى أهل بيتك وهم مصرّعون قتلى مع أصحابهم على رمضاء كربلاء، وليتك ترى أُسرتك وحرمك وظعينتك من بنات فاطمة حينما هجم عليهنّ الظالمون فتهاربن في الصحراء لا يلوين على شيء، وليتك ترى السياط وما الذي فعلته وأخذته من أكتاف الفاطميات وهي تتلوى عليها، وإن هي إلّا أكتاف بنات الرسالة، وليتك تسمع صوت الحقد المزمجر في قلوب هؤلاء وهم يحرقون بيوت النبوة وموضع الرسالة وهم ينادون: أحرقوا بيوت الظالمين.

وليتك ترى بنات الزهراء عليها السلام وهن يتراكضن من خيمة إلى خيمة ومن خباء إلى خباء، والنار تلاحقهن. أمّا حينما جنّ عليهنّ الليل وهنّ بالعراء فلا يمكن وصف

---

(١) جوامع الجامع ٣: ٨٦٦، شجرة طوبى ٢: ٣٠٢، الاستذكار (ابن عبد البر) ٥: ١٥١ ـ ١٥٢، تخريج الأحاديث والآثار ٤: ٣١٣، إعجاز القرآن: ١٣٢، تفسير البغوي ٤: ٥٤٠، التفسير الكبير ٣٢: ١٥٤.

حالهن، وما كنّ عليه من هم وغمّ، وهنا انحدرت أُمّ المصائب العقيلة زينب الكبرى إلى جسد أخيها أبي عبد الله عليه السلام وجلست عنده تمسح عنه الدم والتراب، وتسكب عنده آلامها وأحزانها:

لواني الدهر يابن أمّي سطرني ولا رحم حالي
على درب الحزن ذبني لا شلوة ولا والي
مهد ما بي طفل يصرخ وبيت من الزلم خالي

فلاذت بها بقية النساء واجتمعن حول ذلك الجسد الشريف الطاهر:

فواحدة تحنو عليه تضمّه وأُخرى عليه بالرداء تظلّلهْ
وأُخرى بفيض النحر تصبغ شعرها وأُخرى تفدّيه وأُخرى تقبّلهْ

فهرس العناوين الرئيسة



المحتويات